

الدكتور حسين مؤنس

فَجْرُ الْأَنْدَلُسِ

دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي
إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)



فَجَرُّ الْأَنْدَلُسِ

الناشر : دار الرشاد
العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٢٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٢٠٠٥ / ٨٠٢٦
الترقيم الدولى : 5 - 017 - 364 - 977
جمع وطبع وغلاف : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ١٠، ٧ ش السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٣٢٥١٠٤٣ - ٣٣٢٥٦٠٩٨
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٩٥٩ م
الطبعة الثانية : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م (الأولى للدار)
الطبعة الرابعة : ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م (الثانية للدار)
مراجعة وفهارس : عادل أبو المعاطى



تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعد ، فإن الحاجة ماسة إلى تاريخ عام للأندلس منذ الفتح الإسلامى إلى نهاية مملكة غرناطة ، مع دراسة لأحوال المسلمين الذين تخلفوا فيه بعد ذلك ، وما كان للأندلس الإسلامى المجيد من آثار باقية بعيدة المدى فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

وقد بدأت هذا الكتاب ، الذى أقدمه اليوم للقراء ، على نية أن أسدّ به هذا الفراغ ؛ ولكنى لم أكد أمضى فى الدراسة حتى تبينت أن الإيجاز الذى تتطلبه التواريخ العامة يخفى معظم جوانب الجمال فى تاريخ هذا الفردوس الإسلامى المفقود ، إذ إنه كان قطراً فريداً فى بابه فى دولة الإسلام : أهله مزاج من عناصر أوروبية وأخرى شرقية ، وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الشرق والغرب على نحو قلّ أن نجد له مثالا فى بلد آخر من بلاد الإسلام ، وتاريخه لهذا عميق عريض ، تنفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل والإعجاب .

وهذه الخصائص لا تستين إلا بالدرس المستأنى الصبور الذى يتعرض للمشاكل ويحاول حلها ، ويقف عند النواحي الغامضة ويجتهد فى أن يجليها ، ولا يستطرد عن العسير إلى اليسير ، ولا يقنع من التأريخ بالسر والالسترال . ولهذا فقد نزعنا عن التأريخ العام إلى الدراسة المفصلة لعصر واحد من عصور تاريخ الأندلس ، هو عصر الولاة من قبيل الفتح العربى إلى قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن بن معاوية الداخل .

وربما بدا للقارئ أننى ذهبت مع التفصيل إلى مداه ، حينما أنفقت قرابة السبعمئة

صفحة في دراسة تاريخ خمس وأربعين سنة ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هذه السنوات لا زالت في حاجة إلى مزيد من التفصيل ، وكل فصل من فصول هذا الكتاب حقيق بأن يُوقف عليه كتاب كامل ، ولدينا المادة التاريخية لذلك .

وقد تبينا من تجاربنا في دراسة تاريخنا الإسلامى أن السبب الأكبر فيما يشوبه من غموض ، وفيما يفضى بالكثير ممن تعرضوا للكتابة فيه إلى الزلل ، هو إهمال دراسة العصور الأولى ، وهى عصور قيام الدولة والمجتمع الإسلاميين وتكوّن العناصر التى قامت عليها الدولة واستقرار الأسس التى استقام عليها المجتمع ، سواء أكانت هذه العناصر بشرية أم تنظيمية ، سياسية وإدارية أم فكرية تتصل بالإنتاج العقلى والفنى .

وإذا لم تظفر هذه العصور بحقها من العناية ، وإذا لم تُدرس على الأصول التى ينبغى أن تقوم عليها الدراسات ، لم يُؤمّن الزلل فيما يكتب بعد ذلك من تواريخ العصور التى تليها ، وهذا ظاهر فيما بين أيدينا من كتب في تاريخ الإسلام العام أو تاريخ أقطاره : معظمها سرد واسترسال مع السهل الميسور من تسجيل الحوادث ، وسير مع تيار تاريخى لا يُعرف اتجاهه ولا مبتداه أو منتهاه .

ولهذا ، فقد رأيت فيما يتصل بتاريخ الأندلس أن أبدأ من حيث ينبغى أن يكون البدء ، وأن أنتفع بكل ما وصل إلّى من مادة تاريخية غزيرة ، وأن أتعرض للمشاكل وأحاول حلها على قدر ما تعين عليه المراجع والأصول . ويرى القارىء ذلك بصورة خاصة فيما كتبه عن عناصر السكان وأصول التنظيم الإدارى والمالى ، وقد اقتضانى ذلك أن أرجع بالأشياء إلى أصولها البعيدة الخافية في ليل الزمان الطويل ، وربما تتبعتها في تطورها عشرات السنين بعد العصر الذى يعينى في هذا الكتاب ؛ ولم يكن من ذلك مفر ، فإن ظواهر التاريخ لا تظفر من الأرض ، بل تنبع من أصول وتمضى في خطوط تحددها الظروف والأحداث . وقد وصلت فيما تعرضت له من مشاكل إلى حلول أرجو أن تعين العاملين على تاريخ الأندلس خاصة والإسلام عامة فيما يتولون من دراسات .

وعلى أساس من النتائج التى انتهت إليها فى هذا البحث ، أرجو أن أستطيع الوفاء
بما وعدت به من كتابة تاريخ عام للأندلس الإسلامى المجيد .

ولابد أن أوجه الشكر فى هذا التقديم اليسير إلى الصديقين الأستاذين : مصطفى
عبد المجيد صالح ، وحسن إيراني ، فقد تفضل الأول بالإشراف على الطبع ، وشاء
طموح الثانى - كناشر حريص على سمعة الكتاب العربى - أن يخرج الكتاب فى هذا
الثوب الجميل . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير الإسلام والعرب والمسلمين .

مدريد ، مارس ١٩٥٩

حسين مؤنس

الفصل الأول

إِسْبَانِيَا قُبَيْلُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِي

١- القسوط في أواخر القرن الرابع الميلادي ، استطاع القوط الغربيون بقيادة أأاريك الغربيون في أواخر أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من الدولة الرومانية ، ذلك أن أيامهم الامبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الامبراطورية معتمداً على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبريرين من الآلان والهون وبقايا الوندال ، فجعل يماثلهم على أهل البلاد الأصليين من الرومان ، حتى إذا توفي تيودوسيوس سنة ٣٩٥ كان أأاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية في وسط أوروبا وغربها جميعاً .

وكان امبراطور الجزء الغربي من الدولة الرومانية « هونوريوس بن تيودوسيوس » قد عهد في قيادة جيوشه إلى وندالي ماهر هو ستليخو ، وكان أأاريك يحسده وينازعه ويود لو حل محله ، وكان ستليخو يعرف أطباع أأاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن يدفع عن الدولة شره وشرهم ، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه في سنة ٤٠٨ ، وبهذا أزال من وجه أأاريك القوة الوحيدة التي كانت قمعته أن تحول بينه وبين إيطاليا لو أراد غزوها ، ولم يكذب أأاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب ، وخاف هونوريوس شره فغادر روما وتحصن في رافنا في شمالي إيطاليا ، وأخذ أأاريك يهاجم روما المرة بعد المرة وأهلها يدفعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالجنود مرة أخرى ، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الهزيمة ، فافتحم أأاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠ ، وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته ، فأخذ يخرب شمالي إيطاليا تخريباً سيئاً ، ولم ينقذ إيطاليا من مأساته إلا موته بعد ذلك بقليل^(١).

وخلفه في قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شرادم المتبريرين أطاؤولف ، فجري على منواله وأنزل بإيطاليا بلاء شديداً ، ثم اتجه بجموعه نحو غالة ، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السويف والوندال ، واضطرت الدولة آخر الأمر إلى مهادنة أطاؤولف وإقراره في الجزء الجنوبي من غالة في الإقليم المحيط بتولوز (طولوشة) سنة ٤١٦-٤١٨ م .

(١) FERDINAND LOT . La fin du monde Antique et le début du moyen-âge . (Paris, 1927) pp. 233-242 .

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة في إسبانيا في ذلك الحين قليلة العدد ، وكان مقامها في الزاوية الشمالية الشرقية جنوبى جبال البرت (التى تعرف خطأ بالبرانس) ، أما السويف والوندال فكانوا أكثر عدداً ، وكانوا قد استقروا في الركن الشمالى الغربى فيما يعرف بجليقية وأشتورياس (أو أشتريس) ، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالاستقرار في هذه النواحي في سنة ٤١١ ، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد ، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط ورؤّعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبى غالة بغاراتهم . وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها ، ولم يكونوا أحسن حالاً من السويف والآلان ، فجعلوا هم الآخرون يغرون على جنوبى غالة وحوض الرون ، وما زالت هذه الجموع المتبريرة تشتد في أعمال التخريب حتى كادت تقضى على كل أثر للاستقرار والحضارة في الجزيرة الإيبيرية كلها .

فلما أقرت الدولة أطاؤولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبى غالة سلطوهم على طوائف المتبريرين التى تسكن إسبانيا ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء ، وارتد الآلان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية ، وانحصر السويف في الركن الشمالى الغربى الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرمهم .

وحاول الوندال المقاومة ، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب ، فأقاموا قليلاً في الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطى (بيتيكا) الإغريقية القديمة ، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثار جليقة من الحضارة اليونانية المادية والفكرية ، وكان الوندال أجلاًفاً عتاة فلم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضر في بيتيكا ، واضطر زعيمهم جيسرك - أمام ضغط القوط الغربيين المتصل - إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩ ، بعد أن خرب أمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل هسباليس (سفيلىا - إشبيلية) وكرتاجو نوفا (قرطاجنة) وجادس (جوادكس - قادش) ومورجى (مرسية - مورثيا) وكُردوبا (قرطبة - كوردفا) وغيرها ، وخلف هذا الإقليم العامر وراءه يباباً على عادة الوندال .

وقد بلغ من عمق الأثر الذى خلفه الوندال في هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم « بيتيس » (الذى عرّبه العرب إلى « بيطى ») وأصبح يسمى من ذلك الحين فاندالوسيا ، إقليم الوندال ، وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذى أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة

كلها^(١).

استقر القوط الغربيون في شبه الجزيرة ، وأخذوا يمتدون في نواحيها شيئاً فشيئاً ، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو « واليا » (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم في نواحي الجزيرة كلها . ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين ، وإنما كانت فيهم أشتات من المتبربرين من كل جنس ، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء ، وكانت علاقته بالامبراطورية علاقة التابع أو الفَصْل ، فلما طمع إدواكر المتبربر في حكومة الجزء الغربي من الدولة الرومانية ، وأقره الامبراطور البيزنطي زينون على حكومة إيطاليا في الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦ ، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبربرين من الولاء لها ، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧) ، وهو يعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين في إسبانيا ، وسنكتفي بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعداً^(٢).

٢- دولة القوط في إسبانيا

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يسطه على شبه الجزيرة الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبي غالة وشمالى إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليمياً واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لُشدانية (لوزيتانيا - البرتغال) وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطى (الذى يُعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهى الركن الجنوبي الغربى لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده في شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo - romani) شمالى البرت والإسبان الرومان (Hispano - romani) جنوبيها . وكانا شعبين متحضرين يشغل معظمهما

LÉVI - PROVENÇAL . L'Espagne musulmane au Xe . siècle, pp. 18-39. THOMAS, W. (١) ARNOLD . The Preaching of Islam (London, 1935) pp. 130-144.

GEORGE YVER . Euric, roi des Wisigoths (466 - 485) des Etudes d'Histoire du Moyen- (٢) âge dédiées à Gabriel Monod (Paris, 1896) pp . II-46

بالزراعة ، ويزيدان في العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير^(١).

وكان القوط مسيحيين آريين ، أى أنهم كانوا لا يعتقدون في ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعدراء مكاناً ممتازاً في العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة في تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أى سلطان روحي على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط يُنزلونه بالقساوسة من اضطهاد ، وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزجاً ، فلما نهض كلوفيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيج القوط إلى الجنوب ويجلبهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذى ظلوا يحكمونه مدى طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في فوييه (Vouillé) شمالي بواتييه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضي غالة ، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة^(٢).

بهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبى الواقع إلى الشمال تفتقر ، ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض : هى بيتيكا في الجنوب وهسبانيا تراكُوننْسِس (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربى . ولوزيتانيا وهى غرب الجزيرة وناربوننْسِس (ولاية نربونة) من حدود برشلونة إلى

MANUEL TORRES . Historia política del Reino de Tolosa en Historia de Espana de Me- (١) nendez Pidál (Tomo III . Madrid 1940) pp . 70 Sqq .

BALLESTEROS , RAFAEL . Histoire d'Espagne des origines à nos jours (Paris ,1938) pp.35 -36.

GUERRA (A. FERNÁNDEZ) . Caida Y Ruina del Imperio Visigótico - espanol . Madrid (٢) , 1883 .

MANUEL TORRES . Las Invasiones Y Los Reinos germánicos de Espana en Historia de Espana editada de RAMON MENÉNDEZ PIDAL . Tomo III .pp.81-84

جبال الألب ، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجونا (طَرَكُونَة) جنوبى بركينو (برسينونا - برشلونة)^(١) .

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً ، واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع في وسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة » .

ولطليطلة موقع جغرافى سياسى هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ، فهى على هضبة مرتفعة في وسط شبه الجزيرة تقريباً ، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة ، وهى تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجه ، ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا بمجهداً بعد أن يعبر جبال قشتالة القاحلة في الشمال وإقليمى الإسترامادورا والمنشا القاحلين الموحشين في الجنوب ، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له ، لأنها موسطة البلاد وقلبها ، أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب ، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يُوفقوا إلى حكم البلاد كلها تماماً ، وأن أشتريس وجليقية لم تخضعاً لهم أبداً ، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحي الغرب إلا خلال فترات قصيرة

MANUEL TORRES op . cit . pp . 112 Sq

(١)

LEGENDRE, MAURICE . Nouvelle Histoire d'Espagne (Paris, 1938) pp . 66-67 .

قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينهما خط غير محدد بالضبط يمتد من الدويره إلى قسطة (Gástulo) (Cazlona) في الأندلس . ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات :

Tarraconensis	إسبانيا الشرقية
Betica	إسبانيا الجنوبية
Lusitania	إسبانيا الغربية

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربى وتسمى (Gallaecia) ، أى إسبانيا الجليقية ، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسماوا به الطرف الشمال الغربى المسمى في الإسبانية (Gal-licia) .

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (Praefecturae) ، وقسم هذه إلى دوائر (Dio-cesis) ، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae) ، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليا ، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات : Tarraconensis , Cartaginensis , Betica , Lusitania , Gallaecia , Balearica , Tingtana .

أى : أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءاً من إفريقية هو مرطانية الطنجية ، وستظل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامى .

Cf : BALLESTEROS, RAFAEL . Histoire d'Espagne , pp . 28 Sq .

وانظر عن ذلك كله الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالتنظيم الإدارى والمالى .

جداً^(١).

ولعل أظهر أثر لاستقرار القوط في طليطلة هو تحوُّلهم إلى « إسبان » في وقت قصير ، في حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طويلة ، لأن المقيم في طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إيبيريا ، أما المقيم في قرطبة فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق أوثق وأظهر من صلاته بجليقية وأشتريس ونواحي البرت ، وكان ذلك من أسباب الضعف الرئيسية في دول المسلمين في الأندلس^(٢).

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد الإيبيريين من منازعات دينية ويسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهياً للحروب الأهلية وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال . وقد لقي نفر من ملوك القوط مصارعهم في هذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا بفضل معاونة حرية أمده بها جستنيان امبراطور بيزنطة في سنة ٥٥٤ وانضم إليه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان الكاثوليكين ، واحتل المنطقة الواقعة بين الوادي الكبير وجُكُرْ (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الآريين هو ليوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ - ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكين طول حياته ، وخلفه ابنه ريكايردو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة ٥٨٧ : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الحين . وهذا حادث خطير سيظل مؤثراً في التاريخ الإسباني كله ، فإن الكاثوليكية تأصلت في أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد في الإيذان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً

(١) تناولنا هذه الناحية في كتابنا : مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين في الأندلس ، وهو يطبع الآن بمدريد .

(٢) LEGENDRE , MAURICE . Nouvelle Hist . d'Espagne , (Paris, 1938). pp . 66 - 67

في حياة الإسبان وفي مجرى تاريخهم كله^(١).

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد ، وتوثق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تفانى خلفاء ريكايدو في الولاء للبابوية تفانياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني - بل السياسي - في البلاد ، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأيده الشعب الروماني الإيبيري الذي لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك .

ومن هنا نفهم السر في أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقل في فترة من فترات التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . كان تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والإيبيري الروماني ، فقد ظلا متباعدين ما اختلفت عقيدتهما الدينتان ، فأما وقد اتفقا في العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً ، لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثر بعيد سىء على مصير دولة القوط في إسبانيا . وكانت الملكية القوطية انتخابية ، أى أن نفرأ من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم ، فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، ومن ثم لا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاضطرابات . ومهما حاول مؤرخو الإسبان - القدامى والمحدثون - أن يقللوا من شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم في الدفاع عن دولة القوط ، فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها في سهولة ويسر ، وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١ ، في شئون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره^(٢).

بيد أننا ينبغي أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفرأ أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خيرين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل ششبرت

MANUEL TORRES . Las invasiones y los reinos germónicos de España en Historia de (١) España de RAMON MENÉNDEZ PIDAL Tomo III . (Madrid, 1940) PP. 109 Sqq .

BALLESTEROS, RAFAÉL . op . cit . p. 37 .

(Sisiberto ٦١٢ - ٦٢١) الذي أتم فتح شبه الجزيرة كله وشنداسفتو (Chindaswinto) ٦٤٩-٦٧٢ الذي ألغى التفرقة بين أجناس الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سنّه الملك ألاريك الثاني والقانون القوطي الذي وضعه يوريك ، مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنّبتها مصاعب وخلافات شتى^(١).

ولعل أكبر ملوك القوط هؤلاء وامبا (Wamba ٦٧٢ - ٦٨٠) ، فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقر سلطانه فيما بقى للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نيمه (نيم) ، وأخذ ثورة أخرى دبرها باؤلُس أمير سبتمانية للانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأحبه الناس والتفوا حوله ، وبلغ من تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق ، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين الغربيين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن

BALLESTEROS, RAFAÉL . op . cit . p. 37-39 .

(١)

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأساء القوطية مما وجدته في المراجع العربية ، ولم تحدث المراجع العربية عن ملوك القوط كثيراً ، ولم تذكر منهم إلا واحداً أو اثنين ، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أساء هؤلاء الملوك خلال فترة الفتح ، فأخذت عنها هذه الصور . وهذه المراجع العربية هي الأخبار المجموعة ، ونفع الطيب (انظر فهارس الاعلام فيها) ، ومرجعان عربيان : الأول مجهول المؤلف ، لم نعر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية ، والثاني عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه :

أ - فتح الأندلس : لمؤلف مجهول ، وقد نشره JOAQUIN DE GONZALEZ مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان *Relación de la conquista de Espana y de sus emires* وقد استعمله سافدرا في دراسته عن فتح الأندلس .

ب - *La Crónica del Moro Rasis* ، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازي ، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب ، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية ، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس ، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوكال دى جاينانجوس ، راجع :

PASCUAL DE GAYANGOS . *Memoria sobre la Autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis ; Memorias de la Real Academia de la Historia , tomo VIII, 1850*

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينية ، ولم تنشر إلا سنة ١٨٩٢ ، إذ ترجمها سافدرا إلى الإسبانية وألحقها بدراسته عن فتح المسلمين للأندلس . انظر :

D. EDUARDO SAAVEDRA . *Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana*(Madrid, 1892) ص ١٤٥ وما يليها ، وقد كان جاينانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية في تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى : *تاريخ الأدب الإسباني* (ج ١ ص ٥١٩) . وراجع كذلك تعليق سافدرا على الرازي وما بقى من كتابه في كتاب سافدرا الأنف الذكر ، ص ٨ وما يليها . وقد عثر الأستاذ LUIS F. LINDLEY CINTRA البرتغالي على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافي من تاريخ الرازي إلى البرتغالية ونشره ، وترجمه ليفي بروفنسال إلى الفرنسية :

CF: LÉVI-PROVENÇAL . *La description de L'Espagne de Ahmad al - Razi Al-ANDALUS, 1953. fasc. I pp.51-108 .*

على مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نحلة من ذهب^(١).

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ودس له من سقاه جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيثوه ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلاً من أن ينهض لتأديب من ائتمروا به على هذا النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته في الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza)^(٢) العرش في نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التي كان كبار القوط يدبرونها ، ولنا نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذي سيلعب أبناؤه دوراً عظيماً في التمهيد للفتح الإسلامي ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صورة متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال ردريجو خيمينيث والأب ماريانا إلى جعله مسئولاً عن الفوضى التي أعقبت أيامه ويسّرت للعرب القضاء على دولة القوط ، في حين تصدى دوزي وفرناندث جرّاً Guerra وتايلهان للدفاع عنه وتبرّته مما نسبته إليه بعض النصوص^(٣).

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تنسب عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسئولون عما أصاب البلاد في أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصلح الأمور ففعا عمن كان والده أخيكاً^(٤) قد أساء

(١) ذكر الرازي الملك « وامبا » في صورة محرفة جداً هي Benete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فنيه عرفنا كيف حدث هذا التصحيف . وقد امتدحه الرازي وقال إنه كان ملكاً حسناً جداً وعادلاً جداً ولم تسعد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله ، لأنه لم يسه إلى أحد ، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر همه .

راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice, p. 146.

(٢) هذه الصورة العربية لاسم وِيتْزَا معرفة هي الأخرى تحريفاً ظاهراً ، وقد رسمه الرازي هكذا : Acosta أكوستا . وقد أتى التحريف من أن وِيتْزَا تنطق بالإسبانية القديمة وِيتْزَا أو وِيتْزَا أو وِيتْزَا . وهذه الصور تعطينا قسطة وهي Acosta التي أوردها الرازي وغيطة التي أوردها مؤرخو العرب . وقد امتدحه الرازي كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوئ أبيه ، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقائه بهم .

راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice p. 147.

SAAVEDRA op. cit. p. 25

(٣)

(٤) رسم الرازي هذا الاسم Abarca أباركا ، ومرد هذا التحريف إلى خطأ في الإملاء ، لأن نسخة الرازي التي بين يدينا أمليت على رجل لا يعرف العربية ولا يحسن الكتابة بها (راجع ملاحظات جاينانجوس وسافدرا التي سبقت =

إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يثورون عليه في نواحي المملكة ، واستمر يحاربهم ويحبط كل مناوراتهم ، فلما علت به السن عجز عن أن ينهض لكل واثب به مدبر عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجته أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وقّله (أخيلا Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش (Rechesin-do)^(١).

وكان هذا الإعلان حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليخلو لهم العرش يفعلون به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه في القضاء على كل محاولة يقومون بها ، لأن النصوص تحدثنا أنه عاقب تيودفريدو دوق قرطبة بسمّل عينيه ، ونفى ثائراً آخر اسمه بلايّه من البلاط^(٢).

ويبدو كذلك أنه أساء الظن في اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم في أيام القوط ، لأن الواقع - كما سنرى - أنهم لا قوا منهم عسفاً بالغاً متصلاً ، وأن الفتح العربي لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقي لهم في شبه الجزيرة الإيبيرية أثر . اتهمهم غيطة بالتدبير عليه وبالتآمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبير غير واضح ، لا يُفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقية أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامي ، وأما يهود إفريقية فكانوا وقتئذ في محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاظمة في جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط^(٣).

= (الإشارة إليها) فكتب إيقه بدلاً من إحقه ، وعندما ترجها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أبقة إلى أبرقة وهو اسم إسباني معروف ، وعلى هذا الرسم وردت في هذه النسخة الإسبانية من الرازي . راجع : SAAVEDRA . op. cit. : apendice.p. 146 .

(١) هذا الرسم عن ابن عذاري : البيان المغرب ، ج٢ ص ٤ ؛ وهو يشي عليه . أما الرازي فيحمل عليه حلة عيفة . SAAVEDRA . op. cit. apendice p. 146 أما أخيلا فيكتبه الرازي أبرقة ، وقد سبق تحليل ذلك .

(٢) SAAVEDRA . op. cit. p. 29 . وانظر المراجع المعطاة .

(٣) هذه المسألة غير واضحة الوضوح الكافي لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية ، فيقول لوقا التودي LUCAS DE TUY وهو من كتاب القرن الثاني عشر : iudalis immunitatum privilegia dedit : (ج١ فقرة ٣ من تاريخ العالم) ويقول : رودريجو خيمينيث RODRIGO XIMÉNEZ : =

ولسنا -على أى حال -بحاجة إلى البحث عن سبب لهذا الاضطهاد ، لأن الإسبان كانوا طوال تاريخهم من أقصى الناس على مخالفتهم في الدين، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهمنى هنا هو أن هؤلاء اشتد بهم الأمر خلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية ، حتى باتوا يرجون الخلاص عن أى سبيل . ويبدو أن غيطة رجوع عن سياسته تلك في أخريات أيامه ، فأحب أن يرفع السخط عن اليهود ، وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما اتوا من العفو عنهم ، فلم يكذب رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخطوا عليه ، وأخذوا يغفرون الناس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين في الوثوب به أو معاونة أول ناثر عليه^(١).

في هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين والملك المسن والكبراء الطامعين ، مات غيطة ميتة طبيعية في أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ . وكانت هذه الأحزاب كلها تنتظر فرصة موته لينقض بعضها على بعض ، وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدّهم ميلاً إلى الخلاف : ذلك أن غيطة ترك من بعده زوجاً أرملة طامعة في العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبه (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمّله عند المقرى وابن القوطية وصحته وقّله) والمُنند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس . أرطبان) ، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلي من الحوادث دوراً هاماً هو سيسبرتو (ششبرت ، سبرى ، سبيرة في النصوص العربية) وترغم أنه كان أخاً لغيطة أو ابناً له ، ويذهب سافدرا إلى أنه لم يكن من العائلة ، وإنما من المتصلين بها وحسب^(٢).

= revocavit iudeos et maiori immunitatis quam ecclesias privilegiis honoravit (I, III, cap. XVII).

ولا يُشتمُّ من أى من هاتين الروايتين ما يفهم منه اتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقية . وقد وردت عبارة التعاون مع « القوم الذين يسكنون فيها وراء البحر » في نص الخطاب الذى ألقاه أخيلا في المجمع الكنسى السابع عشر ، وهى عبارة لا تكفى . ولا نعرف المراجع التى استمد منها DOM VISSETTE معلوماته التى يوردها عن هذا الموضوع في كتابه Histoire de Languedoc ج١، ص ٧٥٠ - ٧٥١ ، وعلى أى الأحوال فالثابت أن أخيلا اضطهد اليهود .

SAAVEDRA. op. cit. p. 30 .

(١)

(٢) SAAVEDRA. op. cit. pp. 30-33 وتقول الأخبار المجموعة إن أبناء غيطة كانوا اثنين فقط .

ششبرت (Siseberto) وأبّه (Oppa) : ص ٨ .

ونص الرازى مضطرب هنا اضطراباً شديداً جداً بحيث لم نستطع الاعتماد عليه .

ويكتب ابن القوطية رُمّله بدلاً من أخيلا ، وقد جعله بعضهم رومولوس ، وذهب سافدرا إلى أنه تحريف من وقّله الذى هو أخيلا .

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثل أخيلا ، وتخوف كثير منهم من مطامع الوصى رخشندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم في طليطلة عن الطاعة ، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً في النواحي والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة ففروا منها . واستمرت هذه الفوضى نحو العام ونصف العام ، واستطاع الوصى أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار ، وتحبب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن ، واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب ، فاجتمع منهم نفر واثتلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق في أن يقرر شئون دولة القوط كما يرى ، ثم اختاروا واحداً منهم رودريكو - أو رودريك أو رودريجو (لذريق) - وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة ، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحدّ السيف .

وتُجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التي بايعت لذريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم ، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وهى من بنيانها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخشندش أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيلا ، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط ، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم .

ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الإسبان - قدامى ومحدثين - نفيه وإنكاره ، وهو أن دولة القوط لم تكن في نظر أهل البلاد دولة قومية ، بل ظلت في نظر غالبيتهم دولة أجنبية لقي الناس في ظلهم كثيراً من الأذى ، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة^(١).

(١) MANUEL TORRES . Op. cit. p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير واضحة وغير دقيقة ، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان في الخلاص من القوط ، ولكنه - على عهده من الدفاع عن القوط لأنهم كاثوليكيون - يلقى التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه . وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة . انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET . Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid, 1897-1903) pp.4 Sq.

والمراجع المعطاة . وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع .

والخلاف شديد حول أصل لذريق هذا ، فمن قائل : إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم ، ومن قائل : إنه ينحدر من أصلاب ملكية ، وأن جده الملك شنداسفتو ، ومن قائل : إنه ابن تيود فريدو دوق قرطبة الذى كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بَسْمَل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تُجمع على أنه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك فى قرطبة عاصمة ولايته^(١).

ولم يَسِرْ لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تَريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رُخْسَنْدَش ورجاله فى موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً فى «ربيع سنة ٧١٠ ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا ليتى (وادى بكه) بعام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة من حكم الوليد فى دمشق » ، كما يقول « النص اللاتينى المجهول المؤلف » ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب فى الذهاب إلى ذلك البلد البعيد .

والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جِلَّةٌ قواد القوط ونبلائهم ، وهزم رُخْسَنْدَش فى واقعة حاسمة قُتِل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطشة فلم يجدوا مفرّاً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى إفريقية وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش ، والقانون القوطى يقضى بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش^(٢).

ويبدو أن لذريق ظل يخشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم بالمبالغة فى تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يجيئهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على اليهود ، ومن ثم لا غرابة فى أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغیضة جداً لهذا الملك وأولاده . وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطشة للعرب ومعاونتهم فى فتح البلاد .

FERNANDEZ GUERRA . Caida ... pp 81 Sqq

(١)

SAAVEDRA . Op . cit . pp. 34 sqq

(٢)

وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، وذهبوا في الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذى قاموا به أثناء الفتح العربى ، ولسنا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يُعرف عن الإسبان من مبالغة في التسامى بوطنهم وأهلهم ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامى وكل ما يتصل به ، ورغبتهم في تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يُشتمُّ منه رائحة التعاون مع المسلمين^(١).

يبد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأولاده ، والإصرار على تبرئة لذريق من كل عيب وتصويره في صورة بطل وطنى جاهد العرب عن بلاده ، وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً هو أقرب ما يكون إلى الصواب ، فإن الظاهر الذى لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيرى الرومانى واليهود ، أى معظم أهل البلاد التى اقتحمها القوط عليهم^(٢).

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل : BALLESTE- ROS. Histoire d'Espagne. p. 45. وهو يورد هذه الحوادث في إنجاز شديد جداً.

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. وكلامه في هذه النقطة غامض غير واضح ، لأنه لا يستند إلى مراجع واضحة مفصلة ، وأهم مراجعه فرناندث جِزّا في كتابه Gaida Y Ruina ص ٨٢ وما بعدها ، وهو مرجع حديث . ويناھض هذا الرأى سيمونيت في تاريخ المستعربين ، ص ١٢ وما يليها . وسيمونيت إسباني كاثوليكي متعصب جداً لوطنه ودينه ، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة .

والصورة التى يعطينا إياها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها ، لأنها لا تخلو من نفع ، فهو يقول : إن الشعب الإسبانى وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص ، منقسماً إلى حزبين كبيرين : حزب مناصر للملكية غيطشة القائمة ، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المعنية والدينية ، وحزب ثان مناهض لذلك مهتم بمصالح البلاد حريص عليها ، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملةً ومناصرة الكاثوليكية مناصرة تامة . فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية ، ولم يكن أفرادها كاثوليكاً ولا آريين ، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا !) ومن كبار هذا الحزب أوباس (أبّ) أخو الملك وأسقف إشبيلية ، والتبلاء ششبرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه) . وأما رجال الحزب الثانى فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان ، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها وفي مقدمتهم تيود فريدو دوق قرطبة ، وخلفه في زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلايّه) الذى قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك

ليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذى سافر أمام العرب ويتحصن في جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط .

ومصادق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطة بكل شر ، ويصورونه للناس في صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه ، فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطة وبنيه واليهود .

ومصادق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير يحارب الثائرين عليه في كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء الثائرون عليه في الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعهم كانوا أنصار أولاد غيطة ، وسرى في أثناء الفتح العربي ما يؤيدنا في هذا الظن^(١).

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق أنه كان في حاجة مستمرة مُلِحَّةً للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلاً منتظماً لما احتاج إلى إرهاب نفسه وإرهاب الناس ، لأن إسبانيا بلد غنى لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة في عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاب ، ولكن البلاد كانت مضطربة في عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هي التي دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التي كان ملوك القوط قبله قد كدسوها في كنيسة سان بدرو وسان بابلو ، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلفتين في الكنيستين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حَدَّثَتْهُ نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذره القسس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يُصْنَعْ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، ويبدو كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعه من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث الناس في ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة^(٢).

SAAVEDRA Op. cit. p. 47.

(١)

SIMONET. Op.cit. pp. 42. Sq

(٢). SAAVEDRA . Op. cit. pp. 40-43. وقد أورد معظم مؤرخي المسلمين هذه الأسطورة ، انظر نفع الطيب (طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد) ج١ ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد استطاع لذريق أن يقضى على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالى غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا في ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذى غصبهم عرش أبيهم وشردهم في غير جناية ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق ، وانضم إليهم من البربر نفر كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيطشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم^(١).

* * *

٤- نظرة في لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الرومانى
أحوال إسبانيا تحت ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة
حكم القوط^(٢) على الناس ، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع
الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هى وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل
البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة .

وقد اختلف الأغنياء مع القوط لكى يحتفظوا بأموالهم ، واستقر نفر كبير من هؤلاء في
المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغليبيتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش من
إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً ، ولم
يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن
البلاد في الغالب ، ولم يخلفوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بما خلفه الفرنجة في فرنسا
مثلاً^(٣).

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان
عصر اضطراب وفوضى في أوروبا كلها ، لا في إسبانيا وحدها ، وانهارت في نواحي غرب
أوروبا قواعد المجتمع الرومانى الثابت القديم الذى كان يقوم على تقسيم الأرض بين
الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين
يزرعونها ويؤدون عنها مالاً ، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بواسطة

SIMONET. Op.cit. pp. 12- 13

SAAVEDRA Op. cit. p. 43

(٢) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوفى في الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالإدارة وشئون المال .

DOZY . Musulmans d'Espagne. I. pp. 253 Sq.

(١)

(٣)

الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عاماً نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية .

فلما أقبل المتبريرون واستولوا على أراضي الدولة آلت إليهم أملاكها ، وهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار في أراضيهم للضياع ، وغضب المتبريرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قن ، ولجأ بعضهم إلى مالك غنى مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعمت ، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البوتشللاري (buccellarii) أى طبقة المحميين ، وكان القانون يعتبرهم أحراراً ، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف ومُلاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiats أو proceres) ، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت (comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi أو centenarii) يقومون بها تحتاج إليه حكومة الناحية في النواحي المالية والقضائية والحربية ، وكان هؤلاء الموظفون طبقات تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كل منهم^(١).

وكان الملك يحكم مستبداً ، أى منفرداً برأيه ، يقضى في شئون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء يساعده في كل شيء ، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأحكام بما يريدون ، وكان المفروض أن يُنتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلى العرش أقواهم بحد السيف^(٢) .

ولكن الدولة القوطية حوت في نظامها عنصراً طيباً كان له أثر حسن في سير الأمور في دولة القوط ، ذلك هو « مجلس ضيطة » الذي كان يجتمع

٥ - مجلس طليطلة

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES . Instituciones Economicas, Sociales (١) y Politicoadministrativas de la Peninsula Hispanica durante Los siglos V-VII en Historia de Espana, III (Madrid, 1940) P. 205 Sq. BALLESTEROS . Histoire d'Espagne . p.39
BALLESTEROS. Op. cit. p. 39-40 (٢)

بين الحين والحين للنظر في أمور الدولة الكبرى ، وكان أصل هذا المجلس دينياً ، كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليكين ، يعقدونه للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق الملوك الكاثوليكية في عصر ريكايدو أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك لعقده ويحضره كبار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً ، يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا ، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء ، وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحا مجلساً أعلى للدولة .

وقد كان الملوك أول الساعين في توحيد المجلسين ، لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التي تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة^(١).

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوى بينهم جميعاً : قوطاً وإيبيرين ، وهو المسمى (Fuero Juzgo)^(٢) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب في تهذيب نفوس القوط وتهيتهم للعيش المستقر والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيئ المطلق بشئون الرعية .

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القوطي ، فمعظم الإسبان شديداً العصبية لهذا العصر يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأن الزراع والصناع كانوا في رفاهية لا يكاد الحكام يعسفونهم في شيء ، وأن موارد البلاد كانت في ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا للقراري أن النهضة التي حدثت في ظلال الإسلام بعد

BALLESTEROS. Op. cit. p. 40

(١)

(٢) عن اللاتينية Forum Judicum (القانون القوطي) أي مجموع القوانين القوطية ، وقد تكوّن في مدى قرن ، وقد بدأه يوريك ، ثم أضاف إليه خلفه ألاريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التي كانت تطبق على الرومان ، ويعزى إلى شنداسفتو الفضل في مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منها يطبق على الناس أجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة ، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط في إسبانيا سيرة أخرى .

MAURICE LEGENDRE, Nouvelle Histoire d'Espagne .pp. 73. Sq. .

ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنما كانت البلاد سائرة في طريقها على أى حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكى يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأو الدولة الفرنجية في عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية^(١) .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ المحزن الذى يصوره دوزى في كتابه ، ولكنه كان شيئاً على أى حال، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقى في عصور المسلمين . وذلك هو رأى الذى يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يارى فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطى الإسباني قبيل الفتح العربى^(٢) .

طبعى ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الرومانى القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعى مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ، ويستعبروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الرومانى المضمحل ، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغى أن نقول أيضاً : إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبربرين الأخرى التى استقرت في شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن الوندال كانوا لا يهظون البلاد التى ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شئ وتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوىء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعمَّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقفى الفقير إلى الغنى صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويف في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفهم ، كما رأينا ، فعم بلاؤهم الناس أجمعين^(٣) .

وقد ذهب الراهب الراوية باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسى ، ورجال الكنيسة لا يهتمون إلا بما يمس

(١) نفس المصدر السابق والصفحات عينها .

DOZY. Musulmans d'Espagne, I, pp. 258-259.

(٢)

DOZY. Op. cit. , I, p. 258.

(٣)

مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشئون الناس وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكدُه رواية آخر من رواة هذا العصر هو سلفيان المرسيلي (Salvianus Marsallanus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية في عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا مُنْصَب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش في كنفهم ، وكان القوط الشرقيون في واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير .

وينبغي أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحوُّل هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشرار الدين ، بل بقي معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغي أن نهمَلها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين في حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين ، وقد وجدهم المسلمون كذلك ، وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفر من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية في تحويل الناس إليها .

فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطى حياته كلها يبشر بالمسيحية في نواحي الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذى أوصل المسيحية إلى السويف وإلى نواحي جليقية ، والراهب لياندرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل في ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل في بعض النواحي ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون^(١).

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان حَبِراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، حتى إيزودور الإشبيلي نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزعه الإنسانية ، لم ينكر الرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا في حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الشيبايدى (الصعيدى) يدهش من أن نصرانياً في مصر يقتنى عبداً ، وهذا في ذاته شعور جميل جدير بالذكر ولكنه لم يقترن بأى جهد إيجابى من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وابتاتوا

يتربون فرصة الخلاص^(١).

ولم يكن أوساط الناس ممن يسمون كورياليس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالاً ، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شىء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم في مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أى لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الدينى بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذى رأيناه في أيام لذريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكى يربروا عسفهم بهم ، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية في ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط في البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة مالت بهم نفوسهم إلى الدعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هى التى حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن أعداد محاربى القوط القليلة توزعت بين الملوك والناشرين ، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساطخين على الدولة ينتظرون الفرصة للتخلل عنها وتركها لمصيرها^(٢).

ولابد من إشارة قصيرة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح

٧- الحالة الثقافية الإسلامية ، فهذه هى الناحية الوحيدة التى سيجد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشتها وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل في هذا بعض ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكرى السريع الذى حققه المسلمون في إسبانيا ، على قلة اتصافهم بمنايع الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الإسلامى والمسيحى .

DOZY. Musulmans d'Espagne, I. 265 .

(١)

DOZY. Musulmans d'Espagne, I. pp. 269

(٢)

تأصلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في غالة مثلاً ، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتفكرون ، والكنايس يقوم بأمرها قسس معتنون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف ، وقد أشرنا إلى القس القوطي ماسونا (توفي سنة ٥٧١م) ونزعاته الإنسانية واجتهاده في تهذيب المتبريرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم . ومن هذا الطراز القديس لياندرو المتوفى ٦٠٣م ، فقد كان داوماً مجتهداً ، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة : ومن آثاره رسالة مسيحية صوفية قريبة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهد في الدنيا وترغيب في الكمال ، ومادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كتبت في القرن السادس ، وأنه كتبها وهو منفرد بنفسه في نواحي ماردة ، وكانت إذ ذاك قفراً لا يسكنه إلا القليل^(١).

وأكبر شخصيات هذا العصر مكاناً وأبقاها أثراً في مستقبل البلاد الثقافي هو القديس إيزودور الإشبيلي (ISIDORO DE SEVILLA) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع في كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً مسيحياً ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وكتابات تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين في سلك واحد ، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (Originum sive Etymologiarum).

وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل ، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وهو يعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة : النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، ثم يخص الضب بالجزء الرابع ، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس ، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية ، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء ، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكايل والألعاب ، مما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف ، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الحين كانت موجودة متداورة في إسبانيا ، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً^(٢).

M. LEGENDRE. Nouvelle Hist. d'Espagne, p. 77.

(١)

(٢) أراد إيزودور أن ينشئ موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها في ٢٠ جزءاً ، السنة الأولى منها مقدمة =

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيماً من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم باولوس أوروزيوس قس لوزيتانية ، ولم يكن إسباني الأصل وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه ، أخذ عنه العلم وتشبع بآرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله ، وقد حاول تقليد سنت أوغسطين في كتابه « مدينة الله » (Civitate Dei) ، ونلاحظ هذا التشابه في التاريخ العالمي الذي كتبه تحت اسم (Historiarum Libri vii contra paganos) الذي يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ، ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسل يقودون الناس إلى أحسن مصير^(١).

أما ما عدا الآداب من الفنون ، فإن القوط لم يخلفوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دبانوس التي بنيت في عصر رخسندش وجزء من كنيسة سان بدرو دتاراسا وبعض عمد باقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برشلونة ، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد الخامس إلى القوط^(٢).

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شراً كلها كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الروماني المضمحل . وذلك معقول ، لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدية لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كإسبانيا ومجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذي ضم أخلاطاً من كل صنف ، وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني فلم يوفقوا ، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه ، ولم يُصِبْ الناس من وراء ذلك إلا شر بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً ، لأن الذين قاموا بها كانوا هم الإسبان

= والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة في عصره وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، منها كتاب عطاء الرجال (Liber de viris illustribus) والمدونة (Chronicon) وتاريخ ملوك القوط (Historia de Regibus Gothorum) وتاريخ ملوك الوندال والسوف (Historia de regibus Vandalorum et Suevorum)

انظر :

JUSTO PÉREZ DE URBEL. Las letras en la epoca visigoda en Historia de Espana, tomo III. Espana Visigoda (Madrid, 1940), pp. 401 Sq.

(١) نفس المصدر ص ٧٢ .

BALLESTEROS. Op. cit . p. 41.

(٢)

الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها ، فلا عجب أن ظهر في هذا القطر النائي رجال من طراز إيزودور الإشبيلي وباولوس أوروزيوس ولياندرو ، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان .

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها في هذه الناحية ، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامي في نواح شتى من نواحي التفكير الإسلامي . ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه ، وليس من وحى المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ في أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولعل إيزودور الإشبيلي قد أحس فضل الوطن الإسباني على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبر عن شكره لبلده في أسطر تفيض رقة وحناناً ، يقول فيها مناجياً إسبانيا :

« أى إسبانيا ! إنما أنت أجمل الأرضين التي تمتد من أقصى الغرب حتى الهند ... إنك لأرض مباركة سعيدة بأمرائك ! إنك أم لشعوب عديدة ، وأنت ملكة الولايات أجمعين ... منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطى المجيد...»^(١).

* * *

الفصل الثانى

فتح المغرب

لم يدخل الشمال الإفريقي في حوزة الإسلام بحرب واحدة ، بل بسلسلة
 ٨- فتح المغرب من الحروب استمرت حوالى سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث
 استطلاعى قام به عقبة بن نافع في ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢)
 وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠هـ
 (سنة ٧٠٨ م) ، وقد لقي فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله في فتح إقليم آخر ،
 حتى شمال الهند نفسه (١).

بيد أننا لو قارنا هذا الجهد الذى بذله العرب بسعة البلاد التى تم فتحها ووعورة
 أراضيها واختلاف أجناسها ، لتبيننا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها
 الرومان ، وأنهم وُفِّقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان في العصر القديم
 أو توفيق الفرنسيين في العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر
 هؤلاء وأولئك ، هذا في حين كانت النتيجة التى وصل إليها العرب رائعة على غير مثال .

وقد علق جوتييه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب (في فتحهم
 الشمال الإفريقي) تدهشنا إلى الآن . لقد عُزِّب المغرب إلى حد كبير ، وتحول إلى الإسلام
 تحولاً تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما في ذلك شك ، ولم توفق إلى مثل هذه
 النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح
 أحدث ، خلال القرن السابع ، ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقاً محكماً من كل
 ناحية ، الذى كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو
 المجهول بثوراتنا - الفرنسية أو الروسية مثلاً - لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ،
 فإذا دفعنا تطلعننا إلى فهم الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة
 بتفاصيلها استتبَّ أن الفتح العربى كان طويلاً جداً وعنيفاً جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة

(١) أوجزت في الصفحات التالية فتح إفريقية اعتماداً على بحثى في هذا الموضوع « فتح المغرب للمغرب » - القاهرة
 ١٩٤٧ ، والبحث الذى نشره ليفى بروفنسال « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » في صحيفة المعهد المصرى
 للدراسات الإسلامية في مدريد - مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعليقنا على كلام بروفنسال ونص عبيد الله .

عنيدة»^(١).

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربي للمغرب وعن ضخامة العمل الذى قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي . والثابت تماماً أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدى بهم إلى الذى يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصور صحيح للمغرب وأهله فقد كُتِبَ بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون^(٢).

مر فتح العرب للمغرب في ستة أدوار^(٣) :

(١) E.F. GAUTIER Le passé de L'Afrique du Nord. pp. 247 - 248.

وبقية عبارة جوتييه في هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً ، فهو يقول مثلاً بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربي : « كان الفتح الفرنسى للجزائر طويلاً مؤلماً ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق في أن نفخر به كثيراً . ولكن لنقارنه بالفتح العربى ، ولنفرض أنه بين سنتي ١٨٣٠ و ١٩٠٠ طُرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات ، وأنهم لم يحتفظوا في أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها - مدينة الجزائر تقابل عندنا القبروان عند العرب - ، إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربى » .

ثم يورد بعد ذلك نصوصاً لمؤرخى العرب وجغرافيتهم تصور صعوبة هذه البلاد وعتو أهلها ، وقد أوردت معظم هذه النصوص في صلب البحث (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) مثل هذه القالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لميعة عن ابن هيرة عن أبي تميم الجيشاني ، قال : إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب في فتح إفريقية ، فكتب إليه عمر : « لا إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت ... » .

ومثل قول ابن عذارى : « فكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم » . ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٣ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١ .

(٣) اعتمدت في كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثى الخفاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧) . وإليك أهم المراجع والصفحات التى اعتمدت عليها :

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (حققه شارل س . تورى سنة ١٩٢٢) ابتداء من ص ١٧٠ .
والبلادى : فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكوى : وصف إفريقية ص ١ ، ٢ وفي مواضع متفرقة أخرى ، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلد عند ما يذكره .

ورياض النفوس للملكى (القاهرة ١٩٥١) ج ١ ، من ص ١ وما بعدها .

وابن الأثير : ج ٣ ، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون ج ٦ ، من ص ١٤٤ .

والنويرى : نهاية الأرب ، (مخطوط بدار الكتب) من ص ٦٣ .

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ من ص ٧٦ .

والدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يخصص للفتح إلا بضع صفحات ، وسأكتفى بهذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل فقرة .

(أ) الدور الأول : من أوائل الفتح في ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨هـ (سنة ٦٦٨ م) :

وفي خلالها غزا عمرو بن العاص برقة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين ، بل أدخل بعض أهلها في الإسلام ، فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلي حدود مصر غرباً ، واستفاد عمرو في أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهري ، وكان إذ ذاك قائداً صغيراً في جيشه ، فبعثه إلى زويلة وفزان ووذان . وقد أقام عقبة في هذه النواحي الصحراوية المنعزلة نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلاً جيلاً للمسلم الصحيح المتفاني في دينه ، واستطاع أن يكسب إلى صفه قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة ولواتة ونفزاوة (أى من البربر ، أى البربر الطواعن) ، فأما من أسلم منهم فسيضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره في نجاح فتوحهم وتقدمها ، وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقاً للمسلمين يواليهم بالعون ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفي خلال هذا الدور وُفّق المسلمون إلى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سببلة في أوائل سنة ٢٨هـ (٦٤٨ م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة : هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه في البلاد قبل الفتح الإسلامي ، وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج . ولو أن عبد الله بن أبي سرح أقام في البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سببلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عجل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكتفياً بهال عظيم جمعه من أهل البلاد ، فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التي كان المسلمون قد وصلوا إليها في البلاد .

(ب) الدور الثاني: ويمتد من سنة ٤٩هـ (٦٦٩-٦٧٠م) إلى ٦٢هـ (٦٨١م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبي المهاجر دينار :

لم يرق المسلمون بشيء حاسم في إفريقية بين سنتي ٢٨ و ٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامي في كل وجه ، نعم إن عثمان لم يُقتل إلا سنة ٣٥هـ (٦٥٤م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب

وشغب عليه ، وكان والى مصر وقائد الفتوح فى إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد المغضوب عليهم من الناس فى ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلة الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التى ذكرناها فى سنة ٢٨هـ (٦٤٧م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو فى إفريقية ، لأنها كانت ، فى حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع فى أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التى أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبد الله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر فى فصلها عن مصر وإفرادها بوالٍ خاص . فلما توفى عمرو سنة ٤٤هـ (٦٦٥م) سنحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذى يعين لنا تطوراً خطيراً فى علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فمن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول وال إسلامى عُيِّن على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر فى سنة ٤٥هـ (٦٦٦م) فلم يكد يصل برقة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهليون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيش قوى وفى نيته إرغام الأهلىين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذى عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان وعدة من أشرف قريش ، ونفر كبير من جند مصر .

ولم يكد الجيش يحيط رحاله فى إقليم قُمُونِيَّة جنوبي قرطاجنة حتى تسامع بنزول الروم ، فتقدم نحوهم وعسكر فى مكان يسمى القَرْن ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ، فلم يكد هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبد الله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة ، ألق بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis الرومية) استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة ، ثم سار بنفسه إلى بنزرت فاستولى عليها . ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية . ولسنا

نستطيع اعتبار أعمال معاوية بن حديج فتوحاً ، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك في البلاد أثراً يُذكر .

(جـ) الدور الثالث : ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩-٥٥ هـ /

٦٦٩-٦٧٥ م) :

٩- اختطاط القيروان وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديد بتولى عقبة بن نافع قيادة الفتوح في المغرب سنة ٤٩ هـ (٦٦٩-٦٧٠ م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان في نفسه رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع في نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها في إقليم قَمُونِيَّة جنوبى قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يُرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها معسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » .

وقد قضى عقبة في إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩-٥٢ هـ / ٦٦٩-٦٧٥ م) فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت «ولاية إفريقية» الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شئون البلاد ، وهذا في ذاته تطور له معناه .

واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة في إرسال السرايا في كل وجه ، فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة في سهل تونس وفي الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية ، فأخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منهم نفر عظيم ، وبهذا نشأت في سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة في تحويل المغرب إلى الإسلام ، وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتظمون في جيوش المسلمين ويسرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز » وفيما هو يشرع يتخذ الأهبة للخروج للغزو الواسع النطاق ، إذا معاوية بن أبى سفيان يفاجئه بالعزل سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعائيات والى مصر مسلمة بن مخلد ، الذى كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواليه دينار أبا المهاجر سنة ٥٥٥هـ (٦٧٤م) وكان مسلماً حسناً وجندياً نشيطاً ، وكان أول قائد مسلم يُقدَّر له أن يخرج من سهل تونس ليتوقَّل هضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هي كتلة أُوْزْبة أقوى قبائل البرانس في ذلك الحين ، وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها ، وكان رئيسها كَسِيلَة بن لَمَزَم الأوربي ، وكان رئيساً ذكياً قادراً ، وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة في جبال الأوراس وأن يجتذب كَسِيلَة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفر كبير من قومه في غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٩هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبى إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيّقوا الخناق على عاصمة إفريقية البيزنطية .

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢-٦٤هـ / ٦٨٢-٦٨٤م) :

وانتهت ولاية أبى المهاجر سنة ٦٠هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية وردَّ عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل بالخروج في غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التي أتت له ، فقد كان الروم في حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين ، وكانت أُوْزْبة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كَسِيلَة . بدأ عقبة فأساء معاملة كَسِيلَة ونفّره وقومه من المسلمين ، ثم مضى في مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسى ، تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغران يطوف » ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تهودة على يد البربر ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٤هـ (٦٨٣-٦٨٤م) ، وقد استشهد مع عقبة في هذه الوقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه ، فإذا تم ذلك لكَسِيلَة فقد سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان ، وتراجع مَنْ بقى من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوى^(١).

بهذا خرجت إفريقية من أيدي المسلمين ، وتراجعوا إلى برقة التي كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين في البلاد ، إذ إن إفريقية كانت

(١) انظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليفي بروفنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر في صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمطرد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها .

تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية في القيروان وحولها وفي بعض نواحي الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تترقب فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التي انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم في حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة البرانس (٦٩-٧١هـ/

٦٨٨-٦٨٩م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات - أي سنة ٦٩هـ / ٦٨٩م - يقودهم زهير بن قيس البلوى الذي ظل هذه السنوات ينتظر المدد في برقة ، وقد أبدى زهير مقدرة عظيمة خلال السنوات الثلاث التي قاد فيها جيوش المسلمين في إفريقية : بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم في معاودة الوقوف في وجه المسلمين أو التحالف مع البربر ، ثم أسرع إلى كسيلة الذي كان متحصناً في ثمس ، فهزمه وقتله في معركة حامية «كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم » . وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة ، وهما الروم والبربر البرانس أي المستقرين في السهل الساحلي المتأثرين بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البرية) لكي يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجدية في المغرب .

قاد جيوش الإسلام المظفرة في هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجل لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس ، وهو حسان بن النعمان . وكان زهير قد استشهد عند برقة ، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم ، وكأن قتلهم زهيراً قد أنعش في نفوسهم الآمال في عودة إفريقية إليهم ، وأرسل الامبراطور ليونتئوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويته به نفوس من بها من الروم ، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير .

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البرّ وإتمام فتح المغرب (٧٦-٨٥هـ/

٦٩٥-٧٠٥م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تُفتح فتحاً كاملاً ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش

كبير حسن الإعداد ، وواتته الظروف على إرسال هذا الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قضى عليها ، ولهذا وضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم في أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على مقاومة البربر أو الروم .

جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقى لهم من القوة في قرطاجنة شيء صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعول على مهاجمتهم في قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح في حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسي ونهب » .

وبهذا قضى حسان على عُش المقاومة هذا بعد أن ظل شجى في حلق المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧ هـ لفعلوا ، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجل في قدرة حسان ويُعد نظره ، ثم مضى حسان يهاجم الروم فيما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية ، وأبدى في ذلك نشاطاً مشكوراً .

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهو البربر البئر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقّبها العرب بالكاهنة ، ويغلب أن اسمها كان « داهية بنت ماتية بن تيغان » ملكة جبل أوراس ، وكانت على جانب عظيم من المهارة والقدرة ، فجمعت حول رايثها نفراً غفيراً من البربر الرحل « فيهم بنو يفرن ، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البئر » وكانت هي تنتسب إلى قبيلة جرواة ، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية ، وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يشته .

ولم تكن الكاهنة ثائرة على العرب من أول الأمر كما يفهم من النصوص ، وإثما كانت مطمئنة بمقامها في جبل أوراس ترقب الحوادث ، فلما رأت حسان يقضى على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها ، وانتظرت في « باغاية » على مدخل الجبال ، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نيني على مقربة من موضع قسنطينة الحالية . وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيماً ، بل شدت عليهم

حتى هزمتهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً ، وتقهقروا أمامها فتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة ، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد ، فأمرت رجالها فحربوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران .

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً ، لأنه غيّر عليها نفوس الناس ، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرثيسة على كل حال ، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع . وانتهز الروم الفرصة فعادوا في سفن ودخلوا قرطاجنة ، وطرّدوا من كان بها من المسلمين . وأقام حسان في برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك إلى إفريقية من جديد سنة ٨١هـ (٧٠١م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفر عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تتراجع متوغلة في جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنّا حسان ، فأمنّهما وولّى كلّاً منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » وانهمزت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردّهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرّد الحامية التي كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .



ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة في يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أي مكان آخر من الساحل ، فعوّل على إنشاء ميناء إسلامي جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد في عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمباني ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبيد الله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فتصبح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبي إيطاليا بل جنوبي فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

١٠- اختطاط
تونس



لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة، « فَدَوْنَ
 ١١- تنظيم ولاية إفريقية
 الدواوين وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام
 معهم على دين النصرانية »، وقسم البلاد خططاً: لكل قبيلة خطة،
 وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عدداً من الجنود يحاربون معهم. ويبدو أن البربر
 أقبلوا على الإسلام في حماس، فعمرت بهم جيوش المسلمين في المغرب من ذلك الحين،
 وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر في قسَم الفء، ثم أقام العمال على نواحي
 الإدارة من خراج وزكاة وجند، وأرسل الخليفة قاضياً للقيروان أسوة بغيرها من العواصم
 الإسلامية الكبرى، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه.

ونستطيع القول أن حسان صاحب الفضل الأول في ذلك كله، فقد دخل البلاد سنة
 ٨١هـ فوجدها مضطربة ثائرة، ووجد أمر الإسلام فيها مشفياً على الزوال، وغادرها سنة
 ٨٦هـ (٧٠٦م) ولاية إسلامية هادئة منظمة، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالاً
 عظيماً، ويكفى أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر حتى تتضح
 لنا هذه الناحية.

ولو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير، لأنه كان كما رأينا رجلاً
 مخلصاً نشيطاً بعيد النظر، ويبدو أن صفاته تلك أوقعت في خلاف مع عبد العزيز بن مروان
 عامل مصر للوليد بن عبد الملك، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده في
 الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية، فلم
 يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره في العمل غير ميسور، فاعتزل هذا
 الرجل القدير العمل في أوائل سنة ٨٦هـ (٧٠٦م) والمغرب في أشد الحاجة إليه.

١٢- موسى بن نصير يتولى أمور المغرب^(١)
 وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليه وأقرب رجاله إليه موسى بن
 نصير، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم، وإن كنا لا نستطيع
 مقارنته بحسان بن النعمان من حيث النزاهة والإخلاص والعناية بصالح

(١) اعتمدت في كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها، ولم أجد حرجاً في الاعتماد على التفاصيل الهامة التي وردت
 في كتاب «الإمامة والسياسة» لأبي حنيفة الدينوري (طبعة القاهرة، ج ٢ ص ٩٦ وما يليها).

وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في ذلك الكتاب مستقى من مراجع صحيحة، فالتشابه
 بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل إلى الحرفية في بعض الأحيان، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه
 لمجرد أن دوزي شك في صحة الكتاب كله.

الدولة والرعية : فبينما كان حسان ينظر إلى صالح الأهليين ويسعى في تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير ، كان موسى يحسب أن المسألة حروب وغنائم وكفى . فكان همه منذ تولى منصراً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغنم الوفير والسبى الكثير ولا يهتم بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن في نفوس أهل البلاد .

وسنلاحظ فيما نتناول من شئون المغرب في سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعرب قد انغرس في قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده حتى أصبح من العسير اقتلاعه ، وأن سوء الظن هذا ظل يستشري مع الزمن حتى فصل بين العرب والبربر جملة ، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة ، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفرية تارة وخارجية تارة أخرى ، وما هى في الواقع إلا خوف وكراهية تأصلاً في نفوس البربر بسبب إصراف موسى ومن جاء بعده من ولاية بنى أمية في غزو البربر .

ويبدو أن إصراف موسى في غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسيء الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فمضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمى نواحيها وقيائلها بأبنائه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عياش بن أخيل وموسى ابن عياض بن عقبة والمغيرة بن أبى بردة وزُرعة بن أبى مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتى يطيعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء في ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشاركون معهم في حروبهم عن طواعية ورضى .

ولم يكن موسى ليتوخى النواحي المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازيها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غرة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحي ويُنْهون إليه أخبار

= وقد ناقش رأى دوزى وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود على مكى في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمطرد . وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبى حنيفة الدينورى مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك النصيرى .

القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها . فنحن نقرأ في أخباره : «أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهاجة بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عياشاً على أثقال المسلمين ... فسار موسى حتى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحراث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلاً إلى القيروان ، وهذا كله في سنة ثمانين (كذا)» .

ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع في المغنم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد في أذاها ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحسن ولائهم ، فأصر على أن يسىء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهائنهم ، حتى انكشفت له براءتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنم وافر .

لهذا ، نحن لا نسمى أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحاً ، لأن الفتوح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق من طاعة من بقى خارج الطاعة من القبائل ، أو من بُعد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هي أحدثت في الغرب رجّة كبرى أفادت بسببها القبائل وتنهت إلى هذا العصر الجديد الذى بدأ في حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون في الطاعة ويعتقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغنم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً ، ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه .

ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية ، وجمعتها مع العرب صفات البداوة والفترة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين في إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في أية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك ، وكان لا بد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل في الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته في كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سجوما ، وبدوا أن طوائف البربر التي اشتركت في حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧هـ (٧٠٢م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقد قاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتقموا المقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً ، ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هواراة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج في نفوسها من تفكير في الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين .

ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيماً بمسألة الأسرى والمغانم ، فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام افتداء لأنفسهم من الأسر، وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للاشتراك في الفتوح والغزوات . ومن هنا لا غرابة في أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيماً عدته ١٧٠٠٠ من العرب و ٩٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله .

وكانت تلك هي أول مرة في التاريخ يصل فيها فاتح أجنبي إلى هذه النواحي الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك اتجه بهذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاه طارق بن زياد ، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من بربر غمارة وبرغواطة . وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق ، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا في العلوة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا - رواية عن ابن القطان - عن حملة إلى صقلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان خلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا ، وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه ، فبدأ يتحرك نحوها وهناك وجد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيدنا كثرة الحديث إلا إمعاناً في الغموض ، تلك هي شخصية يليان .

الفصل الثالث

فتح الأندلس

١٣. مقدمات

الفتح

أقام طارق ومن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربى عند طنجة وما حولها ، وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التى كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك فى مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغنم منها ، ولكن طارقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك ، لأنه بربرى الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف فى قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى .

ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هى عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك فى أن أنظاره بدأت تتجه نحو حصن سبتة الذى عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : فى المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع ، وفى المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم فى وجه العرب فى منتصف الطريق^(١).

١٤. يليان

هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصية غريبة بأمر سبتة فى ذلك الحين : تلك هى شخصية يليان . واختلفت المراجع حول يليان هذا اختلافاً عظيماً ، فبعضها يزعم أنه قوطى ، وبعضها يزعم أنه رومى ، وبعضها الأخير يزعم أنه بربرى من غمارة ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبتة وما حوالها ، وأن سلطانه كان عظيماً على من كان يجاوره من البربر - من غمارة وبرغواطة على الخصوص - وأن صلات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس^(٢).

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢ .

والنويرى : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .

وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٤ .

وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) يتحفظ ابن عبد الحكم فى تحديد علاقة يليان بلذريق فيقول إنه « كان يودى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه . وكذلك الأخبار المجموعة تكتفى من صفته بأنه « عليج » وأنه كان يحكم =

وقد حقق دوزى وكوديرا وسافدرا شخصية يُليان . فأنثب دوزى وجوده فعلاً بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب^(١) ، وأكمل سافدرا عمل دوزى وزادنا علماً بشخصية يُليان وأصله والدور الذى قام به هو وأولاده^(٢) .

ونستطيع أن نقرر - اعتماداً على أبحاث دوزى وسافدرا - أن الإقليم الذى كان يحكمه يليان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) كان فى ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن يليان كان يقوم حاكماً عاماً (Exarcus) لهذه الناحية من قِبَل الامبراطور البيزنطى ، وأنه بدأ ولايته فى سن صغيرة ، وأقام فى هذه الناحية زماناً طويلاً ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية فى ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة ، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل فى هذه الناحية ، وإذا انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب وُدّها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب يليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩هـ

= * مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقال لها سبتة ، وكان عليها وعلى من حولها من المداين عُلج يسمى يليان * ، مما يفهم منه أن يليان كان عاملاً من عمال لذريق . ويصفه ابن خلدون بأنه رومى ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطى . ولقبه ابن الأثير بالطريق ، أى أنه يقرر أنه كان رومياً .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ج ١ ص ٢٠٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ص ٨٩ .

أخبار مجموعة ، ص ٤ .

ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١١ .

DOZY . Recherches (3 éd.) I pp. 57 Sqq . (١) انظر :

وراجع عنده عبارة إيزودور الباجى التى تذكر يليان ووظيفته ذكراً عموماً يصعب منها استكشاف حقيقة أمره .

(٢) SAAVEDRA . Estudio , pp. 48 Sqq . وقد ذهب سافدرا إلى أنه فارسى الأصل وأنه من الأزارقة ، وقد استنتج ذلك من أن يليان خلف ولداً اسمه بسلكايش أسلم بعد الفتح العربى وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أساء الفرس الأزارقة ، بل ذهب إلى أنه من كونيسابور كبرى مدائن أديابين (Adiabene) ، وتقع كونيسابور بين تكريت وأربلاص ، وإليك سلالة يليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية :

يليان ← بلكايش ← عبدالله ← الحكم ← سليان ← أبوب (توفى سنة ٣٢٦) ← سليان (توفى سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفى سنة ٣٨٨) .

وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم .

ويلاحظ القارئ أن آراء سافدرا فيها يتصل بأصل يليان فيها تكلف كثير .

(٧٠٩م) على وجه التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة لقي يليان سنة ٦٣هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة ، وكان الود معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذي قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكفى بمودة صاحبها ، وكان طارق - كما سنرى - رجلاً سياسياً بعيد النظر ، فلعله صادق يليان ليستعين به على إخضاع مَنْ تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون ^(١) .

وفي هذه الأثناء كان لذريق قد قام بثورته وعزل غيطشة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانبين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار لذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلده سبتة وتحصن فيه ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطشة وتفرق أتباعه فر بنوه نجاة بأنفسهم ، والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التي اتخذوها بعد تفرق دولتهم ، فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ^(٢) ، ولكن المراجع العربية - فيما عدا ابن

(١) راجع بحثي دوزي وسافدرا السابق الإشارة إليهما ، ونص الأخبار المجموعة يؤيد ما يذهبان إليه .

ويفهم من قول ابن عبد الحكم : « فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا » أن طارقاً تفتن إلى مقدار الخير الذي يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد في كسب وده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لطف يليان ليفتي شره ، بل ليفيد منه فيما هو أهم من سبتة ، وربما جاز لنا أن نستج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد في كسب ود يليان ليفيد منه في تحقيق أميته هذه .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) ينفرد المؤرخ سبامتيان بالقول بأن أولاد غيطشة عبروا إلى أفريقية وذهبوا يستعدون العرب على الأندلس ويزينون لهم فتحها ، وهذا نص روايته :

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad African mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأي لقبلاء ، ولكن سبامتيان ينفرد به ولا يذكر ما يؤيده .

SEBASTIAN, c. 3.

DOZY. Recherches (3ed.) I PP.68-69.

القوطية - لا تذكر شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا في البلاد حيناً ثم صالحوا لذريق واستقروا في أمانه وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب ، وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسیرون لحرب لذريق حتى سارع أولاد غيطشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة ، وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن في هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيطشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب كانوا مدينين لهم بفضل كبير كهذا ، وكل ما حدث هو أن أبناء غيطشة هؤلاء تقدموا إلى المسلمين بعد انتصارهم يطالبون بشيء من ضیاع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيراً منها كسباً لودهم . وقد أحسن المسلمون بذلك إحساناً عظيماً ، لأن أبناء غيطشة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسن إسلامه .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر من غير حرج أن أولاد غيطشة لم يحرضوا العرب على غزو البلاد ، بل انتظروا حتى تم انتصارهم فانضموا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلة للمسلمين على عورات الأندلس ، والغالب أنهم حسبوا أنهم مستطيعون الاستعانة بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن ينصرفوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة . ولكن العرب خيَّبو ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة ، ولم يكد العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم ، وظهر أنهم ماضون في فتح البلاد بنية إدخالها في حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيطشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبون الأمان مع من تقدم ، وأكرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

فإذا لم يكن أبناء غيطشة هم الذين استدعوا العرب إلى الأندلس ، فما الذي حدا بهذا هؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها في وقت لم تكن أقدامهم فيه قد ثبتت في المغرب الأقصى ؟ ما الذي شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج في هذه المغامرة الكبرى التي كان من الممكن أن تجر على المسلمين شراً كبيراً ؟ ما الذي شجعهم على الخروج إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الواسع في قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون أن المغرب - وهو أضعف من إسبانيا بكثير - لم يتم فتحه إلا ببضعة جيوش يبلغ أقلها أضعاف هذه الآلاف السبعة التي سار بها طارق ؟

١٥- فتح الأندلس
هنا تذهب أغلبية المؤرخين إلى أن العرب لم يفكروا في فتح الأندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه من أول الأمر وأنهم ما كانوا يطلبون إلا بعض الغنيمة ثم يعودون إلى إفريقية ، وأن غزوتهم للبلاد أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصار الحاسم الذى لم يكن منتظراً عند وادى لكّة ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد في المراجع العربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاسترسال في الفتح خلافاً لما كان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القبطان^(١).

وربما بدا هذا الرأي صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأندلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كان ينوى غزو البلد وفتحها فتحاً كاملاً ، وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذى جرى عليه العرب في فتح مصر والمغرب مثلاً للاحظنا أن التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الإمدادات كان أسلوب العرب في الفتح : يرسلون عدداً صغيراً ويكونون على الأهبة لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ؛ وقد حدث هذا في الأندلس بالفعل ، إذ أسرع موسى لِعَوْن طارق بخمسة آلاف من الجند . وأما غضب موسى على طارق فسببه أن موسى خشى أن يكون طارق قد تهور وغامر بالمسلمين أكثر مما ينبغي ، وربما يكون قد حسده على ما نال من التوفيق وما أدرك من المغانم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحسد أو الشره إلى المغانم .

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذى ذكرناه في فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد في « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن خُضَّها بالسرايا حتى تختبر [ها] ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأحوال » ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر، فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف

(١) ابن عذارى : البيان ، (طبعة كولان وبرونسل ، لايدن ١٩٥١) ج ٢ ص ١٣ . وتجمع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقاً بما يُفهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة ، وقد استعان المستشرقون - والإسبان منهم خاصة - بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربى بأنه كان مجرد مغامرة .
راجع مثلاً :

من شأن الأندلس ما شجعه على المضي فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له : « اختبره بالسرايا » يُفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل^(١).

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا في بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدّر كل شيء قبل الشروع في العمل : سار طارق قدماً من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت في يده مدينة أو مدينتان وامتلاّت يده وأيدى أصحابه من الغنيمة .

وتُجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذى دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهوّن عليه أمرها^(٢) . وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتأديب وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات سروات القوط في ذلك الزمان، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وُفق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها^(٣).

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥-٧

وابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ٦ .

(٢) انظر مثلاً : ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦ . وليس في هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان .

(٣) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة في مراجعنا العربية ، لأنها متواردة فيها جميعاً من غير استثناء .

أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠ ، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو « تاريخ راهب سيلوس » ذكرها مجملّة على صورة قرية الشبه بما تذكره الروايات العربية .

وليس إلى الشك سبيل في أن العرب لم يترعوا هذه القصة اختراعاً ، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها . وقد ذهب سافدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نفراً من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حيناً بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها ، وأن ذلك قد يكون أصل القصة ، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان بدرو يسكوال يذهبان إلى أن الذى اعتدى على ابنة يليان كان غيطشة لا لذريق ، لأن غيطشة كان صديقه كما قدمنا أما لذريق فلم يكن ، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتأديب في قصر ملك بينه وبينه عداوة . وقد ذهب الأستاذ سافدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فإننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس ، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشتمزاز الذى ننظر به إلى مثله الآن .

ولم يذكر مؤرخ عربى واحد لابنة يليان اسماً ، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتى ١١١٠ و ١٣٠٠ من غير اسم كذلك حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسماً حوالى سنة ١٣٠٠ . وللسنا نعرف من أين أتى بدرو بهذا الاسم ، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عاداته في اختراع أسماء لمن لا يجد له اسماً من شخوصه التاريخية ، =

ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد تكون من اختراع القصاص ، ولسنا نحتاج إليها لكي نعلل دخول العرب الأندلس تعليلاً معقولاً ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر في الظروف التي سادت المغرب خلال السنوات التي سبقت الفتح . فقد رأينا طارفاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربى والبربرى يتطلع معظمهم إلى الفتح والجهاد ، وكان يليان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ، فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح معقله سبتة ، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألقى «عنده عُدَّة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم ، فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل

= وهذا الاسم هو « لا كافا » (La Cava) . وكافا اسم مدينة إيطالية على مقربة من سالرنو في مملكة نابلى ، ولما كان ألفونسو الخامس ملك إسبانيا قد غزا نابلى وزار بعض جنوده مدينة كافا ، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نفر من الإسبانيات في ذلك العهد .

بيد أن عالماً إسبانياً هو MIGUEL DE AL LUNA خرج على الناس في سنة ١٥٨٩ بتفسير عربى لهذا اللفظ ، فذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظ العربى «قبة» ، وذكر أن قصاص الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يليان به في العصور الإسلامية ، ولزمها الاسم بعد ذلك ، واحتج لذلك بأن لوقا التودى ذكر الفتاة بهذا الاسم في « تاريخ الدنيا » (Croni- con Mundi) . وحقيقةً يوجد الاسم في بعض النسخ ، ولكنه لا يوجد في النسخ المقطوع بصحتها ، مما يؤيد القول بأن النساخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيها بعد .

أما قصاص الإسبان وواضعو الأغاني الشعبية فقد سمو هذه الفتاة فلورنده Florinda ولزمتها هذه التسمية في كتب الأفاصيص والأشعار جميعاً ، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه تخفف من الاسم القوطى فلوريسندا (Floresinda) .

ومهما يكن من الأمر فقصة ابنة يليان قليلة الأثر في التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر في الفن والأدب ، وهى بهذا أحسن حظاً من صاحبتيها « ابنة المقوقس » و « ابنة جرجير » والاثنان من اختراع قصاص العرب ، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يليان من اختراع قصاص العرب كذلك .

Cronicón Silense . N. 15 .

SAAVEDRA . Estudio pp 58-59 .

SAAVEDRA FARJADO . Corona Gótica . cap. XXIX .

PEDRO DEL CORRAL . Cronica del Rey Don Rodrigo .

MIGUEL DE AL LUNA . Historia Verdadera del rey Rodrigo

وُظُنَّ أن هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربى يسمى مؤلفه أب القاسم طريف بن طارق (ABULCA- CIM TARIF ABEN TARIQUE) من شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظاً عربية ، ولكن البحث التاريخى يشكك في أن أب القاسم هذا من شهدوا الفتح أو حتى من القدماء ، لأن بعض ألفاظه مثل « غزن » حديث لم يستعمله أهل المغرب إلا في زمن متأخر . وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيران هما :

LOPE DE VEGA في Posterer Godo de Espana

WASHINGTON IRVING . Legends of the Conquest Spain .

وقد نسب بيدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازى المؤرخ .

وانظر عن لفظ فلورندا :

LEMBKE . Geschichte von Spanien .I.256 .

يبحث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم»^(١) ، مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئاً مطمئناً في بلاده ، ومن الطبيعي أن يلجأ يليان في مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه ، وكان طارق كما رأينا قد صافاه بعد ذلك وصادقه^(٢) . وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً ، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خيراته ومغانمه . ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس .

ويذهب سافدرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره . ولسنا نعرف كيف ذكر سافدرا ذلك في صيغة التأكيد ، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً ، ولا يتضح وجه الحق في هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التي بين أيدينا عن الأحوال في طليطلة خلال الأشهر التي سبقت هذه الأحداث التي نرويها^(٣) .

يشير إيزودور الباجي في حوادث سنة ٧١٠ إلى « حادث محزن (suprafata clades) وقع بطليطلة ، واضطر كثيراً من نبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فشردوا في كل ناحية »^(٤) . ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن ، وذهب دوزي إلى أن إيزودور

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤-٥ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم في هذا : « وكان يليان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس . وكان لذريق يسكن طليطلة ، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا ... »
انظر : فتوح ... ص ٢٠٥ .

(٣) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 54-55 . وسياق رواية سافدرا قصصى في هذا الجزء من تاريخه القيم ، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلاً ماهراً أريباً ، اجتمع فيه عقل البيزنطى وشجاعة الإيراني وثبات الإفريقى ، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفداً يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيليا بسطوا لطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذى أصابهم من لذريق وغدره ، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى في القيروان ، وأن هذا قدر خطورة المسألة ، فأرسل الرسل إلى دمشق ليسطوا المسألة للخليفة على وجهها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى في فتح الأندلس ، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب ، فسارع موسى في تنفيذه ، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده .

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبات ، أما أخيليا هذا فقد ورد ذكره في ابن عذارى ، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الاسم قد وجد في هذا الظرف فعلاً ، وأنه كان حاكم طنجة أو كوتها ، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس الدور الذى تنسبه الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه .

RODRIGO XIMÉNEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO) . Historia de rebus hispaniae, i, iii, cap. 18,20 .

(٤) هذا نص عبارة إيزودور :

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat ; qui in aera DCCXXXIX suprafatae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, quâ de causâ propriâ

يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطة معتمداً في ذلك على عبارة صريحة لابن عذارى تذكر أن لذريق ثار بغيطة وقتله ، وعلل عدم ذكر إيزودور لذلك بأن نصه الذى بين أيدينا مضطرب ، سقطت - أو حذفت - منه عبارات ، وغيرت مواضع عبارات أخرى . ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول في موضع آخر : إن لذريق فجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ^(١) .

ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذى يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطة ، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطة وفرّقهم في البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع ، بل ذهب دوزى إلى أن « نباء القوط » الذين أشار إليهم إيزودور إنما هم أبناء غيطة وإخوته ، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح ، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد^(٢) .

ويقول سباستيان السلمنقى : « فلما انهزم غيطة ، أقام القوط لذريق ملكاً ، فملأ الحسد - في الحقيقة - أولاد غيطة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم ، فدبروا أمرهم بمهارة ، وأرسلوا رسلاً إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة ، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا^(٣) . وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولاً ، فلو جمعنا الروايتين معاً لحاز لنا أن نقرر أن الذى حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطة تتبع آله وأنصاره بالأذى ففروا يطلبون النجاة ، وكان أبناء غيطة في مقدمة الفارين ، وسواء أكان هؤلاء الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا في بعض نواحي جنوبي إسبانيا وأرسلوا من لديهم رسلاً يسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو ، فإن الحقيقة التى تخلص لنا من هذا كله هى أن أولاد غيطة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين في إفريقية ودعوهم إلى غزو البلاد ، ووضعوا أنفسهم - بطبيعة الأمر - تحت تصرفهم لتسهيل هذا الغزو وتهوينه .

= morte decesso iam patre. florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat, atque omnis Hispania, gaudio nimio freta, alacritur laetatur.

(١) نص عبارة إيزودور :

Rudericus tumultuose regnum hortante senatu invadit

DOZY. Recherches. (30 éd.) I. PP. 65 Sqq .

(٢)

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidiá ducti (٣) eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes. Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفي الفقرة الأخيرة مخالفة لما تتفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت لليبان .

وتؤيدنا المراجع العربية في هذا الرأي ، فهي تذهب إلى أن آل غيطشة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب^(١) - وهو ما حدث فعلاً - وبهذا أدركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب ، وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطشة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطشة ضياع أبيهم » وكانت شيئاً كثيراً ، وأقاموا نفراً آخر من آل بيت غيطشة في وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعواهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذي قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطشة لدى المسلمين ، لأنه - كما رأينا - كان من أنصار غيطشة وأصحابه ، وقد ساءته ولاية لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ملكه والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل في أنه فكر في أن توجيه نظرهم نحو الأندلس^(٢) يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير الذي كان يتجمع عند طارق بن زياد في طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيلاً - حاكم طنجة الذي سبقت الإشارة إليه - كان من مؤيدي يليان في هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذي تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بلده للمسلمين ودخل في ذمتهم ، وكانوا يعتبرونه تابعاً من أتباعهم .



(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك ، انظر على الخصوص :

ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨ .

فتح الأندلس : ص ٦ - ٧ .

(٢) يفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرهما في هذا الصدد ، فهذا يذهب إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس ، بل يذهب الأخير إلى أن يليان « عقد لنفسه ولأصحابه عهداً رضي واطمأن إليه ، ثم وصف له الأندلس ودعا إليها » . وهذه رواية يفهم منها - على إيجازها - ثلاثة أمور :

١ - أن قصة ابنه يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة يليان المسلمين لغزو الأندلس .

٢ - أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهداً اطمأن إليه .

٣ - فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس .

الأخبار المجموعة ، ص ٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤ - ٩ . هذا والتفاصيل التي يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة ، وقد درسها دوزي في الفصل الذي عقده ليليان في بحثه عن مراجع العرب للأندلس ، انظر « الأبحاث » ، ج ١ .

١٦- بدء الفتح وتذكر الروايات العربية أن يُليان لم يكتف بمخاطبة طارق في الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى في القيروان ، لإقناعه بسهولة فتح إسبانيا والتحدث إليه في الخير الذي يعود عليه ، إذا سارع وعبر إلى الأندلس واغتنم فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده في حملة حربية نحو بنبلونة أقصى شمال شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق في هذه الحملة هو الذي دعا يليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يُليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستنجاد بالمسلمين كانت قد اختمرت في ذهنه وعوّل على إنفاذها رغبة منه في التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطة . ويذهب سافدرا إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطة وأنصاره ، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سباستيان السلمنقى التي ذكرناها ، وهى عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا في كلام ابن القوطية^(١).

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه ، لأنه كان بطبعه ميالاً للفتوح والغزوات ، وكان من الطبيعى أن يتشكك في صحة المعلومات التى أدلى بها يُليان إليه ، فطلب إليه أن يقوم بسرية في جنوبي الأندلس ، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن يُليان عدو للذريق لا يخشى الإغارة على بلاده ، ويرى بعينه رد الفعل الذى يحدثه مثل ذلك العمل^(٢) ، وقد قام بليان فعلاً بغارة سريعة عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبي ، فتشجع موسى وقرر العمل .

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع في عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، فكتب إليه يستأذنه ، فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أرض مجهولة ، فكتب إلى موسى يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير^(٣) فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويغلب أنه عربى ، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً حازماً ، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير في تاريخ المغرب^(٤).

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣ .

فتح الأندلس ، ص ٤

(٢) ويقول ابن عبد الحكم : « ... فقال طارق (ليليان) : لا أطمئن إليك حتى تبعث إلى برهنة ، فبعث إليه بلبتية - ولم يكن له ولد غيرها - فأقرهما طارق بتلمسين ، واستوثق منها ، ثم خرج طارق إلى يليان ، وهو بسنة هل

المجاز ... » - فزوح ص ٣٠٥ .

(٣) ابن حذارى : البيان ، ج ٢ ص ٥ .

فتح الأندلس ، ص ٥

(٤) يذهب بعض المراجع إلى أن طريفاً كان من أهل اليمن ، وتختلف بعد ذلك ، فيزعم بعضها أنه كان من النخع ، =

١٧- أبو زرعة عبر طريف إلى الأندلس في قوة صغيرة من أربعمئة راجل ومائة فارس ،
 طريف يقود بعثاً وقد قدم لهم يليان أربعاً من السفن عبروا بها ، ونزل المسلمون في جزيرة
 استطلاعية صغيرة تسمى بالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذى ستقوم
 فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين ،
 وحُفَّت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم
 على الأرض الإيبيرية ، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ (يوليو سنة ٧١٠م) .

ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل
 غنموا فيها مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وعاد طريف بمن معه وبعث إلى موسى في القيروان
 بنصبيه من الغنيمة والسبي ، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح
 الحقيقى (١) .

١٨- حملة ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده ، هو طارق بن زياد .
 طارق بن زياد ولسنا نعلم شيئاً موثقاً فيه عن طارق قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين في
 فتح الأندلس (٢) .

ولكن الغالب أنه بربرى من نفزة ، ويبدو أن أباه زياداً قد أسلم أيام عقبة وحسن
 إسلامه ، وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاية المسلمين . ويبدو أنه كان صغير السن حينما

= ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مَغَايِر ، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد هذه السرية الموقفة التي قام بها مستظلاً
 أحوال الأندلس للمسلمين ، ولكنه يظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث في المغرب ، ويلعب دوراً خطيراً في الثورة
 التي قام بها ميسرة البربري البرغواطى في المغرب الأقصى ، والتي كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على
 المسلمين . ويقول ابن عذارى (٥ / ٢) : إنه بربرى .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 64.

(١)

(٢) يسميه ابن خلدون : طارق بن زياد اللبثي . (انظر المقرئ ، ج١ ص ١٤٣) وتذهب بعض المراجع إلى أن طارقاً
 ربما كان فارسى الأصل ، اعتياداً على ما يقوله الرازى : « فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن
 زياد بن عبد الله فارسياً همدانياً ، وقيل إنه ليس بمولى موسى ، وإنما هو رجل من صَدَف وقيل مولى لهم ، وقد كان
 عَقِبَهُ بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً . وقيل : إنه بربرى من نفزة ... » - نقله المقرئ : النفح ، ج١ ص
 ١٥٩ .

انظر : ابن عذارى : البيان ، ج٢ ص ٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

و الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافونْت إلى ألكانترأ ص ٥ ، وهو يترجم هذه العبارة :
 Un persa : de Hamadan.

Cf: LÉVI-PROVENÇAL. Histoire de l'Espagne Musulmane , (I Séd.)I, 14.

عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك في أى فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين المخلصين لموسى لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند في أيامه مثل : زُرْعَة بن أبى مُدْرِك ، وعياش بن أخيل ، وطريف بن ملوك ، والمغيرة بن أبى بردة ، وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه في قيادة أخطر عمل حربى قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة في أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تَعِد به من المغامرات ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذى أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد ، وهذه هى أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد في عمل حربى خطير كهذا إلى قائد غير عربى وجند غير عرب في الغالب ، ولكن موسى مع ذلك احترز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالى الأمويين ، مثل عبد الملك بن أبى عامر المعافرى ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمي وهو عربى صرف . وكان في الجيش عدد من كبار محاربى البربر ممن سنسمع عنهم كثيراً فيما يلى ، مثل مونوسة البربرى ، ويبدو أن موسى تعتمد أن يختارهم من خيرة جنده ؛ لأننا سنراهم يقومون بما عهد إليهم فيه في دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير وأصحابه أدلاء للمسلمين ومعينين لهم في أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التى تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بُدَّ من نقل المسلمين عبر المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً في خفية عن أهل الشاطئ حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين في ربيع سنة ٧١١م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان في رجب من سنة ٩٢هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذى عبروا فيه على وجه التحقيق^(١) ، وتجمع

(١) تجمع المراجع العربية كلها - بما فيها الطبرى - على أن عبور المسلمين كان في ربيع الثانى سنة ٩٢هـ (٧١١م) ، ولو أخذنا بما يقوله الرازى (في ابن عذارى) من أن طارقاً نفسه وصل الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢هـ لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدعوا العبور في آخر ربيع الثانى (ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ٧) .

المسلمون عند الجبل الذي سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، واجتهد طارق في أن يُحصّن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يَحْتَمَى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن متظراً^(١) ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبي عامر في فرقة مختارة من الجند سارت بحذاء الساحل شمالاً بغرب فاستولت على قرطاية Carteya- Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء في مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله في يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم متظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقيا^(٢) .

ولم يكد المسلمون يطمثون في مركزهم هذا حتى هاجمهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذارى « بنج »^(٣) وتسميه المراجع الإسبانية بَنَشُو وبَنَشُو ، فقتلوا عليها من غير كبير مشقة ، ولم ينج من جندها إلا واحد يسميه الرازي بِلْيَاسِنْ (Willie-sindo-Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب^(٤) .

= ويقول ابن حيان في « المقنيس » (ج ١ ص ١٥٥) أن العبور كان لسيح خلون من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ . ويؤيد مؤرخي العرب في ذلك الملك ألفونسو الكاستو (الطاهر) في تاريخه ، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه ، وهي تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجوري (Espana Sagrada, XXXVII, 312) . ويجعله يزيدور الباجي في السنة السادسة من خلافة الوليد ، وهي سنة ٩٢ هـ .

(١) يميل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التي عبر عليها فأحرقها لكي يقطع كل أمل لجنوده في العودة إلى إفريقية وليدفعهم إلى الاستبسال في القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك في صحة هذا الخبر ؛ ثم إن طارقاً لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان .

SAAVEDRA, Estudio ... p. 65 .

(٢) كتب ابن عذارى هذا الاسم « بنج » من غير شكل ، ونقله الأسقف ردريجو « ينشج » (Eneco) ، وجعله سافدرا « بَنَشُج » (Bancho) ، وورد في تاريخ إسبانيا العام Cronica general de Espana في صورة إنشجُو (Inego) وفي الترجمة الإسبانية للرازي شَنَشُج (Sancho) . وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين نديم ، أما بلباسن فلم يرد ذكره إلا عند الرازي وعنه أخذه سافدرا وجعله Wiliesindo .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ١٠ .

Cf.: Cronica del Moro Rasis, apud . SAAVEDRA Op. cit. p. 149.

وفهرس الأساء في تاريخ إسبانيا العام .

(٤) كان لذريق قد توجه إلى الشمال في أوائل ربيع ٧١١ لصده هجوم قام به نفر من الفرنجة على بعض نواحي نبره =

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطى (بيتس) ، لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف ، ومن ثم اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومر بين جبلى سيليا دل بابا وسيرا دل رتين واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التى تحصر بينها وبين سيرا دل رتين سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً ، لأن البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى ، واستمر حتى أدرك نهر البرباط الذى يحترق بحيرة لاخاندا ، وكانت بهذا الموضع في هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسمىها العرب بكَّه ، ولهذا سموا هذا النهر وادى بكه ، وحرَّفه بعضهم إلى لكَّه أو وادى لكَّه ، وقد أساء الراوية الإسباني رودريجو درادا نقل هذا اللفظ فنقله ليته وادى ليته ، ومن هنا نشأت هذه التسمية الخاطئة التى سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده ، فسموا هذا الموضع الذى دارت عنده المعركة الحاسمة بين العرب والإسبان جواداليت (Guadalete) ^(١) .

= (نفار) ، وقد ذهب سافدرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحريض من يليان وحزب غيطشة ، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق في ناحية نائية تيسيراً للأمر على العرب ، وقد اعتمد سافدرا في ذلك على عبارة للوقا دى توى ، يقول فيها :

“ Julianus callide incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem ... ”

Cf.: LUCAS DE TUY. *Cronicòn Mundi*, L. III. p. 70.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 65 .

وقال المقرئ : إن الذى أنبأ لذريق نبأ العرب هو تدمير ، وكان يليان قد استخلفه على الأندلس ، وليس لدينا ما يثبت ذلك .

انظر : النفع ، ج ١ ص ١٤٩ .

(١) هذا هو رأى سافدرا في أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التى ورد بها في النصوص ، وقد ذكر جايانجوس في تعليقاته على ترجمة نفع الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos ، وأورد كذلك صيغاً أخرى لاسم هذا النهر هي :

وادى ليد ، وادى لكه : عند ابن الخطيب .

عند كوند Vadilac, Vadileke , Wadalak Gaudalede عند لذريق الطليطلى (Rodericus Toletanus)

Leke في الصورة الإسبانية للراوى .

ثم أتبع ذلك برأى طريف ، وهو أنه وجد عند فلوريث في الجزء التاسع من Espana Sagrada ص ٥٣ تفسيراً للفظ جواداليت ملخصه أن العرب سموا نهر كريسوس بهذا الاسم ومعناه « وادى السرور » بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده ، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سموا هذا النهر وادى اللذة أو وادى لذة ، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها .

Cf: GAYANGOS . The Hist. of the Moh .Dyn . in Spain , I,p.524.

SAAVEDRA. Op. cit . p. 68-69.

وقد قرأ بروفنسال الاسم وادى لكَّه وقال : إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago-Lacus أى : البحيرة ، والمقصود هنا بحيرة الخندق (Lajanda) . وهذا التفسير هو أقرب التفسير إلى الصحة .

وهنا عرف طارق عن سبيل عيونه أن لذريق سائر إليه في جنده ، وأنه وصل إلى قرطبة واستقر بها قليلاً ، ثم تقدم جنوبياً وضرب معسكره عند شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة في سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية . وتقدر المراجع جيشه بمائة ألف ، وربما كان في هذا التقدير مبالغة ، ولكن الذى لا شك فيه أن عدة جيشه كانت تزيد على عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة ، وأن عدد الفرسان فيه كان عظيماً .

ورأى طارق أن العدد الذى معه لا يكاد يكفى للقاء جيش ضخّم كجيش لذريق ، فبعث يطلب المدد من موسى ، فعجل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك وفيهم عدد عظيم من العرب ، فأدركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة ، وقويت بهم نفسه ونفوس من معه . والغالب أن جزءاً عظيماً من هذا المدد كان من الفرسان ، لأن المراجع تحدثنا أن قوة طارق الأولى كانت كلها من الرّجالة ، في حين أننا سنرى للمسلمين قوة يسيرة من الخيل في المعركة الحاسمة^(١).

ويبدو أن سير المسلمين الموفق في البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق ، فانضم منهم إلى المسلمين نفر عظيم أعانواهم بالقوة والرأى^(٢) ، وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم تحدثهم بتخوّنه وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين في القتال ، ويقال إن ششبرت وأبّه أخوى غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذى عول على الخيانة ، وأنها انتظرا اللحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاها يلقي جزاءه على ما فعل بغيطشة^(٣).

(١) يذهب سافدرا - اعتماداً على المراجع النصرانية - أن عدّة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد . فإذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثني عشر ألفاً ، فإن عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة عشر ألفاً ، أى : أكثر من الجيش نفسه ، وهذا أمر مستبعد ، بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامى .

CF.: Crónica Silense, no. 16

RODRIGO XIMÉNEZ Arzobispo de Toledo (i.iii.c.20)

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج٢ ص ١١ .

الرازى في المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ص ١٦٢ .

ويُفهم من رواية المقرئ أن الذى دبر الخيانة لم يكن أبناء غيطشة وأخويه فقط ، وإنما نفراً كبيراً من القوط كانوا غضاباً على لذريق .

(٣) انظر : ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣ .

ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر الخيانة ، فأحب - قبل أن يلقي المسلمين - أن يتعرف ما لديهم من القوة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً فولت هاربة ، وأنبات لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه^(١).

١٩. معركة وادي البرباط، ٩٢هـ (٢) (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١) على وادي برباط على مقربة من شذونة ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم وحى وطيسها في اليوم التالي ، وأظهر البربرالذين أتى بهم بليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقامهم من خيار غمارة وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطى . وكان طارق قد قدم نفراً من السودان بين يدى جيشه ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطى الأولى^(٣).

وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمة فى أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان ، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين عليه ، ويبدو أن بليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخذلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظفر بالغنيمة ، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذريق - وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه - فلم يلبث فرسانه - وهم خيرة جنده - أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره^(٤). وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى فى جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ من بقى منه بالفرار وأسياف المسلمين فى أقفيتهم .

(١) الرازى : برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٢) الرازى : برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٣) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً فى الفتح ، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب فى الأندلس ، وسنتبه إلى ذلك فى حينه .

CF.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 71.

(٤) تجمع المراجع العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والعرب . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذى قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة وهما أبه ، وششبرت ، وكان أحدهما على خيل لذريق فى هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد فى أمر هام كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذريق سعى فى الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الخامسة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة - وقد ترعرعوا وركبوا الخيل - يدعوهم إلى مناصرتهم وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢-٣ .

وقد قُتل من القوط في ذلك اليوم عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل فغرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلا على خُفِّه^(١). ولكنه لم يمض في هذه المعركة كما سنرى ، وسيقوم بدور خطير فيها بعد . وقتل فيها أيضاً شمشيرت ، وكان ممن تخلى عن الذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة ! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة خنائهم لا تكاد تحصى ، ولعل أكثر ما يهتأ منها هي الخيل ، فقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة حتى لم يبق منهم راجل . وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، وبقي منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة ، فأصرع بهم طارق نحو قرطبة تتقدمهم هذه الشرذمة الباسلة من السود التي أبلت في هذه المعركة بلاء طيباً^(٢).

ولم يكذب خبر هذا الانتصار يصل إفريقية « حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق » ففاض سيل البربر على الأندلس ، وأخذوا يستقرون في النواحي المفتوحة . وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هذه الواقعة ، وأسلم الآراء هو أن نقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيماً ، ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجعفل اللجب دفعة واحدة ، فمال إلى تفريقهم في بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحي .

وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شئون الأندلس كلها ، « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال » كما يقول الرازي^(٣). وحسب حزب غيطشة أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم^(٤) ، وفعلوا بذلك وقوله (أخيراً) جهداً لكي يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره

(١) لا يقطع ابن عذارى بموت لذريق ، ويكتفى بقوله : « ولم يُعرف للذريق موضع ، ولا وُجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفقوض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل . والله أعلم » .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٧ .

الرازي ، برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج ١ ص ١٦٣ . وهو يقول : إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين ، أي : أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون .

(٣) رواه المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) يقول رodericus : الطليطلي :

... et rex Rodericus, cum esset magnanimus, antequam fugeret, permitteret se occidi, et eo mortuo, posset eis regnum perditum provenire ...

RODERICUS TOLETANUS. De Rebus Hispaniae, Lib. III cap. 20 Cf. SAAVEDRA. Op. cit.

p. 76.

ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر له لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لفريق لم يقتل ، وعمل هؤلاء الغيطشيون من جهة أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار في الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق ، وأما يليان فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء^(١).

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى إفريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد نصر سيطة ، ولكن طارقاً كان أبعد نظراً من عبد الله بن أبي سرح ، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى إفريقية ، فمضى مسرعاً نحو استجة ليعبر شنيل من غاضتها في طريقه إلى قرطبة ، ويبدو أن عدداً عظيماً من بقايا جيش لفريق كان قد تحصن فيها لأن طارقاً لقي فيها مقاومة عنيفة ، واحتاج إلى عون يليان الذي خف إليه مسرعاً . ويبدو أنه استبان كثرة مَنْ مع طارق وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة ، فنصح به بأن يفرق جنده في بعث جانبية ، فقال له : « قد فتحت الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ففرّق معهم جيوشك ويسّر معهم إلى مدينة طليطلة » . ففرّق جيوشه من استجة^(٢).

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صلحاً ودخل في طاعة المسلمين^(٣) ، وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليطلة . ولو قائد غير طارق لاتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلاً في الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم بعض ما كان يدور إذ ذاك في طليطلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بإفناق الوقت في الحصول على مدائن جنوبى الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة ، فعجل بإرسال مغيث الرومى في قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته ، ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليطلة ليصل إليها قبل أن يُحْكَم أنصار لفريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيطشة أمراً لا يكون في صالح المسلمين .

= والمرادى إشارة هامة تؤيد هذا الرأى . قال إن يليان قال لطارق : « قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد ليضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولى رأىهم » مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئاً في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليطلة رأساً لتدارك الأمر .

انظر : المقرئ - نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل في هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرقى الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحي إلا في ولاية عبد العزيز بن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحي وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرّق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة^(١).

وكان جيش المسلمين يزداد عدة في الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على لذريق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمان للماء^(٢)، فقد كان حالهم معهم كما رأينا سيئاً جداً ، ولا نزاع في أن طارقاً أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التي انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه في هذه الأباطح الفسيحة التي لم يكن المسلمون يعرفون عنها شيئاً ، وهكذا أسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا القائد المجدود طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالى والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠- احتلال عبر طارق الوادى الكبير عند منجبار (Manjibar) وسار في الطريق القديم طليطلة الذى كان يعرف في عهود الرومان باسم طريق هانيبال^(٣) ، ودخل طليطلة من غير مقاومة تُذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلّى بالجواهر الذى اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة الجامعة ، فقد سَمَوْه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠ .

المقرئ : نفع الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 79.

(٢)

(٣) يذكر المقرئ أن طارقاً سار إلى طليطلة في الطريق المار بـجَيَّان ، وهذا يأذن لنا في القول بأنه اتبع طريق هانيبال الرومانى ، لأنه كان طريقاً معمولاً إذ ذاك ، وفيه غمر الآن سكة حديد الأندلس .

المقرئ : نفع الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .

Cf: SAAVEDRA. Op. cit. 79 .

القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى^(١).

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتشروا عنها طالبين الحرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أسقف البلد سِنْدَرْدُ وكبار قساوسة المجمع الطليطلى فضّلوا ترك البلد ينعى من بناءه وتوجهوا إلى روما . ولم يشغل طارق بالغنائم والذخائر وإنما مضى قُدماً حتى أدرك وادى الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بليدة تسميها المراجع العربية « المائدة » على مقربة من قلعة هنارس^(٢) ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكي يقضوا الشتاء في طليطلة ، وكانت الغنائم قد أنقلت العسكر إلى حد عظيم .

ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) واشترقة (Astorga) في ذلك

(١) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن ضارفاً غنم هذه التحفة الثمينة في « مدينة المائدة » ، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس (Acala de Henares) . وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) ، وهي ليست كذلك بائدة أصلاً ، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة « مائدة » بهذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة المته عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بهال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشماسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويصفونها على المذابيح في الأعياد لنمباهاة بزيبتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السيل ... » وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة .

ولسنا نعلم كيف وجدته المسلمون في قلعة هنارس ، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسه ، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع ، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدّثونا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط في طليطلة ، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حينما أدخلوها لاقترب المسلمين .

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أى حال من تصور هيئتها تصوراً صحيحاً ، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذارى والمقرئ وصاحب فتح الأندلس يتفقون في وصفها اتفاقاً حرفياً ، فهي عندهم « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب أنهم يريدون أنها كانت حملاة بالزبرجد الأخضر . أما عن حجمها فإن صاحب الأخبار المجموعة يوقنا في حيرة شديدة ، لأنه يقول تارة : « ولها ثلثائة رجل وخمسة وسبعون رجلاً » ! ويقول تارة أخرى : « ... وعمل لها سقف من خوص فأدخلها فيه » .

انظر : ابن عبد الحكم ، فتح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٧ ، ١٩ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وفتح الأندلس : ، ص ٩ .

الحين كما يزعم بعض المؤرخين^(١)، لأن الشتاء كان قد ائتمرب ، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم ، والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير .

٢١. فتح قرطبة وأما مغيث الرومى ومن معه من الرجال - ولم يكن عددهم ليزيد على سبعمائة فارس - فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادى الكبير مقابل قرطبة ، وكانت القنطرة التى تصل الشاطئين مهدمة فى ذلك الحين ، فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور . ولبثوا حيناً مترصدين محتبين فى غابة بين قريتي شقندة (Secunda) وطرسيل^(٢) على الضفة اليسرى للوادي الكبير ، وأخذوا من مخبئهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه .

وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربى من البلد ، وتركوا جزءه الشرقى للأهلين ، كما كان الرومان قبلهم يفعلون^(٣) ، وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون ، وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر الضخم ، ولكن الظاهر أنه كان متداعياً فى بعض أجزائه لأن العرب سيفذون من ثغرات فيه .

وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة هو الجزء الذى كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه ، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التى ستصبح جامع قرطبة الكبير فيما بعد ، ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفر من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم ، وبمعاونة هؤلاء استطاعوا عبور الوادى الكبير فى ليلة غزيرة المطر من ليالى أغسطس^(٤) ، عبروا فى مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة ، نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور ، وظل قائماً أيام المسلمين، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها .

(١) أنظر : ابن حيان عند المقرئ : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٧ .

(٢) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad . أما عن طرسيل فانظر تعليق سافدرا فى كتابه المذكور آنفاً ، ص ٨١ ، هامش ٢ .

(٣) SAAVEDRA. Op. cit. p. 82 .

(٤) يقول الرازى : « وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً ... » .

المقرئ : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٤ .

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دلم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلق السور . ولم يكذب نذر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم^(١) ، وحدثت في البلدة هجمة أفاقت على أثرها حامية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم في الجزء الغربي الذي سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبه (يسمى اليوم لافيليا = المدينة) ، وكان الحاكم مقيماً وحده في قصر منيف من الضاحية التي ستعرف أيام المسلمين بربض الوراقين ، فأسرع إلى حاميته ، ولم يمهله العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة القديس أنيسكلو (San Acisclo)^(٢) وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها .

واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجرى إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفتن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين^(٣) . وقد صبر هؤلاء المحصورون صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيماً ، ويذهب الرازي إلى أن مغيثاً أوقد النيران في الكنيسة حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً وليس فيها للنار أثر^(٤) . وأراد قائد المحصورين الحرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قُطْلِبْرَة وكاد ينجو ، لولا أن عثر به جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسرته ، وكان هو القائد الوحيد الذي أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا ليذهب به إلى الخليفة ونازعه فيه موسى بن نصير فبنا بعد ، فلما اشتد النزاع بينهما عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

(١) الرازي برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٤ .

(٢) يسمى صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجليح ، وقد ورد في تقويم قرطبة لعرب الذي نشره دوزي أن هذه الكنيسة هي سان أنيسكلو بالعجمية .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية .

وانظر كذلك : سافدرا ، المصدر المشار إليه ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط ، فقد وقع في يدهم وحسبه مصبوغاً فحاولوا إزالة لونه بالفسل والحلك حتى أعتته ! ثم تركوه يمضي غير مقلدين أنه عين عليهم ، فلما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء . ولنا نعرف إن كنا نقبل هذه القصة أو لا نقبلها ، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسود حتى الساعة .

الرازي - في المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٥ .

(٤) الرازي ، نفس المصدر والصفحة .

أما بقية الحامية فقد قُتِلَت عن آخرها عند باب الكنيسة التي اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطي^(١) ، الذي سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم في عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة في حوزة الإسلام ، ثم عمد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازي^(٢) .

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون في الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلل هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح في كل مرحلة من مراحلهم . وهذا أمر طبيعي ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً ، فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وآزروهم ، فجزاهم المسلمون بذلك . وللرازي في هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل للتاريخ الأندلسي عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القسبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »^(٣) .

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره في العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطشة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه . ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم ، وهى كثيرة فأمضاها لهم . ويبدو أنهم استقلوها وطمعوا في المزيد ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه في المسير إلى موسى بن نصير في إفريقية وسأله الكتابة إليهم بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل .

(١) في هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : « ودخل مغيث بلاط قرطبة فاخطفه » .

والبلاط هو القصر ، عن palatum اللاتينية كما هو معروف .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ .

(٢) الرازي ، في المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٣) الرازي ، عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألخوا على موسى في الزيادة ، لأنه - على قول الرازي - أحاطهم على الخليفة نفسه^(١) فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميره ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلاً ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة - هي بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة - فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألد ألف ضيعة في الغرب واستقر في إشبيلية ، وأخذ أرتباس ألفاً في وسط الأندلس واستقر في قرطبة ، وأصاب أخيل (وقله) ألفاً في شرق الأندلس وفضل الإقامة في طليطلة في ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكذب بسمع بأخبار ما
٢٢. عبور
موسى إلى الأندلس
وفق إليه مولا طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلاً متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولا وأميره ، وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول ، فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناءى جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية .

ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشير في أمرهم ، وإننا المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط في أوربولة أو إشبيلية مثلاً السير إلى استجة أو شذونة وفصل الجيش الإسلامي في الشمال عن الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانئ الاتصال بإفريقية .

(١) الرازي ، برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين في شيء من الرواية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم ، فيذهب ابن حيان مثلاً إلى أن موسى « تنكب الجبل الذى حله طارق ، ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان: نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلك على مدين هي أعظم خطراً وأوسع غنائاً من مدينته ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فملىء سروراً » .

وهذه عبارة إن دلت على شيء فعلى بُعد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى ، ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بُعد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين ، لم يكن من الحكمة في شيء السير به في بلاد ومدائن قد فتحت فعلاً ، إنما الحكمة في استخدامه في فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغنم فظاهر ، لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالاً ، وليس للحسد في مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً ، مهما كان الحال ، مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح ولحسابه يغنم^(١) .

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح ، فلما تم له ذلك سار إليه ولقيه في طلبيرة على مقربة من طلبيلة . وقد أطنب بعض المؤرخين في وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء ، فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهمم بقتله » لولا تدخل مغيث الرومى . وكان طارق قد كتب إليه من محبته يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسىء إلى طارق ، ثم ذهب مغيث - كما سنرى - إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدعوه للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدى عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل^(٢) .

ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لافتراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق فمرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومى ، فقد كان محققاً على موسى مولعاً بالكيـد

(١) ابن حيان عند المقرئ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٠ .

له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهاز فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبائع في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الآتفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أخرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق وونبه » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلاً من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما في اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره ابن عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل في العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : « قالوا : ثم إن موسى اصططح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (١) .

وعندنا أن ابن حيان أصبح من ابن عبد الحكم في هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبيغ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته ، ولو كان موسى « مغيضاً » على طارق إلى هذا الحد الذى يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه - أى موسى - أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب إليه أن يخرج للقاءه في طلبيرة فقط ، وقد كان مستطيعاً استدعائه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حربي سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدي الخليفة . ولو كانت بينهما هذه الخصومة لسمعنا لها صدى - ولو خافتاً - في المشرق بعد أن عادا معاً .

(١) ابن حيان عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وللمقرى رواية تؤيدنا في هذا المذهب ، إذ يقول : « ... ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصر لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلاتك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبحه هنياً مرياً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط...»^(١).

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التي تصور القائدين المسلمين العظميين متعاضدين إنما مرجعها إلى مغيث الرومى ، وللمقرى عبارة تؤيدنا في هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العليج صاحب قرطبة الذى كان فى أسره . فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سوى ، وكان يدل بولائه من الوليد ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه فليل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ففعل . فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلماً مع طارق الساعى عليه » . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث ، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويتربص به الدوائر ، وأنه كان يُدِلّ بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله في موضع ممتاز .

ولما كان موسى بطبعه رجلاً فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز بن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فإنه من الطبيعى ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الجفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة في زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه - أى إلى سليمان بن عبد الملك - طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة ، وقالوا له إنه قد غل جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجده ضغيثاً عليه»^(٢).

ومما يؤيدنا في ذلك رأى أيضاً أن مغيثاً هذا - الذى يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق - لم يكذب يسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملاً على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه

(١) نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٥١ .

واقراً عبارة ابن حيان ، نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه في ذلك في الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التي رجا فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان بن عبد الملك الأندلس في يد عبد العزيز بن موسى^(١).

ولا شك في أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه في الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك في أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فإن الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبّرت جميعاً بإحكام من أول الأمر . والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التي يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاه ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه.

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق، ولا يثبتنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة »^(٢)، ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكي يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر في جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخير الأجناد الذين صاحبوه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسرعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة في استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا في البلاد شوطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرقة في البلاد تستطيع أن تنقض على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

(١) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٩ .

ابن عذارى ص ١٨ .

وهو يروى قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول : وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة .. الخ ، مما يدل على أنه يشك في هذه الرواية .

(٢) قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث ! .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يؤمن ظهور المسلمين ، وكان قد فُرق كثيراً من جنوده مع المسلمين في كل ناحية ، وأحس في مقامه هذا أن القوط يتجمعون ويدبرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة^(١) . ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشيء من هذا ، لأن الرازي يذكر أن طارقاً رجاء أن يكتب إلى موسى ليعجل العبور^(٢) . ويؤيدنا في ذلك الظن ما يذكره الرازي من أن طارقاً أقام - بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة - في طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً^(٣) ولو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شيء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيماً ، وكانت المقاومة في نواحي البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خَفَّ يليان للقاءه خفوف المنتظر المترب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر^(٤) . فلو لم تكن الأحوال مضطربة مخوفة لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولسار موسى إلى طليطلة قدماً ليلقى طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . ويدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطر في أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ - يونيو ٧١٢ م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جُلُّهم من العرب وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمانية ومعهم أتباعهم ومواليهم ، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى في فرقة واحدة عليها محمد بن أوس^(٥) . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم

SAAVEDRA. Op. cit. p. 92 .

(١)

(٢) يقول الرازي في النسخة الإسبانية التي بين أيدينا :

"et embió luego à rogar à Don Juliano que le diese pasaje ..."

CF : GAYANGOS . La Crónica del Moro Rasis , n . 7 .

(٣) يقول الرازي :

"... oyó decir que folgaba en Toledo et que non se trabajaba à otra cosa ..."

Cf : GAYANGOS . Op. cit. n. 8.

(٤) الإدريسي : نزعة المشتاق ، ص ٢١٣ من ترجمة دوزي .

(٥) انظر : الضبي : بغية الملتبس ص ٥١ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦-١٧٧ .

وقد تحدث الرازي عن هؤلاء التابعين في شيء من الإفاضة ، وذكر أنه دخلها صحابي واحد هو المنيزر الإفريقي ، سمي الإفريقي لأنه سكن إفريقية .

الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجري العرب إلى الأندلس يُعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمي الأندلس زمناً طويلاً ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم في سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظرهم في مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تزد على ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلا عامرين قروناً طويلة .

نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمي مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)^(١) فاستولى عليهما ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة واستجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح في إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيلية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك .

= أما التابعون فهم : موسى بن نصير ، وعلى بن رباح التميمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل : إن رابعهم هو حنش بن عبد الله الصنعائي (صنعاء الشام) .

وقد قفل هؤلاء من الأندلس بقفل موسى ، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل إلى المشرق ، وقبره لديهم مشهور بتركوا به . ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو : عبد الرحمن الحبلي واسمه عبد الله بن يزيد ، وسادساً : هو حيان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار ، وكان في ديوان مصر فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وبلى ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين . الرازي عند المقرئ ج١ ، ص ١٧٦ .

وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سعيد وابن حبيب والحجاري في : المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٨٢-١٨٣ .

(١) ورد اسم هذه المدينة في المراجع العربية بصيغ مختلفة : رعان زعواق ورعواق ، وقد أثبت لافونت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربية هو رعان ، وأنها هي قلعة جوادايرا (Alcalá de Guadaira) ، انظر : LAFUENTE ALCANTARA . Ajbar Machmua , indice geografico.p. 256 ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا في نفع الطيب رواية عن ابن حيان وفي الأخبار المجموعة ، وقد كادت تستعصى على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار يليان ، إذ تسربوا إلى داخل البلد في هيئة المستأمنين ، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين .

انظر : ابن حيان عند المقرئ ، ج١ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٦ .

٢٣. فتح إشبيلية سقطت إشبيلية في يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال ، ويبدو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد ، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى كَبْلَة على مصب وادي آنة ومنها إلى أكشوبنة (Sta. Maria de Faro = Ossonoba) ثم إلى باجة ، وهناك راحت تنتظر الحوادث . وترك موسى في البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود ، ثم سار قاصداً ماردة متبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدين ، واستولى في الطريق على بلد يسمى لَقَنْت^(١) سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك « موالى موسى »^(٢) .

٢٤. فتح ماردة فلما أدرك موسى ماردة وجدها أحصن وأقوى مما ظنها ، فقد كان أنصار لذريق والهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالي ، ولم يسلم البلد إلا في الثلاثين من يونيو ٧١٣م (١ شوال سنة ٩٤هـ) بعد قتال طويل هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كئيب أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد . وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شئ يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argama-sa)^(٣) . ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على « أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها » ، وهى شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالى فيها بعد^(٤) .

(١) قال ابن القوطية : « ثم قصد من إشبيلية إلى لقنت إلى الموضع المعروف بفتح موسى في أول لقنت إلى ماردة » - افتتاح الأندلس ، ص ٩ .

ولا يعقل أن تكون لقنت هذه هى لقنت المعروفة في جنوب الشاطئ الغربى لشبه الجزيرة . وقد قرأها سافدرا لَقَنْت أو لاکانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos) .

CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 94 et note 2

(٢) فتح الأندلس : ص ١١ ، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONALEZ بخصوص هذه العبارة ، ص ٩٣ من الترجمة .

(٣) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه محرفاً فكتبه « الاشة ماشة » .

ابن حيان ، عند المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٠ .

(٤) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في الأخبار المجموعة ونفع الطيب للمقرئ ، وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل هامة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن الهام ، ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التى كانوا يجتنبون تحتها لنقب سور البلد ، وذكرنا أن هذا الموضع يسمى إلى وقتها « برج الشهداء » لهذا السبب ، وهى ملاحظة هامة . ويذكرنا كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلويته شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم ، وهى قصة مستبعدة الحدوث .

يذهب سافدرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل في دور جديد أثناء فتح موسى لماردة «لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود ، ولم يعد أهل البلاد يفتحونها من الداخل للمسلمين ، ولم يعد المسلمون يبعثون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة ، وتلك كلها دلائل على أن لونا من القطيعة قد وقع بين الأهالي والمشاركة . أما سبب هذا التغير ، فهو أن موسى - في مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة - رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسباني) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم ، وأن مجلس الشيوخ لم يكن يستطيع الاجتماع للتشاور في الأمر ، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عدة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة . هنا بدأت فكرة « ضم » الأندلس تدور في رأسه ، بدأ يفكر في تملك ما فتحه»^(١) .

أى : أن المسلمين قد قاموا بها قاموا به في الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها ، حتى إذا استبان موسى ذلك كله في مسيره من الجزيرة إلى ماردة تغير رأيه ، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم ، أى على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة ، وأن هذا التفكير غيّر نفوس أهل البلاد - الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغيرون يطلبون المغنم لا غير ، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله - فلم يعودوا يؤازرونهم ، ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها ويتقضون معهم على حكام القوط ، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد يريد ببلادهم سوءاً .

وليس في سياق الحوادث ما يؤيد سافدرا في هذا الزعم ، لأن الواقع الذى لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم ، وأن طارقاً كان يسير في البلاد ليدخلها في حوزة الإسلام ، لا ليغنم منها ثم يعود ، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق . ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتبهوا - بعد فوات الوقت كما رأينا - إلى أن المسلمين يفتحون البلاد لضمها إلى دولة الخلافة ، لا لاقتسام غنائم الفتح معهم ، فأخذوا يأسفون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم ، لأن إيزودور الباجى يقول في هذه المناسبة :

= انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

ابن حيان ، في نفع الطيب للمقرى ، ج ١ ص ١٧١ .

... pace fraudifica male diverberans (n.36,v.864) ... pacem nonnullae civitates ... iam coactae proclamitant , atque suadendo et irridendo astu quodam fallit^(١).

ويؤيد سافندرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبله ومدينة يقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلاً ، فقدم فلهم على موسى بن نصير بإعادة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتتحها ورجع^(٢) . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن من أين استدل سافندرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المنهزمة التي كانت تتجمع في نواحي الغرب ، وأن هؤلاء إنما جرؤوا على الانقضاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبان لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم؟

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبله أو باجة ، فلو أن هذا هو الذي حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبله وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخذ الثورة ، وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملته لهم ، ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفر من القوط ، من حاميات البلاد التي فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامي عنها ، تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين في إشبيلية سار إلى لبله وباجة^(٣) ، وربما إلى أكشونة ، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط ، ثم ترك في هذه البلاد جميعاً

ISODORO PACENSE .Cronicón, 36 apud LAFUENTE ALCANTARA, Ajbar Machmua, (١) apendice pp. 147-148.

وقد أيد سافندرا رأيه هذا بفقرتين : الأولى من « مدونة البلدة » (Cronicón Albeldense) يقول فيها : « ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات » (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانية عن تاريخ راهب سيلوس (Cronicón Silense) فقرة ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ص ١٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

حاميات إسلاميه لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط . ويدلنا نص من المقرئ على أن حامية باجة كانت قوية ، وأن قائدها كان قائداً عربياً معروفاً ، هو عبد الجبار قائد مسيرة موسى وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التى سيكون لها شأن^(١).

وأقام موسى شهراً فى ماردة يرتب أمورهما ويريح جنده بعد هذا العناء الذى تكلفوه فى فتح هذا البلد ، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة فى هذه الناحية كانت أقوى ما لقى المسلمون فى بلاد الأندلس إلى الآن ، وأنه عرف أن فلول القوط - وأنصار لذريق خاصة - كانوا يتجمعون فى هذه النواحي الجبلية الوعرة ظناً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليها ، واستعداداً للهرب إلى نواحي قشتالة وإسترامادورة إذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من غرب الأندلس ، لأن سير الفتح الإسلامى سيبطؤ وسيصطدم بعقبات فى هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولاً دون عقبة ظاهرة .

وقد رأينا القوط فى إشبيلية ولبلة وباجة كيف « تجالَب فلهم » من هذه النواحي كما يقول ابن عذارى ، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً ، وأنه لم يفتحها إلا بحيلة ، وأن المسلمين خسروا فيها خسائر لم يخسروها فى قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة ، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع فى هذه النواحي الوعرة من كل جانب .

فإذا صح ذلك ، كان مسير طارق للقاء موسى بعد فراغ هذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولاً ، لأن الإنسان يتساءل : ما الذى أخر طارقاً عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان فى أشد الحاجة إلى العون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها ؟

ولا يُفسَّر هذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمنه من حمل يقوم به قوطها ، فلما فرغ من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة أحس أن الطريق طويل مخوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت « تتجالب » وتتجمع فى هذه النواحي . فلما وجدت موسى يأخذ فى الطريق رأت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته فى معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هو السبب الذى حفز طارقاً إلى المسير للقاءه . ولا يعلى سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المجيء إلا فى هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله فى هذه النواحي الفسيحة المجهولة للمسلمين .

(١) المقرئ : فتح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج ٢ ، ص ١١ .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادي آنة ونهر التاجة في ذلك الحين ، فقد كان لذريق قد تراجع بمن يقى له من فلوله وتحصن بهم في شعاب الهضبة ، مما يلى وادي آنة إلى الشمال في جبال سيرا دفرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة واسترامادورا في السهل الفسيح الذى يحيط بسلمنقة ، ولبثوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في ظهره ، بل كان لابد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة و طليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً وانتظر مولاه في وادي الأروكامبو (Arrocampo) في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار^(١).

وأما موسى فقد سار في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة بحذاء نهر سيحمل من ذلك الحين اسمه ، وهو فالموثا (Valmuza) أى نهر موسى^(٢). وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذا الطريق الطويل وبُعدهم عن أى مركز يستطيعون طلب المعونة منه ، وانقضوا على جيش موسى في ناحية يسميها بعض مؤرخي

(١) يقول بهذا الرأي سافندرا وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء إلى الصحة في صدد نهاية لذريق . فإن المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي لكة ، وتكتفى المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق . وسيرى القارئ في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 98 sqq .

(٢) ونعين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذى التقى فيه بطارق على وجه التقريب ، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف ، فابن عذارى مثلاً يقول : « اتفق الأكثرون على أن اللقاء كان على طليطلة ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازى أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه ، فلقبه بمقبرة من طلبيرة ... » وإشارة الرازى تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير . وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن اللقاء وقع في ناحية يرسمها « ماند » من غير نقط ، ويمكن قراءتها تايد أو تاير اعتياداً على عبارة أوردها ردريجو أسقف رادا في تاريخه : *iuxta rivum qui Teitar dicitur* .

ولما كانت بعض المراجع الإفريقية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz - وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن أصله « المعرض » ، وهو مكان على مقربة من طلبيرة على نهر التيتار - فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائد المسلمين الكبيرين وقع هناك .

ابن عذارى : البيان جـ ٢ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

RODERICUS TOLITANUS . De rebus Hispaniae, I, III, cap. XXIV

CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 98 .

المسلمين « السواقي » وهي (Segoyuela de los Cornejos) على مقربة من تَمَامِس (Tamames)^(١) ، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقتل لذريق نفسه ، قتله مروان بن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط ، وقد حل أتباعه رفاة بعد ذلك ودفنوها في فيزيو ، وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير ، فقد ورد في حوليات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه لوحة تقوّن: هنا يرقد لذريق ملك القوط .

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التي أهملها المؤرخون إهمالاً شبه تام كانت الأساس الذي دارت حوله الملاحم الإسبانية التي نشأت فيما بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر^(٢) ويذهب المؤرخ الإسباني مودستو لافونتي إلى أن أفراد حزب غيطشة كانوا يؤملون - بعد مقتل لذريق - أن يقيمهم المسلمون ملوكاً على البلاد ، ولكن موسى خيَّب ظنونهم حينما

(١) لم يذكر هذه الوقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازي (في الترجمة الإسبانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف ، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذي وقع فيه اللقاء الأخير يسمى « السواني » في نسخة و « السواقي » في نسخة أخرى ، وأما الرازي فيسمى هذه الوقعة La batalla de Saguyue ، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السواقي . أما مقتل لذريق على يد مروان بن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة في الإمامة والسياسة . انظر :

Fragmentos inéditos de la crónica llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA. Op. cit. apendice 145 sqq.

فتح الأندلس ص ٨ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة . ج ٢ ، ص ٧٦ .

ولا شك في أن تسمية الرازي لهذا الموضع بـ Saguyue كانت الأصل الذي أخذ عنه المؤرخون الإسبان وقصاصهم اسم هذا الموضع ، فقد كتبه « فرناندو جنزالد » في قصيدته الطويلة عن لذريق Sangonera ، وكتبه « ردريجو كارو » سانجوبيللا .

CF.: FERNANDO GONZALEZ, El Ultima Rey Godo, Copla 79.

RODRIGO CARO, Antigüedades y principado de Sevilla, f., 122 v.

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 100 sq .

(٢) فتح الأندلس، ص ١٢ .

أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها لخليفة المسلمين في دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بُدأ من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة^(١). فاستقر أخيل (وَقَلَة) في طليطلة وعاش آمناً في ظلال المسلمين ، وخلفه ابنه أَلْبَرُو (ألفارو) ثم حفيده حفص الذي أصبح فيما بعد قاضياً للنصارى . وأما أَرطباس فقد استقر في قرطبة مكرماً معزراً وأصبح له بين المسلمين مكان مرغى ، واحتفظ بلقب « قومس » وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما أَلْنَدُ فقد اختار المقام في إشبيلية وأنجب ابنة هى سارة ، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وابن بن هاجر أحدهما إلى الشمال وبقي أحدهما في بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعربين جميعاً فيما بعد . وكافأ موسى أبه (Oppas) أخا غيطشة -الذى طالما ساعد المسلمين وأعانهم - بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، والظاهر أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين لأن إسبانياً آخر هو « أوربانو » لم يلبث أن خلفه في هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩م^(٢).

ولم يكد موسى يستقر في طليطلة حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع
 منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولستنا نعلل ضرب موسى لهذه
 العملة الذهبية - التى كانت في ذلك الحين من حق الخليفة وحده - إلا
 بأن الخليفة كان قد خوله هذا الحق في إفريقية فأباحه لنفسه في الأندلس،
 لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال
 هذه الفترة القصيرة في إسبانيا بالعملة الإفريقية التى ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠هـ .
 وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ،
 ففي ناحية منها كتب « محمد رسول الله » يحيط به النص التالى باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini, non Deus nisi Deus . Solus Sapiens. non Deo simili
 Alius

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية :

MODESTO LAFUENTE. Historia general de Espana, II, 479 .

(١)

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤-٥ .

DOZY . Recherches , I, p. 79

EL cronicon Silense, n. 20

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 104 - 105 .

Solidus Feritus in Spania

وبلى ذلك تاريخ سَكَّها وهو سنة ٩٧هـ^(١).

وضرب موسى كذلك عملة برونزية صغيرة لاتينية الكتابة .

ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد يُنْهِيَان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي على بن رباح ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومي فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً بيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً في تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد^(٢).

٢٦. السيرة نحو الشمال
فلما اطمان موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسيرة نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة ، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انعدت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال البرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب^(٣) . وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيد به هذه الأقوال، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر في أمر خيالي عسير التحقيق كهذا. وكل الذي نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم في اتجاه الشمال الشرقي ليفتح حوض الإيرو وما فيه من

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 106-107 .

(١)

LEVI-PROVENÇAL. Hist. De L'Esp. Mus. pp. 20-21.

والمراجع المذكورة هناك .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

ويسهب ابن عبد الحكم - على غير عادته - في تفصيل ما فعل موسى بطارق ، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإنقاذه . ولنا نفهم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس في المشرق ، ولما كان مغيث هو الوحيد الذي أتبع له الحديث إلى الخليفة ، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات . ورواية المقرئ تؤيدنا في هذا .

(٣) يذكر المقرئ أن موسى حينما أدرك هذا الموضع القاصي من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) وجبال البرت ، فكر في اختراقها والاستمرار في الفتوح ، وأنه « كان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً » . ولنا نستطيع تحقيق قالة كهذه ، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح في استدعائه لأتم فتح جليقية - كما يذكر المقرئ - أو لاخترق جبال البرت وأفضى إلى غالة . أما ما يزعمه المقرئ من وصوله إلى نهر الرون (ردونه - من Rodanus) فأمر غير صحيح ، وسنرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيراً من أعمال الفاتحين المسلمين عن أنى بعد موسى في حملته تلك ونسيوها إليه .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

مدائن . وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده ، وتقدم الجيش محمد بن إلياس المغيلي أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادى الحجارة دون كبير جهد^(١).

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فزاهم في غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالاً سلمياً فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا ، وقد بلغ من إصراره في هذا الوجه أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسلك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقله الحساب فيما يفعل .

ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر . فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولا يؤمّنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يُذكر^(٢) . ولم يكد المسلمون يستقرون في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله السبأى الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدِّر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي^(٣) .

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة ، وأحب أن يتابع سيره نحو البرت ، ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من فقر هذه النواحي وقلة عمرانها ، ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقع من العرب موقعاً غريباً . وظنوا أنهم لا يتكلمون^(٤) . واستوحش الجند من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم في العودة ، وانضم إليهم

(١) شهاب الدين الفاسي برواية القرى : نفح الطيب ترجمة جايانجوس ، ج١ ، ص ٥٣٣ .

ISODOR PACENSE. Cronicon, n. 36. versos 871-873.

(٢)

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١١ .

الضبي : بغية الملتبس ، ص ٢٦٣ .

المقرى : نفح الطيب ج٢ ، ص ٤ .

(٤) «... وفتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم حتى أتى قوماً كالبهائم ، وغزا بلاد الإفرنج...» .

ابن عذاري : البيان ، ج٢ ، ص ١٨ .

التابعى حنش الصنعاني ، وأخذ موسى يحاول إقناعهم بضرورة الاستمرار^(١) .

وفي ذلك الحين وصل مغيث الرومى عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق ، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة : وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك ابن مروان لا بد أن يكون قد تقوّل عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضى مغيثاً حتى يدعه يمضي في إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي سيفتحها في هذه المهلة ، ومنحه القصر الذي كان يسكنه حاكم قرطبة في الجزء الشرقي منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يُعرف فيما بعد ببللاط مغيث^(٢) . فإذا اطمأن موسى إلى ذلك فقد تابع سيره في قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها وليؤمّن طليطلة من غدر أى عدو للمسلمين يكون فيها^(٣) . واستقر رأيه على أن يقسم جيش المسلمين قسمين : قسماً يسير به هو ، وقسماً يسير به طارق .

عهد موسى إلى طارق في السير نحو جبال كُتَبَرِيَّة ، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربى الإبرو فلم يجد صاحب الناحية « فُزُون » (Fortunius) بُدأً من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه نسل « بنو قسى » أصحاب الثغر الأعلى الذين سنلقاهم كثيراً على طول تاريخ المسلمين في الأندلس^(٤) ثم تابع طارق سيره ، واستولى على أمايا واشترقه وليون^(٥) .

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو في إقليم قشتالة ، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي بعض المقاومة عند قرية تسميها المراجع بارو - أو بازو - في مقاطعة فالبادوليد (بلد الوليد) الحالية^(٦) ، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متابعاً فتوحه . وبدلاً من أن

٢٧. أقصى ما

وصلت إليه فتوح

المسلمين في إسبانيا

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص ١٣٧ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ .

(٣)

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٣ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ . وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة ٧١١ ، وهو خطأ واضح ، وقد بيناه في حينه .

(٦) كتبها المقرئ بارو وبازو ، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك فيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى فيزيو من هذه الناحية في هذا الوقت القصير . وقد حقق موقعها سافندرا وقرر أن المراد بها فلياباروز (Villabazur) وبهذا تكون صحة الاسم الذي أورده المقرئ باروز .

نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ .

يعرج على اشتقة ليلتقى فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tar-na) وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalón) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها المقرى لُكْ (Lucus Asturum) الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد من أيبُط (Oviedo)، وما زال بها حتى سَوَّاهَا بالتراب وفرَّ من كان بها إلى مكان قاصٍ من الشاطئ يسمى الصخرة (Picos de Europa) . ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijón) وأقر فيها حامية ، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاي (Pena de pelayo)^(١) .

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال في السير ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة ، فاكتفى موسى بوصوله إلى خيخون ، وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً^(٢) .

والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس ، ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سترى ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتتهدد المسلمين كل فرصة تسنح ، وكانت معظم الحاميات التي خلفها المسلمون من البربر ، وكان أكبرها حامية استقرت في خيخون على الغالب يقودها زعيم بربرى سيكون له شأن ، هو « مونوسة » .

(١) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها في أيام موسى في دفعة الفتح الأول ، وإليك عبارة المقرى بهذا الصدد نوردها لأهميتها : « ... ومشى معه (أى مع مغيث) حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بازو وحصن لُكْ ، فأقام هنالك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزيرة وسكنت العرب المفاوز ... » .
المقرى : نفع الطيب ، ج١ ص ١٧٤ - ١٧٥ :

SAAVEDRA. Op. cit. p. 117 .

(٢) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفع الطيب ، ج٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٢ .

فإذا انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي فقد كان لابد أن يعود ، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط . بل إلى دمشق رأساً . فقد كان مغيث رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل ، حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولاً آخر اسمه أبو نصر لقيه في « لُك » فأخذ يعنان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً وصل وموسى في سرقسطة في أوائل الربيع ، ولما تنقضى على وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل ، وربما كان « أبو نصر » هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس^(١).

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة ٩٥هـ (منتصف صيف ٧١٤م) وكان مغيث قد خف للقاءه ، فالتقى بنواحي ليون ، وهناك أدركهما طارق عانداً من اشتربة ، وساروا جميعاً فاخترقوا فج موسى (Valmuza) في طريقهم إلى طليطلة . ولم يُقِم موسى في طليطلة شيئاً وإنما مضى مجدداً حتى دخل قرطبة ولقى فيها نفراً من كبار جنده ، ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند في ذي الحجة سنة ٩٥هـ ، وكان معهم بليان . وتذهب المراجع إلى أنه اصطحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وهذا أمر لا يصدق ، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء رافق موسى في رحلته ، وأما الباقي فقد ترك في المزارع يزرعها . ونكاد نتفق مع ابن قتيبة الذي يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب وسارهم في موكبه ليدل على عظم الفتح الذي قام به ، وكان موسى ميالاً إلى مثل هذه المظاهر^(٢).

بارح موسى الأندلس في ذي القعدة سنة ٩٥هـ (سبتمبر ٧١٤) ووصل

٢٨- عودة

مصر في السابع من ديسمبر ، وبلغ دمشق في السادس عشر من يناير سنة

موسى وطارق إلى

٧١٥م أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد

للمشرق

أحس باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يترث حتى يصل بعد

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٣ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٩٣ .

الرازي : (في الجزء الإسباني الذي نشره جايانجوس) رقم ١٤ .

فتح الأندلس ، ص ١٩ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص ١٥٨ .

موت عبد الملك ، فتؤول الذخائر التي كان يحملها معه إلى سليمان . ولكن موسى لم يشأ أن يترث ، ووجد الحجى في أن يسير سيره العادى ، فإن وصل والوليد حتى كانت الغنائم له ، وإلا فهى لمن يخلفه بالحق والعدل .

وكان ركب موسى في عودته ركب قائد مظفر أوسع الله عليه في الخير والمغانم ، فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق من أى مال كان يعطى ، ولكن الذى نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات^(١) .

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، فأذهل الناس بما أتى به من الخيرات والمغانم ، بل يُجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه - بعد فتح فارس^(٢) - غنائم موسى ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقي ربه ، وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه ، ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، نعم إن مغياً الرومى لم يدخر وسعاً في تشويه سمعة الفاتح العظيم ، وصحيح أن قالاته لقيت قبولاً من أذان أولى الأمر في عاصمة الخلافة ، ولكن الإنسان يستبعد ما يقال من أن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد ، أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها ما لا يفتدى به نفسه ، حتى لقد كان يستجدى الدرهم والدرهمين « فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب »^(٣) ، لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته .

وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه في زوايا النسيان ، وما نظن أن رجلاً كهذا كان يمكن عقابه بأقسى من ذلك ، فقد فتح الفتوح ومصر الأمصار وكان حقيقاً

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) المقرئ : ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

بأن يعود إلى ما فتح لينظمه أو ليزيد فيه . ولا نزاع في أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذا عاد ، فحُرِّم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التي وصلت إلى شاطئ خليج بسكاية في عام وبعض عام ، وأصاب بقايا القوط الفرصة التي كانوا في أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد طول جهد ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد^(١).

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته في ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً ، ولا تحدثنا المراجع بشيء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو في طريقه إلى الحج في رفقة سليمان^(٢) ، وإذا عرفنا أن سنة كانت قد تجاوزت الثمانين عند وفاته لتبين أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس ، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سنة العالية فاستحسن أن يخليه من العمل وأن يبقى ابنه مكانه في إفريقية والأندلس ، فبقى الفاتح العظيم في صحبة الخليفة حتى مات في ركابه كما رأينا .

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه موسى على يد سليمان فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذي كان يستحقه ، فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأول ، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط ، لأن فتح الأندلس كان أمراً لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الإفريقي ، ولو لم يُفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهدداً بجموع النصرانية . هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسي في ذاته من القيمة والأثر مما يغنى عن كل حديث .

قال المقرئ : « ... فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه . وإن فعل سليمان به وبولده ، وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه بالأندلس - وقد جرى به من أقصى المغرب - بين يديه ، من وصماته التي تعد عليه طول الدهر ، لا جرم أن لم يمتعه الله بعده بملكه أو بشبابه »^(٣) .

(١) انظر تفاصيل ذلك في نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع ، فيذهب الحجارى وابن بشكوال أن موسى توفي بوادى القرى في أسوأ حال .

انظر المقرئ : نفح الطيب ج١ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٨١ .

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملاً ، ولسنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يقال من أن مغنياً وشى به هو الآخر وخوف الخليفة منه ، وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى . والحق أن مغنياً الرومى أساء إلى قائديه إساءة كبرى ، وربما كان دافعه إلى ما افتراه على طارق هو طمعه في ولاية الأندلس ، ولكنه على كل حال لم يفز من ذلك بشيء ؛ لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش في «بلاطه» وأملاكه ، ولكي ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأن عظيم في تاريخ الأندلس الإسلامى ^(١).

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه ، لأنه في الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية ، فإن المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التى أسدلت على بقية حياة طارق ، هذا المسلم الإفريقى المجيد الذى لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً . ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود ، فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطئتها قدماءه ، وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً ، وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضع التى سيشغل ذكرها الناس على مر العصور ، لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل في حساب طارق ، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبر التار ، ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره.

٢٩. استكمال
الفتح
لم توقف عودة موسى وطارق نشاط المسلمين في الأندلس ، فقد بقى فيه نفر من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال ما بدأوا به ، فتذكر الأخبار المجموعة أن سنة ٩٥ هـ شهدت فتح كثير من بلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد ، ويذكر ابن الفرضى أن نعمان بن عبد الله الحضرى عاد إلى الأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق ، واشترك في الجهاد ومات في سبيل الله ، واستمر التابعيان على بن رباح وحش الصنعاني في سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح الله عليهما بنبلونة في أواخر سنة ٩٥ هـ (٧١٤م) . ويذكر ابن خلدون أن المسلمين افتتحوا برشلونة بعد ذلك بقليل ، دون أن يستطيع التأكد من صحة أخبار هذه الفتوحات ^(٢).

(١) القرى : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٥ .

جايانجوس : ترجمة نفع الطيب ج٢ ، ص ٣٩٩ .

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ص ٢٩ وج١ ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .

القرى : نفع الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج٢ ص ٢٦٠ .

وكان ينبغي أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد ، لأن ولاية عبد العزيز بن موسى تبدأ عصر الولاة الذي سنتناوله في الفصل التالي ، ولكن بقيت من الأندلس نواح واسعة في الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها في طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً .

كان عبد العزيز بن موسى فاتحاً نشيطاً ، فقد كانت له يد طويلة في فتوح إفريقية ، وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه في كل عمل قام به في الأندلس ، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التي قام بها أهلها على المسلمين في سنة ٧١٣م ، وأقام عبد العزيز بعد ذلك في هذه الناحية مواصلاً الفتوح في نواحي الغرب ، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ في الغالب .

ولم يكد عبد العزيز يستقر في ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الذي لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين ، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته في إشبيلية ، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامي طوال حكمه ^(١) .

بدأ عبد العزيز بفتح مالقة ^(٢) التي أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير ٣٠-تدمير عناء ، ثم قصد غرناطة ، ويقال : إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوا للمسلمين أبوابها دون مقاومة ^(٣) ، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم مرسية حيث كان يحكم قائد قوطي يسمى تدمير (Teodomiro) ويذهب سافدرا إلى أنه ابن (Ergobado) ^(٤) أحد

(١) ذكر المقرئ في نفع الطيب سبب استقرار عبد العزيز في إشبيلية واتخاذها عاصمة له ، وهو رغبته في أن يظل على اتصال مستمر بإفريقية ، وكانت إشبيلية ميناء كبيراً يسع السفن الكبيرة ، ولم يكن جبل طارق كذلك .

(٢) يذهب المقرئ أن مالقة فتحت أيام موسى ، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى في بعث حاصرها وكادت تستعصى عليه لولا أن حاكمها وقع في يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت . وهذه تفاصيل طريفة ، غير أننا نتبع أن تكون مالقة قد فتحت في أيام موسى وعلى يد ابنه هذا ، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد الرازي : روى ذلك ابن الخطيب . انظر :

CASIRI. Bibliotheca, II p. 105 .

(٤) قال الضي في بغية الملتنس : إن اسم تدمير كان تدمير بن غيدوش ، ويؤيد أحمد بن أنس العذري ذلك في « نظم المرجان » ، ويقول سافدرا بأنه لا بد أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش Gobados ، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أساء القوط المشهورة المتداولة .

الضي : بغية الملتنس ص ٢٦٩ و ٣٣٧ و ٤٠٠ .

كبار قواد غيطشة ، وإلى أن تدمير هذا كان رجلاً نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضل علمه أن يكسب احترام المسلمين بل احترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشتكو إليه غبناً أصابه من عامل الأندلس^(١).

ويذهب الرازي إلى أن تدمير دخل في طاعة المسلمين من أول الأمر ، دون أن يسلم ، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح استجة^(٢) ، ولكن الغالب أن الرازي أخطأ في ذلك ؛ لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أوريوالة (Orihuea) التي كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير ، والغالب عندنا كذلك أن تدمير لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين ، مثله في ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة ، وبقي مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز في أول ولايته سنة ٩٥هـ على ما روينا^(٣)..

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر في أن يحتّمى منهم ، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين^(٤) ، أما المراجع العربية فتكتفى بقصة - موضوعة في الغالب - تدل على ذكاء تدمير وفطنته ، فتذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال في وجه الجيش حتى عقد على نفسه ، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمن ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده ، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أمواله في يديه ، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع ، فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه...»^(٥).

ولسنا نستطيع أن نقبل هذه القصة على علائها ، ولسنا نستطيع كذلك أن نقر المراجع

(١) إيزودور الباجي ، رقم ٣٨ .

(٢) الرازي ، طبعة جايانجوس ، ص ٤ .

(٣) وانظر أيضاً :

(٤)

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ١٣ .

ابن عذاري : البيان ، ص ١٣ .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 88-89.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 127 .

اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين^(١)، وليس من المعقول كذلك أن تدمير سلم دون مقاومة أصلاً، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة. وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر، لأنه كان من أنصار غيطشة الكارهين للذريق وأمره^(٢)، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقرب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تُفتح من غير عناء، وكان المسلمون مجهدين بعد هذه الحروب المتصلة، وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تتاح لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد، فانتهاز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين في شروط التسليم، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان في بلاده، وإن كانت الشروط نفسها لا تختلف في كثير عن معاهدات الصلح الكثيرة التي عقدها المسلمون في ذلك العصر.

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله: أورد الضبي نصه العربي وأورد الرازي صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيري إلى اللاتينية، وأثبت في فهرسه المعروف للمخطوطات العربية في الإسكوريال، وهذه هي الوثيقة نقلاً عن الضبي:

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غبدوش :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحداً من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تَعَبَدَ (كذا، وصحتها تقيّد) وما نَصَحَ، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن: أوريولة وبلتلة ولقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة^(٣)، وأنه لا يأوى لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه، وأنه عليه

(١) انظر مثلاً: إيزودور الباجي، فقرة ٣٨ أسطر ٩٧٠-٩٧٣.

(٢) يُفهم هذا من قول بعض المؤرخين إن طارقاً بعث تدمير في جيش ففتح استنجّه.

(٣) هذه المدن السبع التي عاهد عليها تدمير هي:

وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كُتِبَ في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي ، وحبيب بن عبيدة الفهري ، وعبد الله بن ميسرة الفهمي ، وأبو قائم الهنلي^(١) .

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف لتدمير بالاستقلال في نواحيه ، وأن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذي يدفع الجزية ، فلم يكن للمسلمين حق دخول بلاده ولا التدخل في شؤون إدارتها . ولم تكن المنطقة التي عاهد عليها الرجل بالصغيرة ولا القليلة الأهمية ، لأن المدائن السبع التي عاهد عليها ترسم صلياً يضم في محيطه كل جنوب شرقى شبه الجزيرة ، فكيف يتفق أن يسلم المسلمون في هذا الجزء الهام من البلاد دون حرب ، ولمجرد أن تدمير ضمن لهم الجزية وعاهدهم على الصدق والنصح معهم ، مع أنهم كانوا مستطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد ، وهو أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم ، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً ، فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدي عن أهلها الجزية^(٢) . ودليلنا على ذلك أن

= أوربولة وهي Orihuela

بلنلة ، وقد وردت في الرازي Valencia وهو خطأ ، وأوردها الغزيري Valentola ، وقد أثبت سافدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مقربة من بلدة Alcantarilla الحالية على خمسة كيلو مترات من مرسية ، وأن النهر الذي بهذه البلدة الأخيرة كان يسمى في القديم وادي فالتيلية وقد تحول مع الزمن إلى Guadalentin .

لقت ، وهي Alicante

مولة ، وهي Mula

بقسرة ، وهي Begastro بلدة على مقربة من Cehgin

أنه ، وهي Anaya على مقربة من دير San Ginés القديم المتهدم في إقليم مرسية .

لورقة ، هي Lorca

راجع الملاحظات القيمة التي أوردها سافدرا ، ص ١٢٨ - ١٢٩ والمواضع .

(١) انظر : الضبي : بغية الملتصق ، ص ٢٥٩ .

الرازي : الترجمة الإسبانية ، فقرة ١٢ .

(٢) اختلف سافدرا وبروفنسال حول المراد بعبارته : « وأن لدى أشرط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... » الواردة في

ذلك العهد ، فترجمها سافدرا :

العرب سيتوغلون في جنوب شرقى الجزيرة وميستقرون في بعضها دون حرج ، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسرى على أولاد تدمير من بعده ، أى أنها كانت له وحده طول حياته ، فكأن عبد العزيز أقر هذا الرجل المصادق للمسلمين على بعض بلاده التى كان يملكها تأكيداً لودته وتسكيناً لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى .

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخى الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأوقفهم خارج حدود إقليمه كله ، وأنه أقام هناك كالأمير المحالف محالفة الند للند . ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً ، لأن جنوب شرقى الأندلس لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل في طاعتهم أسوة بغيره من نواحى شبه الجزيرة ، ولأن تدمير كان في « ذمة » المسلمين شأنه في ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا في طاعة المسلمين إذ ذاك . وكان موقفه منهم موقف مالك إقطاعى من صاحب البلاد كلها : له سلطان شبه مطلق على النواحى التى يشملها إقطاعه ، ويظل في هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مال ومساعدة وقت الحرب وغير ذلك^(١).

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الوارد في نصها ، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك في سنة ٩١ هـ وذهبوا إلى أنها تمت في عهد طارق بن زياد ، وجعلها بعضهم سنة ٩٢ هـ . وهذان فرضان غير معقولين ، فإن الوثيقة صريحة بأنها عقدت على يد عبد العزيز ، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس ، ولو كان عقدها في حكومة أبيه لأشير إلى ذلك

“ ... Y queda libre en las siete ciudades de ... ”

أى : أن المسلمين تعهدوا له بأن يتركوه حراً في هذه المدن السبع .
وأما بروفنسال فقد ترجمها هكذا :

“La paix lui est accordée moyennant la remise des sepu villes suivantes ...”

والترجمان فيما نرى غير دقيقتين : فإن المراد من أن الرجل صالح على هذه المدن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت في طاعة المسلمين دون حرب ، ولكنهم لم يحتلوا بل اكتفوا بالعهد الذى أخذوه على صاحبها ، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية ، فهم لم يتركوه حراً كما يقول سافدرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول بروفنسال ، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام كالكاتب عنهم فيها يحكمها باسمهم .

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 129 .

LEVI-PROVENCAL. Histoire de L'Espagne Musulmane, I, p. 28.

وترجمة سافدرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء ، وفيها زيادات .

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجى :

Theudimer, qui in Hispaniae partibus non modicas Arabum intulerat neces et diu exagitatis pacem cum eis Foederat habendam . Cf.: no.38.

وقد ورد النص في الضمان التى ألحقها لافويتى ألكانتر بترجمته للأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

في صلبها . فإذا صح ذلك كان من الميسور أن نشك في التاريخ الذي تورده الوثيقة في نصها . فهي تذكر رجباً سنة ٩٤هـ ، ورجب هذا يقع في أبريل سنة ٧١٣م ، فلو ذكرنا أن عبد العزيز فتح في هذه الغزوة - وقبل وصوله إلى بلاد تدمير - حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة ، ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع في المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه ، إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر كان من الضروري أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة في يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير ، وهذا وقت لم تجر العادة بالخروج للغزو فيه في تلك العصور .

وأسلم الآراء في هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير - وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس - في أوائل سنة ٩٦هـ (٧١٤م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا في ذي قعدة سنة ٩٥هـ .



هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهد متصل داما أربع سنوات إلا أشهراً : بدأ الفتح في رجب سنة ٩٢هـ وانتهى في أوائل سنة ٩٦ هجرية ، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال البرت وشاطئ البحر في الشمال ، ومن مالقة وطركونة في الشرق إلى قلمرية وأشبونة في الغرب ، واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحي الجوف (استرامادوره) القاحلة ، ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه في حوزة الدولة الإسلامية الكبرى . ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدّقه أحد ، لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه ، وقد وفق العرب إلى ذلك في نظام وسياسة ينبغي أن نسجلهما لمن قاموا به .

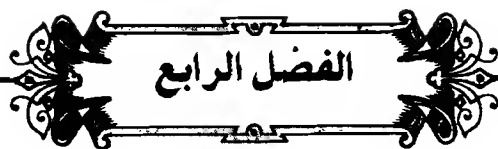
ومهما بلغ المؤرخ من الشناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حقه ، ولو فكر الإنسان في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سراً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحي امتيازته . فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح - بغير الإسلام - إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلسي ، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محنكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين

بالإعجاب ، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلمته رايته ، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في ذاته ، إذ لا يصدق المرء وهو يتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات ، الحق أن الإسلام قد خطا بمعتقديه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمام ، وهذا تاريخ الرومان في إفريقية : لم يُوفَّقوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام - ولو من بعيد - بعد بضعة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن ؟

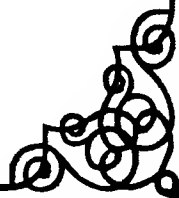
ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق ، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين ، لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قُضِيَ على المقاومة واحتُلَّت العاصمة في أول وثبة ، ثم اتجهت المهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتبعوا فلول المقاومة في معاقبتها في الشمال والشمال الغربي ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقي . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِّق إلى خير من ذلك ، وتلك ناحية ينبغي أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ، لأنها في الواقع تدل على نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأولين .

* * *



الفضل الرابع

عَصْرُ الْوَلَاةِ



فتح المسلمون خلال القرن الهجري الأول بلاد العرب كلها والعراق
وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقي وشبه
الجزيرة الإيبيرية ، ولكنهم لم يتكلفوا في فتح قطر من هذه الأقطار مؤونة
هى أيسر مما تكلفوه في فتح هذا القطر الأخير . فقد سirt الخلافة
الجيش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت في ميادينها بآلاف العرب
وأمدتهم بالمؤن والأعطيات ، ولم يتم الفتح في معظم هذه النواحي من غير معارك دامية
هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة ، ولقى فيها نفر من كبار
القواد حتوفهم كما رأينا في فتح المغرب . فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى ،
وهلك منهم في واقعة وادى الرباط وحدها ثلاثة آلاف ، وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى
يسرون في البلاد الهوينى لا يكادون يلقون عندما يعترضهم من البلاد من المقاومة ما
يتناسب مع أهمية هذه البلاد ، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها
ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون ، وما زالوا حتى انتشروا في شبه
الجزيرة كله ، واستقرت جماعات منهم في نواحي الشمال على مقربة من خليج بسكاية ،
وجماعات أخرى في أقصى الشمال شرقاً وغرباً^(١) ، بل طمحت بهم الآمال إلى ما وراء
إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا في بطائعها يفتحون ويستقرون .

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف في سبيل ذلك جهداً خاصاً : لم يبجيش الأمويون
جيشاً واحداً لفتح الأندلس ، ولم يُخرجوا من خزانهم درهماً لإعداد حملاته ، إنها فتح
الأندلس البربر وجند إفريقية وجند مصر^(٢) ، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٢) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بعدد ، ويذكر الرازي - عن الواقدي عن موسى بن رباح عن أبيه - أن موسى خرج « في عشرة آلاف من إفريقية » ، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى « دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفاً من قریش والعرب ووجوه الناس » .

انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥ .

فتح الأندلس ، ص ١٠ .

وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسي بين غيره من فتوح المسلمين : لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مثونة أصلاً .

٣٢. لم تغنم بيد أننا ينبغي أن نقرر أن الخلافة نفسها لم تغنم شيئاً مادياً من هذا الفتح ، الخلافة منه شيئاً إنما غنمه الذين قاموا بفتحها وحدهم : ففي حين أننا نجد الخلافة تهتم - إذا مادياً ما تم فتح بلد - بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة ، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسهر على حقوق الدولة المركزية ، وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء ، وبينما نرى سيل الأموال يتثال على خزائن الخلفاء في دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون : من فارس إلى حدود النوبة وسواحل المحيط الأطلسي ، وبينما يحرص المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها في كل ناحية ، إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولى هذا القطر العظيم ولو جانباً يسيراً من العناية التي يستحقها : فهي لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرف عامل إفريقية يتصرف في شؤونه كما يريد ^(١) وهي لم ترسل إليه عاملاً على المال يحصى نواحيه وأهله ويخمس النواحي ويقرر مقادير الخراج والجزية والجباية ، ويقرر ما ينبغي أن ينفق في البلاد وما ينبغي أن يحمل إلى دار الخلافة ، وهي لم تُعنَ كذلك بتنظيم القضاء في الأندلس من أول الأمر ، بل جعلت ذلك من شؤون الولاة ، يعينون القضاة أو لا يعينونهم كما يشتهون ^(٢) . وإنه لمن الغريب حقاً أن نلاحظ أن المراجع لا تذكر - ولو مرة واحدة - أن شيئاً من المال قد أرسل من الأندلس إلى المشرق ^(٣) ، بل إننا لن نخرج من

(١) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق في صفر سنة ٩٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ٧١٣ م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمي ، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي وقد عينه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك . وكان أول وال أقامته الخلافة هو السمع بن مالك الخولاني ، أقامه عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة ١٠٠ (مارس - أبريل سنة ٧١٩ م) ولم تزد ولايته عن عامين وبضعة أشهر ، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في ذي الحجة سنة ١٠٢ هـ .

(٢) لم يعين خلفاء بني أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبي ، عينه عمر بن عبد العزيز . أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية فكان يعينهم ولاة الأندلس في الغالب وولاة إفريقية في النادر ، وكانوا يسمون قضاة الجند .

انظر الحشني : قضاة ، ص ٢٧ .

النهاي : المراقبة العليا ، ص ٤٢ - ٤٣ .

ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للحشني .

(٣) يذكر ابن قتيبة في « الإمامة والسياسة » أن سليمان قرر على موسى ٤٠,٠٣٠,٠٠٠ دينار ذهباً غرامة ، ولنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس في الفترة التي تولاها موسى ، أو هو خراج الأندلس =

بحثنا إلا بنتيجة واحدة ينبغي أن تقررها حتى يتكشف لنا ما ينقضها : وهى أن الأندلس لم يبعث إلى مركز الخلافة شيئاً من ماله أو من جبايته أصلاً .

وذلك فى ذاته وضع غريب ، ويزيد فى غرابته أن الأندلس كان بلداً غنياً عظيم الجباية ، وأن الخلفاء كانوا يعلمون مقدار غناه بسبب ما يحمله إليهم غزاته من غنائمه وطرفه ، ولست أشك فى أننا سنظل زماناً طويلاً لا نفهم السر الذى جعل الخلافة تمضى على هذا النحو من التهاون فى شؤون الأندلس ، ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى بُعده عن مركز الخلافة ، لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانها الموكد عليه ، ولم تطالب مرة - ولو فى شئ من اللين - بنصيبها من أمواله وجباياته التى تحق لها وفقاً للنظم المالية والإدارية التى كانت تطبق فى دقة فى كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستنفدون أمواله كلها ، أو أن خراجه كان يتفق على الفتوح فيما وراءه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيماً من عرب الأندلس لم يكونوا جنداً نظامياً تابعاً لديوان الجند فى دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذى يستنفد أموال هذا القطر العظيم الغنى . وأما الحروب فيما وراء البرت فقد كان معظم القائمين بها من المتطوعة الذين لا تُفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا فى مطالبة الدولة بأعطيات^(١) .

كل ذلك يلقى ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسى خلال الفترة التى تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦م) ، فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقى مثلاً ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكون جزءاً من الدولة الإسلامية مكماً لإفريقية داخلاً فى طاعة

= وإفريقية معاً ، أو هو نصيب الخلافة فى مغنم موسى من الأموال . وهذه الإشارة - على اضطرابها وقلة جدواها

- هى الوحيدة التى تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاء الأندلس بهال .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحمولات فيما وراء جبال البرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف فى مواقع مثل طولوشة وبلات الشهداء ، وتلك تقديرات مبالغ فيها ، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد فى هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفاً أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر ، والربع - أى بين خمسة عشر وعشرين ألفاً - كانوا من العرب . هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق فى فروض الديوان ، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق ، وسرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب .

الخلفاء ، يخطب لهم على منابرهم ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً كما سنرى ، وسنحاول فيما يلي من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

٢٢- هجرة
الأندلس إلى الأندلس
وظاهرة أخرى لا تقل غرابة ولا أهمية عن هذه : هي هجرة العرب إلى الأندلس وسكناتهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسلمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا في نواحيه دون أن تحدثنا المراجع عنهم بشيء يتقع الغلة ، فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً ، وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذا أخرجنا من ذلك أعداد من لقي مصارعه في فتح البلاد وما وراءها من نواحي غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر في الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضى في استقصاء أخبار الأندلس حتى نجده يموج بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة في نواحي قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة ، غير جاليات أخرى صغيرة في كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب في « فرحة الأنفس » بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يُفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الآلاف التي ذكرها المؤرخون^(١) .

فمن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجري العرب كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازي بعد وصف معركة وادي لكّة : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغنم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق ،

(١) راجع البيانات التي يقدمها المقرئ نقلًا عن « فرحة الأنفس » لابن غالب : نفح الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ١ ، ص ٢٧١ وما يليها .

وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجلال»^(١).

وهي عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيماً لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أى بلد آخر مما فتح الله على المسلمين في ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازي عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر في هذه الجماعات المهاجرة ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً ، وأن جانباً عظيماً من هؤلاء استقر في الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة في كل ناحية ، وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحيائه مستعينة بالزراع من الأهليين على نظام المزارعة الذى سنشرحه .

وكانت الأحوال السياسية في المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخراسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث^(٢).

وأما البربر فكانت أعداد مهاجرهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحي ولم يتركوا لهم غير الهضاب

(١) الرازي برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

ويبدو أن هذه العبارة تنصب في الغالب على البربر ، ولكن الذى لا شك فيه أن جماعات كثيرة من العرب اليمنية الكلية ومن أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد كربلاء والحرّة إلى إفريقية والأندلس . راجع الإشارات عن ذلك عند :

اليقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩ وما يليها .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

المسعودى : مروج الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن الأبار : الحلة ، ص ٤٧-٤٩ .

P.H. LAMMENS, Le Califat de Yazid Ier , VIII- IX, pp. 114 sqq .

WEIL, Geschichte der Chalifen. I. p. 326 sqq .

DOZY, Musulmans d'Espagne. I. pp. 119 sqq.

وهذه المسألة رغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلة وضوح المراجع .

(٢) انظر الهامش السابق .

القاحلة في الشمال^(١)، وهذا غير صحيح على إطلاقه، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر في كل ناحية، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب، وكان طارق بن زياد منهم^(٢).

أخذت هذه الجماعات المسلمة - عربية وبربرية - تستقر في نواحي البلاد خلال فترة الولاية كلها، وسرى أثر ذلك في تطور الحوادث وفي تحول الأندلس إلى بلد إسلامي عربي الطابع في أقل من قرن.



٢٤. ولاية أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس منذ مبارحة أبيه عبد العزيز بن موسى البلد في صفر سنة ٩٥هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧١٣م)، ولستنا نعلم موسى إن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يثبته في هذه الولاية، وإن كنا نعلم في شيء من الثقة أنه أقره في ولايته سياسة منه أو رضى عنه. وكان الأندلس في ذلك الحين تابعاً لإفريقية، وكانت ولاية إفريقية بيدى مروان وعبد الله ابني موسى وأخوى عبد العزيز، فليس إلى الشك سبيل في أنها أئدها على هذه الولاية.

ولا تكاد المراجع تذكر لعبد العزيز عملاً خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة يتتابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته، فمال إلى السكون والانتظار والترقب، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلاً نشيطاً مقدماً.

(١) المشول عن إذاعة هذه الفكرة دوزي، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجي (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأي. صحيح أن العرب أساءوا معاملة البربر وأذوهم كثيراً، ولكنهم لم يختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث كانت تكفي جميع العرب عن سعة، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية في كل ناحية.

(٢) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة. راجع:

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٤.

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٣، ص ١٨٤.

ابن خلدون: كتاب العرب، ج ٦، ص ١٠٨.

وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب، ص ٢٨٢ وما بعدها.

٢٥. مقتل ويبدو أن حاله مع الجند لم يكن على ما يرجى ، لا لأنهم كانوا ساخطين عليه عبد العزيز بن بل لأن نفرأ من بينهم كان شديد التطلع والطموح ، تذكر المراجع منهم موسى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى حفيد عقبة بن نافع - وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعى والتدبير كما سنرى - وزباد بن عذرة البلوى ، وزباد بن نابغة التميمي ، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله . وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهرى أكبرهم وأظهرهم ، وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله « وزيراً له ومعيناً »^(١) كما يقول ابن عذارى ، ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً « لأشياء نقومها عليه »^(٢) ، كما يقول الرازي .

فأما هذه الأشياء التي « نقومها عليه » فهي علاقته بزوجه النصرانية « أجيلونا » التي تسميها المراجع العربية أيلهُ (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فبما تذهب المراجع ، « وكانت قد صالحت على نفسها في وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه »^(٣) ، فتزوجها وأقام معها في ناحية من كنيسة رُفينة في إشبيلية ، وكانت قد حولت إلى مسجد . فكانت داره على هذا قرية من موضع اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان في واقع الأمر رجلاً جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله .

ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء ، لأنها لم تلبث أن ملكت زمام زوجها فتابعها في كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها عملت له تاجاً من الذهب والجوهر وحملته على أن يلبسه ، لأن « الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم » كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كانت قد تزوجها زياد بن نابغة التميمي من بنات ملوكهم ، فعائته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس في ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعل رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبي عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند ، فلم يكن لهم همٌّ إلا كشف ذلك ، حتى

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٢١ .

رأوه عياناً ، فقالوا : قد تنصّر ! ثم هجموا عليه فقتلوه»^(١).

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصّر ، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً ، ولا كيف قال عبد العزيز إن لبس التاج ليس من الدين ، مع أن أشراط الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك ، ثم إن الرجل يلبسه كشارة من شارات الملك ، بل لبسه في خلواته مع أهل بيته . ولسنا نفهم كذلك كيف ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يشورون على من يعيب الخمر ويقترب المحرمات منهم ، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً في هذه الأمور . ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التميمي بالذات هي التي تكشف هذا الأمر ؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً ، وأنها وُضعت لكي تستر الدوافع الحقيقية التي حفزت جند عبد العزيز على قتله .

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذي أوعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده ، لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد ، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه ، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقه على أبيه موسى .

ومصادق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه « مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القريشي ، لا أدري لمن من قريش (يريد محمد بن يزيد مولى قريش والى إفريقية) ، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد ابن النابغة من قتل عبد العزيز ، بأن يتشدد في ذلك ، وأن يقفلها إليه ومن شركهما في قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فصرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس الحرّ ابن عبد الله الثقفي ، وأمره بالنظر في شأن قتل عبد العزيز »^(٢). مما يفهم منه صراحة أن الأمر دُبر بغير علم الخليفة ، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها . وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبي عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند ، وسرى أن حبيباً هذا سيظل طول حياته سبباً للمتاعب والقلقل ، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز .

وأقرب التفسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبير محكم بين محمد بن

(١) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ - ٢٢ .

يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبي عبيدة ، ونفر من الجند ، وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان في الأمر ، ومصادق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس : « ثم اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم في الأندلس بعد أن اشتور فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقى عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله وإلى القيروان فحبسه في السجن ، ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمره بضرب عنقه ... وحكى الواقدي ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولاً ، فلم يرجع ، فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجه العرب سرّاً بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة ، فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة ! » وعلاه بالسيف فقتله » (١).

فمن المعقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشيء من السخط على بنى أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبي عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل ، فلم يكذب خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه بغريهم به فغدروه على النحو الذي تصوره رواية الواقدي وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازي أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ، إلا أن مدته لم تطل .. » وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلاً تقياً لطيفاً حسن العشرة ، وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهي عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز ،

٢٦. أيوب بن

حبيب اللخمي

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وفتح الأندلس ، ص ٢٣ .

ولو أضفناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » - التى ذكرناها آنفاً - التى تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى والى إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه - تبيّن أن القول بأن سليمان هو الذى حرص على مقتل عبد العزيز غير صحيح ، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب فى الأندلس . فقد كان كبار الجند - وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمى هذا وحبيب بن أبى عبيدة وزباد بن عنزة البلوى وزباد بن نابغة التميمى - ناقلين على عبد العزيز ، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا ، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

لم تزد ولاية أيوب عن ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر إلا نقله العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع فى أن قرطبة كانت أوفق من إشبيلية لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب فى الشرق والجنوب الشرقى والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان أحسن ، لأنها فى وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهى على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة فى إخضاع هذه النواحي ، أما قرطبة فبعيدة عنها جداً ، ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحي قشتالة وأشتريس إلا بعد سير طويل مجهد . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامى أربع سنوات إلا قليلاً ، ويبدو أن النية لم تتجه إلى الانتقال إلى قرطبة إلا فى أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة من العرب قد استقرت فى إقليمها ، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان معظم هؤلاء العرب الذين استقروا فى إقليم إشبيلية وكبار مدنه مثل وادى آش وشرش وشلطيّش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطيرة كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان ما يحيط بها من الأرياض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون هناك من أصول شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً فى تورط العمال فيها عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكنا قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغيثاً الرومى القصر الذى كان حاكم قرطبة القوطى يعيش فيه فى غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه فى الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعامل البلاد ، فصرف مغيثاً عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل الثلمة التى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، ويقال لها «الْيَسَانَةُ» كانت للملك الذى أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهى تسمى بالأندلس «بلاط مغيث» وقد أدخل مغيث هذه الدار لتصبح قصر عمال قرطبة وأمرائها ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

وكانت ولاية الأندلس فى ذلك الحين إلى عامل إفريقية ، وكان عاملها كما
٢٨. عامل
بإفريقية يولى الحر ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس سنة ٧١٦م -
ابن عبد الرحمن رمضان سنة ١٠٠ / مارس سنة ٧١٩م) فلم يقر الجند على ما فعلوا من
الثقفى على تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحر بن عبد الرحمن الثقفى والياً فى ذى
الأندلس الحجة سنة ٩٧هـ / ٧١٦م . ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذى حفزه
على ذلك ، رغبة منه فى عقاب من شاركوا فى قتل عبد العزيز بن موسى ، ويبدو أن الحر كان
قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعمائة
عربى من وجوه عرب إفريقية ، ويبدو أنهم كانوا نخبة مختارة ، فلم يستطع جند الأندلس
لهم مقاومة ، وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد .

أقام الحر حاكماً للأندلس ستين وثمانية أشهر ، ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكناه قصر
قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعالم من ذلك الحين .

وتوفى سليمان بن عبد الملك فى العاشر من صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م ،
وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس فى خلافته عهداً جديداً ، شأنه فى ذلك شأن
إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص فى أمور
المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض
لمسئوليات .

٢٩- ولاية
السمح بن مالك الخولاني
وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليلي شؤون الأندلس وهو السمح بن مالك الخولاني ، وكان قد ظهر قبل ذلك في مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم رواتنا ، فيقولون إن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفي الحلال لبيت المال ، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخيرهم الوالي ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح ابن مالك ، فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح وإسماعيل ابن عبيد الله فأبيا أن يحلفا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهي رواية تدل على صحة ما كان يتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف في أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات ، والمبالغة في مقادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطف (١).

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في العاشر من صفر سنة ٩٩هـ/ ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر في شؤون المغرب والأندلس إلا في رمضان سنة ١٠٠هـ (أبريل - مايو سنة ٧١٩ م) ، فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمح بن مالك على الأندلس .

٤٠- عمر بن عبد العزيز يفكر
الأندلس وإخلاؤها منهم ، إذ « خشي تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن في إخلاء الأندلس القوطية (٢) ، أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول من العرب صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة (٣) . ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عُرِف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته لأن حال

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤-٢٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

المسلمين في الأندلس كان في إقبال إلى ذلك الحين ، ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذى سنراه فيما بعد ، ولم تكن فتن العصبية قد عصفت بهم وفرقتهم وأضعفتهم . وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً عن عظمة الأندلس واتساع مداها وما كسبه المسلمون من فتحها وما يعود على الدولة الإسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها في أيديهم ، ولهذا تذكر المراجع أنه لما ولى السمع بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحرها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقبال المسلمين منها إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، فكتب إليه السمع « يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدينتهم ، وشرف معاقلمهم »^(١) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أمواله وتنظيم أمر خراجها ، وهو أمر لم يُعَنَ به واحد من سبقه من الخلفاء ، فانتدب مولى من ثقاته يسمى جابراً وبعثه في هذه المهمة^(٢) . ولسنا نعلم الأساس الذى سار عليه جابر هذا في أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة وباستخراج خمس العنوة لكى يضمه إلى أرض الدولة ، فلم يخرج في الخمس إلا ريبضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين وأقر القرى بيد غنّامها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابراً اعتبر قرطبة هى الناحية الوحيدة التى فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولة ، وأما بقية الأندلس فاعتبره قد فُتِحَ صلحاً . ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة على الأقل ، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ريبض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قولهم إنه أقر القرى في أيدي غنّامها ؟ على أى أساس تركها في أيديهم ؟ إن لفظ « غنّامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدي من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراد على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذى وضعه المسلمون للأندلس .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ - ١٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السمع بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها .. »^(١) فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ لقد رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فكيف تنقضى إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يحمى كل شيء وينظم كل شيء ؟ الحق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا نعرف إن كان قد أنشئ له ديوان ، ولا نعرف على أى أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التى كانت تجبى منه ولو لسنة واحدة .

الأندلس هو البلد الإسلامى الوحيد الذى ظل تابعاً لمركز الخلافة نيافاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه فى إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية ، وهذا وضع غريب فى ذاته ، وسنرى فيما يلى أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس فى ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبهه فى ذلك بلد إسلامى آخر .

ويبدو أن السمع كان ماضياً فى تنظيم البلد وإحصاء أمواله ، ولكن الظروف لم تمهله ، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يول إلا بعد أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإدارى أن ينشط للغزوات فى أحيائها ، وكان عظيم الرغبة فى الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ ، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإدارى الذى بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا فى أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهى التى خرجت فى الخمس ، لا تعنى إلا خمس إقليم قرطبة^(٢) ، لأنه - كما يقول ابن عذارى - لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله ، وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر فى

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر : فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

ابن عذارى : البيان ج ٢ ، ص ٢٥ .

الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى في أيدي أربابها فإنما فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت ، لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها في أيديهم هكذا طعمة لا يكادون يُحاسبون عنها .

لم يكد السمع يمضى في تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال ، وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التي كانت مقامة على الوادى الكبير للاتصال بنواحي جنوبي الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن ، وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة ، فوجد السمع أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغي أن يتفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في ذلك فأذن له ، فقام السمع « بيناتها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمر الأراض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى بها ، وقد تصدعت هذه القنطرة في أيام الإمام عبد الرحمن الداخل »^(١) وسرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التي ستكون ذات أهمية كبرى في تاريخ البلاد السياسى والفكرى ، لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت متزده أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفي ربيع سنة ١٠٢ هـ (سنة ٧٢١ م) خرج السمع بالصائفة ليغزو فيها وراء البرت فاستشهد في طرسونة في يوم عرفة من العام نفسه ، وستحدث عن ذلك في فصل خاص نجمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيها وراء البرت .

وفي أثناء السنوات القليلة التي ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب في إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم في مجرى الأمور في البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشيء من التفصيل .



(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .



صراع العرب والبربر



٤٢- خلافاة انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين العصية إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولاني، وعاد الغرب الإسلامي إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه : عاد حكام إفريقية يستبدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون ، وعاد هؤلاء يُصَرِّفون أموره على الوجه الذي يحبونه . ولقد رأى الأندلس في الفترة بين سنتي ١٠٢ و ١١٢ حكاماً لا نكاد نذكر لهم إلا اهتماماً ظاهراً بالحروب فيما وراء البرت ، وانصرافاً ظاهراً إلى المنازعات العصية العنيفة^(١).

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بني أمية ، هما يزيد ابن أبي مسلم مولى الحجاج وكتابه (١٠٢-١٠٣هـ / ٧٢٠-٧٢١م) وبشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩هـ / ٧٢١-٧٢٦م). وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً في العصية القبلية ، هما يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) ، وفي عهدهما ظهر في البيت الأموي الانقسام والتفرق اللذان انتهايا بإضعاف البيت كله وذهاب ريمه .

فقد كان يزيد بن عبد الملك مضرى الميول : أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله،

(١) هم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (من ذي الحجة سنة ١٠٢ إلى صفر سنة ١٠٣ / من يولييه إلى أغسطس ٧٢١) وعبد بن سُحيم الكلبي (من صفر سنة ١٠٣ إلى شعبان سنة ١٠٧ / ٧٢١-٧٢٦) ، وعذرة بن عبد الله الفهري (من شعبان سنة ١٠٧ إلى شوال سنة ١٠٧ / من يناير إلى مارس ٧٢٦) ، ويحيى بن سلامة العامل (من شوال سنة ١٠٧ إلى ربيع الأول سنة ١١٠ / من مارس ٧٢٦ إلى يولييه ٧٢٨) ، وحذيفة بن الأحوص القيسي (من ربيع الأول سنة ١١٠ إلى شعبان سنة ١١٠ / من يولييه إلى ديسمبر ٧٢٨) ، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي (من شعبان سنة ١١٠ إلى المحرم سنة ١١١ / من نوفمبر ٧٢٨ إلى أبريل ٧٢٩) ، والحشيم بن عبيد الكلبي (من المحرم سنة ١١١ إلى ذي القعدة سنة ١١١ / من أبريل ٧٢٩ إلى فبراير ٧٣٠) .

انظر ابن عذاري : البيان ، ج٢ ، ص ٢٦-٢٧ .

والبحث الذي كتبه لافونتي إي ألكانترأ وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات هبال الأندلس .

LAFUENTE Y ALCANTARA: Cronologia de los gobernadores de España . Apéndice III de Ajbar Machmua, pp. 220-242 .

وتعقب اليمنية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه ، وامتلات نفوسهم بالثورة عليه ، وعادت إليهم أحقاد مرج راهط وتحركت في قلوبهم ثاراتها^(١) ، وأقام على إفريقية يزيد بن أبى مسلم هذا . وكان من كبار القيسية ، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان ، وقوى جانب القيسية في بلاد الدولة الإسلامية كلها ، فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم ، ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلبية من أمثال خالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد على الولايات ، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلهما . ولهذا ترك بشر بن صفوان في ولايته ، لأن ميوله كانت كلبية يمنية ، وحينما توفي بشر بن صفوان سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٦ م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلبية اليمنية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها ، ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمى إفريقية . وكانوا جميعاً من غلاة القيسية ، فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلبية ، حتى ليذكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى لم يكذبصل إلى إفريقية حتى « أخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم ، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبى »^(٢).

هكذا أخذت عواصف العvisية تعصف بالدولة في القلب وفي الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التى كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية ، فإذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب في الولايات ، وتخنضت أراضي الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات في كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور .

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ١٣٦ وما بعدها ، ابن الأثير الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣-٢١٦ .

النويرى : نهاية الأرب ، طبعة جسيار ريمرو ، ص ٣٣ .

وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العvisية في الفترة الأموية :

H. FOURNEL . Les Berbères, I. pp. 270-271 .

ولم يشقّ بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيهما أقسى وأعنف ، بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الشجر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لا بد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، وإلا نهض لهم العدو - الذى لم يقصّ عليه القضاء المبرم - واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم في شغل عنه . وهذا هو الذى حدث بالفعل : شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط في الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقيا ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكنوا أقدامهم في نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل متهزين الفرصة في هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معاً .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه المنازعات العصبية وحدها هي السبب في نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التى انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هي السبب في ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت في وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم في إتمام فتح البلدين ، فعاقبتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيها جميعاً .

٤٢- فترة سيادة
الكلبيين اليمنيين
في المغرب
والأندلس
كانت ولاية يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان في إفريقية كلبية يمنية صرفة ، وقد عُرف الكلبيون اليمنيون بإسرافهم في العصبية على الموالي في كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالى فارس ، وكان يزيد بن أبى مسلم تلميذه وكاتبه^(١)، فحسب أنه يستطيع أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل العراق وفارس^(٢)، وأخذ يعسف البربر ويشدد في جمع أموالهم وسبى نساءهم . وكان شديد العناية بالطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليعتج بهم إلى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلى الصافي ويرسلها إلى دمشق ، فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلدأ واحداً سليماً ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) التوبرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢١ .

كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة^(١).

٤٤- مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب
وليس إلى الشك سبيل في أن خلفاء بنى أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان في إفريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التي كانا يلجآن إليها في عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبى مسلم ، وقال إنه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن أوس الأنصارى الذى أقامه أهل إفريقية على أنفسهم^(٢).

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يتكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والألطف ، فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف في عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسئولية في هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسييات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم - أو كلفوه - أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة »^(٣) وهى رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط ، وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف في عسف الناس طلباً في المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلييون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة ، فأسرفوا في الأمر إسرافاً نفّر البربر ودفعهم إلى الثورة ، وشجعهم على المضى في هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عدااء .

٤٥- تسوتر نفوس البتر - زناتة
وكان وضع العرب في بلاد المغرب بُعيد الفتح وضعاً فريداً في ذاته ، فإن بربر المغرب - على ما نعرف - ينقسمون إلى بتر وبرانس ، أو إلى بدو وحضر . فأما البتر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم في فتح البلاد ، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٢١ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج١ ، ص ٣٢-٣٣ .

وبرغواطة^(١)، لما استطاع العرب الوصول في المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التي وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم في البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يشسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين .

ولكن العرب لم يفطنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر - وزناتة منهم خاصة - وبدأوا يفكرون في الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر - والبتر منهم خاصة - حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم في هذا السبيل آلاف ، في حين لم يفقد العرب إلا بضعة مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتين مثل أبي زرعة طريف بن ملوك وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشراً كبيراً ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظر الند للند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر في الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك في سخط هؤلاء . وكان البتر هم حرس الولاة المقربين إليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبي مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبي مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتهائهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوي من بربر إفريقيا ، وسيكون لذلك أثر كبير في تطور الحوادث فيها بعد^(٢).

(١) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر في :

البلاذري : فتوح ، ص ٢٢٤ .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ وما يليها .

(٢) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبي مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبي مسلم الناس فقال : إني إن أصبحت صالحاً وُسُمتُ حرسى في أيديهم كما تصنع الروم ، فأُشِم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى : حرسى ، فيُعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم إلى بعض في قتله » . فتوح ، ص ٢١٤ .

٤٦- الأفارقة وكان في إفريقية - إلى جانب البربر والروم - نفر كبير من الأفارقة ، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مكثهم في البلاد حتى أصبحوا إفريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل . وكانوا على علاقة حسنة مع الروم متأثرين بحضارتهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم في منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزنانة ، وتفاهم الحيان على الثورة^(١).

٤٧- دعاة الخارجية في المغرب وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أرهبهم ونفّرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتسسون الأمان حيثما وجدوه ، وفر منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حانقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية - الصفرية والإباضية خاصة - قبولاً طيباً من البربر ، وهكذا تهيأت في بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء الدعاة كانوا من الصفرية والإباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب في إقبال أهل المغرب عليها خاصة . لأن مبادئ الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلاً إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين^(٢) ، بل الإباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيول ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالاً ، والبربر على ما

(١) يفهم من روايتين لأبى المحاسن والسلاوى أن زعامة برابر طنجة في الثورة التي ستحدث عنها كانت إلى ميسرة المطغرى وعبد الأعلى بن جريج الإفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوئام بالعرب .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨ .

السلاوى : الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٦١ - ٦٢ .

نعلم لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً ، وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال فى أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلاً واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو إباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة ولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد . وهو قول البغض للأئمة ، فإن كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس ، اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن...؟ »^(١) .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل في أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة.

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهداً عظيماً في إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكي : « وكانوا - أى أهل إفريقية - يقولون : لا تحالف الأئمة بها تجنى العمال ، فقالوا - أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة - لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! » .

« فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجندنا ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ، ويقول : هذا أخلص لجهادكم !... ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحبينا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ،

ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فإذا هم الذين صنعوا ذلك^(١) مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذى ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب ميسرة - زعيم البربر - أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء ، فمضى فى وفد من أهل بلده إلى دمشق ليسيئ ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

وكان الأندلس تابعاً لإفريقية فى ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة فى أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التى ذكرناها .

٤٨- المصيبة

العربية في الأندلس

أقام يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان الكليان اليمانيان على الأندلس عمالاً يمينيين كلبيين هم : عنبسة بن سحيم الكلبى (صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهرى (شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧) ويحى بن سلامة العالمى (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) ، وقد حكم ثلاثهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس مؤجرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والروانيين فى المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمينيين الكلبيين . فلم يكده هؤلاء الولاة الثلاثة يسرون فى سياستهم اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً ، وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغلدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية^(٢) .

وكان هؤلاء الكليون كغيرهم من اليمينيين ذوى شره إلى الأموال وعسف فى جمعها ، وقد اشتد سحيم معهم شدة خاصة ، فالزم النصارى فى الأندلس بدفع جزية مضاعفة ،

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة إلى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكائهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٥ .

فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه^(١).

(١) إيزيدور الباجي ، (فقرة رقم ٥٢) . واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهمي يقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pax- Julia أو Pace وهي Beja الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

Epitoma (epitome) Imperatorum uel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta .

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطي ، من نهاية حكم مسيرت إلى نهاية حكم يوسف الفهري آخر عيال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخي الاهتمام إلى حقيقة إيزودور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولما يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطل المجهول المؤلف El Anonimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت في طليطلة . والذي لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء باعتدال في الرأي وبعد نسي عن المصيبة الدينية التي نجدها عند غيره من مؤرخي إسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالشرق وأعمال عيال بني أمية في إفريقية والأندلس . ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتاباً أخرى هي :

1.- *Epitome Regum Wisigothorum a tempore Recaredi principis .*

2.- *Epitome Temponum .*

(مختصر تاريخ المصور) - وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التي جرت بين البربر وكنثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية .

3.- *Epitome .*

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4.- *Liber verborum dierum Saeculi .*

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التي فاتته ذكرها في كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار إليه في التراخي الأندلسية ، وهو الذي نقصه نحن في هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ إيزيدور الإشيلي SAN ISIDORO DE SEVILLA تجد نصه الكامل عند :

THEODOR MOMMSEN, *Auctorum Antiquissimorum, tomus XI, Cronica Minora, (Saec. IV, V, VI, VIII) II, Ip. 334 - 360 Berolini, 1893 .*

وفي :

FLOREZ, *Espana Sagrada, pp. 283-307, Isidori Pacensis Episcopi chronicon .*

ونشر أجزاء من LAFUENTE Y ALCANTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ١٤٦ وما بعدها .

وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen ueber die lateinischgeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.*

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599 .*

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al- Andalus, vol. XI fasc. 2 Madrid- Grenada, 1956) pp. 283- 349.*

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي^(١) وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقي الكلييون اليمينيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمينين شدة أثارهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك - رغم قيسيته - وعزله وعاقبه عقاباً صارماً^(٢).

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ في الأندلس خصومة القيسية واليمينية الصريحة الخطرة ، التي سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام في الأندلس خاصة والمغرب عامة .

بيد أننا ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا معينين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني ، ووصلت جيوش المسلمين في أيامهم إلى قريب من أفينيون ، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكنانى يقيم فيها معظم وقته^(٣).

ولسنا نجد ما نسجله في عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بلايه زعيم فلول القوط في نواحي أشتريس ، وهى ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت في عصر عنيسة بن سُحَيْم^(٤).

وفي صفر سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أقام عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي عبد الرحمن بن عبد

(١) آثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكليين كانوا قد اطمأنوا إلى السيادة في عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كليين يمينين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلياً ، فلم يكذ يستقر في الولاية حتى فاجاه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كأنها كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمينين عسفاً جاوز الحد المألوف .

انظر : ابن عذارى : البيان ج ١ ، ص ٣٦ .

ابن الأثير : الحلة السيرة ، ص ٤٥٧ - ٤٩ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .

(٢) إيزيدور : فقرة ٥٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل التالى .

إيزودور : فقرة ٥٦ و ٥٧ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

الله الغافقى أميراً على الأندلس، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازى الأعداء فيها يلى البرتات، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سُحيم، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه في نواحيها وفي الجهاد فيها يليها، فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه، فقد كان هؤلاء مشاركة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم اليمينية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً. فأما عبد الرحمن فأندلسي لا يكاد يلقى بالاً إلى هذه الجاهلية العصبية، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن في البلاد وموالاته الفتح فيما يليها^(١).

تُجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدّهم إخلاصاً في القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات، والواقع أن المراجع لم يتألف في ذلك كثيراً، فقد كان عبد الرحمن في واقع الأمر منظماً قادراً وجندياً بأسلاً، وربما شاركه في إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمح بن مالك أو عنبسة بن سُحيم، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليماً من نزعة العصبية التي أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أفعالهم. وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمينية، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمى القيسى المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير في قيسيته التي أفسدت عليه الأمور زماناً^(٢)، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية.

(١) عن عبد الرحمن الغافقى، انظر: ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٦ - ٢١٧.

ابن حيان برواية المقرئ: نفع الطيب، ج ٢، ص ٥٩.

أخبار مجموعة ص ٢٥.

ابن عذارى: البيان، ج ٢، ص ٢٧ - ٢٨.

ابن الأثير، ج ٥، ص ٩٤.

ISODORO PACENSE, Cronicon, cc. 56-63.

(٢) وكان عبد الرحمن الغافقى في خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن، ومصادق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن في إحدى غزواته في بلاد الفرنجة: «وكان فيها أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد، فأمر بها فكسرت، ثم أخرج الخمس، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه، فبلغ ذلك عبيدة، فغضب غضباً شديداً، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه، فكتب إليه عبد الرحمن: إن السهوات والأرض لو كانتا رتقاً، لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً. ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه...».

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٤٧.

ولم يوفق عبد الرحمن في غزوته الكبرى التي أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتيه في رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع في أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يُقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيماً من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشُّقة ، فلما فاجأه العدو ألقاه في قلة فاستشهد وبعض من بقى معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك في اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معازل المسيحية الكبرى في الشرق والغرب ، فساء ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً في علاج هذا الموقف ، وفي تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمي الأندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية في أواخر سنة ١١٤ هـ ، لأنه كان قيسياً مسرفاً في عصبية حتى لقد أثار اليمينية وكاد يوقع المغرب الإسلامي كله في فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته في إفريقية بدءاً حسناً ، وقد كان وُفق في مصر توفيقاً طيباً كعامل لخراجها^(١) ولكنه لم يستطع أن يدرك في إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهذبة النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامي كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبد الله وعبد الملك من بعده في المغرب أضاعت

٤٩ - مصاعب

الحكم في المغرب

بعد موسى بن نصير

(١) ابن الأبار : الحلة السراء (طبعة دوزي) ، ص ٣٢ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربي الجديد ليس خيراً في كثير من الحكم البيزنطي المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطربة لانفجرت ثورة البربر في زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧-١٠١ هـ / ٧١٥-٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشي^(١) وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه^(٢) .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل في إقرار السلام في البلاد أنه « لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »^(٣) كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتا الجليل كثيراً في ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام في إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام^(٤) .

وكان من سوء الحظ أن خليفته في ولاية المغرب لم يكن يقاربه في شيء من ذلك ، بل كان رجلاً يمينياً جافياً شديد العصية قليل الكياسة هو يزيد بن أبي مسلم كاتب الحاج ؛ ولاء يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠-٧٢١ م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبد الله بن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل

(١) المقرئى : خطط (طبعة فيت) ج٢ ، ص ٦١ - ٦٣ .

« البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستلند تحت عنوان :

WUESTENFELD, Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme, Goettingen, 1847, pp. 39-40 .

وهي ترجمة لكتيب المقرئى « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون (طبعة نوبل دى فرجير) ، ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن نايجى : معالم الإيها ، ج ١ ، ص ١٥٤-١٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢-٣٣ .

إلى المشرق في سنة ٩٦هـ / ٧١٤م^(١)، ولسنا ندرى السبب في ذلك التصرف من يزيد، وربما أراد منه أن يكون عبد الله - بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشئونها - عوناً ليزيد بن أبي مسلم في شؤونه، ولكنه أخطأ التقدير، لأن عبد الله كان موغراً الصدر من بني أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآله وبه هو نفسه.

ثم إن أنصار بني نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين، يحسبون أيام عزهم قد عادت، فساور الخوف نفس يزيد بن أبي مسلم من هذه المكانة التي كانت لبني نصير، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى في نفوس أهل البلاد، فأحب أن يُغضه إلى نفوسهم، وأن يضعه في مركز حرج، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجنود خمس سنين من ماله، ثم أمره أن يلزم داره^(٢)، وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بني نصير من البربر، فوضع يده عليهم، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب، وأحصى أموالهم وأولادهم، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبيطاته، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بني نصير في إفريقية.

ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان البلاء، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين، وأراد أن يسير في البربر بسيرة مولاة الحجاج في أهل العراق، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناته، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون. ثم حفزه سوء الرأي إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه: قرر أن يَشِمَّ حرسه البربر في أيديهم، فخطب الناس فقال: «إني إن أصبحت صالحاً وشممت حرسى في أيديهم كما تصنع الروم، فأشم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى «حرسى» فيعرفوا بذلك من غيرهم»^(٣) إسرافاً منه في الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك. فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبي مسلم، اغتاله حرسه في سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م - ٧٢١م.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣ ولا يؤيد ابن عبد الحكم في القول بهذا مؤرخ آخر، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا. ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد بن عبد الملك، لأنه كان يعتقد - مثل أخيه سليمان - أن بني نصير اجتبا أموالاً جسيمة وأخفها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم إياها.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤. وراجع تعليق فورنل على ذلك:

cf : FOURNEL, Les Berbères, I. p. 271, note 8.

وأقام أهل إفريقية قاضيه المغير بن أبي بردة القرشي والياً حتى يأتهم رأى خليفتهم يزيد بن عبد الملك^(١)، فلما بلغ يزيد نبأ مقتل يزيد بن أبي مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلف مكانه أخاه حنظلة^(٢)، فدخل بشر إفريقية في نفس العام الذي قُتل فيه يزيد، وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله^(٣)، وتبع أموال بني نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وولى مكانه كليلاً يمينياً هو عنبسة بن سحيم^(٤).

وظل بشر عاملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفي في شوال سنة ١٠٩هـ/٧٢٧-٧٢٨م واستطاع أن يهدئ أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة^(٥)؛ ولم يسرف أحد من عمال بني أمية الكلبيين في العصية لقومه كما فعل بشر، فقد اشتد في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر، وكان هو نفسه يشعر بذلك، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكي من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعاني سكرات الموت: «يا شحاتة الأعداء! فقال لها: قولي للأعداء لا يموت!» حتى لا يستطيعهم الفرح.

وكان بشراً خشياً أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسياً بعده، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبي والياً ورجا أن يشته هشام في الولاية. ولكن هشام بن عبد الملك انتهاز فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلية موقع الصاعقة، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ^(٦) (١١٠هـ/٧٢٨-٧٢٩م).

(١) ولم يستقر المغير في الولاية إلا قليلاً، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك في قتل يزيد بن مسلم إذا وجده والياً مكانه، فاعتزل، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصاري، وكان بتونس على غزو بحرهما، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم، ثم عزله يزيد ببشر بن صفوان.

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٥.

(٢) F. WUSTENFELD. DIE Statthalter von Egypten zur Zeit der Chalifen; Goettingen 1875.

(٣) ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص ٢٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٣٦.

ابن الأبار: الحلة السراء، ص ٤٧.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٧.

٥٠- المغرب
 أثناء خلافة هشام
 ابن عبد الملك
 (١٠٥-١٢٥هـ)
 (٧٢٤-٧٤٣م)
 ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة
 للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف في مغازاة من بُعد من قبائلهم وسبى نسائهم
 حتى ليقال إنه عندما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ / ٧٣٢-
 ٧٣٣م « كان فيها خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة
 ٧٠٠ جارية ، وغير ذلك من الخصيان والحيل والدواب والذهب والفضة
 والآنية »^(١) مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم^(٢) ، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على
 كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية ، فأذى نفراً كبيراً منهم ، وكانوا
 من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم^(٣).

بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال في إفريقية لم يكن على ما يرام ، وأن ريع الثورة كانت
 تهب على البلاد ، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية ، ولهذا سأل هشاماً
 أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر ، فأعفاه ، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من
 المغرب من المال شيئاً كثيراً ، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً .

٥١- عبيد الله
 ابن الحبحاب
 (١١٦هـ - ٧٣٤م ، وبهذا أصبح هذا
 الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال البرت ، وهى مساحة
 تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها . وكان يسطر سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو
 خطأ فادحاً ، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً في قيسيته^(٤) ، ثم إنه كان إلى
 ذلك بعيداً عن الكياسة وبُعد النظر اللازمين لرجل تُوكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع
 يفعل به ما يريد .

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة (طبعة دوزى) ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

الأخبار المجموعة ص ٣١-٣٢ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك : ص ٤٨ - ٤٩ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

المقرئزى : خطط (طبعة فييت) ، ج ٢ ، ص ٦١-٦٣ .

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس ، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان ، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى ، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى ، واحتفظ لنفسه بإفريقية لئلا يكون فى مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً^(١).

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم ، وجعل كذلك يتبع من وجد من اليمانية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد ، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصر الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرَيْج الإفريقى وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كوّن لنفسه عصبية بربرية كبيرة فى نواحي طنجة^(٢).

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها فى الغرب الإسلامى كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شئ من بُعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس فى المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حساباً منهم أنهم لن يستطيعوا قبلهم شيئاً ، ويبدو أن قضاء ابن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هوّن فى نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاية قبله يقصرون هذا اللون القاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى فى تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً^(٣) ، ولم يكن عبيد الله يستطيع أن يُنْفِر البربر ويسئ إليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك فى جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه فى الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ولو اقتصرَت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقي العرب جميعاً يداً واحدة - وهم لم يكونوا قليلين في إفريقية والأندلس - ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً في قيسيته لا يكاد يعفى اليمنيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمينيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً - عرباً وغير عرب - موقف العدو ، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية ، بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هي أعظم من هذه ، فنفس أهل البلاد تغلّى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم في مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدي محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا في إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح ، وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم - أي البربر - إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا في ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسلام كما وردت في القرآن ، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون^(١).

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة في المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفي شعابه كان مضموناً لهم ، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثر مجيء هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب .

ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بنى أمية في القيروان ، فقد تخيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة : إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحي موطن أكبر القبائل الزناتية ، وأكثرها استعداداً للثورة وهي برغواطة ومكناسة وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من مصمودة .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

٥٢- ميسرة وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مطغرة ، يسمى ميسرة ، وتنفق وبدء الثورة في معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور ، وتذهب إلى أنه كان إقليم طنجة يبيع الماء في مساجد القيروان^(١) ، وليس ذلك بصحيح ، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة^(٢) أو لعله كان ينتسب إلى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة ، ولأن ما سيلي من الأحداث يدل على أنه كان رجلاً ذا عصبية لها خطرهما ، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان ، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة ، فوجدت مبادئ الخارجية الصفوية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها ، ووقر في نفسه أن ينشرها في بلاده ، واتجه بصره إلى مواطن مطغرة في إقليم طنجة ، فمضى إلى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مطغرة ، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم ، فلم يلبث أن استألمهم إلى رأيه ، فرفعوا راية العصيان ، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة ، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه^(٣).

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجي لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً^(٤). وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بنى أمية ، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديداً العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادى ، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً ، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته ، فأعاته جهل عمر بن عبد الله المرادى وسوء سياسته على كسب قلوب الناس .

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م^(٥) في حملة إلى صقلية ،

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٤ .

النويرى : نهاية ، ج ١ ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥١ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨ .

وأصحابه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه يتجهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتسارعوا نحو طنجة ووالها عمر بن عبدالله المرادى ، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم إليه عبدالأعلى بن جريج الإفريقي ومن معه من الأفارقة وموالي بنى نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار إلى نواحي السوس واستولى عليها ، وقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الأمويين ، وتخرج مركز عبيد الله بن الحبحاب في إفريقية وساء مركز المسلمين في الأندلس^(١).

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوّد عليهم رجلاً من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب الفهرى ، وبعث إلى حبيب بن أبى عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكذب يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقُتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة إلى مركزه في طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها ويبيع عليها^(٢). ويبدو أن النصر ذهب بصوابه ، فأساء السيرة في جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه ولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد ابن حميد الزناتى ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر^(٣)(١٢٢هـ/ ٧٣٩-٧٤٠م).

وتخرج مركز ابن الحبحاب في إفريقية ، فبعث إلى عقبه بن الحجاج السلولى عامل الأندلس يطلب إليه الإسراع لعونه بمن يستطيع من الجند ، فأسرع الرجل وحاول مهاجمة مواقع البربر في طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه^(٤).

(١) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨-٢١٩

ابن القزطية : افتتاح ، ص ١٤-١٥

ابن عذارى : البيان ، ج١ ، ص ٣٩

ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص ١٤٢

ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج١ ، ص ١٣٧ و ١٥١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٤-٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو في هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً :

cf : HENRI FOURNEL, Les Berbères, I. pp. 288-289.

ISIDORI PACENCIS, Chronicon; Espana Sagrada, VIII. Cap. 61 in p. 302 .

(٤)

٥٢- هزيمة
الأشراف أوائل
سنة ١٢٣ هـ
(٧٤٠/٧٤١م)

وجيش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل في تكوينه وجعل فيه نفراً عظيماً من أشراف حرب إفريقية والظاهرين منهم ، ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكد هذا الجيش العربى - يقوده خالد بن حبيب الفهرى - يقارب طنجة ويلقى البربر ويشد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهمز بعض أصحاب خالد بن حبيب وكره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه في أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : « وقتل في هذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم »^(١) .

وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربى عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر ويقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب في جمادى الأولى سنة ١٢٣ / ٧٤٠ . وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى في سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة في الانتقام لمقتل ابنه إسماعيل^(٢) .

ويبدو أن ابن الحبحاب شك في أن لعرب إفريقية يدا في هذه الهزيمة ، فاتهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم في تلمسان يرأسها موسى بن أبى خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا في فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده »^(٣) ثأراً لمقتل ابنه إسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا - في الغالب - هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع في عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به^(٤) ، وتم ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م .

(١) التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥ .

(٢) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضين لهم غضبة عربية » - نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

التويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

٥٤- كلثوم بن عياض القشيري استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد في ذلك إلى رجل من زعماء القيسية توسم فيه القدرة ويُعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيري ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً في هذا الاختيار منه يوم عهد في إفريقية والأندلس (١٢٣هـ / ٧٤١م) إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديداً الاعتداد بقيسيته ، وكان في نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم في الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب ، فإنما يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه في النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومراً بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية. فاجتمع له جيش عظيم^(١) جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيري^(٢) .

وكان فارساً شهيراً إلا أنه كان أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجاله ثعلبة ابن ثوبة الجذامي ، وكان من غلاة القيسية كذلك . ويبدو أن كلثوماً عوّل على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج في القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوبة .

٥٥- العرب الإفريقيون كان جند إفريقية إذ ذاك موافقين للبربر بناحية طنجة في انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب. طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمثون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم في ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأوّل الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحي المغرب .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩-٢٢٢ ويقال إن بلجاً كان ابن أخيه : النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, Les Berbères : I, p. 292 .

ويقصر ابن عذارى في الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين في هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ، ص ٣٨) ، ثم يذكر في الجزء الثاني أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان ، ج ٢ ، ص ٣٠) ويؤيده في ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقررة في نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢) .

وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا في النواحي بمن انضم إليهم أو صار في ولائهم من البربر ، فاعتبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الإفريقيين البلدين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرهما . ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملوك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك في فتح إفريقية من العرب يمينين فقد كثر جمع اليمينين في إفريقية ، كما كثروا في الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرهم إلى عدو دخيل .

ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب إفريقية البلدين عندما أخذ ولاية القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد . ولنصف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحى إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم ، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالى والأنباع ، وأصبحت لها رئاسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية بن حديج ، وبيت بنى نصير . وكان هذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في إفريقية خلال العصر الأموي ، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة^(١) .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة في ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الإقليم لحساب عامل إفريقية في القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية في طرابلس وسبرت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين في ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبرت) ، وعبد الرحمن بن عقبة

(١) راجع تراجم : عقبة بن نافع ، ورويفع بن ثابت الأنصاري ، ومعاوية بن حديج ، وربيعة بن عباد الديلي ، وزباد بن الحارث الصدائي ، وأبى عبد الرحمن بن بسر بن أرطاة ، وأبى عبد الرحمن عبد الله بن زيد (الإفريقي) ومن بعده من التابعين في :

المالكي : رياض النفوس ، ج ١ ص ٤١ وما يليها .

الدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها .

الغفاري ، ومسلمة بن سودة القرشي (القيروان) ، وصفوان بن أبي مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغساني (قابس) وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقيماً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة موافقاً لخالد بن حميد الزناتي زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة^(١) .

ولم تكن العلاقات بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمثون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التي كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولائهم على النواحي ، فكرههم البربر لذلك وحملوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنين منذ أيام موسى بن نصير وبنه وجُدّد غالبيتهم من القيسية ، وكان الفريقان متعادين كما لاحظنا^(٢) .

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب ، سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عرباً مستقرين مسالين . ومن هنا فإننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت في صميمها ثورة بربر على عرب ، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة ، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بني أمية ، ولهذا فقد كانت الحركة في جملتها فتنة إفريقية عامة وثورة على بني أمية .

٥٦- ثورة البربر وصل كلثوم بن عياض إفريقية ، ولم يشأ أن يريخ بالقيروان ، بل أراح ببلدية على العرب في سيبية على مقربة منها (شوال ١٢٣هـ/ أغسطس ٧٤١م) . ثم انصرف طرابلس

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ .

(٢) نذكر المراجع في أخبار ولاية عبيد الله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة ، ملخصها أن عبيد الله لم يكذب بل إفريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان الحجاج - أبو عقبة - قد أعققت الحارث جد عبيد الله ، أي أن بني الحارث - وهم بنو الحبحاب وغيرهم - كانوا موالى الحجاج السلولي وبنى سلوك ، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه ، فأنكر أولاده ذلك ، وخشوا أن يحبط من قدرهم في نظر عرب إفريقية ، ولأموأ أباهم في ذلك . فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالي ، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوبتهم نحو الحجاج وبنه ، فخجل الأولاد من أنفسهم وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة ، أي من أصحاب البلاد ، فكروا أن يسودهم هذا المشرقى المقبل ويحبط من قدرهم ، وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب ، انظر : الأخبار المجموعة ، ٢٦ - ٢٧ .

بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سودة القرشي . فلم يكذب يتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزاري - وكان من الخارجية الصفرية - فجمع جموعه بناحية قابس ، وأرسل أخاه في نفر من البربر ، فحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت ، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس ، فانهمز البربر إلى قابس ، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفوا مع أميرهم مسلمة بن سودة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر ، والتقى الجمعان بأحواز قابس ، فانهمز العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها^(١).

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجاً : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصروهم البربر في القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتى موافقاً لمن بقى منهم على نهر سبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧-الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القبية
في هذه الظروف العصية كان كلثوم بن عياض ومن معه يقتربون من طنجة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقي هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه وصرفتهم عن عونه ، وكان كما قلنا قسياً جافياً شديد الاعتزاز بنفسه: أنف أن يتزل القيروان وأراح في سبيبة ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث بامر حبيب بن أبي عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصية ولا كبرياء من كلثوم ، فلم يكذب يلقي عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشامية قد عولت على المقام في إفريقية واتخاذها داراً ، فحز هذا في نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة في البلاد^(٢) . وزادهم نفوراً من بنى أمية والشاميين عموماً .

وبعث حبيب بن أبي عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلتق عنده إنصافاً كافياً ، فامتلاأت نفس أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب البلديين سخطاً على

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ .

الشامية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحي طنجة ولقى حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التي عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانته ، وبهذا انقسم المعسكر العربي قبل المعركة إلى فريقين ينطوي أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبي عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشامية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر في مجرى الحوادث^(١).

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومى مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنها أعرف ببلاد إفريقية ،^(٢) وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرَجاً. ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذى كان معه كان عظيماً جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنها إذا سمعوا بمقدم الشامية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً في زيادة نفورهم ، فجعل يقول إنه إنما أتى ليستقر بمن معه في إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر في إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في إقرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم في نواحيهم كافياً لإثارة نفوسهم وإذكاء نار العداوة فيها . هذا إلى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة في العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً إلا أثاروا أهله - عرباً أو غير عرب - هكذا فعلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس .

(١) يقول ابن عبد الحكم في وصف هذه الحالة النفسية التي سادت الجانبين : « وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسى على مقدمته في الخيل ، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزله ، ثم قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته ... » - ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلحقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المستول عن كثير مما نزل بالعرب في إفريقية والأندلس من البلاء في ذلك الحين .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ .

٥٨- هزيمة على هذه الحال التقى الجيش العربى مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتى العرب عند عند بليلة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة من تاهرت قرب مصب نهر بقدورة مَلَوِيَّة^(١) ، وقد رأى هرون القرنى ومغيث الرومى أن أعداد البربر عظيمة جداً، وخافا على العرب منها، فنصحا كلثوماً بأن يضرب حول معسكره خندقاً، ولكن الغرور ملأ نفس بلج، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة في الميدان، فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بالحجارة، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل، فنفرت وروعت، ولم يستطع الفرسان القتال عليها، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم، وأعملوا فيهم السيوف، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم، فخاطب حبيب بن أبى عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش، فقال حبيب: قد فات الأمر! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً، وقاتل حتى قُتل، وهكذا أبدى هذا العربى الفهرى من الشهامة والبسالة ما يملك النفس، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم.

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقي معه نحو عشرة آلاف، فحملوا على البربر في عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار، ففروا - يتقدمهم بلج - في اتجاه طنجة. وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا في قتلهم حتى قُتل هرون ومغيث وحبيب بن أبى عبيدة وكلثوم نفسه، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربى الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة، فيذهب الرازى إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ١٥٢)، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٤٧، وابن خلدون: العبر، ج ١، ص ١٣٧)؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بليلة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار، ص ٣١)، وجعلها ابن القوطية بقدورة (بالفاء) - انظر الافتتاح، ص ١٥، ولم نجد بليلة بهذا الاسم في هذه الناحية من إفريقية، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء، فقد ذكر ابن خلدون بليلة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها. وقد رجحنا رأى الرازى وابن خلدون راجع: العبر (طبعة دى سلين)، ج ١، ص ٣٥٤. وانظر أيضاً:

تلوى على شيء بعد السلامة^(١) (١٢٤هـ).

انهزم بلج وأصحابه من الشامية إلى الغرب « واتبعهم أبو يوسف الهواري ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدركهم فقاتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه »^(٢) واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يشسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج في إفريقية عنفاً ، وقام من البربر في كل ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجاً ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى الخارجى ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأخذوا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتما العدة سار عكاشة على طريق مجانة واقترب من القيروان وعسكر عند « القرن » وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبنة ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرّة المغيلي^(٣) . وكان أبو قرّة من كبار زعماء الخوارج . وكان قد نادى بنفسه إماماً . وكان بربرياً مستعرباً من قبيلة مغيلة .

وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية البربر ، كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدورة فكانت ضغثاً على إبالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذى تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، فعجل

٥٩- جيوش

الخلافة تدخل

(١) ابن عبد الحكم : افتتاح ، ص ٢٢٥ .

ISIDORI PACENCIS, Cronicon, cap. 68-69 .

الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .

FOURNEL, Les Berbères, I. p. 299 n.2.

وراجع :

بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالإسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام - رغم مرضه - دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذى رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحته بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة^(١).

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الواقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثانى المعسكر على مقربة من طُبنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهوارى وأبو قرّة المغيل .

يذكر النويرى أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف^(٢) ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذى كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنة والجماعة في إفريقية « فأخرج ما في الخزائن من السلاح ، ونادى في الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين ، ولم يقدم إلا شاباً قوياً . فعبأ الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الرُكَب ، وكان ذلك بمكان يسمى « الأصنام » على وادى نهر شلف جنوب غربى مدينة الجزائر الحالية ، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء »^(٣) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) وبعث حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس . وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها ، ويبدو أنه لم يوفق إلى شيء ، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسناً كما سترى . عن معركتى القرن والأصنام انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢١ - ابن القوطية : اقتراح ، ص ١٥ - ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ - الأخبار المجموعة ، ص ٣٦ ، ٣٧ - النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٧ . والنص الوارد هنا عن النويرى . هذا الأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه ، وأقرب آرائهم إلى الصحة هو =

وكان عكاشة قد أُسر في القرن ، فأمر به حنظلة فقتل صبراً^(١) ، وانتهت المعركة بانتصار العرب ، وقتل فيها عبد الواحد وانقسم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م .

ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر ، وخلفه الوليد بن يزيد ، فأقر حنظلة على ولاية إفريقية ، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة ، لأن حنظلة كان معتدلاً في عصبية ، فأخذ عرب البلاد يطمثون إلى مصيرهم ، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية ، وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنة والجماعة ، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ، ولهذا يعتبر أهل السنة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى .

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ/ أبريل ٧٤٤م ، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم ، وكان مقتله إيذاناً بانتصار أعدائهم اليمنيين وعودتهم إلى السلطان . ولهذا ريع القيسيون في إفريقية عندما بلغهم النبأ ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمنيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره ، فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم ، وبقي حنظلة في نفر قليل من القيسية^(٢) .

٦٠- ظهور يبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمنيين عليهم ، أمر عبد الرحمن لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلدين ، عبد الرحمن بن حبيب بن أبي ابن حبيب عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل .

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت إلى سبتة عقب هزيمة الأشراف ، إذ كان أبوه حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً ، فلما انهزم بلج ولجأ إلى سبتة ، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري - اليمنى مثله - وجعل يثريه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم . فلما تسامع بموت الوليد وخروج

= ما يذهب إلى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلواء . راجع : FOUR- NEL, Berbères, I. p. 300 n. 4 .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً ، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يعرف بسبخة سَجُوم في أوائل سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م^(١) ، وقرر أن ينتهز الفرصة ويخلص إفريقية من القيسية جملة ، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد ، وأمهلهم ثلاثة أيام . وشاء حنظلة أن يقاوم ، ولكنه رأى قلة من معه ، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية في الشرق ، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق .

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً ، فقد بدا له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد ، فقد حدث بعد انتصاره في موقعتي القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة ، فخرج إليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قُتل في المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفراً من وجوه العرب إلى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه إلى الطاعة ، فاستألمهم هذا بالأموال فانقلبوا على صاحبهم الذي أرسلهم^(٢) ، وضاعت الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بنى أمية كله إلى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم إلى القيروان .

٦١- عبد الرحمن واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، وصار الأمر في ابن حبيب يحتل المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة البلديين بعد نزاع طويل مع القيروان البربر حيناً والعرب المشاركة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ/ أبريل ٧٤٥م^(٣) .

٦٢- ختام النزاع بين القيسية واليمينية في إفريقية كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على إفريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمينية في إفريقية ، لا لأن الفريقين انتحيا إلى التفاهم والسلام في إفريقية بعد هذه المنازعات الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣-٣٥ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج١ ، ص ٤١-٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٤٣ .

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٥١ .

وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى بإضعاف العرب جميعاً في المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم إن زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الإسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢هـ / ٧٤٩-٧٥٠م) ، فلم يعد لعرب إفريقية - قيسية ويمينية - أى رجاء في أن تقف الدولة إلى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذى جرى عليه خلفاء بنى أمية .

ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع ، وإنما كان انتصاراً لهذه الطائفة الإفريقية من العرب التى كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهى طائفة العرب البلديين ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصاراً لزناتة من بعض الوجوه ، ومصداق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبى جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمره ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه إلياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦م ، ولم يكن إلياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استعرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن الذى لجأ إلى بربر ورفجومة وكانوا خوارج وسار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى على بقية بنى حبيب . ولم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات ، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م .

وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين ، بعد أن دخل رجالها القيروان وسيطروا على إفريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً ، ولم ينته أمرهم إلا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً : « ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام » كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي الذى صارت إليه الأمور كلها في المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥-٧٦٦م بفضل من كان معه في جيشه من الخرسانيين ، وبفضل من انضم إليه من البربر^(١) .

(١) انظر التفاصيل في :

التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٦ .

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الإفريقية والثورة على الشاميين ، لأن حركات الخوارج الصفرية والاباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعازاً وقوة ، ولكي نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما أجملنا من تاريخ عبد الرحمن بن حبيب وآله في إفريقية .

٦٢- البربر ذلك أن الأمر لم يكد يستقر في القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر يستقلون بنو حبيهم العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة ، وأنهم الآن في حل من أن يستقلوا بها يسيطرون عليه من النواحي ، فقام في كل ناحية زعيم بربرى وأعلن نفسه أميراً : قام عروة ابن الوليد الصدفى واستولى بجاعات من البربر على تونس ، وأعلن أبو العطف الأزدي استقلاله بطيناس ، واقطع ثابت الصنهاجى وقومه باجه لأنفسهم وانضم إليه عبد الله بن سقرديد ، وقامت جماعات من إياضية هواة يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عيس القيسى^(١) ، وخاض عبد الرحمن ابن حبيب وأخوه إلياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات .

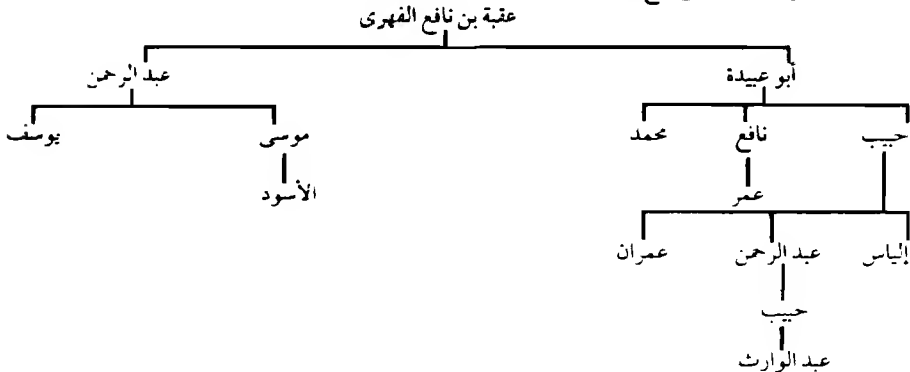
ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بنى حبيب أنفسهم ، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه إلياس ، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الإفريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند إلياس وتمكن إلياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب ، فهرب ابنه حبيب إلى ورفجومة إحدى بطون نفزة والاستعانة بها على إدراك ثار عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب^(٢) . فنصرته ورفجومة

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ، ص ٤٨ وما يليها .

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٨ وما يليها .

(٢) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع في إفريقية .



وشيوخها عاصم بن جميل ثم وضع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة إقليم إفريقية . فعجل شيخها عاصم بن جميل ، وكان خارجاً صفرياً بالمسير إلى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضياً للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقى معه .

ودخلت ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٣م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الإسلامي في يد البربر الخوارج الزناتيين ، فكان هذا الحادث إيذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلفة عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة في القريب أو في البعيد ، فقد اشتدت الخصومة السياسية بين أهل السنة والخوارج ولم يعد هناك سبيل لإصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم .

ولم يلعب بيت عربي في هذا الدور من تاريخ المغرب الإسلامي دوراً يقرب من الدور الخطير الذي لعبه بيت عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربي الفهري وتعصبه للعرب الإفريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاته جهودهم ، ولم يكن في نفسه بالرجل الثابت ولا التقدير ، وكان فيه ميل إلى الظلم ، فلم يلبث أن نفروا منه ، ونهض له أخوه إلياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا ، فكان شراً من عبد الرحمن وأعتى ، واختلط الأمر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بني حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب البلديين على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الأشعث ثم بالأغلب بن سالم بن عقال لما عاد السلام إليها .

ثم إن دخول ورفجومة القيروان واستبدادها بشئون إفريقية لم يكونا إلا مظهرين لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هائلاً لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على إفريقية وأهلها ، لأن كراحتهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم

= انظر :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٣- ٢٠٤

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٠ وما يليها .

النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠- ٤٣ .

يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الإسلام من نفوسهم بعد ، فأصلتهم وأخرجتهم عن الإسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة في أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ١٤٠هـ / ٧٥٧-٧٥٨م^(١) . فأنار عملهم هذا إخوانهم بربر نفوسة ، وكانوا إباحية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على إفريقية .

ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقمه في الإمارة ، وإنما تخير رجلاً من أصل فارسي هو عبد الرحمن بن رستم ، وكان خارجياً إباحياً شديداً العصية لمبادئ الخارجية (١٤١هـ / ٧٥٨-٨٥٩م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب إلى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسة على مقربة من تورغة إحدى قرى طرابلس (جمادى الأولى ١٤٤هـ / يونيو ٧٦١م)^(٢) ، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن بن رستم إلى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت ، وكانت هناك إذ ذاك بقايا حصن روماني فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الإباحية ، وأعلن نفسه إماماً ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله^(٣) .

وحذا حذوه بربري خارجي آخر هو أبو قرّة المغيلي شيخ قبيلة بنى يفرن وكان صفرياً ، فأعلن نفسه إماماً في نواحي تلمسان . وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية ، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقي لبعض المضرة في ظواهر القيروان ، وظل من السيطرة بقى لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طينة وهدنة ، ولم يهدأ أمر البلاد إلا على يدى محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولى أبو جعفر المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم بن عقّال .

وعندما قُتل هذا في حربه مع الخوارج تولى أمر إفريقية أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٦١ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤-٤٦ .

(٣) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٦١ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤-٤٦ .

وبدأ بذلك حكم المهالبة في إفريقية . وقد استمر حكم المهالبة إلى سنة ١٨٠هـ ثم تولاهها هرثمة بن أعين ثم تولى أمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذى أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشاركة تؤيدهم فرق من الجند الحُرَّسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لتبعية إفريقية المطلقة على المغرب ، فإن دولة بنى الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال إفريقية عن الخلافة ، ووقفت حدود إفريقية الأغلبية السنية عند مجرى نهر شلف ، أما غربى هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الإباضية الرستمىة التى سادت المغرب الأوسط .

٦٤- دولة بنى مدرار في سجلها : وانتهزت جماعات من برابر مكناسة - إحدى بطون ضريسة - فرصة مدرار في سجلها ابتعادها عن القيروان واتشغال العرب بمتازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحياتهم وليقيموا لأنفسهم دولة . كانت هذه البطون من نقوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذى ستقوم فيه بلدة سجلها فيا بعد ، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتي تازا وتسول ، وكانتا إذ ذاك من منازل الرعاة ، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربرى ممن حج إلى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة ، واسمه أبو القاسم سمكو بن وسول بن مسلان بن أبى ازول ، ويبدو أنه كان قد مال إلى ناحية الخارجية ، فدعا النقوسيين إلى مبدئه فانضموا إليه وتعصبوا له ، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود ، ثم اتخذوا سجلها عاصمة لهم فامتدت وتمددت ، ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلف هذا ابنه مدرار ، وفي عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التى عرفت في التاريخ بدولة بنى مدرار . وإنما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقي ضوءاً على التطور الباطنى الذى كان يجرى في المغرب الإسلامى إذ ذاك ، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير في نشر الإسلام في نواحي المغرب الأقصى والموس ، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبى القاسم سمكو ، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد^(١) .

(١) راجع عن هذه الأحداث :

ابن عذارى : البيان ، ج١ ، ص ٦٠ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٤٤ وما يليها .

ابن خلدون : العبر ، ج١ ، ص ١٣٩ وما يليها .

٦٥- رأى جوتييه وقد حاول ا.ف. جوتييه جغرافياً المغرب ومفلسف تاريخه على مذهب في ثورات البربر الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسي ، فانتهى إلى آراء لا بد من إيرادها في ختام هذا البحث^(١). يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الإسلامي قبل الحركة الفاطمية . فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف لنا في الواقع عن خصائص هامة يتفرد بها هذا التاريخ المغربي ، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كاشفاً^(٢).

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية في المغرب إن هي في الواقع إلا الدونانية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل . وتفصيل هذه الحركة الدونانية في إجمال هو أن «دونات» أسقف كازنوار إحدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilia-nus) بطريقة لقرطاجنة ، لأن من انتخبوه كانوا قسماً مشكوكاً في صلاح عقيدتهم ، فغضب عليه صقليان ، وثار بينهما الخصومة ، وتعصب لكل منهما فريق ، وانقسم نصارى إفريقيا شيعتين ، شيعة صقليان ، وشيعة الدونانيين المنشقين أو الخارجيين عليه .

والخارجية المغربية في نظر جوتييه ، ليست في الواقع إلا شيئاً شبيهاً بالخارجية الدونانية النصرانية ، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين في أمر من أمور العقيدة - كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلاً - وإنما يخالفونهم في عدم الاعتراف بخلافة معلومة ، ويقولون بأحقية على وأولاده في الخلافة (كذا!) بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه في البطريقة ، والحركات الدينية الخطيرة -

(١) E.F. GAUTIER, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 260 Sqq. (١)

(٢) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول ، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خاصة فسر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامي كله ، وقد أخذها عنه جميع مؤرخي المغرب الفرنسيين ، ولهذا رأيت أن أعرض لها في شيء من الإسهاب . وإليك مراجعته التي استند إليها في هذا البحث إتماماً للفائدة وتسهيلاً للمراجعة : أبو زكريا : تاريخ أبي زكريا ، ترجمه وعلق عليه EMILE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨) ، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة .

ابن خلدون : العبر ، (ترجمة دى سلين) ج ١ ، ص ٢١٦ و ٢١٨ ، ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٥١ وما يليها .

ابن الأثير : حوادث المغرب التي جمعها فانيان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية في كتاب Annales du Magreb et de l'Espagne ، ص ٦٣ .

سواء في المغرب النصراني أو في المغرب الإسلامي - لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة ، بل عن تعصب وانتصار لأشخاص ، لأن أهل المغرب - كما يقول - لا يكادون يحفلون للعقائد في ذاتها ، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص .

وإيمان البربر في رأى جوتييه يمتاز إلى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرون على ذلك إصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً . وهذه كلها أمور نلاحظها في الدوناتية كما نلمسها في الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدق ، وكانوا يتحرون جماعات في سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملاً في أن يغتنموا الشهادة ويرقوا إلى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم في بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق في قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر إلى حد اغتنام الشهادة بالانتحار ، وإنما هم كانوا يتهافون على القتال في سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفريين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالإباضيين . هذا مع العلم بأن تفاني هؤلاء الأخيرين في العقيدة كان يذهب بهم إلى حد إلغاء شخص الإنسان إلغاء تاماً أمام الخالق .

٦٦-الدوناتية ثم يقول : ولقد أحسن ماسكراى حينما قال إن الخارجية هي الدوناتية نقلت والخارجية من إطار مسيحي إلى إطار إسلامي ، ولا يهمننا الإطار ولا الحادث الذي أثار الحركة في المسيحية أو في الإسلام بقدر ما تهمنا الظاهرة ومغزاها الذي يتلخص في الحقيقة التالية : وهي أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوباً واحداً عميقاً في الإحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الإحساس ظاهراً في صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزي عند هذا الجنس .

وهو - أى جوتييه - لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع - فهي في نظره حادث عارض - والمهم عنده هي الغايات والنزعات المادية التي تستر دائماً خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسي والاجتماعي للحركة الدوناتية ، وقد وُفقوا ، وليس بالعسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التي أدت إلى الثورة الخارجية .

ثم يقول : إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكاته ، وذلك حيث قال : إن الخارجية انتشرت على عجل في البلاد وأصبحت سلاحاً في يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التى يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتصقون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول : ولم تكن الدونانية في الواقع إلا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطية ، إذ كانت في الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبعاً أن الشعب الذى قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذى قام بالدونانية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة وإنها كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه - بطبيعة الحال - انفجاراً هائلاً لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة في صورة الخلفاء المشاركة .

٦٧- أى فريق ثم يمضى جوتيه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى من البربر نهض بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا في الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الأمر في طنجة خلف ظهور الجيوش الإسلامية الغازية في أسبانيا ، ثم لم يلبث لهما أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التى هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر « سبو » ووقعت الثالثة التى انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت إلى الشرق مما يلي ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أى أن الحوادث البارزة في الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتي ٧٤٣ - ٧٥٢) وفيها بين سنتي ٧٥٧ - ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة إلى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيشون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأشعث ويحوز النصر في

صرت من نواحي طرابلس ، ثم يسير إلى القيروان فيحتلها ، ولكنه لا يوفق إلى النصر عند تلمسان التى ينتقل إليها مركز الحركة بفضل أبى قرّة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان . ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة في إقليم هدة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقي حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمرين أخذ وردّ بين العرب والخارجيين حتى يتّهى الأمر إلى يد بنى الأغلب فى سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هى طنجة ووادى سبو وإقليم تلمسان ووادى شلف وهدة وجنوبى تونس وطرابلس ، أى أنها تقع جميعاً فى نطاق السهول والهضاب العالية ، أى فى مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلها فى أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتيه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير إلى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها فى إقليم الشاوية ديناً جديداً يخالف الإسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا فى هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغى أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتيه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلقي ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية فى هذه الحركة البربرية الخطيرة ، وبهنا من كلامه قوله إنها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعى ، فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت إليهم من أول الأمر أملاً فى أن تتنصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد فى ظلهم بعض ما فاتها فى عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العنف الذى رأيناه فجئحت نفوسهم إلى الثورة . وبهنا كذلك قوله إن هذه الحركة طبيعة مركبة فى النفس البربرية : فهى طبيعة تفانٍ وتصوف واستخفاف بالحياة . وبهنا كذلك إشارته إلى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق فى شئون البلد . وبهنا أخيراً ربطه هذه الحركة بأمثالها فى عهود الروم وسيره بالحركة إلى مطالع العهد الأغلبى .

٦٨- الأحوال ونعود الآن إلى الأندلس . لم تكن الأحوال في الأندلس إذ ذاك بأحسن مما كانت عليه في المغرب . كانت هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيرة رجاله في رمضان سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م قد أوقعت البلد في أزمة كبرى ، ذلك أن اليمينيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقي واشتغال عامل إفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نُفيلة بن عبد الله الفهري في أول شوال سنة ١١٤هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقية أقر عبد الملك في ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقي^(١).

٦٩- عبد الملك لا نمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك في ولايته ابن قطن الفهري الأولى ، ولكن ايزيدور الباجي يذكر أنه أساء السيرة وأذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمينية عاثوا في البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا إلى الأموال شرهاً اضطّر معه عبد الملك إلى عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها^(٢) . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر إفريقية بعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلاً قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها في شوال سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م^(٣).

ويذكر ايزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن الفهري ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر إلى القبض على عبد الملك وإلقائه في السجن ، ثم نقل عدداً عظيماً من المدنيين إلى إفريقية لكي يهدأ البلد ، ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى^(٤).

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة في الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد «بأحسن سيرة وأجلها وأعظم طريقة وأعد لها»^(٥) . واستطاع كذلك أن ينصرف إلى الفتوح في صقلية وفيما وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذي طال سبع سنين^(٦).

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

(٢) ايزيدور ، فقرة ٦٠ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

(٤) ايزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمينيين ويحتمون بهم .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٦) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ .

في ذلك الحين كانت ثورة البربر في إفريقية على أشدها ، وكان عبيد الله بن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية في إفريقية عن أبناء عمومته في الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمينيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض أبناء الأنصار يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣ هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمينيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ؛ وقد كان ، وعاد السلطان إلى ابن قطن ومن معه من اليمينيين والمدنيين^(١).

٧٠- انتقال والظاهر أن نفراً من دعاة الثورة البربرية الإفريقية خف إلى الأندلس ليشير الثورة من إفريقية بربرها على عربها ، ولم يكن البربر في الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى إلى الأندلس العرب ، لأن هؤلاء الأخيرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود إلى البربر . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفيافي والجبال الفاحلة في الشمال والشمال الغربي^(٢).

وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة في أخصب نواحي الأندلس في الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزها من بطونهم وعشائهم ، ثم إن العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم إن الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواماً في منطقة الثُرت وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة في الشرق والجنوب والوسط والغرب .

٧١- مقدمات ثم إن المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت في ثورة بربر الأندلس أقصى الشمال عند لاردة واستقرت و«المدائن التي خلف الدروب» كما يقول

(١) إيزيدور الباجي ، فقرات ٦١-٦٣ . ويذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البان ، ج ٢ ، ص ٢٩) . ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذي رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) . أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمينية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع إيزيدور في ذلك ، وقد أخذنا بروايتها .

صاحب الأخبار المجموعة^(١) أى في نواحي الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الإسبان النصرارى في الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب في الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعاً مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسيبه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شعباً محكوماً لا ينبغي أن يُترك له أى نصيب في الحكم أو في إدارة الأمور .

ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بأقل من العرب ديناً ولا كفاءة ولا فضلاً ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الإسلام في الأندلس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه إلى سوء المعاملة والإهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لآفته الأسباب ، فإذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى^(٢) .

ثم إن استبداد القيسية بالأمر كان حرياً أن يُنفر البربر ، إذ كان القيسيون قومياً ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم إلى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر في إفريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر في الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب إلى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم^(٣) . وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا إذا وصلوا إلى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفاً ، في حين كانت عيوب الكلية اليمنية الظاهرة جشعاً إلى المال وميلاً إلى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الإدارة .

٧٢ - ثورة البربر طبعى إذن أن يبادر بربر الأندلس إلى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء في الأندلس عمومهم واشتباكهم مع العرب في الحرب في إفريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة - وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلاً - : « فُقضى أن بربر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذى كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر في الجزيرة الأندلسية .

CESAR DUBLER. Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festschrift. z. zud Zurich 1943.

(٢) إيزيدور ، فقرة ٤٤ .

(٣) يُفهم هذا من قول ابن القوطية مثلاً : « وبقي عرب الأندلس وبربرها مجاريون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فخرجوا عنا ! » - ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧ .

الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة، وثبوا في أقطار الأندلس، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم، وأخرجوا عرب أسترة والمدائن التي خلف الدروب، فلم يرع ابن قطن إلا قتلهم قد قدم عليه، وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثرهم، فإنهم كانوا أكثر من البربر، فلم يهجم عليهم البربر»^(١).

ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحاً فيقول: «وتناولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترة والمدائن التي خلف الدروب، وقتلوههم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب»^(٢) ولا يزيدنا إيزيدور على ذلك كثيراً، وإن كان يشير إلى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية، فأسخطهم ذلك ودفع بهم إلى الثورة^(٣).

ولكن دوزي يضيف من عنده كثيراً، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض، ولم يتركوا للبربر غير النواحي القاحلة في الشمال، ويمضى في المبالغة - على عهده - فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومته في العدو الإفريقية بقبول عظيم، وأن دعاة خارجيين ذهبوا إلى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستصالحهم جملة، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية في إقليم جليقية امتدت إلى شمال الأندلس جميعه عدا إقليم سرقسطة، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله، وليس بين أيدينا إلا ما أورده من النصوص^(٤).

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين في نواحي جليقية واسترقة والنواحي القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيزة، فأما إقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم. وأسرع من بقى من العرب في هذه النواحي بالهروب إلى وسط الأندلس^(٥)، فإذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم في ثلاثة جيوش كبيرة: وجهة الأول طليطلة، والثاني قرطبة، والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز.

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣٨.

(٢) فتح الأندلس ص ٣١.

(٣) إيزيدور، فقرة ٧٦.

(٤)

(٥) الأخبار المجموعة، ص ٣٩.

ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزي إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه في هذا القول^(١) . ولكننا وجدنا في «فتح الأندلس» إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربري يسمى «زقطرتق» كان يرأس جماعة البربر التي كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتي تجمعت في شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا في الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربري الذي قاد بربر الأندلس في الثورة كما قاد مسيرة بربر إفريقية^(٢) .

تخرج مركز عرب الأندلس إذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر إلا إذا وصلتهم من المشرق إمدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر في إفريقية كانت على أشدها ، ثم إنهم كليون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

٧٢- بلج بن وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين في سبتة منذ عام ، وقد
بشر ومن معه أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك^(٣)
محاصرون في سبتة وكانوا لا يكفون عن الكتابة إلى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ،
فلم يسمع إلى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه . فهم قيسية شامية متعصبون وهو
ومن معه كليون يمنيون ، فتركهم لكي يهلكوا حيث هم^(٤) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب - كبير عرب إفريقية الذي تحدثنا عنه - قد نجا من معركة الأشراف - وانهمز مع بلج وأصحابه إلى سبتة ، ومن هناك عبر إلى عبد الملك بن قطن الفهري مثله ، وجعل يجرّضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك إصراراً على تركهم لمصيرهم^(٥) . وبلغ من إسراره في ذلك أن عريباً أندلسياً من لحم يقال له عبد الرحمن

(١) يقول صاحب الأخبار المجموعة في ص ٣٩ : « وكانت قد رأت البربر بالأندلس على أنفسهم ابن هدين » ، ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول إن البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، إذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزي فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣١ ، وهذه هي قراءة ناشر الكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة . وفتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

ابن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث إليهم مركبين وشحنهما بالشعير والإدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب^(١) وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا^(٢) ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين في سبتة في العبور إلى الأندلس ، فأجابهم إلى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن ييارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، ويتزلم في مكان يستطيعون منه العودة إلى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل إليهم عبد الملك سفناً عبروا بها إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير^(٣) .

هكذا عبر بلج بن بشر القيسي ومن معه من القيسية الشامية إلى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسير تكبون من الأخطاء فيما بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهي بهم الأمر بالاستقرار في البلاد ، وسيكون لهم في تطور الأندلس الإسلامي أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس في حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جلوداً مليوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا إلى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلاد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا »^(٤) . وهكذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

ابن خلدون عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .

فتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

أوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تفاذتهم البلاد والنوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى في الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع في أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم وإكرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً في أن تقوى بهم قلوبها ، ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

٧٥- طالعة بلج ولم يكذب بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذى أتوا من تقضى على ثورة أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغي عمله هو البربر في الأندلس القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين في ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس في أى عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاماً ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك إلى شدونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم إليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شدونة فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم^(١) . ولا نزاع في أن العرب كانوا مدفوعين في هذه المعركة بالرغبة في طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل في إفريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك ابن قطن ومن معها للقاء الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً في هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الآخرين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقة وماردة وقورية وطلبيرة قد انجفلت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك ابن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشامية جمع رجاله وسار مع الشاميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣١ .

هؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا »^(١) ، مما يدل على شدة حماسهم ورغبتهم في النصر .

٧٦- معركة دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادي سليط (Guazaleta) وحى وادي سليط أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطاً ، وأظهر الشاميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم »^(٢) (أوائل ١٢٤هـ / منتصف ٧٤١م).

ويفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادي سليط تعقبوهم في نواحي الجزيرة واشتدوا في ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيراً .



٧٧- المجاعة شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وكانت جموع كثيرة وهجرة البربر إلى من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض إفريقية واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم الأرياف والقرى التى غنموها واشتغلوا بالإشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان إشرافهم هذا من العوامل التى أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب .

فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا في الانتقام منهم ، خاف من بقى من البربر واضطربوا في مساكنهم ، وبدأت الرغبة تساورهم في ترك هذه البلاد ، التى كانوا يقيمون فيها على الخطر ، إلى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئناناً ، فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ووادي سليط نهر يصب في التاجه من اليسار جنوبى طليطلة بقليل . وقد أشار الرازى في قطعة باقية من الترجمة الإسبانية لتاريخه إلى هذه الواقعة بقوله :

“ et esta batella fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican .

انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ في نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل في البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءاً.

ولم يتنبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم ، فانهى الأمر بعد سنوات فلائل إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل ، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان ، فانهدمت الزروع ونذرت المحاصيل ، ولاح شبح مجاعة خطيرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادى سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوبة ، فلما كانت سنة مائة وثلاث وثلاثين (٧٤٨ م) هزمهم (أى بلاى زعيم الإيبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الحراج ، وقتل من قتل ، وصار قُلُهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين على استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلک السنون تسمى « سنى برباط » ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم^(١) .

واشتدت المحنة وأصاب نواحي الأندلس كلها عدا إقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا - كما رأينا - إلى النواحي التى توقعوا أن يجدوا فيها خيراً ، وكان البربر أسوأ حالاً ، لأن الهزائم قَلَّتْ غزبهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر في الأندلس فأخذت جموع منهم تعود إلى إفريقية ليطمثوا بين أهلهم وعشائهم ، فهاجروا إلى إفريقية أرسالاً كثيرة .

٧٨- زحف لا نزاع في أن عدد من هاجر من البربر كان عظيماً جداً ، لأن المؤرخين يحدوثونا نصارى الإيبان أن نواحي شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فإذا أضفنا نحو الجنوب

إلى ذلك أعداد من هلك من السكان - عرباً وبربراً - بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم إلى الجنوب وإلى الغرب وإلى إقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الإسبان في جليقية وأشتريس اتساعاً مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتي ٧٥١ و٧٥٣م (١٣٤-١٣٦ هـ) .

ذلك أن الإقليم الواسع الواقع بين نهري المنهو والدويرو خلا من سكانه المسلمين في ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى افراغه وأبورتو وفزبو^(١)، وبذلك سيطروا على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك في حذر فاستولوا على أشترقة وليون وسمورة ولدسما وسلمنقة وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيمانقاس وشقوية وأفيلة وأوكا وأوسا وميراندا على نهر ابره وسنيسيرو وأليسانكو على نهر ريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الإسلامى إلى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو إلى قورية وطلبيرة وطلبيطة على التاجة إلى وادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة في الشمال الشرقى .

٧٩-العرب وبهذا خسر المسلمون نحو ربع ما فتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات يخسرون ربع القبيلة من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، الجزيرة وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس^(٢) .

٨٠-الخصومة ولم تقف نتائج هذه الثورة المشئومة عند ذلك الحد ، بل إنها خلقت في نفوس بين العرب العرب والبربر من الكراهة للحكم الأموى في دمشق ما سيظل قائماً قروناً والبربر متوالية لا تكاد الأيام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبيين ، فلما انهزم الخوارج في إفريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها ، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون باندماج العرب والبربر وقيام الشعب العربى المغربى .

(١) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفزبو Viseu هى بازو الواردة في المقرئ ولكن سافندرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤) .

SAAVEDRA, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1882) p. 182 .

BALLESTEROS : Historia de Espana Y su influencia en La historia universal, : انظر (٢) II, pp.325 sqq. DOZY, Recherches, I, pp.116 sqq.

وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية قوى جانب البربر الخوارج من جديد وأعادهم إلى المقاومة ، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوتون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التي دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، وسرى أثر هذه الخصومة واضحاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية .

يقول الرازي تعقيماً على هذه الحوادث التي ذكرناها : « ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس ، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث ، فبالعرب غزوا في بلادهم وببأسهم شبيت ذرارهم وغنمت أموالهم حتى أدخلوا في الإسلام واضطروا إليه قهراً . قال : فلما رجع العرب إلى بلادهم [في] المشرق ، واستقر منهم الأقل [في] الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه ، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم ببلادهم ، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم »^(١). وفي هذا الكلام مبالغة .

* * *

هكذا أسدل الستار على هذه الفتنة الإفريقية الكبرى بعد حروب طويلة ودماء غزيرة ، ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هذه العداوة ، وبعد أن قامت الدولة الأموية الأندلسية بقليل لن نجد في الأندلس إلا أندلسيين ولكن أسوأ آثارها أنها قللت من قوة المسلمين في مواصلة الفتوح في غالة وهي فرنسا . فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون في مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها ، بفضل جموع البربر المهاجرة .

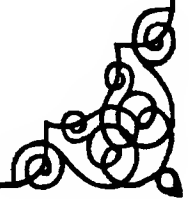
أما الآن ، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها ، وبعد أن هلك منها في الفتنة من هلك ، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين ، وانفصح أمام الإسبان النصراني مجال النمو وتجددت آمالهم في غزو بلاد المسلمين وليس يخفى على أحد أن الأندلس الإسلامية إنما أتت من الشمال والغرب - حيث هاجر البربر - ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة في إقليم سرقسطة .

* * *

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس ، ص ٣٢ .



القيسيّة واليمنيّة



٨١- مؤرخو
 الأندلس والعداء
 عندما نشر راينهاردت بيتر - آن دوزي كتابه المشهور في تاريخ الأندلس - المعروف بـ « تاريخ مسلمي إسبانيا » - أدار ثلثه الأول على الحروب بين القيسية والبنية القبيلة التي وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة ، وبالع في تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا في شبه الجزيرة شراذم من أهل العصبيات لا همَّ لها إلا الاقتال فيما بين بعضها وبعض ، كأنهم كانوا منقسمين إلى شعبي متعادين لا تربط أحدهما بالآخر رابطة ، هما شعب عدنان وشعب قحطان ، لا يبالي أحدهما بشيء في سبيل القضاء على الآخر ، ومضى يصف في إسهاب الوقائع والأيام التي دارت بين الفريقين في نواحي الدولة الإسلامية عامة وفي الأندلس خاصة دون التفات إلى شيء آخر ، كأن تاريخ العصر الأموي لم يكن إلا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب^(١).

ومن هنا جاءت الصورة التي رسمها لعصر الولاة في الأندلس صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية في شيء . ولكن ذلك التشويه لا يخلو من دلالة لها قيمتها . فقد كان دوزي أول من كتب تاريخاً للأندلس على منهج علمي صحيح ، وكان أول مؤرخ محدث التمس هذا التاريخ في مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر ، فوفق فيما فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة^(٢) ، ووضع يده على الأصول التي ينبغى أن يؤخذ منها ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب لمن جاء بعده .

(١) REINHARDT PETER- ANNE DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (Leid- en. 1861).

وفد لقي الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيماً ، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . ثم أشرف إيفاريست ليفي - برونسفال على طبعه طبعة جديدة معدلة متقنة ظهرت في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢ .
 (٢) مثال ذلك : MASDEU, Historia Critica de Espana . (Madrid, 1805) .

وقد تحدث في الجزء العشرين منه عن العرب في الأندلس

JOSE ANTONIO CONDE . Historia de los Arabes en Espana, Madrid, 1820 .

وانظر نقد دوزي لذهبن المؤلفين في أبحاثه:

Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen- Age (3e.éd. Leiden, 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون مئندز بيدال لمعظم ما كتب في أوروبا في تاريخ إسبانيا الإسلامية في :

RAMON MENENDEZ PIDAL . La Espana del Cid (I era ed. Madrid, 1929) tomo I. pp. 3 sqq.

وقد نقض آراء دوزى مستشرقون لا يقلون عنه تبجراً ، مثل يوليوس فلهاوزن واجناس جولدتسيهر ، فأما الأول فلم يقره على ما ذهب إليه من المبالغة في تصوير ما كان بين العدنانية والقحطانية^(١) ، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر ويبحث موضوع العدنانية والقحطانية عامة ، وانتهى إلى أن البحاثه الغربيين أسرفوا وأكثروا في ذلك الموضوع دون سند كافٍ من الأصول ، فإن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لم يقولوا إنهم ينقسمون إلى عرب شمال وعرب جنوب ، وإنما نشأ ذلك التقسيم البيّن للعرب إلى شعبين متعادين خلال العصر الأموي ونتيجة لسياسة بنى أمية في الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة ، وتقريب قوم دون قوم ، فإذا قرّب الخليفة الأموي قيسياً حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومته أن يفيدوا من ذلك ، وإذا قرب الخليفة شيخاً كلبياً (أى يمينياً) سخطت القيسية صاحبة الخطوة أولاً .

وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه ، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية . وهو عداء أخذ أسماء شتى ، فهو في الشام خصومة الشام واليمن ، وفي خراسان عداء مضر وأزد اليمن ، وفي الأندلس صراع قيس وكتب . وفي أثناء ذلك الصراع مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده في الجاهلية ، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن ، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية إلى الورا ، وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية ، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة^(٢) .

وبعينا الآن أن نقول إن ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمن في الأندلس مبالغ فيه ، أو على الأقل مبالغ في تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس في عصر الولاة . وهذا هو ما نخرج به من كتابي الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس مثلاً ، وهما أكثر المراجع إسهاباً في الكلام على عصر الولاة .

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمن في الأندلس ، وأصولها ترجع إلى

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب

JULIUS WELLHAUSEN, Das Arabische Reich und Sein Sturz .

بعنوان : تاريخ الدول العربية إلى نهاية العصر الأموي ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) انظر : تعليقتنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التي قمنا بها لكتاب جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

ما كان بين هذين الحين من صراع على السلطان في قلب الدولة الأموية ، وكان أحدهما إذا انتصر في مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر ، فهاجرت جماعات منه إلى الولايات ونفوس أفرادها تفيض بالحقد واللدد ، وهناك تنضم إلى من تجده من أبناء عشيرتها ، فتجتمع كِسَرُ القبائل ، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية ، ويتجدد النزاع القبلي بصورة أعنف مما كان في قلب الدولة ، حدث ذلك في خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات .

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلي في الأقاليم ، فقد كان هناك التنازع على المغامم والسلطان في الولايات ، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية ، ومن هنا كانت بعض القبائل تناسي عصبيتها في سبيل كسب مادي وتنضم إلى قبيل غير قبيلها ، وكانت هناك قبائل محايدة ، لا هي من قيس ولا هي من مضر ، وكانت تنضم إلى هذا الفريق أو ذاك بحسب ما غلب عليه مصالحها ، ومن ثم فقد كانت الأحزاب التي اضطرت في الأندلس خليطاً من هذين الحين في أغلب الأحيان ، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها .

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمينية في الأندلس ، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان ، ثم شغلتها عنه الثورة البربرية أو الفتنة المغربية .

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لها فعادوا إلى النزاع ، وأسرفا فيه إسرافاً جاوز كل حد ، حتى ضعف أمر العرب والإسلام في الأندلس ، وكاد أمرهما يتلاشى فيه جملة ، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل .



٨٢- القيسية خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمينية مظفرين من المعركة العنيفة تستبد بأمور مع البربر ، كما خرج منها عبد الرحمن بن حبيب في إفريقية ، ولكنه لم يعظم الأندلس على أمره ما دام بلج وأصحابه إلى جانبه ، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون بغير الصدارة والقيادة ، ثم إن هذا النصر لم يتأت إلا بسيوفهم ، فأقام عبد الملك خائفاً منهم يترقب ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم ، فتلكأ هؤلاء حيناً ، فما كانوا ليتركوا هذا البلد الذي أقبلت عليهم النعمة فيه إلا إذا أخرجتهم منه قوة .

ثم إن عبد الملك لم يكن خالص النية نحوهم ، إذ اعتذر عن إعادتهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، متعللاً بأنه لا يملك سفناً كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم . وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقي من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور إلى ناحية أخرى من إفريقية يستطيعون الذهاب منها إلى القيروان ، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء ، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفاً من انتهاز البربر الفرصة والعبور إلى الأندلس^(١).

٨٢- بلج بن وليس إلى الشك سبيل في أن عبد الملك لو وثق لهم بعهد لبعثوا عن تلة بشريل أمور أخرى للبقاء في الأندلس ، فقد أصابوا فيه من الخير ما لم يكونوا يحلمون به ، الأندلس فأما وقد بدأ هو بالعدوان - لسوء رأيه وقلة سياسته - فلم يعودوا يرون حرجاً في مناصبته العداء ومهاجمته ، ووثبوا به في أوائل ذي القعدة ١٢٣هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهم بلجاً والياً على الأندلس . وأقام عبد الملك شبه سجين في دار له بقرطبة تسمى دار ابن أيوب ، وأفلت ابنه قطن وأميه ، فلحق أولهما بأربونة حيث كان يقود جند المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وكان من أنصار عبد الملك بن قطن ، وجعلوا ينظران معاً فيما عسى أن يصنعه إزاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمانية عن الإمارة جملة . وأما أميه بن قطن فلحق بباردة حيث اجتمع عليه نفر من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه^(٢).

أثار انتصار الشامية هذا ثائرة أهل البلد جميعاً : عرباً وبربراً وإسباناً ، إذ اعتبرهم الجميع أجاناب ينبغي إخراجهم على أية صورة . ولم يقف العرب منهم موقف عربي من عربي ، بل موقف صاحب البلد من غاز أجنبي ، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس - يمنية وقيسية - يثورون على هؤلاء الشامية يداً واحدة ويحاولون إخراجهم . وتلك هي الفترة التي ظهر فيها

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ - ٤١ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٢ .

المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ١٧ .

التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشاميين ، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من أرسال العرب ، وقد استقروا في البلد ورسخت جذورهم في نواحيها قرابة ثلاثين سنة ، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر ، وكان معظمهم يمنية ، واليمينية ذات ميل إلى التعمير والاستقرار والهدوء ، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها .

وأما الشاميون فهم هذه الجماعة التي أقبلت مع بلج ، ومعظمهم قيسية ، وقد نظر أهل البلاد إليهم على أنهم أجنب كما قلنا ، واجتمعت كلمتهم على حربهم^(١) ، ولو لم يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت ريجهم أو لاندجوا في الآخرين . وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدرة ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين سجالاً .

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي لم يحزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه إلا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن الفهري ، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معها من البلديين ومن التف حولها من البربر وأهل البلد لطلب الثأر ، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية . وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل : ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل في أمر رهائن القيسية الشامية الذين كانوا في جزيرة أم حكيم ، ولم يرسل إليهم الماء بانتظام ، وكان الماء يُحمل إلى هذه الجزيرة إذ لم يكن فيها ماء . فلما تولى بلج أسرع فأرسل من يفك أسر هؤلاء الرهائن ، فوجدهم على أسوأ حال من الإجهاد والعطش ، ووجد أن أحدهم - وهو غساني من أهل دمشق - قد مات عطشاً ، فنهض اليمينيون من أهل قرطبة يطالبون بلجاً برأس عبد الملك فداء لابن عشيرتهم الغساني ، وتلكأ بلج إذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين ، ثم إن مسئوليته عن موت الغساني لم تثبت ، فشك اليمينيون في نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أو يعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله .

وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه ، فلما لم يجد من الأمر بُدّاً أباح لهم دمه ، فأخرجوه وهو شيخ كأنه فرخ نعمة ، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر ، حضر الحرة مع أهل المدينة ، ومنها قُلَّ إلى إفريقية ، فأخرجوه ، وهم ينادونه : « يا قَالُ ! فللَّت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (ل) أكل الكلاب والجلود طلباً بشار الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين ! » . ثم قتلوه وصلبوا

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب ، إمعاناً في الزرابة والنكاية ^(١).

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللحى وقطن بن عبد الملك ومن معها من العرب في إقليم أربونة ، ثارت في نفوسهم الحمية لطلب الثأر ، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الشاميين وحريهم ، وثارت العصبية مرة أخرى في نواحي الأندلس كلها ، وتسارع اليمينيون للانضمام إلى عبد الرحمن بن علقمة ، وجمع بلج من استطاع جمعه من قيس ومن انضم إليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الإسبان . وطبيعى أن يكون جمع اليمينية أضخم لأن معظم البلديين انضموا إليهم ، فيقال إن عددهم بلغ أربعين ألفاً على قول ، ومائة ألف على قول آخر ، في حين لم يزد من مع بلج عن اثني عشر ألفاً . وعسكر بلج وأصحابه في موضع يقال له أقوة برطورة على بريدين من قرطبة ^(٢).

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجمعهم ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم ، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثراً من هذه ، لقد تفانى الجانبان في القتال وتساقط الآلاف منهم جرحى ، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حداً لهذه المذبحة إذا قتل بلجاً ، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلي الأندلس وأرماهم بالنبل ، فسأل عن بلج فدلوه عليه ، ففوق نحوه سهامه ومضى نحوه على عجل وضربه بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلًا . ويبدو أن هجومه زعزع الشامية عن مواضعها حتى خشى رجالها الهزيمة ، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلي قائد خيل جند قنشرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة ، وانتهاز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصموا بها ظهورهم وألقوا بهم مقتلة شديدة .

واستمر القتال أياماً ، ومات بلج بعد يومين متأثراً بجراحه ، فتولى قيادة الشاميين ثعلبة ابن سلامة العاملى ، ورجحت كفة البلديين حيناً وانهزموا إلى ماردة حيث أقبلت جموع البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم ، وخاف ثعلبة الهزيمة ، فكتب إلى خليفته بقرطبة

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٢ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

وانظر عن أقوة برطورة : المعجم الجغرافى الملحق بترجمة لافوييتى الكانترا للأخبار المجموعة ص ٢٤٣ .

أن يخرج لمناجزة أهل البلد . وطال القتال ، وحضر عيد الأضحى ، فشغل به البلديون عن قتال الشاميين ، فانتهز هؤلاء غرَّتْهم ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحة وهزيمة عظمى ، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين . وقد كانت الهزيمة ساحقة إلى درجة فُلَّتْ غربهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة ، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون في نواحي البلاد ، ويشغلون بالزراعة والتجارة وما إليهما من أمور المعاش وشئون النشاط السلمى . ومن هنا أهمية هذه الواقعة في تاريخ البلاد الاجتماعى^(١) . ولم يستطع من بقى منهم في الميدان النهوض من جديد ، إلا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتى ذكره .

واقرب ثعلبة بن سلامة العاملى بمن معه من قرطبة يجر في ركابه من وقع في قبضته من كبار اليمنية وذرائعهم أسرى ، ونزل عند المصاراة^(٢) من ظواهر قرطبة وعقد سوقاً لبيع هؤلاء الأسرى ، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لامن يزيد ! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثانٍ يعود ، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياماً^(٣) .

٨٥- مجيء أبى فبينما ثعلبة في ذلك إذا ضجة تتعالى من بعيد ، وإذا موكب يقترب ، ونظر الخطار بن الحسام الجمع فإذا وال جديد للأندلس يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن الكلبى صفوان عامل إفريقية ، وهو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، بعثته العناية في هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهيئ الذى كان ثعلبة ومن معه من الشاميين يصرون على إنزاله بهم . وكان أبو الخطار « رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق ، فرضى به الشاميون والبلديون ، وأطلق الأسرى والسبى ، فسمى ذلك العسكر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

وانظر عن ثعلبة بن سلامة :

الضئى : بغية الملتصق ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٦٠٦ .

المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) تقع إلى شمالى قرطبة ، ويذكر لافويستى ألكانترافى قاموسه الجغرافى الذى ذيل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت ، (المصاراة - المعصرة Almazara بالإسبانية)

انظر الترجمة الإسبانية ، ص ٢٤ هامش .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

«عسكر العافية» وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبي نسعة وعشرة من قواد الشام ، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن ، فاستقامت حال الناس بالأندلس ، وأنزل أهل الشام بالكور^(١).

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس في ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣م) . وصادف بدء ولايته ميلاً عاماً من مسلمى الأندلس إلى المهادنة والسكينة بعد ما كان من شرور العصبية ، وكانت الحروب قد أنهكتهم وكادت تفنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال ، وكانوا قد بعثوا إلى حنظلة وقدأ منهم ييسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية ، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه في اللحظة المناسبة على ما رأينا . وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءاً حسناً فأمن أمة وقطن ابنى عبد الملك بن قطن ومن معها من اليمينيين والبلديين المروّعين بعد هزيمتهم ، وأخرج من الأندلس نفراً من المسرفين في عصبيتهم من الشّاميين وأعادهم إلى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة ، وانتهى بعد تفكير إلى ضرورة إبعاد الشّامية القيسية عن قرطبة لكي يخلص من متاعبهم .

٨٦-إخراج اقتراح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا إلى الأرياف في الكور ، على أن يجعل الشّاميين من قرطبة لهم ثلث ما يجيى من أهل الذمة في النواحي التي يختارون الإقامة فيها . ولم إلى الكور تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك ، فلسنا نعلم إن كان استقرارهم في هذه النواحي معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وإرسال

(١) الأخيار المجموعة ، ص ٤٦ .

الضبي : بغية الملتبس ، ص ٢٦١ - ٢٦٣ رقم ٦٨٦ .

وقد أمدا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبي الخطار ، فقال : إن هشاماً حينما بلغه ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصح به بأن يعدل عن عدائه لليمينة القحطانية لكي يجتذب قلوبهم ، فاستمع لنصيحته وولى حنظلة بن صفوان الكلبي إفريقية وأمره بأن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس قمضى أبو الخطار في نحو ثلاثين رجلاً من الشّاميين (من عرب إفريقية ، ويسميه ابن القوطية الطالعة الثانية من الشّاميين) . وأراد أن يفاجيء عرب الأندلس ، فسار مستراً وأخفى لواء الولاية الذي أعطاه إياه حنظلة في عيبة كانت معه ، فلما نزل بوادي شَوْش واقترب من المكان الذي كان الفريقان يتحاربان فيه قبلى قرطبة ، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين ، فتصارعا إليه كل يشكو من الآخر . فاشتراط عليهم السمع والطاعة ، فأجابوا . وذكر له اليمينيون أنهم لا يحتفلون بالشّاميين ولا بد من إخراجهم عنهم ، فطلب إليهم أن يمهله حتى يدخل قرطبة ويستريح ، ثم يفصل في أمرهم بالعدل ، فأجابوا . وقد بدأ أمره بإخراج ثعلبة بن سلامة العامل والوقاص بن عبد العزيز الكنانى وعثمان بن أبى نسعة الخنتمى من الأندلس إلى طنجة بإفريقية ، ثم تلى بتفريق الشّاميين في نواحي الأندلس على ما سيأتى بيانه .

انظر : افتتاح الأندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .

الثلاثين إلى قرطبة ، أو أن عمال والى الأندلس كانوا يجبون الخراج على العادة ويعطون ثلثه هؤلاء العرب الشّاميين . فإن كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحي مقابل أن يؤدوا ثلثي خراجها دون أن تتدخل الإدارة المحلية في شئونهم أو شئون الإقليم ، وإن كان الثاني فمعناه أن هذا الثلث الذي كان يُعطى لهم كان معتبراً « عطاء » عن الخدمة العسكرية التي كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جنداً رسمياً مقيداً في الديوان . ولكن الغالب أنهم استقروا في هذه النواحي على النظام الأول ، أى « مقطعين » ، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة ، ثم إنه كان - كما سنرى - النظام السائد المتبع في الأندلس إلى ذلك الحين (١).

حرص أبو الخطار ، وهو يقوم بذلك ، على ألا يمس حقوق البلديين ، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحي الأندلس الخصبة على مثل هذا النظام من المقاطعة : كان كثيرون منهم قد استقروا في أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة وإشبيلية ، فلم يشأ أبو الخطار أن ينزل هؤلاء الشّاميين إلى جوارهم ، وقد أشار عليه بذلك أرتباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة ، وكان مقبلاً إذ ذاك في قرطبة متمتعاً بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة ، ويبدو أنه كان مشيراً هؤلاء ، يسألونه الرأى فيما يحزبهم من شئون البلاد ، وهو بها أعرف ، وقد أشار على أبى الخطار بذلك ، وكان رأياً حسناً ، قبله الشّاميون ، فبادر أبو الخطار إلى إنفاذه (٢) .

أقر أبو الخطار كل جماعة من الشّامية آتية من جند بلد واحد في ناحية ، وكان جند مصر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

إيزيدور الباجي، الجزء المنشور ذيلاً للأخبار المجموعة ، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

DOZY. Musulmans d'Espagne, I. pp. 168 - 169

E. LEVI-PROVENCAL. Histoire de l'Espagne Musulmane, I. pp. 34 - 35 .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ، ص ١٠٩ البيان المغرب (طبعة كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٥١) ج ٢ ص ٣٣

DOZY, Recherches, I. pp. 79-80

SIMONET. Historia de los Mozàrabes de Espana . pp. III. 197-198.

E. LEVI-PROVENCAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 35. note 1.

أكثرهم عدداً فأنزلهم في ثلاث نواح هي : أوكشونة وباجة وتدمير (مرسية) ، وأنزل جند حصص في إشبيلية ، وجند فلسطين في شذونة ، وجند الأردن في ريثه (ناحية مالقة) ، وجند دمشق في البيرة ، وجند قنسرين في إقليم جَيَّان ، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب في نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم إلى حين ، وكان إنزالهم بعيداً عن مواقع البلديين الأول سبباً في سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبي الخطار ، فأقاموا «على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم في شيء منها » . فلما وجد الشاميون أنفسهم في بلاد « تشبه بلادهم ، و [في] توسعة ، سكنوا واغتنبطوا وتمولوا »^(١).

فاستقر الكثير منهم في الأرض وأخذ يعمل فيها ، وشغلوا بذلك عن منازعات السياسة والعصية ، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم ، وكان في ذلك خير كثير للأندلس وأهله .

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الأحوال وانتهت هذه العصية البغيضة التي مزقت عرب الأندلس إلى ذلك الحين شر ممزق ، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال إلى عصبية الكلية اليمنية ، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جَوَّاس ، فاتهم الشامية القيسية بقتله ، وأخذ يتحيفهم ويُنزل بهم ما يستطيع من الأذى^(٢) ، فاستعرت نيران عصبيتهم من جديد ، وبدا بوضوح أن الأندلس مشتعلة مرة أخرى بنيران هذه العصية على صورة أشد مما رأى في سابق الأيام . وحدث أن مَعْدِيّاً كنانياً من الشامية اختلف مع كلبى فشكاه الكلبى إلى أبي الخطار ، فجار هذا في حكمه على المَعْدِي (العدناني) ، فذهب إلى شيخ من كبار الشامية يسمى الصميل بن حاتم بن شمر - ويلقب بذي جوشن - يشكو له ما أصابه ، فمضى هذا إلى أبي الخطار . وكان أبو الخطار يتخوف الصميل ، لأن أمر القيسية كان قد انتهى إليه وفاقهم بالنجدة والسخاء ، وتوجس منه أبو الخطار شراً .

٨٧- ظهور فلما أقبل الصميل إلى أبي الخطار في شأن العدناني انتهز أبو الخطار الفرصة الصميل بن حاتم وأحب أن يشفى بعض لدد نفسه منه ، فلكره وشتمه وأمر جنده أن يضربوه ، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، فخرج وقلبه يتلظى بنيران الثأر ، وعاد إلى داره بقبلى قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم في السبيل التي يستطيعون بها أن يغسلوا هذه

(١) فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) العصبى : بغية الملتنسى ، ص ٢٦٩ .

الإهانة ويدركوا تأثرهم من أبى الخطار واليمينية^(١).

وكان الصميل في ذاته شخصية غريبة جداً ، تكاد تعتبر في ذاتها نموذجاً لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الإسلام بخيرهم وشرهم ، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الإيمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئاً ، وقد وصفه دوزي وصفاً لطيفاً لا بأس من إirاده لدقته : « لم يكن الصميل رجلاً عادياً لا في الخير ولا في الشر ، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر ، متعالية جياشة عنيفة لا تنسى تأرها . كانت نفسه مهيأة تهتة قوية ، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للغريزة يقودها الحظ كيف شاء ، كانت خليطاً غريباً من الملكات المتعارضة أشد التعارض . كان يبدو نشاطاً مثابراً إذا ما استثيرت عواطفه ، فإذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولاً قليل الاكتراث . وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب إلى طبعه .

وكان كريماً واسع العطاء ، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها ، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره إلا مرتين في العام ، مرة في كل عيد ، حتى لا يستنفد الصميل ماله ، إذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه . وكان لكل سيد عربي شاعره ، كما كان الحال عند سادة العشائر الاسكتلندية . ولم يكن الصميل مع ذلك رجلاً متعلماً ، إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب^(٢) ، على الرغم من غرامه بالشعر ، وبالشعر الذي يدور حول مديحه بوجه خاص ، وعلى الرغم من أنه كان ينظم الأبيات منه بين الحين والحين ، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه^(٣) . بيد أنه كان خبيراً بالحياة لا يكاد يفوته من وجوها شيء ، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب . وشخصية الصميل كانت استمراراً لهذا الطراز من أشرف العرب القدماء المرففين في حبههم للحياة ، والذين لم يكونوا مسلمين إلا بالاسم ، فقد كانت أخلاقه منحلة ، وكان

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٣) إشارة إلى قول أربطاس للصميل في حديث له معه : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانك يجبروننا أن أذهبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر على بر من بورت » ، أى : أن أدب الإسلام لم يؤثر في نفسه ، وظل جاهل الطبع والخلق والتزعات .

لا يكاد يحفل بشيء من أشراف الدين : فكان يشرب الخمر على الرغم من نهى الدين عنها ، فكان يسرف في الشراب حتى لينام كل ليلة سكران ^(١) .

فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئاً ، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا الكتاب ، إذ إن مبادئه التي تدعو إلى المساواة كانت تمس كبريائه . ولقد خطر يوماً بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فقال الصميل : « نداولها بين العرب » فقال له المؤدب : « بين الناس » ، فقال الصميل : « وهكذا نزلت الآية ؟ » ، قال له : « نعم ! » قال الصميل : « والله إنني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل ! » ^(٢) . ولا نزاع في أن الكثيرين جداً ممن شارك في فتح الأندلس وساهم في هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كان من هذا الطراز ، وهذا ما يفسر إسرافهم في حروبهم العصبية التي نحن بصدددها .

٨٨-هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابه ابن سلامة العامل فلما انتهى الصميل إلى داره في عقدة الزيتون قبلى قرطبة ، جمع من لقي من الشامية ومضى يستشيرهم فيما هو فاعل . وكان يحس قلة الشامية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلية التي كان أبو الخطار يرأسها ، فثاب له رأى في التقرب إلى اللخمين والجذامين من اليمنيين وعرض الرياسة عليهم مقابل معاونته في حربه مع أبي الخطار ، وكان يوسف الفهرى شيخ اللخمين حانقاً على أبي الخطار متلهفاً على فرصة يشفى فيها لدد نفسه فاستصوب الشامية رأيه . ولم تكن القيسية إذ ذاك على اتفاق تام ، إذ كانت غطفان منحرفة في استجة ، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه ، لهذا بادر الصميل بالتوجه إلى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه إلى جانبه ، ثم مضى إلى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابه بن سلامة العامل . وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصبية قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان ، واجتمع رجال هذه القبائل في شذونة وعولوا على السير إلى قرطبة وعزل أبي الخطار ^(٣) .

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشامية وهو لا يشك في الظفر ، ولم يكن يدري بما دبره

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧١ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٣)

DOZY, Musulmans d'Espagne, I. pp. 173 - 174 .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

الصميل من استمالة لحم وجذام وإضعاف جبهة اليمنية ، وكان اللقاء عند وادى لكه الذى شهد إلى اليوم من حروب المسلمين شيئاً كثيراً . وقد تقاعس معظم الكلية عن قتال بنى عمومتهم جذام ولحم ، ثم تركوا أبا الخطار فى قلة وولوا مدبرين ، فلبث بعض الوقت حتى اضطر إلى الفرار ، فإذا هو جاد فى فراره يريد قرطبة وقع أسيراً فى يد أعدائه ، فكبلوه بالحديد ، وتولى ثوبة بن سلامة العاملى أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشامية وأبى العطاء رأس غطفان ، وثوبة هذا سيد لحم وجذام (رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل سنة ٧٤٥م)^(١).

لم تدم ولاية ثوبة إلا عاماً وبعض عام ، ولم يحدث فيها من جليل الأمور إلا محاولة أبى الخطار استعادة الولاية وجمعه نفراً من اليمنية وسيره إلى قرطبة ، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له فى الولاية ، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسى بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم : حينما عسكر الجيشان وجهاً لوجه وأخذوا يستعدان للحرب ، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلاً من معد وقف بمعسكر اليمنية وناداهم مؤكداً لهم أنه إنما يقول ما يقول حقناً للدماء لا خوفاً من القتال ، وجعل يسفه أحلامهم فى السير لنصرة أبى الخطار وحرب بنى عمومتهم من لحم وجذام ، ويُذكرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبى الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيراً ، وأنهم لا ينبغى أن يخشوا شيئاً من ثوبة لأنه جذامى وجذام يمنية ، ففعلت هذه الكلمات فعلها فى نفوس اليمنية الكلية وانفض معسكرهم وعادوا إلى مواطنهم ، وهكذا فسد أمر أبى الخطار وضاع أمره ، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته^(٢).

وصفا الأمر لثوبة حيناً ، ولكن ولايته لم تدم طويلاً كما ذكرنا ، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبى الخطار . ولم يكد يختفى من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه فى السيادة . ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس جذام وأحد كبار العرب الذين كَوَّنوا هذا الحلف .

٨٩- الصميل
ابن حاتم بمهد
الطريق ليوسف
الفهرى
وكان الصميل يستطيع أن ينادى بنفسه أميراً على الأندلس فى ذلك الحين ، لأنه كان بالفعل رأس العصبة القائمة بالأمر ومصرف شئون البلاد ، ولكنه كان أذكى من أن يُنْفَر أحلافه من اليمنية بمثل هذا العمل ، وكان لا يرضى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته ، فمضى يبحث عن شخص يرضاه اليمينيون ويأمن جانبه القيسيون ، ثم يكون إلى ذلك ضعيفاً سهل القياد حتى يملك زمامه .

وهذه البحث إلى يوسف الفهرى سيد الفهرين في الأندلس ، وكان للفهرين مقام ممتاز عند العرب أجمعين إذ ذاك ، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش في هذه المنازعات كلها حياداً لا تسرف في الميل إلى فريق دون فريق ، وقد عجل الصميل بتثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه في الإمارة . وكان يحيى شديد الكراهية للشامية ، وكان يقول : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها » ^(١) ، فكره الصميل - وهو شامى قيسى - أن تصير الإمارة إليه فيصيب قومه منه شر ، فلما تم أمر يوسف الفهرى سعى الصميل حتى أقام يحيى بن حريث عاملاً على ربه ترصية لنفسه ولقومه ^(٢) .

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس في واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم ، فقد كان يوسف الفهرى رجلاً سهل القياد على السن ، فمضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء ، وكان كما لاحظنا رجلاً كيساً واسع الخيلة ، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء . وقد استطاع هذا الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشامية من معد ، فقوى أمره وأمر صاحبه الفهرى .

فإذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر في التخلص من يحيى بن حريث جملة ، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشامية ، وكان لا يتفك منازعاً للصميل مهدداً أمره . فبادر الصميل بعزله عن ولاية ريه قبل أن تثبت قدمه ويشد مساعده فيها ، فلم يكد العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب . وسعى حتى وضع يده في يد أبى الخطار سيد الكلبيبة اليمينية الذى كان يعيش في قومه ببعض نواحي إشبيلية مهملاً ضعيفاً بعد هزيمته ^(٣) ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٠ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديداً بين يوسف الفهرى ويحيى بن حريث وعمرو بن ثوبة (يكتبه ثوبة بن عمرو خطأ) .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٣) كانت قضاة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهرى ، قد تعصبت لأبى الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي فجمع مائتي رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنقذ أبى الخطار ومضى به إلى كلب وأقره في ناحية إشبيلية .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ .

وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس ، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يحیی فاعل به ويقومه الأفاعيل إذا قُدِّر له النصر ، ولهذا عجل فاستنفر المعدية القيسية كافة ، فتسارعوا إليه .

وكان من لطف المقادير أن الدعوة إلى الحرب لم تمس إلا عرب جنوب الأندلس وحدهم ، فبقى أهل الشرق والشمال الشرقي والغربي في مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكناً ، ولهذا سينحصر الصراع المقبل في حدود ضيقة ، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التي أتينا عليها .

٩٠- موقعة وكان القتال بين الجانبين هذه المرة فريداً في بابه ، يصفه صاحب الأخبار شقندة سنة ١٣٠هـ المجموعة بقوله^(١) : « فلما رأت قضاة ما يدعو إليه ابن حريث أحبوا جمع كلمة اليمن كلها ، فأجابوا ابن حريث وقدموه فأصفت يمن الأندلس خيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها . واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل . فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند ، ونجرح أهل البلد بتجرع أهل الشام ، ولحق خيار مضر بيوسف والصميل ، لا يعرض أحد لأحد: يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه (!) وهي أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدعوة .. فزحف ابن حريث وأبو الخطار إلى يوسف والصميل بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة (الوادي الكبير) بقبليها بقرية شقندة .

وعبر يوسف والصميل النهر إليهما بمن معهما ، فالتقوا حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح . وثبت الخيل وحيت الشمس . ثم تداعوا إلى البراز ، فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا في النص والأصح تقصفت) ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور (!) لم يكن في الإسلام صبر مثله إلا ما يذكر من صفيين . ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وإنما كانوا خياراً من الفريقين وكانوا متقاربين ، إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلاً . فلما أعى بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب ، ويحشى (هكذا وصحتها يحشو) بعضهم التراب على بعض .. إذ قال

(١) وصف ابن القوطية هذه الواقعة وصفاً موجزاً .

انظر : الافتتاح ، ص ٢٠

وذكرها ابن عذاري ببعض التفصيل : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧

الصميل ليوسف : ما وفقنا إذ خلفنا جنداً نحن عنهم في غفلة ! قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة ! فرد إليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب [...] فأخرجنا منهم نحواً من أربعمئة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق ، فخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا إلى قوم موتى ، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن ، وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين .

وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التى بموضع بيع الخشب ، فلما أسروا أبا الخطار وهما بقتله قال : ليس على قوت ، ولكن عندهم ابن السوداء ابن حريث ! فدل عليه ، فأخرج وقتلا جميعاً ، وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جُمعت لى فى قدح لشربتها ! فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء ! هل بقى فى قدحك شىء لم تشربه ؟^(١)

تلك كانت خاتمة أبى الخطار الذى أتى ليصلح الأمور فزادها سوءاً ، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من ساروا معه ، ودفع اليمنية إلى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها إلا فى ظلال عبد الرحمن الداخل وإمارة قرطبة ، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهري فى الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم فى واقع الأمر .

٩١- مأساة وأحب الصميل أن يشفى أحقاد نفسه ، فسار بالأسرى مصفدين وقعد لهم أسرى شقندة على باب جامع قرطبة ، وكان من قبل كنيسة القديس بيجنت (فيسنتو - فسنت) ، وجعل يقضى فى أمرهم بالموت واحداً واحداً فى لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس ، فلما ضرب أوساط سبعين منهم ثارت نفس حليفه أبى العطاء شيخ جذام ، فقام ينهائهم ، ولكن الرجل رده وقال له فى نشوة الانتقام : « أقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك » ومضى فى هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر ، وخشى أن يكون الصميل القيسى يسرف هذا الإسراف فى التشفى من اليمنية رغبة منه فى القضاء عليها ، وتحركت فى أبى عطاء يمينته ، فقام إلى الصميل يقول : « يا أعرابى ! والله إن تقتلنا إلا بعداوة صقيين ، لتكفن أو لأدعون بدعوة شامية » ، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكف عن هذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٩ - ٦٠ .

العمل البشع^(١).

٩٢- المجاعة واستقامت الأمور ليوسف الفهرى والصميل بن حاتم بعد هذا النصر الحاسم تجتاح الأندلس على من كانوا يناوئونها من اليمينين ، وكان الصميل كما رأينا شخصية قوية بعيدة الطموح ، في حين كان يوسف الفهرى رجلاً مسناً في نفسه خمول ، فجعل الصميل يصرف الأمر من دونه . ويستبد به حتى سثم الرجل وفكر في الخلاص من هذه الوصاية التي يفرضها عليه هذا القيسى القوى . فعرض عليه أن يقيمه حاكماً على إقليم سرقسطة ، وقَبِل الصميل ذلك ، وكان إقليم سرقسطة موطن معظم اليمينين ، فأراد يوسف أن يذلم بهذا القيسى القح^(٢) . وكانت البلاد تعاني إذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها إلا إقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيراته ، فكان ذلك مما مال بالصميل إلى إطاعة أمر يوسف .

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع إلى هذه الحروب العنيفة التي وقعت بين العرب : شامية ويمنية ، وبين العرب والبربر . وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان ، وإنما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعاً وأقاليمها كلها ، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التي كانوا قد استقروا فيها في الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، وأقبل البربر في أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون إلى الجنوب ، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتبعهم هؤلاء بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون إلى مواطنهم الأولى في إفريقية جماعات^(٣) .

هكذا فقدت النواحي أعداداً عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارتها ، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتعرض البلاد لخطر المجاعة . ثم إن هذه الحروب المتوالية بين العرب حيناً والبربر حيناً آخر قد دارت رحاها في الأقاليم الخصبة المزروعة في الجنوب والجنوب الشرقى ، فخرّب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعتها ، وزادت المحاصيل قلة تبعاً لذلك .

وانتهز النصارى الإسبان الفرصة وأخذوا ينحدرون إلى الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

الواقعة بين نهري دويره وتاجه وأخذوا يغازون المسلمين ، فانضاف إلى الأندلس الإسلامي بلاء آخر جديد كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا منه ^(١) ، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر حدة ، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات بين النواحي ، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف الفهري احتاج مرة إلى رسول يبعثه إلى الصميل في سرقسطة فلم يجده ، إذ كان الرسل القادرون جميعاً قد هلكوا ، وانقطعت المواصلات أو كادت بين قرطبة وسرقسطة ^(٢).

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١ هـ إلى سنة ١٣٦ هـ / ٧٤٩-٧٥٥ م ، وكانت هذه السنة الأخيرة هي أقساها وأشدّها ، مما أدى إلى زيادة هجرة الناس إلى إفريقية .. «وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة ، يقال له وادي برباط ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم» ^(٣). إلى هذا الحال انتهى بمسلمي الأندلس تناحرهم بسبب العصبية وبسبب الرغبة في إذلال البربر والاستبداد بالأمر كله دونهم ، وستحدث عن ذلك بتفصيل أوفى حينها نتحدث عن مبادئ حركة الإسبان النصاري .

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة إقليم سرقسطة على ما قلناه ، لأن عربيه أقاموا في مواضعهم لم يشتركوا في هذه الحروب الدامية إلا بنصيب قليل ، ولأن من كان يسكنهم من البربر في هذا الإقليم أقعدته كثرتهم عن أن يثب بهم ، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر إلى إقليم سرقسطة ، وبقي الإقليم كله على حاله من الرخاء ووفرة الخير ، فلما وصله الصميل وجد قومه في سعة ، ووجد جماعات العرب الذين مستهم المجاعة في أقاليم أخرى يتوافدون إليه انتجاعاً للخير ، وفطن الصميل إلى أن يوسف إنما بعثه إلى هذه الناحية لكي يذل أهلها من اليمينين ، ولكي تقع البغضاء بينه وبينهم ، فيشتغل بهم ويشتغلوا به ويخلص الأمر ليوسف ، فعول على كسب قلوب أعدائه ، ففتح خزائنه ومضى يعطى بكتلات يديه متناسياً عصبية القيسية لكي يفوّت على يوسف غرضه . وكان الصميل داهية واسع الذكاء ، ساخراً من كل شيء ، لا يكاد يفعل أمراً عن إيمان ، قال صاحب الأخبار المجموعة : « فلم

يأته صديق أو عدو فحرمه ، فازداد سؤدداً ، وأقام بها أعوام الشدائد التى تابعت»^(١).

٩٢-اليمنيون وأقام يوسف يدبر الأمر وحده في قرطبة بما عرفناه فيه من الضعف وقلة
يشورون على رأى ، وكان لا يحزبه أمر إلا بعث يسأل الصميل فيه ، فلما اشتدت
الصليلة في سرقسطة المجاعة وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له. وكان في قرطبة
إذ ذاك فتى من بنى عدى بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم ، وكان فارساً نجداً يلى
الصوائف قبل ولاية يوسف والصليل ، فجعل يوسف يكيد له خوفاً منه وغيره مما كان
الفتى يتمتع به من عظيم المكانة ، وأحسن هذا بما يدبر له الصميل فسارع بالكتابة إلى المنصور
خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس وبعث سجل الولاية . وكان عامر يميناً ساء ما صنع
يوسف والصليل باليمنية ، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك يمين سرقسطة ، فأخذ
يستعد للوثوب بيوسف وابتنى لنفسه حصناً كبيراً في منية بغربى قرطبة « فأغلق غلقة عظيمة
كاد أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد
اليمن ، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلاً من حشمه»^(٢).
ووقعت الوحشة بين الرجلين ، ولولا أن يوسف كان بطبعه جباناً متردداً لوقعت الحرب .
ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيه ، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله ، فلم يكذ عامر
يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت في خطر ، واتجه همه إلى أن يقوم بعمل حاسم إزاء
يوسف الفهرى وصاحبه الصميل^(٣).

كان الرجل يميناً كما قلنا ، ففكر في الالتجاء إلى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة ، ولم
يكن في الأندلس أكثر يميناً من إقليم سرقسطة ، حيث أقام الصميل محاولاً جهده استتلاف
الناس والتجيب إليهم ، فكتب عامر إلى زعيم من زعماء يمين سرقسطة يسمى الحجاب (أو
الحجاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى - وكان سيد بنى زهرة من كلاب يمت
إليه بالقرابة - يعلمه بأن لديه سجل أبى جعفر المنصور ويدعوه إلى معاونته للخلاص من
سيادة القيسيين ، واستخفت الدعوة الزهرى فنهض مع عامر بنفر من قومه ، واجتمعت
إليهما كذلك أعداد من اليمنية ، وسار جمعهم وحاصروا الصميل في سرقسطة^(٤).

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦٥ .

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديداً لأنه بعث يستنجد بمن أمكنه الاستنجاد به من القيسية ، كتب إلى جُنْدَى قنسرين ودمشق ، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه ، لأنه ألح عليهم . وجعل يقول إنه يجتزىء منهم بالقليل ، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيد الله بن علي وجمع له عدداً من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن ، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدّجن العقيلي وسيد جند دمشق سليمان بن شهاب ، ولم ينهض للعون إلا بنو عامر بن كلاب وشيوخهم عبيد الله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسُلَيْم بن منصور ثم تابعتهم غطفان . فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائره فنهضا بمن معهما . واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بنى أمية ومواليهم في الأندلس ، وكان معظمهم مقيماً في جند دمشق بناحية البيرة . فنهض زعماءهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت ، وكانوا من أنصار يوسف والصميل ، وبهذا تحركت قيس جميعها لغياث هذا الصميل الذي فعل بالأندلس الأفاعيل . بيد أننا لا ينبغي أن نبالغ في تقدير أعداد من نهض لعون الصميل ، فإن كل طائفة لم تنهض إليه إلا ببضع مئات ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا إذ ذاك قلة ظاهرة .

٩٤-الحرب سارت هذه القوات لحرب اليمينيين ومن معهم من البربر الذين كانوا بين القيسية مقيمين على حصار سرقطة ومن فيها من القيسية . وكان معظم هذه والكلية في سرقطة القوات من القيسيين لا تفكر إلا في القضاء على اليمينية ، وكان فيهم نفر من موالي بنى أمية كما قلنا ، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون في أمر الصميل بقدر ما كانوا يفكرون في أمر فتى من بنى أمية كان إذ ذاك مقيماً في العدو الأخرى بشاطئ إفريقية عند برابر نفزة ، وكان قد أرسل مولاه بدرأ إلى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالي الأمويين ويدعوهم إلى أمره .

وصلت جموع القيسيين إلى طليطلة ، ويبدو أنها استغرقت وقتاً طويلاً في التجمع والسير ، فأمكن اليمينيين الفرصة لتشديد الحصار على الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم . وأقبلت رسلهم إلى طليطلة تستحث القيسيين في سرعة السير ، فعجلوا بإرسال فارس منهم برسالة إلى الصميل تؤكد له إسراعهم إليه بالعون ، وتسلل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة المحاصرين للصميل ، وربط الرسالة بحجر ثم ألقى بها إلى المحصورين ، ولم يكن فيها إلا البيتان الآتيان :

تَبَشَّرُ بِالسَّلَامَةِ يَا جِدَارُ أَتَاكَ الْغَوْثُ وَانْقَطَعَ الْحَصَارُ
أَتَتْكَ بَنَاتُ أَعْوَجَ مَلَجَّاتٍ عَلَيْهَا الْأَكْرَمُونَ وَهُمْ نَزَارُ

فناولهما الصميل لمن قرأهما له - فقد كان الرجل لا يقرأ - فلم يكذب يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى في قومه يعلمهم بالخبر ، وسرى في نفوس المحصورين الفرح والحماس ، ونهضت همتهم بعد أن كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليمينيون المحاصرون للصميل بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة إذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد القيسية ، فتفرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال . وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال الخير والسلامة ، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم خمسين ديناراً ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خبز ، ثم أقبل معهم إلى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال بالنصر انتهز الأمويون الثلاثة الفرصة ليكلموا الصميل في أمر صاحبهم عبد الرحمن بن معاوية»^(١).

وسنقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريثما نلقى نظرة على وجوه أخرى من نشاط مسلمي الأندلس في ذلك العصر ، ولُئِمَ بظواهر أخرى لا تقل عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الإسلام في الأندلس . ستحدث عن الأعمال العسكرية التي قام بها المسلمون فيما يلي شبه الجزيرة الايبيرية إلى الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربي .

* * *

(١) عن هذه الحوادث انظر :

الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ - ٦٩ .

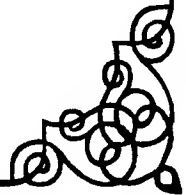
ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٥ .

فتح الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٤٥ - ٥٠ .



فتوح المسلمين في غالة



وقفنا بالفتوح الإسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التي قام بها موسى بن نصير في نواحي سرقسطة وما يلي طليطلة إلى الشمال الغربي وما يلي وادي الحجارة إلى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله في شمال سرقسطة لأنها أدخلت في باب فتوح المسلمين في منطقة البرت^(١) وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين إلى أن موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحاً أربونة وأبينون وواصلوا التقدم حتى بلغا ليون في فرنسا^(٢)، وهي الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا البرت وصعدا مع نهر رُدَّانُه^(٣)، حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما في نواحي برشلونة والركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة فحتاج إلى شيء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخونا إلى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك - على ما ذكرنا - لم يتعجل العودة وإنما دفعه ذلك إلى الإسراع ومضاعفة المهمة في الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل إدراك هذه الغاية . فعبر نهر ابَّره ومضى نحو الشمال الغربي دون أن يمر ببِشَلُونَة وغزا بلاد البشكنس فيها حتى أتى قوماً كالبهائم - كما يقول ابن عذارى^(٤) - ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها، حتى إذا بلغ لك (Lugo - Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة إلى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة فكَرَّرَ راجعاً وانضم إليه طارق واتجها

(١) جبال البرت أو البرتات هي المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . والبرت هو اللفظ اللاتيني Porta أى الباب أو الممر في الجبال ، ولهذا تسمى في العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقرئ : نفح الطيب . ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) رُدَّانُه هي الصيغة العربية لاسم نهر الرون ، وهي مأخوذة عن اسمه اللاتيني Rhodanus .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ .

جميعاً نحو قرطبة ومنها إلى المشرق^(١) وانتهى دوره في الفتوح الإسلامية بعد أن قام بدور يضعه في الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التي لم تزد على سنتين وأشهر فراغاً يُمكنه من القيام بالغزو والفتح فيما خلا سيره إلى ناحية تدمير ، وعقده المعاهدة التي ذكرناها مع صاحبها تدمير ، مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدناً وحصوناً كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً على وجه التحديد مما يدل على أن جهده في الفتوح أثناء ولايته كان قليلاً جداً^(٢).

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافاً إلى الغزو على الرغم من قصر ولايته ، ولم يحدد لنا المؤرخون النواحي التي صرف إليها نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي ، ويذكر الأسقف رودريجو الطليطلي أن أيوب هذا هو الذي ابتنى البلد المعروف بقلعة أيوب (Calatayud) إلى الشمال الشرقي من طليطلة ، وكان في موقعها حصن روماني قديم يسمى (Bilbilis)^(٣).

٩٥-بدء الغزوات وتتفق المراجع على أن الحربين مالك - خليفة أيوب - كان رجلاً ذا نشاط فيما وراء جبال ملحوظ في الغزوات في غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيئاً مفصلاً عنها البرت إلا إيزيدور الباجي ، فقد أفرد فقرة خاصة للحرب وأعماله ، فذكر أنه غزا

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

وقد ذهب إيزيدور الباجي إلى أن موسى لم يفتح سرقسطة إلا بحد السيف ، فأنزل بأهلها من الولايات شيئاً كثيراً : ذبحهم بالسيف وأشعل النار في البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحرب ، وأنه نشر الحراب والجوع في المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية إلى ذلك .

CF : ISIDORO PACENSE : Chronicon, c. 38

CODERA, Estudios. VIII. p. 204 .

وذهب فياردو وكوندى إلى أن موسى أنزل بنواحي قطلونية (Cataluna) ونبرة (Navarra) وأرغون مساءات كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذوا هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديرا واعتبرها مبالغاً مصدرها كوندى .

VIARDOT, Hist, des Arabes et des Maures d'Espagne, I, P. 82 .

CODERA, Estudios Criticos de historia àrabe esqanola (Segunda serie, Madrid, 1917) .

(٢) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٤ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

CODERA, Op. cit. p. III

(٣)

جنوبى غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحي حتى اضطروا إلى طلب الصلح فمنحهم إياه ، ولكن أحداً من مؤرخى العرب أو الفرنجة لا يؤيد إيزيدور فى ذلك ، ولهذا لا يمكننا التعويل على هذه التفاصيل الواردة فى روايته تلك^(١) .

٩٦-السمح بن مالك يصل إلى طرسونة استشهاده عند طولوشة
فلما أقام عمرُ بن عبد العزيز السمعَ بن مالك الخولانى والياً على الأندلس (سنة ١٠٠هـ / ٧٤٠م) نشطت حركة الفتوح فيما وراء البرتات نشاطاً عظيماً ، لأن السمع كان رجلاً وثيق الإيمان جم النشاط ، فلم يكذب يستقر فى الولاية حتى بادى بالنهوض لحرب النصرانية فيما وراء البرتات ، فتوغل فى غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon) واستمر فى التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa) . ويبدو أن نشاطه هذا رَوَّع أهل أقطانية (أكويتانيا) ، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقى السمع فى موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة .

واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبراً كريماً حتى قُتلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان ، وقد استشهد السمع مع من استشهد فى هذه الواقعة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١م) ، ولم تستطع فلول الجيش الإسلامى العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند - وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى - من الجهد ، فقد أقامه العسكر رئيساً عليهم ، فبذل المهمة فى جمع شتاتهم والتقهر بهم حتى عاد إلى الأندلس . وكانت تلك هى ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى ، ولم تدم إلا أشهراً لأن عامل إفريقية استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبي بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل^(٢) .

(١) يقول إيزيدور الباجى عن غزوات الحر فى غالة ، فقرة ٤٣ ، ص ١٥١ :

Hujus tempore Alahor per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando et pacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, et penlatim Hispaniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citiorem se subigit, regnans, annos supra scriptos .

وقد أخذ CENAT MONCAUT بقول إيزيدور وقرر أن الحرف فتح أربونة ، وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦هـ وهى أولى سنوات حكم السمع بن مالك . وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفتنوا إلى ذلك الخطأ . CENAT MONCAUT, Histoire des peuples et des etats pérénéens (3e. éd - 1873) I, 477.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٤ .

المقرى ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ج ٢ ، ص ٩ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

وتذكر المراجع العربية أن هذه الهزيمة وقعت عند طرسونة ، والأصح أن يقال إنها كانت عند طرسكونة =

٩٧- عنبسة بن سحيم وحملته الكبرى
وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته في تنظيم أمور الأندلس وتهديتها ، بعد الاضطراب الذي وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التي ذكرناها وبسبب هذه الكارثة التي أصابت السمح ورجاله ، ولكنه كان ذا حماس للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئاً حتى عجل بالنهوض للغزو في غالة ، فصعد مع نهر ردانه حتى أدرك قرقشونة (Carcassona) فحاصرها وشدد الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على شروطه ، فنزلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وتعهدوا برّد أسرى المسلمين الذين كانوا في الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين في حرب أعدائهم جنباً إلى جنب ، ويضيف صاحب « مدونة مواسياك » أن عنبسة استولى بعد ذلك على نيمة (Nimes- Noemansum) وأخذ رهائن أهلها وأرسلهم إلى برشلونة ، مما يُتهم منه ضمناً أن برشلونة كانت إذ ذاك في يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصناً ومركزاً يصدرون منه للغزو فيما وراء البرتات .

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانه . ويبدو أنه وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعاً ، دون أن يلقي مقاومة ، وصعد مع النهر حتى أدرك نهر الساعون ، ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتون (Autûn- Ausgustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد « بل نهب مدينة أوزه (Uzès) وفيين وعانت في نواحي فالانس ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ، سار الأول نحو ديجون وبيز (Béze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثاني صوب أوتون مرة أخرى ، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بُعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريس ، لأن إييون (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم » (١) .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا إلى قلب غالة ، وغزوا

(Tarascon) = على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأي سافدرا معتمداً على ما ذكره إيزيدور الباجي من أن السمح استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق أكويتانية . وقد ذهب إيزيدور إلى أن هزيمة المسلمين كانت قاصمة .

ISIDORO PACENSE, Chronicon, c. 44 .

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمح ومقتله كانا عند طولوشة .

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165 .

DOM VAISSETTE, Histoire de Languedoc. I, 781-784 .

(١)

حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتي ١٠٦- و ١٠٧هـ / ٧٢٥-٧٢٦م .

وطبيعي أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف في نواحي غالة كلها : ارتاعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة أنها أمام خطر داهم حقيقي . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة من كل وجه ، فإما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا عنها . ولو قد كانت أحوال مسلمي الأندلس على غير ما علمنا من الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطرت عبسة إلى الانصراف عن فتوحه الموفقة في غالة بعد أن أدرك هذا النصر العظيم .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن حملة عبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عُقبة الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو قد استقر عبسة في ليون مثلاً أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالاً قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملاً . ومهما يكن من الأمر فإن عبسة بن سحيم الكلبي يتفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا القصر ، فخر الوصول بربايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر^(١) .

٩٨ - لماذا اتجه رأينا كيف استولى عبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم كيف انحرف يعد عبسة نحو حوض ذلك شمالاً بشرق في اتجاه نهر الرون واستولى على نيمه (Nimes - Noe) الرون؟ (mansum) ، ولا يعلل اتجاهه هذه الوجهة إلا بأن طولوشة كانت ما تزال إذ ذاك في أيدي المسلمين ، ولو كانت في أيدي التصاري لما تركها - وهي أقرب البلاد إليه - واتجه نحو بلاد الرون .

Chronicon Moissiacense, p. 165.

ISIDORO PACENSE, C. 52.

CODERA, Op. cit. p. 114 .

LEVI- PROVENCAL, Op. cit. pp. 41- 42 .

(١)

ويذهب بروفنسال إلى أن عبسة لا بد أن يكون قد قُتل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

ولو كنا نملك نصوصاً أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الإيجاز لاستطعنا أن نفسر السبب في اتجاه عبسة نحو حوض الرون بدلاً من متابعة الغزو في الاتجاه الأول ، أى في اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشيء إذا درسنا الوضع العام في جنوبي غالة في ذلك الحين .

لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء في غزو إقليم سبتمانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزاً لأعمالهم . والسبب في ذلك أن سبتمانية لم تكن داخلية في دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر في إيطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمراء الإقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبي غالة مثل كُند (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند بواتيه ، ولكنهم لم يجروا على غزوها تخاشياً للاشتباك مع القوط الشرقيين^(١) . وكانت سبتمانية ولاية ساحلية تمتد من شمالي جبال البرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبي وتتصل بها يُعرف اليوم بالرفيرا الإيطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام إدارية صغيرة ، ولهذا سميت بِسبتمانية (Septemania).

فلما خرج المسلمون من سبتمانية وبدأوا بجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude-Odon) وأوقع بهم الهزيمة التي ذكرناها عند طولوشة والتي استشهد فيها السمع بن مالك الخولاني (ذى الحجة سنة ١٠٢هـ / يونيو سنة ٧٢١م) . وقد أخذ عبسة بثأر السمع واستولى على قرقشونة وبدلاً من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال في أيدي المسلمين ، نجده يرتد إلى سبتمانية ثم يغادرها ليصعد مع الرون ويدرك نيمه (Nimes - Noe mansum)^(٢) فما العلة في ذلك ؟

ربما استطعنا تفسير ذلك إذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .

* * *

٩٩- الدوق أودو تبدأ الروايات التي تحدثنا عن صلات أودو بالعرب بالكلام عن صلته بثورة وعلاقته مع مونسو . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة وذكرنا كيف أوردت المراجع المسلمين العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها إن كان اسم شخص بربرى أو اسم إقليم ، وكيف أن هذا الإبهام قد أوقع المؤرخين جميعاً في خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية - وهى كوند ورينو ودوزى وبروفتسال وجبريل وكاليمت - فقد ذهبوا إلى أن مونسو زعيم بربرى ثار على المسلمين في نواحي بنبلونه ، وعارض هذا الرأى جماعة من الإسبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب إلى أن مونسو إن هو إلا تحريف لاسم مكان هو منريسا (Manresa) معتمداً في رأيه هذا على أن لفظ مونسو ورد في النصوص العربية مبهماً دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأى لأن رواية إيزيدور الباجى أئين من أن نُدحض جملة ، ثم إن سياق الحوادث يدل على أن شخصاً بربرياً اسمه مونسو وُجد فعلاً ، وأنه لعب دوراً خطيراً في العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذه الأيام^(١).

وإليك موجزاً الرواية إيزيدور عن مونسو :

إن رجلاً من الجنس البربرى اسمه مونسو (Munuz) ترامت إليه من حدود ليبيا (إفريقية) أخبار الظلم القاسى الذى كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على إيذاء العرب أعداء إسبانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح في حرب دائمة معهم . ولكن أنصاره كانوا في خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقى) لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونسو وتبعه ففرَّ إلى خواتق الجبال . وتخرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية إيزيدور بعد ذلك في ذكر أعمال العنف والاضطهاد التى أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونسو من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية (Cerdana-Cerritania) ، وكيف أنه أحرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك^(٢).

وتهمنا من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذى تورده عن أعمال عبد الرحمن

ISIDORO PACENSE : Chronicon. C. 58.

(١)

CODERA, Estudios árabes, VII pp. 141 Sq. VIII pp. 115-118.

ISIDORO PACENSE : Chronicon. C. 58.

(٢)

واضطهاده للنصارى ، والثانية هى علاقة أودو بالمسلمين ، وكيف أنه زوّج ابنته لزعيم بربرى منهم لكى يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فسنناقشها عند عرضنا لأحاديث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقى بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف فى هذه الرواية هى زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر فى إفريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أى فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الثورة البربرية التى فصلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة إلا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام إيزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة إنما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة فى الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفاً لمونوسة البربرى وحمياً له قبل أيام عبد الرحمن الغافقى ، أى فى أيام عنبة وربا فى أيام السمح ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السمح عند طولوشة . وما يؤيدنا فى هذا الظن أن عنبة ، حينما نهض بحملته التى نحن بصدددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأساً واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف إلى سبتانية من جديد وسار نحو نيمه على ما رويناه .

ولسنا نعلم - على أى الأحوال - إن كان مونوسة قد خرج مع عنبة وساهم فى هذه الحملة أو لم يخرج ، وإن كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس ببعيد أن يكون وجود مونوسة فى جيش عنبة هو السبب فى انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم إن الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا إليه يقودهم السمح بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف بعد أن تركوا بلاده خلفهم وساروا مع نهر ردانة صعوداً حتى قاربوا السين ، ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان فى ذلك الحين صديقاً مالياً لهم . وربما كانت هذه الصداقة هى مصدر الرواية الفرنجية التى تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان فى خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر فى الدولة الفرنجية إذ ذاك^(١) .

(١) يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Garro-nnam, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes acclesias igne crematis, Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt .

والواقع أن أودو لم يكن إذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله ينفس عليه مكانته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخباراً متفرقة عن عدااء الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الإقطاعيين في غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم - وفيهم أودو - في حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذي دفع بأودو إلى مصادقة المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف عنبسة عن أراضي الدوق إذن مصادفة ، وإنما كان أمراً طبيعياً أُمِلَتْهُ الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيهم لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما وُفِّقَ إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً في حملة عنبسة .

ولم يستطع عنبسة إدراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى فقد داهمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج التحمت معه في موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧هـ / ديسمبر سنة ٧٥٢م وقام بقيادة الجند الإسلامي والعودة به إلى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodeyra أو Hodra وهما صيغتان محرفتان لعذرة^(١).

وعذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهرى الذي خلف عنبسة في ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل إفريقية أو من مركز الخلافة ، وقد ظل في الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ / فبراير

١٠٠- وفاة عنبسة

١٠١- عذرة بن

عبد الله الفهرى

يواصل الغزو

= كوديرا، ص ٢٠٦ .

(١) يذكر ابن عذارى (البيان المغرب ج٢ ، ص ٢٦) وابن الأثير (ج ٥ ، ص ٢٧٣) أن عنبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد المقرئ روايات مضطربة كثيرة نقلها عن ابن حبان والرازي يفهم منها أنه توفي مستشهداً (المقرئ: نفع ، ج ٢ ، ص ٩) ورواية إيزيدور الباجي غير واضحة ، لأنه يذكر أن عنبسة توفي ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عنبسة أوصى له بذلك قبل وفاته : (عذرة) Hodera (عذرة) *Qui dum rabidus pervolat, morte propria vitae terminum parat : atque Hodera consulem patriae sibi commissae vel principem exercitus repedantis , vel quasi refranantis, in extremo vitae positus ordinat (c.53) .*

يبد أن الكثيرين من مؤرخي غالة يشيرون إلى هذه الموقعة التي استشهد فيها عنبسة وقيام عذرة (الذي يسمونه في بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ، وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدري بحوادث تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مقر أمام صمت الرواية العربية .

مارس سنة ٧٢٦ م - يونيو - يوليو سنة ٧٢٨ م^(١).

ولا تنسب الرواية الإسلامية إلى عذرة أى عمل حربي في غالة ، ولكن الرواية النصرانية تذكر أعمالاً حربية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل غنبسة مباشرة ، وحيث أن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهرًا فلا بد أن هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجمل رينو أخبار هذه الأعمال في قوله : « .. وقد قتل (غنبسة) في إحدى غزواته سنة ٧٢٥ م . واضطر خليفته عذرة إلى قيادة الجيش في طريق العودة إلى الحدود . ولم تلبث الحرب أن استمرت من جديد في عنف ، ولما كانت أعداد كثيرة قد أقبلت من الأندلس ، فقد نهض قادة المسلمين ، وقد شجعهم المقاومة القليلة التي صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات في كل وجه . ويقول مؤرخ عربي أن رياح الإسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فاقترح المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا إلى حوض الرون وغزوا بلاد الألبين (Les Albegeois) وإقليم رويرج (Le Rouergue) وجيفودان (Gévaudan) وليفليه (Levelay) ونهبوها نهباً ذريعاً ، وأنت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الإسراف في أعمال العنف »^(٢).

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وإن كنا نقبل ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة ، لأن عبد الرحمن الغافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولو كان أمرهم وقف عند ما انتهت إليه أعمال غنبسة وهو الرجوع إلى الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به .

وتضيف الروايات النصرانية أخباراً كثيرة عن أعمال العرب في غالة خلال هذه الفترة التي نتحدث عنها وهي التي انقضت بين موت غنبسة وقدم عبد الرحمن الغافقي ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التي أنزلوها بأهل هذه النواحي ، ونحن نورد طرفاً منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية في غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٢)

أى عيث ، واستقروا فى حصن قريب من موضع روكبريف الحالى (Roqueprive)^(١) . وانضم إليهم نفر من أهل هذه النواحي وساروا معهم يغزون فى كل وجه ، ويحكى المؤرخون فى هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة فى محاربة العرب وردهم عن ناحيته^(٢) .

ويغلب على الظن أنه فى خلال هذه الفترة - أى بين سنتى ٧٢٥ و ٧٣٠م (١٠٧-١١٢هـ) - قام المسلمون بالغزوات التى تنسبها إليهم الروايات النصرانية فى أقاليم دوفينييه (Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعتنا العربية عن ذلك شيئاً على الإطلاق فى حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافاً بيناً بشأنها . فأما المقرئ فيذكر : « إن الله ألقى الرعب فى قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر إلا ليستأمن ، فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهناك ابتعدوا عن الشاطئ وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقرئ البلاد التى وصلوا إليها حينما توغلوا فى غالة هذه المرة ، ويقول رينو فى تفسير عبارة المقرئ تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التى وصل إليها العرب إلا بما خلّفوه وراءهم من التخريب فى النواحي التى وصلوا إليها ، فقما يحيط بفين (Vienne)

(١) ويجعلها بعضهم فى موقع بالاجيه (Balaguier)

REINAUD, Op. cit. p. 23 .

والمراجع المعطاة .

(٢) أورد هذه الحكاية الشائعة ERMOLDUS NIGELLUS فى نص قصيدة لاتينية نشرها برتس : M. PERTZ Monumenta Germaniae Historiae, II, p. 466 sqq. وتبدأ قصة دادون فى البيت السابع بعد المائتين من أبيانها ، ووردت إشارة إليها فى كتاب « غالة المسيحية » Gallia Christiana ج ١ ، ص ٢٣٦ ، وقد لخصها رينو فى كتابه عن غزوات العرب فى غالة كما يلى :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) فى إقليم رويرج (Rouergue) عندما اقتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقاتلهم مع غيره من رجال ناحيته ، فبينما هو فى بعض مطارداته للفرقة بعيداً عن قريته ، دهمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها فى حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ومضى إلى الحصن يريد اقتحامه ، وسخر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نرد لك أمك فأعطنا الحصان الذى تمتطيه وإلا ذبحنا أمك أمام عينيك » فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فذبحوا أمه ورموا إليه برأسها ، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب فترهب فى ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشئ فيها بعد فى مكان ترهبه دير كونك (Conques) .

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين فى هذه الفترة .

وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز بذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت فى هذه المناسبة .

cf : REINAUD : Invasions ... pp. 26-29.

Gallia Christiana : II, p. 468 .

وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها إلى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لودون (Lyon) ونهبت ماكون وشالون على السواء ، وتعرضت بون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران في كنيسة سان نازير (Saint Nazaire) وسان جان في أوتون ، وهدم دير سان مارتان (Saint Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint- Andoche) في سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديجون هدم العرب كنيسة بيز (Béze)^(١) .

ولم تشر المراجع التي أشار إليها رينو إلى أن العرب هم الذين خربوا النواحي التي ذكرها كلها ، وإنما هو الذي جعل دأبه - كما وجد ديراً قد احترق أو كنيسة تخربت في هذه المدة - نسبة ذلك إلى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى فيما بين بعضهم وبعض في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوفس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبى غالة وفي بورجونيا وفي أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم همٌّ في غاراتهم في غالة إلا تخريب الكنائس والأديرة وإشعال النار في المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وإفريقية والأندلس وهى كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما إليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا إلى غالة فيتحولوا إلى برابرة مخربين لا يكادون يبقون على شيء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجد في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديراً . وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك ، أو عنيسة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقى .

REINAUD, Op. cit. pp. 29-30

Gallia Christiana IV. pp. 51. 450-860-1042.

Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.

DOM PLANCHER : Histoire de Bourgogne, I. p. VII .

(١) ومراجعته هي :

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « ... إن غارات العرب هذه التى يُجمع الناس على أنها لا بد أن تكون قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا^(١) . تمت جميعها دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق إلا مقاومة ضئيلة جداً ، مما يدلنا على الحالة السيئة التى كانت تسود فرنسا فى ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شئونها . ولكننا إذا قارناها بما حدث فى إسبانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث فى أى موضع أن وجد الفاتح إقبالاً من أهل البلاد ، إذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبداً فى أى مكان أن اتفقت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى فى المدن مثل أربونة وقرقشونة - حيث استقر العرب بصورة ثابتة - ظلت جماعة السكان على إخلاصها للنصرانية^(٢) .

وهذا أيضاً كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأى سند استند إليه هذا الباحث الفرنسى ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحداً من سكان البلاد لم ينضم إلى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال البرت كلها ونواحي بسكايه وسبتانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر فى غالة ، ليأخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطنى » نحو غالة .

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سرايا بلغت اللوار عند نيفير (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانش كونتيه (Franche Comté) من ناحية أخرى . فإذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خبروا دير القديس كولومبان (Saint Colomhan) فى نيفير ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم قتلوا معظم رجال الدين والرهبان فى بيزانسون (Be-sançon) . وهذه المزاعم ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفراش كونتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم سارازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهى فى سفح الفوج (Vosges) وذبح رجالها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin) .

cf : p. LECOINTE. Annales Ecclesiastici Francorum. IV pp. 728 Sqq. 795 Sqq .

MABILLON. Annales Benedictini. II. p. 88

MABILLON. Acta Sanctorum Benedicti II. Ière partie pp. 527 Sqq .

وتذهب هذه المراجع إلى أن العرب لم يجدوا مقاومة جديده إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ أن أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفراً من أهل البلد وهجم بهم على المسلمين ، وألقى ناراً على آلات حصارهم ففترقوا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكونداً لبلدة تونير (Touner) ثم تهرب وورسمته الكنيسة قديساً فيها بعد . ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجندال (Gandali) هم الذين كانوا يجربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيرهم من المؤرخين المحدثين فى ذلك ، وهو تعسف لا معنى له وخاصة أن هذه التسميات أطلقت فيما بعد على المجريين الذين أغاروا على هذه النواحي وخربوها على أيام قارله وبيبين وشرلمان . وقد عاد رينو فتشكك فى أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الآنف الذكر ، ص ٣٢-٣١ .

(٢) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

وأنى يكون ذلك وغالة كلها كانت في دور التكوّن ، لم تصبح بعد « وطناً » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضموا إلى المسلمين ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجى المسيحى مذبحه رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .



وكان كبار رجال غالة في حالة لا تُمكنهم من النهوض لحرب المسلمين ، فأما أودو فقد ركن إلى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذى رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولاً بحرب الفريزيين سكان إقليم فريزيا الذى يعرف اليوم بالنورمندى والبافارين والسكسون غربى نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا - قلب بلاد غربى الرين - بخطر داهم إذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله للملاقاة المسلمين حينما غزوا بورجونيا ، وكانت إذ ذاك داخله في طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التى ذكرناها في ولاية عذرة بن عبد الله الفهرى أعمالاً عسكرية منظمة يمكن إدراجها في سلسلة الغزوات المنظمة التى قام بها ولاية الأندلس في غالة ، وإنما كانت نشاطاً عاماً قام به المسلمون الذين استقروا في سبتمانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبى غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى سنة ١١٢هـ / ٧٣٠م .

١٠٢-عبد الرحمن لا نزاع في أن عبد الرحمن الغافقى كان أقدر قائد عسكري عرفته الأندلس الغافقى في عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جداً لا تتناسب مع الدور الكبير الذى قام به في تاريخ الإسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التى ختمت حياة الغافقى كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جندياً أندلسياً ، قضى أحسن أيامه عاملاً في جيوش المسلمين المغازية فيها وراء البرتات . ويُفهم من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سليماً من نزعة

العصبية التي ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يعنى من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجل كان مسلماً سليم الإيمان حريصاً على أصول الشريعة ، لا يحفل في سبيل ذلك بغضب من يدهم الأمر . يقول ابن عبد الحكم بعد الكلام عن إحدى غزوات عبد الرحمن : « .. وكان فيما أصاب رجلاً مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية) فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتمقين منها مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً ، فاستشهد وعامة أصحابه »^(١).

وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة التي تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن . ويصفه إيزيدور الباجي بأنه كان رجلاً نشيطاً عنيفاً قاسياً ، لا يبالي أن يُتزل بالنصارى أقسى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة^(٢) . ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى إلى أوصافه هذه شيئاً ، وإن كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة . ولو أمدتنا المراجع العربية بأخباره مفصلة لاستطعنا تعرّف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها إلى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جندياً من طراز آخر غير طراز عنبسة ، وإذا كنا قد قلنا إن هذا الأخير كان من طراز عقبة ، أى من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الغافقى إنه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكي يتم الفتح وتدخل البلاد في حوزة الإسلام .

١٠٢- خروج
عبد الرحمن للغزو ،
أوائل سنة ١١٤هـ /
ربيع سنة ٧٣٢م
عبر عبد الرحمن البربات في أوائل سنة ١١٤هـ / ربيع سنة ٧٣٢م ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش الذي كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود أربعمائة ألف مقاتل في حين تكفى الرواية

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) إيزيدور الباجي : فقرات ٥٨-٥٩-٦٠ .

وانظر أيضاً ، ابن القرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

الإسلامية بتحديد عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول أى الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفاً على أى حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب إفريقيا والأندلس كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزراعة من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول كذلك إن معظم هؤلاء كانوا يمينيين ، لأن عبد الرحمن الغافقى كان يمينياً ، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم سرقسطة كانوا يمينيين ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية البربات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضى الاستمرار على صداقة أودو لكى يكون لهم عوناً على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن الغافقى سياسياً كما كان قائداً ممتازاً ، فقد وصل المسلمون إلى قرب السين ، وكان على خليفة عنبسة أن يكمل عمله ، فيمضى بالمسلمين إلى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة^(١) أفسدت الأمر كله ، وقد رأينا أنه من العسير أن نتعرف أسباب الجفوة التى طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وإن كان من الممكن ردها إلى ما كان بين العرب عامة والبربر عامة إذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان في خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أى الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن في حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يُظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولاً ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته إلى عواصم أقطانية ففتحها كما سئرى ، وفر من بقى من جند الدوقية إلى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم إلى قواته فكثرت جمع النصارى أمام المسلمين . هذا إلى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حرباً بين البربر والعرب في حقيقة الأمر ، وسئرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة في هذه الحملة كما كانت فيها سبقها ، وسيكون لهذا أثره البالغ في هزيمة « بلاط الشهداء » التى سنفصل أمرها .

(١) راجع عنه :

ISIDORO PACENSE. C. 61.

RODRIGO XIMENEZ DE RADA, P. 12

جمع عبد الرحمن جنده في بنبلونة ، واحتفل في إعداد حملته هذه احتفالاً عظيماً ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه ، ثم اخترق بجنده جبال البرت في أوائل صيف سنة ٧٣٢م من ممرات رونشغالة التي ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أى أنه لم يسلك الطريق المألوف الذى سار فيه العرب إلى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذى يقضى إلى سبتانية وحوض الرون ، بل طريقاً في وسط الجبال يقضى إلى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى إلى غالة اتجه أول الأمر نحو وادى الردانة لى يمهد أمره ويحمي ظهره قبل أن يتجه إلى دوقية أقطانية في الغرب .

ويقال إن سبب اتجاهه إلى وادى الردانة خروج مدينة آرل (Arelatum) ١-٤- فتح آرل عن الطاعة وتوقف أهلها عن دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة ^(١) . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات إلى حدود اللوار في الشمال ، ومن نهر الألييه في الشرق إلى خليج بسكاية في الغرب ، وكانت تعد أعظم إمارات غالة بعد المملكة الفرنجية التي كانت تصاحبها على حدودها الشمالية مباشرة .

١-٥- الاستيلاء توجه عبد الرحمن بقواته نحو بردال (بوردو) ، فخف الدوق بقواته لى على نيزدال يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف الدوردوني (Dordonia) على مقربة من (بوردو) ملقاه بالجارون (Garona) فانهمز هزيمة قاصمة فقد فيها عدداً عظيماً من فرسانه وفر هارباً ^(٢) ، وتقهقر أمام المسلمين نحو الشمال تاركاً لهم عاصمته بردال ، فدخلوها ونهبوها نهباً ذريعاً ^(٣) ، فلما فرغوا منها انساحوا في البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت لها إذ ذاك

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٨٦ .

DOM VAISSETTE, Op. cit. I. p. 795 .

ISIDORO PACENSE. Chronicon. C. 95 .

(٢)

ويبدو أن عدد القتلى من جيش أودو كان عظيماً ، لأن إيزيدور يقول :

“Deus numerum morientium vel pereuntium recognoscat” .

DOM VAISSETTE, Op. cit. I. p. 795 .

(٣)

شهرة ذائعة في الآفاق ، فاقتحموا البلد وخرّبوا كنيستها^(١).

١٠٦- أودو يستنجد هنالك أسرع أودو إلى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ، إذ وجد نفسه بشارل مارتل مضطراً إلى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين . ورحب قارله بالفرصة ، لأنه كان تواقاً إلى بسط نفوذه على أكويتين وأراضيها الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الإسلامي منذ حين ، فقد غزا المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهي داخلية في بلاده وصعدوا حتى قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهداً في ذلك ، فقد كان الخطر في هذه المرة واضحاً جلياً ، ويبدو أنه لم يكتف بمن كان عنده من الجند في غالة ، فبعث يستقدم جنداً من حدود الرين من نواحي أوستراسيا ، فأتته نجدات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم إيزيدور بأن أيديهم كانت حديدية ترسل ضرباتها القاصمة في سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوى قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم^(٢).

وينبغي أن نضيف هنا أن الفرنجة السالين أنفسهم - ومنهم كان معظم جند قارله - كانوا قومياً بدويين أشداء لا يقلون عن العرب صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحراهم وصدورهم غالة كلها وغلبوا البرغنديين والقوط الغربيين وبقياء الرومان في غالة وغلبوا السكسون عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا شرّتهم ، وانصاعت لهم جماعات كثيرة من

"Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum Turonensem ecclesiam, (١) palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat" ISIDORO PACENSE, Op. cit. c. 59 .

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتين (سانكتوس مارتينوس) التي ذكرناها في النص ، ولكن رودريغيث تخيّن ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلد الرئيسية .

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit .

cf : RODERIGUEZ JIMENEZ, 12-13 .

لما صاحب ذيل تلريغ فريديريوس فيقول :

...Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant .

أي : أنه يقول إن العرب أرادوا فقط تخريب الكنيسة ولم يفعلوا

Scolastici Fregedarii Continuatio II .

Ubi dum penè per septem dies utrique de pagnae conflictu excruciant, sese postremo in (٢) aciem parant, atque dum acriter dimicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoveles permanentes, sicut et Zona rigoris glacialiter manent adstrictae. Arabes gladio enecant"

ISID. PAC. Op. cit. c. 59.

المتبربرين كالسوييف والآلان ، وكان مُلكهم في ذلك الحين في صعود ، إذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه يبين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعياً لهذا المطلب البعيد وهو إزالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسياً قادراً ومحارباً ماهراً ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغت أنباء الغزو العربي شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأبهة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلبّى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرّبة للظفر وجنود متطلعة للقتال^(١).

١٠٧- المعسكر وكان المعسكر العربي في مثل هذه الحال من التوفر وعلو الحالة المعنوية : لم الإسلامي قبيل المعركة يكن يتقص المقاتلين الإيبان ولم تكن الخبرة لتعوز القيادة ، ولكن أموراً أخرى كانت تفل من عزيمة الجيش وتقلل من أمله في الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الإسلامية^(٢). ويكفى أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي غالة كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن في استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على إمداد من عامل الأندلس في قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة بل تفرقوا في نواحي شبه الجزيرة وشغلوا بها إلى حد كبير عن الحكومة المركزية .

وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء كانوا في واقع الأمر جماعات متفرقة في النواحي لا يستطيع العامل استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات قد توزعتهم وفرّقت بينهم فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بنى عصبيته . وربما لم يكن لهذه النقطة الأخيرة أثر كبير في تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان في الواقع بعيداً عن نزعة العصبيّة ، فاجتمعت إليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعاً، إلا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافاً شديداً

GIBBON, Decline and Fall . II . p. 803.

(١)

(٢) أشار جيون إلى هذا البعد الشاسع إشارة لطيفة جداً .

انظر : اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٨٠٢ .

أدى إلى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد الهزيمة إلى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التي جرت عليهم في إفريقية .

ولنصف إلى هذا ما كان بين العرب والبربر إذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهى ظاهرة تاريخية ينبغى ألا يهمل حسابها فى كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجرى الثانى ، وقد رأينا مثلاً ثورة مونوسة وما جرّته من وخيم العواقب ، وسنرى أثرها واضحاً كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الإسلامى المقاتل فى غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف فى المعسكر الإسلامى قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الإسلامى وتقلل من أمله فى الظفر ، هى الغنائم التى جمعها الغزاة المسلمون من النواحي التى مروا بها قبل لقاء الفرنجة فى الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعاً على أن الجيش الإسلامى كان يجر وراءه قطاراً عظيماً محملاً بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية فى وصف أعمال السلب والنهب التى قام بها المسلمون فى نواحي غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالاً فى هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شئ عظيم جداً من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون . ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغانم كان عظيماً ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نفرأ منهم ليودعها أربونة أو برشلونة حتى يطمئنوا عليها وتحلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سنرى أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص فى ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

١٠٨- مكان ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة على وجه التحقيق : المعركة أغفلته الرواية الإسلامية فيما أغفلت ، وتركت الرواية النصرانية مبهماً فذكرت أنها كانت إلى شمال بواتييه Pictavens فى اتجاه تور ، أى على الطريق الرومانى القديم بين البلدين ، ونقول على « الطريق الرومانى » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم « بلاط » الشهداء يُفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط »^(١) وربما كان أقرب الآراء إلى الصحة فى هذا الموضوع ما ذكره بروفنسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من

طريق روماني يصل شاتلرو (Châtellerault) ببواتيه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذي يسمى اليوم (Moussais-la-Ba-taille)^(١).

* * *

١٠٩- معركة لم تقدم لنا الرواية الإسلامية إلا إشارات عابرة مبتسرة عن هذه الموقعة بلاط الشهداء الفاصلة ، ولا يعلل هذا الإغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين في إخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالإسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة «العقاب» ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من «بلاط الشهداء» وكانت مصيبة الإسلام فيها أعظم ، فكان إخفاء معالمها أَوْلَى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الموقعة لا يزيد في مجموعه على عشرين سطراً موزعة في نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته إلى أن الموقعة حدثت سنة ١١٥ هـ لا سنة ١١٤ هـ؟^(٢) بل كيف يذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين الذي استشهد في هذه الموقعة لم يكن عبد الرحمن الغافقي وإنما محمد بن عبيد الله بن الحبحاب ، وهي شخصية لم نسمع بها إلى الآن في حوادث الأندلس؟^(٣) وكيف يذكر المقرئ في إحدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السماح بن مالك؟^(٤) كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الإهمال كله في وقعة مشهورة فريدة في بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم إسلامية أخرى حدثت في نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية ، كما رأينا في هزيمة «تهودة» و«الأشراف» اللتين مررنا بهما ؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطيء مرة واحدة في ذكر اسم القائد الإسلامي الذي خلط رواتنا الثقافات فيه هذا الخلط ؟

(١) ظن الكثيرون أن المراد بلفظ «بلاط» طريق مبلط ، وترجمها النصارى إلى pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط في الأندلس قصر أو حصن حوله حداثق تابعة له ، فيقولون «بلاط مغيث» و«بلاط الحر» و«بلاط يوسف» ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من Palatum اللاتينية . وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها في الواقع «قصر الشهداء» ، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن حيان في المقرئ : نفع ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

الواقع أن المسألة لا تعلل إلا بشيء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت أخبارها في مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق في ذاكرة الرواة منها إلا أن أهل الإسلام قد هُزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و ١١٥ هجرية .

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقاً : أولها تسمية الموقعة ببلاط «الشهداء» وهي تسمية يُفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيماً جداً . وثانيها أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد ذلك أبداً ، ولو كانت هزيمتهم هناك يسيرة لعادوا إلى المحاولة ، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت في العودة . وثالثها هذا الصمت الغريب الذي تسدله الرواية الإسلامية على الموقعة . ورابعها هذا الإجماع على فداحة خسارة المسلمين الذي نجده عند المؤرخين النصارى في هذا الموقف ، فضلاً عن مؤرخنا الأول ابن حيان الذي لا تدع روايته مجالاً إلى الشك في مصاب المسلمين في هذه الموقعة^(١).

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية في وصف هذه المعركة الخطيرة، وينبغي أن ننبه إلى أن أقدم هذه المراجع - وهما المدونتان المنسوبة أولاهما إلى إيزيدور الباجي وثانيتهما المنسوبة إلى بلدة مواسياك (Moissiac) - قد كتبت أولاهما بعد الحادث بنيف وعشرين عاماً وثانيتهما بعده بنحو قرن ، ولم يزد ما كتبتهما معاً عن الموقعة على بضعة أسطر ، أما التفاصيل الكثيرة فترجع إلى مدونات متأخرة جداً تشوبها روح القصص والأساطير .

ونكتفي في وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها إيزيدور الباجي وصاحب مدونة مواسياك وبابولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيدياريوس الأول والثاني^(٢).

(١) ... وذكر أنه - أي عبد الرحمن الغافقي (ويذكر ابن حيان السمع بن مالك خطأ) - قتل في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنج قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين ، فلم ينبج من المسلمين أحد . قال ابن حيان : فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن .
ابن حيان برواية المقرئ في نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

ISIDORO PACENSE : Chronicon. cc. 58-59.60.

(٢)

Chronicon Moissiacense. p. 166.

PAULUS DIACONUS , Ex Lib . VI .

Scolastici Fregearii, Continuatio. II,III. apud Ajbar Machmua. p. 168 .

CODERA, Op. Cit. PP. 118 Sqq .

REINAUD : Op. cit. p. 34 Sqq .

١١٠- المعركة

وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن في الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢م / أواخر شعبان سنة ١١٤هـ . وتدل التفاصيل التي لدينا على أن كلاً من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ظلاً خلاها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسوييف والسكسون في اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحرا ب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتاً فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان - قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص - أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم .

ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فربح الجند الإسلامي المحارب وخشى الكثيرون من أفرادهم أن يستولى عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليعيدوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، إذ انهار عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصداً . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ) .

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجدوا من المسلمين أحداً ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن الأمر خدعة ، وترثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً ، أو لأن قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

١١١- بعد المعركة

وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها إلى أن نفرغ من تتبع الجيش الإسلامي في أعقابها ، وليس لدينا مرجع عربى واحد نستطيع الاعتماد عليه في هذا الصدد . ولا مفردنا - هنا أيضاً - من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها . اندفع المسلمون في تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيرييه (Guéret) وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنيك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحداً من النصارى لا يتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقاً منهم شردت عن الجيش فوقعت في أيدي النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الإشارة^(١).

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الإسلامية تردد في نواحي غالة الجنوبية وإسبانيا الشمالية فتوالت أهلها بالمسلمين من كل ناحية ، وتحطفوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وإن كان المعقول أن يطمع أهل هذه النواحي في المسلمين ، لا لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم في غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء فيفيدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما ينقضون على مؤخرة جيش شرلمان النصرانى بعد ذلك بسنوات^(٢).

وكانت هزيمة « البلاط » سبباً في تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهرى ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق إن كان عبد الملك قد قدم الأندلس من إفريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب في الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجده من أول الأمر في عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من إفريقية ، خصوصاً وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت إلى الأندلس في ذلك الحين .

١١٢- عبد الملك
ابن قطن الفهرى
يسير إلى غالة

وكان أول ما اهتم به عبد الملك هو المسير إلى غالة لإقرار أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه بنشاطه أول الأمر إلى نواحي شمالى

Gallia Christiana, II. p. 566 .

REINAUD. Op. cit. p. 49 .

GREGOIRE DE TOURS dans RUINART, De Gloria Confessorum. p. 934 et 1402 . (٢)

REINAUD, Op. cit. p. 50 .

(١)

الأندلس ، فهاجم نواحي أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك واهتم بتحسين المعاقل التي كانت ما تزال في أيدي المسلمين . وكانت نواحي سبتانية إذ ذاك في فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذي نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشى أمر الدوق أودو لكي يتوزعوا النواحي فيما بينهم ويعلنوا أنفسهم أكناًداً أو أدواقاً بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعاً يكرهون أودو وقارله معاً ، وخشوا أن تؤدي هزيمة المسلمين إلى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين في أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقاً يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع في السيادة على بروفانس كلها^(١) .

وكان قارله مشغولاً إذ ذاك بتقرير سلطانه في ولايتي بوجونيا وليون اللتين تم له فتحهما، وكان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلوا عنها بعد الهزيمة وخلفوهما في فوضى شاملة ، فأقام قارله فيها نفراً من المخلصين له يسمون Laudes (أى الخلصاء) وفرض طاعته على أشرافها . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لإخضاعهم وأنفق في ذلك وقتاً ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم في ذخائر الكنائس وأملاكها ، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيداً عنهم ، فأبغضه أهل جنوبي غالة ، وقرر حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولاءهم^(٢) ، وأعان ذلك العرب على الثبات في هذه النواحي ، بعد أن كان أمرهم قد تخرج وتواتر عليهم ثوابت الناس ، حتى غدوا كالمحصورين في أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل.

وكان قائد جند المسلمين في أربونة وغالة رجلاً تسميه المراجع النصرانية ١١٣-المسلمون يستعيدون آرل بيوسف (Jussef) ، والغالب أنه يوسف الفهرى الذى ستصير إليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتحد مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعبّر الردانة واستولى على آرل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيما حوفا حتى صارت قفراً

REINAUD, Op. cit. p. 52 .

(١)

Gallia Christiana, I. p. 537. 544.600.620 .

(٢)

REINAUD, Op. cit. pp. 53-54 .

خرباً بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك في بروفانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا (Fretta) التي تسمى اليوم (Saint-Remi).

١١٤-الاستيلاء ثم توجه نحو أبنيون (Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد أن دافعوا على أبنيون عنها دفاعاً عنيفاً ، وأفضت جيوش المسلمين إلى نهر الديورانس (Du-rance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءاً عظيماً مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين في هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه^(١).

وقد لبث قارله ساكناً أثناء ذلك كله ، ولم يفكر في المسير للقاء المسلمين مع نهمه إلى الأرض وطمعه في توسيع سلطانه بأى سبيل ، وبدلاً من ذلك أسرع إلى أقطانية حينها بلغه موت أودو سنة ٧٣٥م ، وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعلل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم إلا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جلدتهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تبعهم بعد موقعة البلاط مما يدل على أن تجربة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضاً . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفتنه إلى حيلة مهاجمة معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن الغافقي، وهو جيش وحده .

١١٥-إخضاع وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن إلى جهد قائده في أربونة ، فلم يتجشم إمارات البرت عناء المسير نحو الردانه ، فوجه همه نحو إمارات جبال البرت^(٢) ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوماً جبليين شديدي المراس قد ضروا على حروب الجبال

Chronicon Moissiacense, p. 166 .

(١)

Recueil des Historiens de France, II, p.655

Fregedarii Scolastici Continuatio, dans Recueil des Historiens de France, op. cit . II p.456.

ويسمى العرب في ذلك النص الإسماعيليين :

“ Denuo rebellante gente validissima Ismahelitarum, irrumpenteque Rhodanum Fluvium ... ”

PAPON : Hist . de provence, I, p. 85 .

M. DE LAGOY : Description de quelques médailles inédites de Massilia (Aix, 1834) p. 23.

REINAUD, Op.cit. pp. 54 - 55 .

(٢) لم تكن جبال البرت إذ ذاك فاصلاً بين غالة وإيبيريا كما هي اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وإنما قامت فيها إمارات تمتد على جانبي الجبال في غالة وإيبيريا ، وهذه الإمارات هي التريات التي نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون.

والعصابات ولم يكن قد أخضعهم إلى ذلك الحين أحد ، وقد لقي عبد الملك فى الحروب معهم بلاء شديداً وهزمه فى معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلاً سىء السياسة عنيفاً ظلوماً ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت إلى إفريقية واتصلت إلى دمشق ، وانضافت إلى ذلك هزيمته فجعلت بعزله . وكانت ولاية إفريقية قد صارت إلى عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه^(١).

كان عقبة بطبعه رجلاً مجاهداً ، مثله فى ذلك مثل عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال^(٢) ، وكان مسلماً صلماً عادلاً متفانياً فى القيام بأعباء منصبه الجديد ، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور ونفّر أهل الأندلس ، عرباً وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه إلى إقرار الأمور وإشاعة العدل فى الناس ، ثم تجرد للغزو فى شمالى الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين فى أشتريس ، فلما أُوْفِى على غايته فى هذه الناحية انحدر إلى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

١١٦-عقبة وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم فى بروفانس قد تحصنوا فى المدائن
ابن الحجاج الكبرى وحوّلوها إلى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل
السلولى يجدد نشاط إليهم عقبة بحماسة ورغبته فى الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينية
الفتوح فى غالة (Dauphiné) واستولى عقبة على سان - بول - تروا - (Saint-Paul)
Trois-Chateaux_ ودونزير (Donzaire) وخربوهما . ثم اتجه نحو الشمال فى جرأة
وحزم فاستولى على فالانس وخرب جميع الكنائس المحيطة بفين (Vienne) ، وكان من معه
من الجنود ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه
يشدون لا يكادون يقابلون شيئاً عامراً إلا خربوه .

REINAUD : Op. cit. p.55 .

(١)

ويذكر رينو فى نفس الموضع أن الخليفة أبقى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية فى الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا نعرف المصدر الذى استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقى فى الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين اليمينيين فى الأندلس ، وقد ظل يدبر على عقبة حتى وثب به فى أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما نعلم .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

١١٧-إعادة وصعد بهم عقبة مع ردانه حتى أعاد فتح إقليم بورجونيا كله ، واستولى على فتح بورجونيا ليون من جديد ، وامتد جناح المسلمين الشرقى فى إقليم دوفينه حتى وصل إلى بيدمنت فى شمالى إيطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعيدون مراكزهم كلها فى غالة عن قريب^(١).

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه فى شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت إلى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بإرسال أخيه شلدبراند (Childebrand) - ساعده الأيمن فى كل حروبه - فى جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب إلى لويتبراند (Luitbrand) ملك اللومبارد فى شمال إيطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقى المتحصن فى جبل بيدمنت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجى عن اقتحامها ، واضطر قارله إلى المسير بنفسه فى جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانوا بآلاته ، وتقدم لويتبراند فى نفس الوقت وهاجم المسلمين عند بيدمنت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار فى الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد واستماتوا فى الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجدياريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

«... وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصاراً حديدياً (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جراحة فلم يلبث البلد أن سلم»^(٢).

Gallia Christiana : I, 703-737

(١)

REINAUD : Op. cit . p . 57 .

PAULUS DIACONUS, Lib. VI apud Achbar Machmua., p.167

(٢)

ونصه :

"... Cum machines et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt,hostes capitunt interficientes trucidant ..."

وخلف لويتبراند لوحة عند بافيا أشار فى بضعة أبيات نقشها عليها إلى ما صنعه مع العرب فى شمال إيطاليا بقوله :

Deinceps tremuere feroces

Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,

Cum dremerent Gallos, Carolo poscente juvari

=

ثم تقدم الجيش الفرنجى نحو أربونة معقل العرب الرئيسى فى غالة ، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أثيمة (Athima) وربما كانت صحته « هرثمة ». وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم البرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الإسلامية فى غالة إلا أن تتصل بمراكزها الرئيسية فى إسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبة بن الحجاج بإرسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد عربى يسميه إيزيدور الباجى (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب ، فنزل المدد على شاطئ غالة فى موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقاءه ، والتقى به يوم أحد على شاطئ نهر البر (Berre-Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة ماسياك أن القائد العربى كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيلة ، ففاجأه قارله على غرة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج ممن معه إلا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول إلى أربونة ودخلوها ، وحاول الباكون الهرب فى المراكب فتعقبهم الفرنجة فى مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم^(١).

١١٨- قارله وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت حاميتها الإسلامية فلم يفشل فى الاستيلاء يدرك الفرنجة منها على طول الحصار منالاً ، فاضطر إلى رفع الحصار على أربونة والتقهقر إلى الشمال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف العدو ولم يعينوه على ما طلب من إخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم فى النواحي التى دخلوها إن هى إلا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى. فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفاً شديداً ، وخرّب حصون بيزيه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الولايات على يد قارله شيئاً كثيراً ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجلونة (Magallona) وكانت إذ ذاك من المدن الزاهرة فى

= Cf : SIGONIUS .De Regno Italiae, anno 743

وأما تفصيل حصار قارله لأبنين المذكور فقد ورد فى :

Fregedarii Continuatio III, apud Achbar Machmua pp. 168-169.

Recueil des Historiens des Gaules. II. p. 486 .

وانظر أيضاً

REINAUD, Op. cit. pp. 57-59.

Continuatio Scolastici Fregedarii III, Loc . cit .

(١)

Chronicon Moissiacense apud Achbar Machmua pp. 165-166.

هذه الناحية . وعاد إلى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم إرغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبعاً ، لأن الفرنجة كانوا إذ ذاك أجلاً قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبعضاً إلى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون إلى أهل الشمال نظرتهم إلى متبررين همج لم تزايلهم طوابع الجلالة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس . وكان العرب في تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يعد إلى رجال الدين ممتلكاتهم ، وإنما فرّق الأراضي والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خراباً لقلة تعهدها بالعناية . ويذكر التاريخ فيليكاريوس (Vilicarius) أسقف فين الذي حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفيته ، فلما وجد أنها تفرقت في أيدي غير رجال الدين غادر بلده ومضى إلى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) ، ولم تصلح هذه الأخطاء إلا خلال الأعوام التالية شيئاً فشيئاً ، في حكم يبين وشارلمان^(١) .

١١٩-العرب وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهل غالة الجنوبية للفرنجة ، ولكنها
وأهل غالة لا تفسر لنا سر ميلهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم ، وليس لذلك إلا
تفسير واحد لم يشأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم
تمتد يدهم بالأذى إلى أموال الناس فيما دخلوه من البلاد إلا بقدر ما اضطرتهم إليه
الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس في الأندلس ولا يكادون يؤذون
رجال الدين أو المؤسسات الدينية ، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحدة بعد دخولهم
غالة ! وقد كان قائدهم إذ ذاك رجلاً اشتهر بالعدل وإيثار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولى

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة مواسياك والذيل الثالث لمؤرخة فرميجديروس في المواضع المشار إليها آنفاً .

Cf: CHARVET : Hist . de la Sainte Eglise de Vienne , p. 147.

REINAUD : Op . cit. pp. 59-61 .

الذى تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه ، ومن أسف أن مراجعنا العربية تفتن علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق في هذا الموطن المبهم ، إلا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول إن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجل بذلك^(١) ، مما يأذن لنا في القول أن عقبة ومن عمل تحت إمرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام) فكيف بأهل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حرب ؟ وكيف ولدنا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هذه النواحي من انضامهم إلى المسلمين وموازرتهم إياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان - على تعصبها الشديد - تفيض بالشكوى من مساءات الفرنجة وملكهم قارله ، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أى في ظلال امبراطورية شرلمان ، فلا بد أن كتابها خففوا كثيراً من مساءات قارله ، وأما ما فيها من الأقوال عن أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل إلا القليل منها^(٢).

وكان الدوق ماورنت قد عاد إلى بروفانس بعد انصراف قارله ، وعقد الحناصر مع المسلمين من جديد ، فتحوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير إلى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد ، فانهدر سنة ٧٣٩م مع أخيه شلديبراند ووجهتهما ماورنت وبلاده ، واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقيته وطردها من البلاد ، وأقاما المحارس على الشاطئ المقابل لشواطئ إسبانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال إلى شرقي ردانه من جديد^(٣).

بيد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا التحدى ، وجعلوا همهم بعد ذلك

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) راجع ما يقوله رينو في هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة في تاريخ حياة القديس بوركارايوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التي أحدثها العرب في داخل إقليم بروفانس تنصب على ما فعله المتبريرون في هذه النواحي حينما نزلوها بعد سنة ٨٨٩م . وهي ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسبوا كل ما أحدثه المتبريرون الجرمان من التخريب في شمال إيطاليا وجنوب غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كتابات البولانديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧م .

Continuatio Fregedarii, III, Loc. cit .

REINAUD. Op. cit. p. 63

(٣)

نزول بروفانس ودوفنيه من ناحية البحر . وأعانهم الحظ بموت قارله (١٧٤١م/١٢٣هـ) واضطراب الأمر من بعده حيناً حتى استقراره لابنه يمين الثاني ، ولكن ظروفهم لم تمنعهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر في الأندلس وإفريقية كانت إذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم في غالة^(١).

وكان عقبة بن الحجاج قد توفي (صفر سنة ١٢٣هـ/يناير ٧٤١م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى إلى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمنية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس ناراً ، ثم أقبل بلج والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الإمارة وقتلوه ، فثارت اليمنية على كلمة واحدة .

١٢٠- عبد الرحمن وكانت قيادة المسلمين في غالة قد صارت إلى عبد الرحمن بن علقمة ابن علقمة اللخمى على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان عبد الرحمن يميناً ينصرف عن غالة متعصباً فلم يكذب يترامى إليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير إلى بجنده قرطبة للانضمام إلى قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن ، وأخذ معه معظم من معه من أنجاد الجند ، حتى لتزعم المراجع العربية أن عدة من سار معه إلى قرطبة كانت مائة ألف^(٢) . وهي مبالغة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعف مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في زوال أمر الإسلام من غالة جملة ، وكان عبد الرحمن نفسه من خيرة قادة المسلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس » وكان قيامه بقيادة جند الإسلام في غالة خير ضمان لثبات أمر الإسلام فيها ، فأما وقد انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه في معمرة « المصاراة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير في الثبات فيها وراء البرتات ، خصوصاً وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لليبيين في أوستراسيا ودان له ابنا أودو صاحباً أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن نقرأ في المدونات النصرانية أن كبريات مدائن سبتمانية مثل بزيه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الإسلامي ، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ،

وكذلك حدث في إمارات البرتات مثل كتّبريه ونبره ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدي أنفسهم^(١).

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهرى والصميل (من ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ / ديسمبر سنة ٧٤٦ م) حتى عجل يوسف بإرسال ابنه عبد الرحمن في بعث إلى نواحي البرتات لإقرار أمر الإسلام فيها من جديد ، فلقى مقاومة عنيفة ولم يوفق إلى شيء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين في أربونة وأجنادهم في شالي الأندلس قد تقطعت ، فطمع فيهم فايفر (Vaifre) ولد أودو الذى صارت إليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه في سنة ٧٥١ م / سنة ١٣٣ هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمي قد عاد إلى أربونة بعد هزيمته مع اليمنيين في وقعة المصاراة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقدته من الجند في حروب العصبيات في الأندلس^(٢).

١٢١- بيّن وكان مركز بيّن قد قوى في غالة كلها بعد أن انحاز إليه البابا ونقل إليه التاج الثاني يهاجم من آخر الميروفنجيين (سنة ١٣٣ هـ / سنة ٧٥١ م) فبادر بالمسير في جيش كبير أربونة نحو أربونة عام ١٣٣ - ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م . وأعانه الحظ بوجود حليف قوى من قوط جنوبى غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشمل بلدان نيمة وأجدة ومجلونة وبزیه ، فسلمها إليه ، وبهذا لم يبق أمام بيّن إلا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ، فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخلف أنسموندوس ليمضى في الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلّت مجاعة شديدة بجنوب غالة كله ، فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار في حصار أربونة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضاً^(٣).

ولم يجدّ جديد في أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ، فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل في وصول نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم

REINAUD. Op. cit. p.77.

(١)

REINAUD. Op. cit. pp. 76-77.

(٢)

Cronicon Moissiacense. Loc. Cit .

(٣)

REINAUD. Op. cit . p. 78.

باشتغال يبين عنهم بما دهاه من الثورات في بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحي سبتمانية ثغراً إسلامياً يقوم للأندلس الإسلامى كالدرع الحصين دون أن يفطن أهل الأندلس إلى هذا الدور الخطير الذى لعبه هؤلاء المسلمون المنزلون في هذه الناحية القاصية يحيط بهم الأعداء من كل ناحية .

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الثغر ، فلم يكد الأمر يستقر له حتى أسرع في سنة ١٤٠هـ / سنة ٧٥٨م بإرسال بعث قوى يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان^(١) ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، إذ دهمه رجال العصابات في عمرات جبال البرت الخطرة ومزقوه إرباً^(٢) . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لإتقاذ آخر معاقل الإسلام في غالة ، إذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر في أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التى تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

١٢٢- سقوط أربونة (سنة ١٤١هـ / سنة ٧٥٩م)
فإذا كانت أربونة قد تُركت لشأنها على هذا النحو المحزن ، ولم يعد أحد يفكر في نجدة أهلها أو استغلال موقعها الذى بذل المسلمون تضحيات كبرى للتمكن منه ، ودافعت عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم إليهم من جماعات الجرمان قرابة الثلاثين عاماً ، إذا كان هذا حالها الذى صارت إليه ، فقد كان من الطبيعى أن يضعف أمر حاميها إلى حد لا تستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الإسلامى الذى أرسل لنجدها سنة ١٤٠هـ / سنة ٧٥٨م وتبين نصارى جنوبى غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الإسلامية في سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام إلا ضعفاً ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩م شعر أهل أربونة من النصارى أن في استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين وإخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثاً حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على

(١) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أبا سليمان : الأول أبو سليمان جيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثاني فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الأول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاء طليطلة وأعمالها ، وقد توفي أبو سليمان هذا في عهد عبد الرحمن في حين توفي الثاني في عهد الحكم الرضى .
انظر :

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

الحامية الإسلامية على حين غرة ، فقتلوا من أفرادها نفراً عظيماً وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجية ، وعجل يبين بإرسال بعث قوى أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقي للمسلمين من الجند في أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الإسلامي الفريد ، بعد أن ظل في يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتانية ومعظم نواحي جنوبي غالة^(١).

١٢٣- بقايا وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحي المسلمين في غالة دوقية الدوفينييه وكونتية نيس ، واعتصمت جماعات منهم في شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم في هذه النواحي طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص - غير موثوق في صحتها - إلى أن تلك الجماعات الإسلامية استولت على جرينوبل في تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هذه الجماعات الإسلامية مقيمة في هذه النواحي حتى نزل المسلمون شاطيء فرنسا الجنوبي مقبلين من صقلية وقرصقة بعد مائة وثلاثين عاماً على ما فصلناه في دراسة أخرى^(٢) . ولكننا نستطيع القول أن تاريخ سيادة المسلمين في جنوبي غالة ينتهي بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية^(٣).

١٢٤- نتائج وسقوط أربونة وبعد أن سقطت أربونة تغير الوضع في شمال الأندلس الغربي تغيراً تاماً ، إذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة في منطقة البرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشلمانية ، فقوى أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الإسباني » الذي نشأت عنه إمارة قطلونية (كتلونيا) فيها بعد ، وسنرى شرلمان بعد

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث في قصة فيلومين PHILOMENE التي نشرها M. CIAMPI في فلورنسه سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Gesta Caroli Magni ad Carcassonam et Narbonam

ويبدو أن هذا المرجع لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم أنه كتب بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذي كتب أول الأمر بالبروفنسالية والذي يضع المؤلف فيه في عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه يبين وجده قارله ، قد كتب في القرن الثاني عشر على الأغلب ولا يستحق أية ثقة :

REINAUD , Op. cit. p. 81 et note I .

(٢) انظر : حين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية . مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

REINAUD . Op. cit. p. 82 et note I .

(٣)

ومراجعته :

Gallia Christiana. III, p. 1275.

M. DE COURCELLES : Hist . généalogique des pères de France

المواد الخاصة بـ Clermont- Tonnère , Agoutt ، ولا يوافق رينو على كثير مما ورد في هذه المراجع .

سنوات يعبر البرت ويحاول الاستيلاء على سرقسطة^(١).

وقبل أن نترك غالة وتاريخ المسلمين فيها ، لابد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء إقامتهم فيها ، والنظم التي ساروا عليها في تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

١٢٥-أحوال لا نملك عن ذلك الموضوع إلا معلومات عامة وأمثلة قليلة لا يُؤمّن القياس جنوبي غالة تحت عليها . والثابت على أى حال أن مقام العرب في غالة لم يدم على هيئة مستقرة الحكم الإسلامي إلا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاماً ثابتاً كما كان الحال في الأندلس مثلاً ، ولو قد انتصر المسلمون في وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى آخر : إذن لنشأت ولاية جديدة في غالة ، ولأرسل عامل الأندلس إليها العمال والرجال . فأمّا وقد انهزم المسلمون في محاولتهم الكبرى فقد وقفت ممتلكاتهم في غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغراً للأندلس فيما وراء البرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولنهضوا فيها للغزو إذا ما أمكنتهم الفرصة . والمعروف أن الولايات الإسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضاً واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءاً من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية إسلامية في آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلاً .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء البرتات معتبرة إذن ثغراً تابعاً للأندلس من الوجهة الإدارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتانية ثغراً عسكرياً لا كورة إدارية ، وقد نشأ هذا الثغر في أيام السمع بن مالك ، فهو الذى افتتح أربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح إلى ليون ، ولو لم يهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقي الردانة ، ولجعل المسلمون عاصمة ثغرهم في أبنيون أو طولوشة أو غيرها من كبار المراكز التي تسيطر على جنوبي غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الجنوب والتحصن بناحية سبتانية .

وقد حاول عنبسة بن سحيم أن يتتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التي لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن العافقي وأراد أن يفتح غالة فتحاً دائماً ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية في معركة حاسمة فانهزم هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبة بن الحجاج وحاول أن يصل إلى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظاً وإن لم يصل إلى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شبال البرتات لا تزيد عن إقليم سبتمانية .

١٢٦- لماذا لم يوفق المسلمون إلى
محاولاتهم على العبور إلى غالة من الأبواب والممرات الشرقية ، فانصرفت جهودهم كلها على الجنوب الشرقي لغالة وحوض ردانه ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبتوا أقدامهم في جنوب غالة كله ، ولا استطاعوا أن يكونوا أثبت أقداماً في المعارك التي هزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً في الركن الغربي من جبال البرتات ، وظلت أقصى فتوحهم في هذه الناحية عند بنبلونة جنوبي البرت ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجَلَد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث إسلامي إلا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غيرة في المسلمين إلا انتهزوها .

وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أكّد الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة البرتات وما صاقيها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحي مهداً تولد فيه الكثير من الولايات الإسبانية النصرانية التي ستناوئ المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية وريباجورثا وغيرها . ولو قد اهتم المسلمون بإكمال إخضاع منطقة البرتات وثبتت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازاة غالة لأن غزواتهم في غالة لم تؤت بهم أى ثمر على الإطلاق ، في حين كان تهديد الأمر في نواحي البرتات تهديداً تاماً يؤمن الأندلس الإسلامى ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في غالة وإيطاليا .

ولنلاحظ إلى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ في الوقت الذي دخلوا فيه غالة ، فقد

دخلوها في إبان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية في طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون في إخمال البيت الميروفنجي للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشاً قوياً جمعوه من خيرة الفرنجة ومن انضم إليهم من المتبريرين، ومضوا يحاولون إخضاع غالة كلها وشمال إيطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر في مناوأتهم من أهل الجنوب ، ولو قد فطن العرب للوضع السياسي في غالة وحالفوا أودو وغيره من أكتاد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الحال في غالة . ولهم في ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة في دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين في غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل البرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغي أن نظن أن المسلمين لم يفكروا في غزو غالة غزواً مستمراً والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت إلى فتحها فتحاً ثابتاً من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح بن مالك وعنيسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن إلا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته إدخال البلاد في رحاب الدولة الإسلامية لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعلنا لو قارنا السمع والغافقي وعقبة بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الإسلامية الأخرى لتبيننا أن فتوح غالة كانت من أجدد الجهود الإسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم في سبيلها من أغلى ما ضحوا به في فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم في إتمام فتحها ، وتبيننا أن تضحياتهم في سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه ، ولا نزاع في أن السمع والغافقي وعقبة يُعدون جميعاً في طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك في أن المسلمين ضحوا في سبيل غالة أكثر مما ضحوا في سبيل مصر مثلاً ، وأن من استشهد من المسلمين في نواحي غالة كانوا جديرين بفتحها ، ولو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً هذا الاضطراب .

وربما بدا غريباً أن نرد معظم السبب في فشل المسلمين في فتح غالة إلى اضطراب الأحوال في الأندلس وبُعْد غالة عن مركز الدولة الإسلامية لا إلى الجشع في الغنائم كما يزعم بعض

مؤرخي النصارى ، أو إلى قوة الدولة الفرنجية كما يزعم بعضهم الآخر . ولكن هذه هي الحقيقة : فأما البعد السحيق عن مركز الدولة فقد حرم فاتحي غالة من توجيه الدولة وعون رجالها السريع ، وحرهم من أمداد العنصر العربي الذي كان قوام الفتوح وعمودها الفقري . ويكفى أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلاً لا يكاد يكفى لسيادة الأندلس نفسه ، وأن جزءاً عظيماً من هؤلاء استقر في نواحي الأندلس ولم يشترك في أعمال الغزو فيها بعدها من البلاد .

يكفى أن نذكر ذلك لكي نتبين أن عدد العرب في الجيوش الإسلامية الغازية في غالة كان قليلاً جداً . فأما غالبية الجند الإسلامي المحارب في غالة فكانت من البربر ، وتدل الدلائل كلها على أن أعداد هؤلاء البربر كانت عظيمة وإن لم تبلغ مئات الآلاف كما يزعم رواة أصحاب المدونات اللاتينية^(١) ، والغالب أن معظم من كان يُهَجَّر إلى الأندلس من البربر كان يُهَجَّر إليها طمعاً في فضل الجهاد ومغانمه ، ولهذا كانت جموعهم في الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم في الغنائم كبيراً كذلك ، وقد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد في تطور أحداث الغزوات في غالة كما رأينا .

فإذا كانت نوايا المسلمين الغازين في غالة قد انعقدت على الاستقرار ، وطال مقامهم في سبتانية نيفاً وثلاثين عاماً ، فلا بد أنهم وضعوا نظاماً لإدارة النواحي التي خضعت لهم ، وليس لدينا إلا إشارات عابرة تعيننا على تكوين فكرة عن هذا النظام . ويكفى أن نبه إلى أن كلامنا هنا مقصور على ما سار عليه العرب في حكم سبتانية فقط من النظم خلال السنوات الثلاثين التي سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم .

١٣٧- طبيعة

الحكم الإسلامي وطبعي ألا يكون العرب قد مضوا في حكم هذه الناحية كما حكموا مصر مثلاً ، لأن مصر كانت ولاية مدنية في حين كانت سبتانية ولاية عسكرية ثغرية ، وكان المسلمون ينظرون إلى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم إلى الولايات المدنية ، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكان في النواحي الثغرية طمعاً في كسبهم إلى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرمًا على الجنود المقيمين في الثغر منهم على المقيمين في الولايات المدنية ، فقد وزع عمر بن الخطاب أراضي أقصى شرقي فارس على فاتحيها من المسلمين وسهاها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلاً لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب ريتو الألف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعداً .

نفوسهم على سداد ثغرها . واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية ، فأقر الإقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحي من النصارى فيه ، فمنحوا كل ناحية عهداً بحريتها في كل شيء مع اشتراط أداء جزية معينة ، والخضوع للحاكم الإسلامى الذى يقيم فى الناحية فى بعض المسائل الكبرى^(١) .

١٢٨- المسلمون وقد ذهب رينو إلى أن المسلمين عاملوا سبتانية على هذا الأساس ، وقال يعتبرون غالة إقليمياً إن العرب ساروا فى حكمها على نفس الأسس التى قرروها فى صلحهم ثغرياً مع قلمرية (Coimbra) فى أقصى غربى الأندلس ، وإنما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه بالثغرى الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدتها مع المسلمين كاملاً . وأهم ما فى هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق فى أن يحكموا أنفسهم بقوانينهم التى تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجئ المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام فيما عدا أحكام الإعدام إذ كان لابد من عرضها على الحاكم الإسلامى المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم فى قلمرية ممثلاً لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه وتمنع النصارى من الانتقاض عليه ، فإذا وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على الحاكم المسلم الذى يقضى فى الأمر بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإذا اعتدى نصرانى على مسلمة ألزم باعتناق الإسلام والزواج منها ، فإذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر^(٢) .

فإذا طبقنا أشرط هذه المعاهدة على سبتانية استطعنا أن نقول إن الحامية الإسلامية

(١) موضوع حكومات المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى الأراضى المفتوحة . أما فيما يختص بثغرنا هذا - غالة - فيقول محمد بن مزين ، ونصه فى غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكلام هنا منصب على الأندلس : « ... فبعث إليها السماح بن مالك عاملاً ، فوردتها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر (ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه فى الرجوع إلى بلادهم ، وإداتهم بمن ورد مع السماح ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع السماح إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب (رضه) الجند فيها لم يسدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليلغ الكتاب أجله ... » .

DOZY: Recherches. I, app. I. p. v.

انظر النص فى :

Cf: REINAUD. Op. cit. pp. 272 Sq.

(٢)

والراجع الواردة فى الهوامش .

الرئيسية كانت تقيم في أربونة ، وأن حامية إسلامية صغيرة كانت تقيم في كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينية وما خضع للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانة ، وهذه الحاميات تقوم بحماية المكان وإقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين إلى جانب ذلك جند غازٍ كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه إذا أقبل.

١٢٩- نظام
الحكم في جنوب
غالة
ولا نزاع في أن العرب خففوا عن أهالي هذه النواحي أعباء حكمهم إلى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل مادي على ذلك ، ولكننا نستند في القول به إلى أمرين :

الأول : هو تعلق أهل هذه النواحي بهم ووقوفهم إلى جانبهم أمام الفرنجة ، وهذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هذه النواحي بالتخفيف عنهم في كل شيء ، والثاني : هو أن المسلمين كانوا أحلافاً لنفر من أدواق هذه النواحي مثل ماورنت دوق مسيلية (مرسليا) الذي ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليشتوا على الولاء للمسلمين إلا إذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة في بلادهم. ولنلاحظ أن أراضي هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة عن أراضي المسلمين ، أي أنهم لم يستقلوا بنواحيهم عن السلطان الإسلامي ، بل اعترفوا به وأقاموا معه : فقد كان ماورنت يحكم مسيلية وما حولها من أراضي دوفينية ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحي ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدى للمسلمين ما حق لهم من أموالها ، أي أنه كان شيئاً يشبه « زعيم عجم الذمة » و « قومس النصارى » في الأندلس ، مع فرق ظاهر وهو أن « زعيم عجم الذمة » كان رجلاً مدنياً صرفاً تقتصر مهمته على معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعاً لعامل الأندلس خضوعاً تاماً ، ولم تكن له سيادة فعلية إلا في حدود ضيقة ، في حين كان « دوق عجم الذمة » في ناحية سبتمانية سيداً قوياً ذا جند وسلطان ، وكان حليفاً للمسلمين لا خاضعاً لهم ، وكان يتعاون مع المسلمين في مهمتين رئيسيتين : إقرار السلام في الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

١٣٠- موقف
المسلمين من
المسيحية في غالة
وقد زعم رينو أن المسلمين اضطهدوا النصارى في سبتمانية واستولوا على كنائسهم ، ولم يستند في ذلك إلى دليل واحد مباشر أو غير مباشر . ولسنا ندري لماذا أصر على الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عدم وجود

الدليل ، وربما كان الأصديق أن يقال إن المسلمين تركوا لأهل هذه النواحي حريتهم الدينية كاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب إلى المنطق هو أن موقفهم من النصرانية ورجالها في ناحية سبتمانية كان أكثر رفقاً ، فقد كان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين في جنوبى غالة لأن قارله كان قد أساء إليهم إساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفرّقها على جنده ، وشرّد الكثيرين من القساوسة والأخبار ، ولا نزاع في أن حال الكنائس في النواحي التي كانت خاضعة للفرنجة في جنوبى غالة كانت أسوأ من حالها في النواحي التي كانت خاضعة للمسلمين .

وليس لدينا كذلك أى وثيقة نستطيع أن نستخلص منها مقدار ما قرر المسلمون على أهل هذه النواحي من الجزية ، فلم يبق إلا القول بأن المسلمين ساروا في ذلك على نفس الأسس التي ساروا عليها في الأندلس . أى : أنهم تركوا الأرض التي فتحت عنوة في أيدي أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالا يتراوح بين ثلث وربيع المحصول ، وأما ما فتح صلحاً فقد تقرر عليه العشر . ويستبعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة في هذه النواحي لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضى في أيديهم أزماناً طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب في زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جند قلق يقيم في المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح لهم الفرصة للانتشار في الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الإسلام فيهم وتعريبهم .

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التي ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيها وراء البرتات ، بل استمرت بقاياهم وآثارهم هناك زمناً طويلاً وتجدد لهم تاريخ في جنوبى حوض ردانه بعد قرن ونصف ، إذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارئ على ما كتبناه في هذا الموضوع في بحثنا عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وقد رأينا أن جهود المسلمين في هذه النواحي لم تكن بالقليلة ولا بالعبارة ، وإنما كانت جهوداً مضنية جادة قصد من ورائها إلى فتح غالة ومد رواق الإسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون في ذلك للأسباب التي ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها في ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة نهايين لا ينظرون إلى شيء بعد الغنيمة . بل دخلوها فاتحين منظمين

يريدون إدخالها في رحاب دولتهم وتحويلها إلى الإسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر في غالة الجنوبية لاتجه نظرهم إلى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية في غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلاً .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في « بلاط الشهداء » وأقاموا حكم الإسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هي نواة النصرانية في غرب أوروبا إذ ذاك ، ولم يكن يليها إلا شعوب وثنية ، أما البابوية في روما فلم تكن لتستطيع شيئاً ، لأنها هي نفسها كانت في حماية اللمبارد ، وكان أمرها إذ ذاك ضعيفاً لم يتقرر على النحو الثابت الذي نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين^(١).



١٣١- مقارنة ولقد أسرف الغربيون في تقدير أهمية « بلاط الشهداء » وقالوا إنها أنقذت بين المسلمين حضارة غرب أوروبا أو المسيحية ووضعت حداً لسيادة الشرق على الغرب ، والفرنجة في غالة وما إلى ذلك مما يحلو الكلام فيه لمؤرخي أوروبا وفرنسا خاصة . والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخي الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فإذا كان المسلمون أغراباً عن غالة فقد كان الفرنجة أغراباً أيضاً ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكماً أجنبياً خالصاً ، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغالين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وإنما كانوا ما يزالون أجلاً متبررين أقرب إلى الوثنيين منهم إلى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للربان ورجال الدين عظيماً ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب إلى روح المسيحية من أولئك المتحمسين .

ولم يغلب الطابع المسيحي على الفرنجة إلا من أيام يبين الثاني بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمباردين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شرلمان ، وهو أول ملك فرنجي مسيحي صادق . وقد كتب في أيامه الكثيرون من

أصحاب المدونات النصرانية التي نقلت إلينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية، أى أنهم كتبوا عن عصر بروج عصر آخر ، ونسبوا إلى قارله ومعاصريه ما لم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر في مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر في مصير مملكته ، وقد رأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعى المسيحى وإنما موقف الطاغية العسكرى الذى لا يفكر إلا في ملكه وأمواله ومغانمه .

وليس إلى الشك سبيل في أن السمع بن مالك وعبد الرحمن الغافقى وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون . ثم إن المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررة ، في حين كانت نظم الدولة الفرنجية في طور التكوين ، وكانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب إذن حرباً بين إسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعاً بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شرلمان) وكان رجاله محاربين أجلاً لا يفقهون من اللاتينية شيئاً ، بل لعلهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أى حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التى سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدي رهبان ومعلمين أقبلوا من أيرلندة وبلاد الشمال . وقد يتن هنرى بيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه في بحثنا الذى أشرنا إليه عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وإذن فلم تكن موقعة البلاط إنقاذاً للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخى الغرب ، فقد كانت المسيحية في حرج في غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها . وهذا كله يلقي ضوءاً جديداً على مكان موقعة البلاط من التاريخ ، نعم إن المسلمين لو انتصروا فيها لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكان القرآن الكريم يدرس الآن في جامعة أكسفورد كما قال ادوارد جيبون ، ولكن انهزام المسلمين فيها لم يكن هو الذى

أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » كما قال
رسل هرقل عندما سألهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعنى في حسابهم شيئاً ، وقد
رأيتهم ينهزمون المرة تلو المرة في إفريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والإصرار على
الفتح. إنما الذى أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية
وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية إلى الحياة .



الفصل الثامن

قيام حركة المقاومة النصرانية

حينما وصلت جيوش الإسلام الفاتحة إلى لك (Lugo= Lucus Asturum) وأوغلت في الجبال الصخرية المفضية إلى سواحل كتنبيرية القاحلة ، وأشرفت عند خيخون على خليج بسكايه^(١) ، اعتقد قادة المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية ، وتحولوا بجهودهم إلى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة فيما يلى الخط الممتد من برشلونة إلى (أمايه) ماراً بلاردة وسرقسطة وتطيلة وقلهرة ونخرة وما يلى ذلك من منطقة البرتات وما إلى شهاها من أراضى غالة^(٢) . ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق - ومن جاء بعدهما - أن الركن الشمالى الغربى القصى المسمى «جليقية» الذى خلّفوه وراءهم دون فتح - استصغاراً لشأنه - إنما كان فى الواقع حصناً لجأت إليه أعداد قليلة من بقايا القوط ، واطمأنت إلى الحياة فى هضابه ووديانه ، وأخذت تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتنساح فيما يليه من الأرض رويداً رويداً ، لتكوّن لنفسها دويلة لا تزال تتسع بجهود أمرائها ومواتاة الظروف إياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها ، ولا تزال أحداث الزمان تجرى بها إلى سعود حيناً وإلى نحوس حيناً ، حتى تضعف دولة الإسلام فى شبه الجزيرة ، فيتنفس أهل جليقية الصعداء وينقلبون من الدفاع إلى الهجوم ، ويتيح لهم المسلمون الفرص بما أسرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم ، حتى إذا هدموا دولتهم بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها ، أقبل هؤلاء المنتحسون فى الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلبداً بعد بلد ، حتى استخلصوا شبه الجزيرة كله من أيديهم ، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح .

١٣٢-انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم	وليس من الصواب فى شىء أن يذهب الإنسان إلى أن العرب أخطأوا إذ تركوا هذا الركن القصى دون فتح ، فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية ، تحيط بها غابات
--	--

(١) كان خليج بسكايه يعرف فى العصر الرومانى ببحر الغالى الكتنبرى الأكويتا

انظر Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum

FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : Atlas Historico de Espana.

الخريطة رقم ٤ من هذا الأطلس .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

كثيفة . وكان طبيعياً أن يخلفها العرب دون فتح ، ولم تأت العلة - فيما بعد - من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم إلى منازعات الجنس والعصية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والاستمرار في اليقظة على سلامة دولتهم فيها . بل أدت حروب العرب والبربر إلى مبارحة معظم البربر للنواحي التي كانوا قد استقروا فيها في الشمال الغربي الأقصى ، وانحذارهم إلى الجنوب . بل إلى عودة أعداد عظيمة منهم إلى إفريقية على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من الطبيعي أن يتقدم القوط والإيبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ، فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يقطن العرب إلى ذلك ، فإذا استوثقوا من أنفسهم في هذا الخمس فقد كثرت أعدادهم وتنسموا شيئاً من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردهم عن بلادهم أولاً ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والاستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

وتسمى هذه الحركة في تاريخ إسبانيا بحركة « الاسترداد » La Recon-
١٢٢- الريكونكيستا quista ، والإسبان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومي الذي يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الإيبيرية ، ويتصل أثناء العصور الإغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الإسلامية متمثلاً في هذه الدويلات التي نشأت في الشمال ، وأخذت تتسع حتى قضت على دولة الإسلام في البلاد وأعادت نصرانية كما كانت .

ولا شك في أن إطلاق تسمية « الريكونكيستا » على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها في أوائل القرن الهجري الثاني (النصف الأول من القرن الثامن المسيحي) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقي التي بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتشار دولة الإسلام في شبه الجزيرة في أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يخلو من خطأ ، لأن اشتريس إنها ولدت في ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد ، وإنما يعد ميلاداً لحركة المقاومة للسيادة الإسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلاً في أواخر أيام « بلاى » على ما سيجىء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زماناً طويلاً ، ولم يتجدد نشاطها إلا بعد أيام المنصور بن أبى عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تُجمع عليه التواريخ الإسبانية من أن حركة الاسترداد إنما كانت معركة دامت

ثمانى قرون La batalla de ocho siglos ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتلى المؤرخين الإسبان .

وقد كان مؤرخو الإسبان ومن شايعهم من الأوروبيين ينظرون إلى الفتح الاسلامى على أنه حادث طارىء ، طال زمنه ثم انتهى أمره ، دون أن يتخلف فى البلاد أثراً يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يعمرون بالفترة الإسلامية مروراً عابراً لا يتظفر معه إلا بوضع صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الإسبان أهمية هذه العصور الإسلامية إلا من أواخر القرن الماضى ، ولم يعتبروها جزءاً هاماً مجيداً من تاريخهم إلا من أوائل القرن الحالى ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الإسبان ، لم يدخروا جهداً فى كشف النقاب عن جمال هذه العصور الإسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للإسبان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فإذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الإسباني العام ، فلا بد لدارس التاريخ الأندلسى من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى فى إسبانيا تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ العصور الإسلامية نفسها ، بل ستكون هى الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وطبيعى ألا نجد من مراجعنا العربية أى اهتمام كبير بمبادئ هذه الحركة ، لأنها كانت فى أول الأمر خافية أو كالحافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتبع الحوادث الهامة ، وطبيعى كذلك أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الإسبانية اهتماماً عظيماً ، لأن مصنفها كانوا قساوسة ورهباناً عاشوا فى مدائن الدول النصرانية الشمالية أو فى العواصم الإسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم ينفعنا كثيراً لأن أسلوبهم فى كتابة التاريخ فى هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التواريخ والأحداث موجزة إيجازاً شديداً ومضطربة اضطراباً بالغاً ، ولهذا فإننا لا نستطيع الانتفاع بها إلا إلى حد محدود جداً .

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضع بين إهمال المراجع العربية واضطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها فى أدوارها الأولى نهياً مقسماً بين الغموض والأساطير ، وأصبح من العسير جداً أن نكتب فى شىء من الثقة عن أول أبطالها

المسمى بلاى^(١) بن فافيللا وعن أول حوادثها الجسام التى تسميها المراجع بواقعة « كوفادونجا » .

١٣٤- الإيبيريون وكذلك يحيط الغموض فى مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس التى كانت الرومان تسكن اشترىس وكتتبريه على أول أيام الفتح الإسلامى ، لأن أصحاب المدونات الإسبانية فى العصور الوسطى يسمونهم « القوط » فى حين يجعلهم العرب قوطاً أو جلالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة الإسبانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الإيبيريين ، وهم جنس قديم أقبل إلى شبه الجزيرة من إفريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس سكان شبه الجزيرة كلهم ، وأما من أتوا بعد ذلك فهاجرون اختلطوا بهذا العنصر الإفريقى الأصيل ، وأول من هاجر إلى شبه الجزيرة واختلط به جنس أوروى قديم - جرمانى فى الغالب - هاجر إلى شبه الجزيرة من الشمال فى أعداد قليلة اختلطت بالعنصر الإفريقى وتكوّن منهما العنصر المسمى بالإيبيرى Los Iberos .

وتوالى المهجرات بعد ذلك على شبه الجزيرة ، أهمها هجرة الكلث وقد اختلط معظمهم بالإيبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية فى نواحي جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفينيقيين واليونان ، ثم أعقبت ذلك موجة الفتح الرومانى الذى شمل البلاد كلها ونظمها للمرة الأولى تنظيمًا إداريًا ، وإلى هذا الأثر العمرانى ترجع القيمة العظيمة لهذه الموجة الرومانية التى طبعت البلاد بالطابع الرومانى ، حتى أصبح أهلها يُعرفون بالإيبيريين الرومان من ذلك الحين Ibero-Romanos ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقى سكان شبه الجزيرة إيبيريين روماناً فى حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط^(٢) .

١٣٥- صخرة تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولا من القوط فرت أمام الفاتحين بلاى المسلمين ، ولا زالت تتقهقر نحو الشمال حتى اعتصمت منهم بركن قصى من « جليقية » تسميه المراجع العربية « صخرة بلاى » والإسبانية (picos de Europa) فى

(١) Pelayo هذه هى الصورة الإسبانية لاسمه ، أما صيغته اللاتينية فهى Pelagius وقد آثرت استعمال الصورة الإسبانية لأنها أشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنها الأصل كما سنرى .

(٢) cf: f . OLORIZ: Distribucion geográfico del indice refálico en Espana (Boletín de la Roy-al Sociedad Geográfica, Vol ,XXXDI,1894,primer semestre) pp.294 - 299.

ناحية كتبرية القاحلة^(١). وهناك اطمأن بها المقام ، لأن العرب عجزوا عن الوصول إليها أو استصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأساً في تركها حيث هم . وتبالغ المراجع العربية في استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازى مثلاً : « .. ولم يبق إلا الصخرة ، فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونهم حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشترونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً ، ما عسى أن يجيء منهم ! »^(٢).

ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيّقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً ، وحتى فئت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يجذونه في خروق الصخرة ، وأعى المسلمين أمرهم فتركوهم »^(٣). وانصرف المسلمون عن بلاى وأصحابه ، فاطمأن المقام بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الإيبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تزايد ، وازداد أمرهم ثباتاً .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاريين إلى « الصخرة » نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش في هذه النواحي القاصية على العيش في البلاد التي فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفراً من هؤلاء الهاريين أخذ يفارق صخور كتبرية ويعود إلى موطنه الأولى بعد أن اطمأن إلى عدل المسلمين^(٤)، بل إن بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل في الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخاً لذلك وإن كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى (أى بين سنتي ١١٦ و ١٢١ هـ) .

(١) تسميها المراجع العربية في الغالب « الصخرة » اختصاراً ، وقد ترجمها لافويتى إلى ألكانترا EL-Roco مجازة للمسلمين في تسميتهم . وهم يجعلونها في جليقية Galicia خطأ ، إذ أنها في كتبرية ، وهى أعلى قمم كتبرية ارتفاعاً وأبعداها إلى الشمال ، وهى الناحية التي تحصن بها بلاى ومن معه . وثابت من المراجع الإسبانية أن « بلاى » وأصحابه احتموا من المسلمين في مغارة أونجا (Cova de onga) الواقعة في جبال « بيكوس دى ايروبا » ، وقد وصفها الكونت سان سوبوله : « كتلة هائلة من صخر الجبل يتبين الإنسان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرف تسمى « أندارا » ، وثانية وسطى تسمى Bulnes ، وثالثة غربية تسمى قمة كوكا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .

cf: LE CONTE SAINT-SAUD : Monographie des picos de Europa, Etudes et Voyages, Paris 1923.

(٢) عيسى بن أحمد الرازى ، في نفح الطيب للمقرى : ج ٢ ، ص ٦٧١-٦٧٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٤) LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p. 47 .

١٣٦- مونوسة ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحي كتبرية وجليقية مما يلي هذه الصخرة ، ولكن إشارات متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، وأقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بنى جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الزعيم البربري عند كلامنا عن حملة عبد الرحمن الغافقي على غالة ، وبقي أن نستكمل الكلام عنه هنا ، إذ أنه كان أكبر قواد المسلمين في الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة إذ ذاك .

وأقرب الآراء إلى الصحة في أمر مونوسة أنه كان من رؤساء الجند في جيش طارق بن زياد ^(١) ، والغالب أن موسى وطارقاً تركاه حاكماً على أشتريس وما يصاحبها من نواحي جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال شبه الجزيرة كله ^(٢) ، فقد رأينا صلاته الوثيقة بالدوق أودو صاحب أقطانية وصهره معه ، وما كان لذلك الصهر من أثر على سير الأحداث في غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجع النصرانية الإسبانية تذهب إلى أن مونوسة تعلّق بابنة بلاى وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجها ^(٣) ، كأنه كان ذا ولع خاص بالوقوع في هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس

SAAVEDRA, Estudio ... p. 70.

(١)

ESTANSILAO RENDUELES LLANOS: Historia de la villa de Gijón desde los tiempos mas remotos hasta nuestros dias (Gijón, 1867) p.93:

(٣) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :

RODERIGO XIMENEZ DE RADA, Historia arabum. p.12

وعن علاقته بابنة بلاى انظر :

BARRAU DIHIGO: Royaume Asturien, pp. 117-118.

وورد في بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تسمى لامبيجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص . وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلاً زعم أنه استقاهها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأننا لم نجد لها في أى من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ، تاريخه ملئ بأمثال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه -هنا- إلى أن مونوسة إن هو إلا عنبسة (بن سحيم الكلبي والى الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافقي على الولاية لأنه كان يعتقد أنه أحق بها منه . ويقول إنه بينما كان مونوسة في إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لامبيجيا فأنجذ بجعلها وسعى حتى تزوجها ، وحالف أباهها أودو . فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة =

الاسم في هذه الناحية في ذلك الحين^(١) ، وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال إن علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابتته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع بلای ، وأطلق القصاص لخيالهم العنان فقالوا إن مونوسة رأى ابنة بلای وأعجب بها فاخطبها وتزوجها . ولا يبعد على أي حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطورة مع ابنة بلای^(٢).

= عارضه مونوسة في ذلك وأخذ جانب حميه أودو ، وأبى عبد الرحمن أن يقر المحالفة التي عقدها مونوسة وقال له أن لا حلف بين المسلمين والنصارى وأن السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مونوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحمي بلاده منه . وقرر عبد الرحمن محاربة مونوسة عقاباً له على ما أخطأ في حقه وحق إخوانه المسلمين . وهاجمه على غرة ، ففر مونوسة أمامه وتحصن منه بالجبال مستصحباً معه زوجته لاميبيجا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أنقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم في أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاطئ واندقت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسروا لاميبيجا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضمها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمونوسة في مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهي رواية مليئة بالخطأ لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر أن مونوسة رأى ابنة أودو في إحدى غزواته فهام بها بالضغط كما حدث عندما رأى ابنة بلای (على ما تزعم الأفايص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مونوسة ببلای

cf : CONDE : Historia . I , 83.

(١) LEVI- PROVENÇAL , Histoire de l'Espagne Musulmane . I, p. 42 .

وقد أنكر الأستاذ كوديرا وجود مونوسة إنكاراً تاماً ، وذهب إلى أن هذا اللفظ (Munusa) إن هو إلا تحريف للفظ ماسون (ويصححها كوديرا إلى Manresa) ببلدية بجنوبي غالة غزاها الهيثم بن عبيد الكلابي كما يقول ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧) وقال : إن القصاص ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مونوسة كان زعيماً بربرياً وبنا على زعيمهم ذلك القصص كله ، وهو رأى ضعيف لم يقره عليهم إلا بعض المؤرخين الإسبان مثل باليستروس ، وغالبيتهم اليوم لا تفره .

cf : F. CODERA : Manusa y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe espanola, Zaragoza 1903. p. 135. Sq.

BALLESTEROS : Historia ..., II, pp. 9-10

JUAN JAURGAIN : La Vasconie ..., p. 34

REINAUD : Invasions ..., pp. 36 Sq

LEVI-PROVENÇAL : Histoire ..., I . pp. 42-43 et notes

(٢) وقد تحدث إيزيدور الباجي عن مونوسة في شيء من التفصيل فقال : إنه رجل من الجنس البربري uno ex Maurorum gente اشترك في فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى أقصى الشمال وساهم في إخضاع ناحية شرطانية (Cerritania في اللاتينية و Cerdana في الإسبانية) ، وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق أنامبادي أسقف شرطانية حياً ، واجتهد في نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر في إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوجه إحدى بناته ليضمن عونه وعون من معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa Foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين في أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وبلای من ناحية أخرى ، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينهما ، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت أواصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

وهنا ينبغي أن نسأل : من هو بلای هذا الذي تذكره النصوص وتنسب إليه أعمالاً كثيرة جعلته في الطليعة من شخصيات التاريخ الإسباني ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها - وهي رواية مدونة البلدة (Chronicon Albeldense) - أن بلای كان ابن أمير قوطى يسمى برمودو (Vermudo) وابن أخى لذريق ، وأنه - أى بلای - اختلف مع لذريق ففناه هذا عن طليطة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب إلى اشترس وأقام نفسه أميراً عليها ، وأقام بلاطه في بليدة (Cangas = Canicas) تسعة عشر عاماً . ومات فيها سنة ٧٣٧^(١).

ورواية سبستيان السلمنقى أكثر تفصيلاً ، فهي تذهب إلى أنه عندما غزا العرب الأندلس هلك معظم القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا من أفراد بيتهم المالك فر بعضهم إلى غالة ، ولجأ معظمهم إلى اشترس ، حيث أقاموا على أنفسهم بلایو بن الدوق فافیلا أميراً ، وقد حكم بلای تسعة عشر عاماً وتوفي سنة ٧٣٧ ، وألحد مع زوجته « جاوڈ یوسا » في كنيسة سانتا أويلاليد فيلاينو^(٢) . وتضيف مدونة سيلوس (Chronicon Silense) أن بلای كان حامل سيف لذريق (Spatarius regis Roderici) ، وأنه هرب إلى اشترس حينما غزا العرب البلاد وتشرد في نواح غير معروفة منها (Vagabatur incertis Locis) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت له العدة نازهم وانتصر عليهم ، فأكبره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميراً^(٣).

وأما تاريخ إسبانيا العام (Crónica general de Espana) الذى صنفه ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب إلى أن بلای كان ابناً « لفافیلا » دوق كنتبريه الذى كان

(١) HUICI : Crónicas Látinas de la Reconquista. Chrónicon Albeldense: I p. 157 .

(٢) HUICI, op.cit . I. P . 206 .

(٣) HUICI, op.cit . II. P . 44 .

الملك اجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى إلى تُودَه Tuy واستقر فيها حيناً ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد أصابته من يد غيطشة ، الذى كان يطمع في زوجته (أى زوج فافيلاً) ، فلما صعد غيطشة إلى العرش نفى بلاى من طليطلة ، وأراد أن يفتقأ عينيه ، ففر إلى كنتبريه ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية ، ودعاهم إلى الوثوب بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم في معركة عند مغارة أونجا (La Cueva de Onga) سنة ٧١٨م^(١) ويضيف لوقا التودى (Lucas Tudense) في تاريخ العالم (Chronicon mundi) قصة تعلق « مونوسة » - الأمير المسلم على هذه النواحي ، وكان مقيماً في خيخون - بإحدى بنات بلاى مما أدى إلى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ، فأقامه القوط ملكاً عليهم قبل لقائه إياهم وانتصاره عليهم في « معركة مغارة أونجا » ، وتوفي في كانجاس سنة ٧٣١م بعد أن حكم ثمانية عشر عاماً ، ويذهب لوقا التودى كذلك إلى أن فافلة أبا بلاى كان ابناً لشندسفتو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه في أن يجعل بلاى سليلاً للبيت القوطى^(٢).

وأما الروايات العربية عن أصل « بلاى » فأكثرها تفصيلاً رواية « ابن حيان » التى يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصرارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علع يقال له بلاى من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحربين عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصرارى معه على نائب الحر ابن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن »^(٣).

ويذهب صاحب « الأخبار المجموعة » إلى أنه كان جليقياً من أهل أشتريس^(٤) ، ويؤيده

(١) Primera Cronica General de Espana (Madrid, 1906) pp.303-499 .

(٢) LUCAS TUDENSE . Chrocion Mundi , apud :

SCHOTT : Hispaniae illustratae Scripiores varii : 17 n . 2-220,695 n . I .

(٣) ابن حيان برواية المقرئ ، نفع الطيب : ج ٢ ، ص ٦٧١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ .

ونص عبارتها : « قثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علع يقال له « بلاى » قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من « الصخرة » وغلب على كورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلحظ ذلك الناشر) واشتريس ... » وقد جعل تاريخ هذا الحادث (سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠م - ٧٤١م) ولما كان من الثابت أن بلايه توفي سنة ٧٣٧م (حوالى ١٣٠ هـ) فإن لافونتى إى الكانترا في تعليقاته على الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف « الأخبار » يخلط في هذه الفقرة بين أعمال بلاى وأعمال أذفونش بن بيطره ... وهو رأى معقول .

انظر الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

ابن خلدون في رأيه هذا . ويقول : « إن أمم النصرانية أجفلت أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملكوا عليهم بلايه ابن فافلة ، فأقام ملكاً فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولى ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطره الذى اتصل الملك في عقبه إلى اليوم ، ونسبهم في الجلالة من العجم كما تقدم ، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ، وعندى أن ذلك ليس بصحيح ، فإن أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقُلَّ أن يرجع أمر بعد اندثاره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم^(١) . أى : أنه يقرر مع المقرئ وصاحب الأخبار المجموعة أن بلاى جليقى من أهل الشمال ، وليس قوطياً ، ونلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه إلا بدليل استخرجه من فلسفته ، فلا يمكن - في رأيه - أن يكون الرجل قوطياً ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

١٣٨ - كوفادونجا ولم يكن أحد من المؤرخين ليتنبه إلى « بلاى » هذا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانه الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحي التى كان يسيط عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية في تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئاً أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الإسبان تقديراً وإجلالاً مع الزمن ، فجعلوه بدءاً لصراعهم لإخراج المسلمين من بلادهم ، وإيداناً بميلاد إسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التى تحدونا إلى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره في التاريخ الإسباني عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الإسبانية كلها تُجمع على ذكر هذا الانتصار ، وإن اختلفت فيما بينها في التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافاً بيناً .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردها « مسبتيان السلمنقى » في تاريخه يقول فيها : « إن بلاى حينما انتهى به المطاف إلى ناحية « الصخرة » أعلن نفسه أميراً على ما يجاورها من النواحي واتخذ قرية كانجاس (Cangas = Canicas) مركزاً لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل إليه المسلمون جيشاً كبيراً يقوده

(١) أورد « دوزى » نص ابن خلدون في ملاحق أبحاثه :

cf : DOZY : Recherches (3e éd. 1881) I, appendice III, pp. X, XI.

قائد من كبار قوادهم يسمى علقمة^(١)، فغزا اشتريس وتوغل في أرضها، فلما سمع بلاى بذلك تحصن في جبل أوسبة Auseva في مغارة القديسة مارية Cova Sanctae Mariae التى تسمى كذلك «مغارة أونجا» فحاصره المسلمون وضيّقوا عليه، وكان معهم أبه (Oppas)^(٢) أخو غيطشة الذى انضم إلى المسلمين لأشياء نغمها عليه. فمضى أبه إلى بلاى، وحاورة محاولاً إقناعه بالتسليم للمسلمين، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاورة مفصلاً، فلم يفلح في إقناعه، فإذ فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعاول (Fundibala) والسهام، وهنا حدثت معجزة: إذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٢٤ ألفاً منهم، فيهم القائد علقمة نفسه، وأخذ «أبه» أسيراً ونجا من المسلمين ثلاثة وستون ألفاً فروا هاربين، فتسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى، وساروا في خانق في الجبل يسمى خانق أنكورا (El Tajo de Ancora) وانحدروا إلى إقليم ليانا (Liebana)، وهنا حدثت معجزة أخرى: إذ أن الجبل انهار من الناحية المشرقة على مصب نهر الديفا (Deva) فطمر بقية المسلمين^(٣).

وتلى رواية سباستيان في الأهمية والطول رواية «مدونة البلدة» التى تذهب إلى أن ثورة بلاى حدثت في أيام يوسف الفهرى، وكان مونوسة حاكماً على اشتريس في ذلك الحين ومقيماً في ليون، فسار نحو بلاى جيش إسلامى يقوده رجل تسميه المدونة ألقمان أو ألومان (Alcaman = Aloaman = علقمان = ؟) وكان معه «أبه» فانهمز المسلمون وأسير «أبه»، ومات مونوسة بعد ذلك بزمن. وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليانا

(١) لم يرد ذكر علقمة اللخمى هذا على صورة صريحة في مراجعتنا الإسلامية. ولكن وجود ابنه عبد الرحمن ونمام يؤيد وجوده في الأندلس أوائل أيام الفتح، فقد كان أولها قائداً لقوات المسلمين في جنوبى غالة وكان من كبار اليمنية، وقد قام بدور كبير في الحروب بين الشاميين والبلديين. وهو الذى قتل بلج بن بشر في معركة «أقوة برطورة»، ويصفه صاحب «الأخبار المجموعة» بأنه كان: «يعد فارس أهل الأندلس» وأنه «كان فارس نجدة مع جودة الاتقاء، وعليه سلاح كريم لا يحيك فيه سيف حصين (بن الدجن العقيل)، وانظر الأخبار المجموعة ص ٤٣-٤٤. وكان الثانى من كبار موالى بنى أمية في الأندلس، وكان من الأعمدة التى أقامت ملك عبد الرحمن الداخل، راجع نفس المصدر: ص ٧٥ وما بعدها. وابن الأبار: الحلة السيرة، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) هذه هي الصورة العربية لاسم Oppas كما أوردها صاحب الأخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو أحد ابني غيطشة Witiza ملك القوط الذى غصبه لذريق العرش. وقد ساء ابن القوطية «عباس».

AMBROSIO HUICI: Las Cronistas de la Reconquista, I (Valencia 1913). Sebastiani(٣) Chronicon. Pelagius p. 206.

(Liebana) إذ انهار عليهم الجبل بإرادة الله^(١).

وورد ذكر الواقعة كذلك في «مدونة سيلوس» ، ولكن ما فيها إن هو إلا تكرار لما قاله سبستيان السلمنقى و« راهب البلدة » مع إضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاى حدثت في بلدة (Cangas) ، وهو يسمى علقمة (Alchaman) ويقدر العرب بمائة وسبعة وثمانين ألفاً ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديفا بناحية ليانا ، وأن مونوسة كان مقيماً ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحي في قرية أولاليس (Olalies)^(٢).

وتكتفى مدونة كمبستيلة (Compastela) بالقول بأن بلاى طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلتها^(٣) ، في حين لا تزيد مدونة « شرطانية » على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله إلا « مغارة مارية المقدسة »^(٤).

أما مراجعنا الإسلامية فقد أشارت إلى وثوب بلاى بالمسلمين في ناحية « الصخرة » ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته إياهم . وإشاراتهما كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذى لعبه بلاى في تاريخ دول إسبانيا النصرانية والإسلامية أيضاً ، وما ترتب على نهوضه في وجه المسلمين وحربه معهم من النتائج البعيدة في تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن أحمد الرازى يقول : « وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بأرض جليقية علع خبيث يقال له « بلاى » من وقعة أخذ النصرارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك »^(٥) مما يُفهم منه أن الرازى كان يعتبر « بلاى » منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية في الأندلس من جديد بعد تفرُّق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول في بنائها الجديد ، فقد قوى شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها إلى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون في ذلك قبل ظهور « بلاى » .

ولابن حيان - عميد المؤرخين الأندلسيين - رواية أخرى أدل على شخصية بلاى وقدره

(١) A. HUICI : op. cit. Chronicon Albeldense . I.p. 159.

(٢) A. HUICI : op. cit. Monachi Silensis Chronicon, II,p. 50 .

(٣) A. HUICI : op. cit. Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice I,P.80.

(٤) A. HUICI : op. cit. Chronicon Cerratensis, I,p.90 .

(٥) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

يقول فيها : « أنه في أيامه - أي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي - قام بجليقية عالج خبيث يدعى «بلای» ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سباهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون في ذلك . وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا «الصخرة» التي لاذ بها هذا العليج ، ومات أصحابه جوعاً ، إلى أن بقى في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من غسل النحل يجمعونه في جباخ معهم ، في خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم .. »^(١) مما يفهم منه أن «بلای» كان شهياً شجاعاً ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض همهمهم « ويزكى قرائحهم حتى سباهم إلى طلب الثأر » وهي عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل إن أحداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذي يحدد دور «بلای» كواضع أساس حركة «الاسترداد» وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخانا الأندلسيان الكبيران - الرازي وابن حيان - أصدق نظراً وأصح تقديرًا لبلای من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفصيل بعيدة التصديق عن انتصار بلای على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (Auseva) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الإسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلقى عليه ظلاً من الشك ربما قلل من قيمته .

يقول صاحب «الأخبار المجموعة» بعد أن يشير إلى ظهور بلای في ناحية الصخرة : « .. وغزاه أهل أستورقة زماناً طويلاً ، حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج^(٢) . وقُتل من قتل ، وصار قُلُوبهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة ، حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين » . ويقول بعد

(١) رواه المقرئ في نفع الطيب ، جـ ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) هكذا في الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنيا عن حرف الجر « عن » .

قليل : « وكاد أن يغلب عليهم - أى على المسلمين - العدو ، إلا أن الجوع شملهم » ^(١) .

ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية :

أولاً - أن « بلاى » خرج على المسلمين فى ناحية اشتريس واستقل بها فى ولاية عنيسة بن سحيم الكلبي .

ثانياً - أن جند المسلمين القائم فى أستورقة حاولوا إخضاعه « زماناً طويلاً » دون أن يوفقوا .

ثالثاً - أن حركة الرجل أخذت فى النمو ، حتى إذا وقعت فتنة أبى الخطار ، واشتغل المسلمون بحرية مع يوسف الفهرى والصميل بن حاتم انتهز الرجل الفرصة وضاعف جهده ، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

رابعاً - أن صدى هذه الهزيمة تردد فى نواحي جليقية كلها ، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها إلى النصرانية ، وضعف الخراج تبعاً لذلك .

خامساً - أن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله ، وفرّ الباقي إلى أستورقة ، ليحتموا بالعسكر الإسلامى المقيم هناك .

سادساً - ولم يضيع بلاى الفرصة ، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

سابعاً - وانسحب مسلمو هذه النواحي عن طريقين : طريق الغرب إلى إقليم سرقسطة وطريق الجنوب إلى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « بلاى » وأعمال « أذفوشى الأول » ، وأن عمل بلاى لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب فتح الأندلس : « وقام علقج خبيث من أعيانهم فى أيام عنيسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب ، فنفاهم عنها . فملك ستين ، ثم ملك ابنه فافلة بعده إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفوش بن بيطره جد بنى أذفوش هؤلاء الذين اتصل أمرهم إلى اليوم » ^(٢) . وهى رواية مختصرة فيها خطأ كثير فى نسب بلايه وفى تحديد التواريخ ، ولكنها تقرر أن بلاى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٩ .

كان مستقلاً بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزهم وطردهم عنها .

وللمقرى رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وإن لم يسندها إلى أحد ، وذلك حيث يقول : «قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصرى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علق يقال له «بلاى» من أهل اشترس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحرب بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصرى معه على نائب الحرب بن عبد الرحمن فطردوه ، وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن»^(١).

وهى إشارة هامة تعيننا على تكوين فكرة عن حياة بلاى قبل لجونه إلى الصخرة وقيامه بالثورة على المسلمين ، وهى تحدد هروب بلاى من أيدي المسلمين بسنة ٩٨هـ / ٧١٨م وهو تحديد سيعيننا على ربط أحداث حياته بعضها ببعض .

وقبل أن نستخلص من هذه الروايات كلها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات عن حياة «بلاى» وحركاته ، يجدر بنا أن تناقش التواريخ التى تقدمها لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التى يقدمها إلينا المؤرخون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصرى الذين يتحدثون عنها يختلفون فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، فيجعلها «سبستان» فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر أن قائد البعث الإسلامى المنهزم كان «علقمة» وهو من قواد طارق بن زياد ، فى حين يجعلها صاحب «مدونة البلدة» فى ولاية يوسف الفهرى ، أى بين سنتى ١٢٩-١٣٨هـ / ٧٤٦ و٧٥٦م . أما مؤرخونا الإسلاميون فلا يكادون يتفقون هم الآخرون فيما بينهم ، فابن حيان والرازى يجعلان ثورة «بلاى» أثناء ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣-١٠٧هـ / ٧٢١-٧٢٥م) ، فى حين يجعلها صاحب «الأخبار المجموعة» فى بدء ولاية عقبة بن الحجاج السلولى (١٢٢هـ / ٧٤٣م) ويكفى المقرى بالقول بأن بلاى هرب من قرطبة سنة ٩٩هـ / ٧١٧م ، وأنه كان فى اشترس فى العام التالى (١٠٠هـ / ٧١٨م) ، دون أن يزيد على ذلك شيئاً . أما هزيمة بلاى للعرب فيجعلها صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس فى أثناء ثورة البربر على العرب أى فى أوائل فتنه أبى الخطار والصميل ، أى بعد سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م .

(١) المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

وقد حاول إدواردو سافدرا أن يستخلص من هذه التواريخ المتناقضة رأياً لا بأس من إيراده ، لأنه يمثل الرأى المتبع بين عامة المشتغلين بتاريخ هذه الأحداث من الإسبان المحدثين .

يقول « سافدرا » : إن رواية المقرئ صريحة في أن بلاى هرب إلى صخرته (picos de Europa) في سنة ٧١٧م ، وأنه كان هناك فعلاً في سنة ٧١٨م في ولاية الحربن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازي فيؤكدان أن بلاى قام بثورته في ولاية عنيسة ، أى بين سنتي ٧٢١-٧٢٥م ، وهذا تاريخ معقول ، لأن بلاى لابد أن يكون قد أنفق هذه السنوات في جمع الأنصار والقيام بغارات صغيرة ومناوشات مع المسلمين أقلقته بهم ، ففكروا في إرسال بعث لتأديبه والقضاء على حركته .

وحيث إن سبستيان يذكر أن وقعة « كوفادونجا » كانت في أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمة - الذى تؤيد المراجع العربية وجوده في هذه الأيام - فإن أقرب الفروض إلى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب بلاى في ولاية عنيسة ، وهناك حدثت الوقعة ، وانهمز هذا البعث الإسلامى ، واستشرى أمر بلاى بعد ذلك ، ولكن ظروف المسلمين لم تسمح بإرسال قوة لتأديبه إلا بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أى في ولاية عقبة ، وهذا ما أشارت إليه المراجع الإسلامية من قيام عقبة بن الحجاج بحملة تأديبية تبعت بلاى ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهى تظن أن الرجل وأنصاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم بلاى حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجد له ذكراً إلا سنة ٧٣٧م ، وهو عام وفاته الذى تحدده المراجع النصرانية^(١).

ولنا على هذا الرأى استدراك:

ذلك أن سبستيان السلمنقى لم يحدد تاريخاً لواقعة « كوفادونجا » وإنما ذكر أنها كانت في أوائل أيام الفتح ، فليس هناك ما يدعو إلى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبة بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبة هى أبعد الأيام احتمالاً لوقوع هزيمة إسلامية على يد النصارى في الأندلس ، لأن الرجل كان محارباً لا يمل القتال ، وقد استنفد أيامه في الحروب مع النصارى ، وظل يتبع الثائرين في جليقية حتى خيل إليه أنه قضى على كل أمل لهم في القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الناحية الشمالية الشرقية ودخل

بنبلونة^(١) وما يليها من البلاد شمالاً ، ولو قد هزم له بعث على يد بلاى لما انصرف عنه ولواصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والإسلامية أن بلاى تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الإسلامية صريحة كذلك في أن بلاى طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبى الخطار والصميل أى : بعد سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١ ميلادية .

بيد أن هذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « بلاى » توفي سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهى فى مجموعها لا تستند على دليل واحد يؤيدها فى هذا التحديد . بل إن الفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أى سنة (١٢١هـ / ٧٣١م) أى أثناء ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة بلاى بهذه السنة لم يخل من أن يناقضه مؤرخ مطلع كهذا الملك العالم ، الذى قرأ كل التواريخ التى كُتبت قبله ولم يقر ما أجمعت عليه .

ثم إن ابن خلدون - وقد اعتمد على الرازى وابن حيان فيما كتب من تاريخ ملوك الجلالقة - يجعل وفاة بلاى سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م أى فى نفس السنة التى يؤكد صاحب الأخبار المجموعة أن بلاى هزم المسلمين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازى وابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فإننا أميل إلى الأخذ برأيهم ، ومتابعهم فى القول بأن واقعة كوفادونجا وقعت سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م أثناء فتنة أبى الخطار والصميل ، وأن « بلاى » لابد أن يكون قد توفي بعد ذلك بقليل ، فى أواخر ٧٥١م على الأرجح^(٢) .

وقد لاحظ دوزى أن التواريخ التى تحددها المدونات اللاتينية لأحداث هذه الفترة

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذى فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وعمت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » ، فإنه لجأ إليها ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيّقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فئت أزودتهم ، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجذونه فى خروق الصخرة ، وأعصى المسلمين أمرهم فتركهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها وأجمل طريقة وأعد لها إلى أن غزا أرض إفرنجة ... » - البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، وليس فى هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتلال انكسار أى بعث إسلامى .

(٢) تذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوفادونجا وقعت سنة ٧٥٦م أى : أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل وبوسف الفهرى ، وقد أخذ بروايتها ماسديو ، فذهب إلى أن الواقعة حدثت فى تلك السنة .

لا يمكن تأييدها ، وفُضِّل عليها روايتي الرازي وابن حيان ، ولم يرض كذلك عن التواريخ التي قدمها ابن خلدون ، وختم كلامه عن موضوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله : « إنه لمن العسير جداً - إن لم يكن من المحال - أن نحل إشكالاً من هذا النوع ، إذ يتقصنا الخيط الذي يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة »^(١).

وهو على حق ، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غالبية المراجع النصرانية من جعل وقعة كوفادونجا سنة ٧١٨م وجعل وفاة بلاى سنة ٧٣٧م ولا يذكر لنا مؤرخونا الإسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبيين لها . ثم إن منطق الحوادث لا يستقيم إذا نحن فرضنا أن بلاى هزم المسلمين على أيام عنبسة أو على أيام عقبة : فلو قلنا إن الهزيمة وقعت في أيام عنبسة لضاعت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد أشتريس ، لأن عقبة أتى بعد ذلك وغزاها حتى ألجأ بلاى إلى « الصخرة » ولم يبق له إلا على عدد قليل من الأنصار ، أى أن « كوفادونجا » لم تكن الوقعة الفاصلة التي ردت المسلمين عن تعقب النصارى ، بل عادوا إليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبل ، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم ، لأن عقبة اضطر إلى مغادرة الأندلس إلى إفريقية ، كما يقول باليستر^(٢) ، فلا يكون والحالة هذه لكوفادونجا ولا لبلاى فضل في ارتدادهم أو في ميلاد أشتريس ، ولا تكون « كوفادونجا » والحالة هذه إلا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها إلى الظفر .

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الإسلامية تُجمع على أن انتصار بلاى على المسلمين كان حاسماً ، وأنه أعقبه إخراجهم من جليقية ، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة ، وفي أوائل فتنة أبى الخطار وثوبة بن سلامة العاملى أى في سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م أو فيما بعدها ، ولا محيص لنا في هذه الحالة من جعل وفاة بلاى بعد ذلك بقليل في نفس السنة ، تمشياً مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته .

فإذا انتهينا من تقرير أحداث حياة « بلاى » وتحديد تواريخها ، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال مستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الإسلامية والنصرانية.

DOZY, Recherches, I, p.96 .

(١)

BALLESTEROS, Historia ..., II, p. 181.

(٢)

وهو خطأ : لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة ، وقد تبعت مرجعه الذي أشار إليه ، وهو الأخبار المجموعة ، فلم أجد فيه ذكراً لهذا ، لا في الأصل ولا في الترجمة الإسبانية ولا في التعليقات عليها : الأصل العربى : ص ٢٨ ، الترجمة الإسبانية : ص ٣٨ - ٣٩ .

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر - الملك العالم - من أن « بلاى » كان ابناً لفافيلادوق كنتبرية ، وأن فافيلاد (Fafila) هذا كان قد استقر في توده (Tuy=Tude) - عاصمة كنتبرية في ذلك الحين - بعيداً عن البلاط القوطى في طليطلة ، لأن نزاعاً قام بينه وبين الملك « اجيكا » (Egica) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطشة ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، إما لأن غيطشة طمع في زوج فافلة (أم بلاى) أو لسبب آخر ، والمهم هو أن النزاع ثار بين الرجلين ، وفتر فافلة مرة أخرى إلى كنتبرية حيث مات هناك مخلفاً ابنه « بلاى » .

فلما وثب لذريق بغيطشة وآله ، انضم إليه « بلاى » وأعانه على إدراك العرش ، فكافأه على ذلك بأن جعله « حامل سيفه » (spatarius) واستمر « بلاى » على هذا حتى فتح العرب الأندلس ، فكان ممن وقعوا في أيديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم في قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبد الرحمن بن يوسف الثقفى ، عامل الأندلس بين سنتي ٩٧ و ١٠٠ هـ / ٧١٧-٧١٩ م. أمكنت بلاى الفرصة ، ففر من قرطبة ، وتشرّد في نواحي شمالى الأندلس فترة من الزمن ، وتنقل في أشتريس حتى استقر به المقام في بلدة « كانجادى أونيس » ، وهناك التف حوله نفر من القوط المهاريين من المسلمين ونفر من الإيبيريين الرومان المقيمين في هذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهضهمهم ، وجمعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحي أشتريس القائد البربرى « مونوسة » ، ف وقعت بينه وبين بلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألبأه إلى التحصن « بالصخرة » في عدد قليل جداً من أنصاره ، ولو ظل مونوسة مكانه لقضى على بلاى في ذلك الحين ولكن نزاعاً وقع بينه - أى بين مونوسة - وعبد الرحمن الغافقى ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربرى « ابن زيان » سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م.

وخلا الجو أمام « بلاى » بذلك ، فتشجع وخرج من « الصخرة » وأخذ في التوسع حتى استولى على خيخون التى كان « مونوسة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على إقليمى أشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكه ، وأخذ ينازع من جاوره من الأدواق ، حتى شمل سلطانه جزءاً من جليقية وناحتى أشتريس وكنتبرية .

فلما ولى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦ - ١٢٣ هـ / ٧٣٤ - ٧٤١ م) تجرد

للقضاء على هذه الدولة التي قامت في وجه المسلمين في شمالى الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب بلاى ويقتطع أراضيه جزءاً جزءاً حتى رده إلى « الصخرة » كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالى أشتريس في الإسلام ، وكادت الدولة الناشئة أن تنهار وينتهى أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمينين والقيسين في الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية بعقبة وانتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس بلاى ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة ويتشرون فيها والاهما من نواحي أشتريس .

ووقعت في أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر في نواحي شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبة قد خلف على أشتريس علقمة اللخمى ومعه قوة من الجند تقيم في استورقة (Astorga=Asturicum) أو في ليون (Leon=Legio) فهال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم بلاى وأصحابه في أرض المسلمين ، فنهضوا إليهم في قوة يسيرة ، وتوغلوا في بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن بلاى منهم في جبل أوسبة (Auseva) واحتفى نفر من أنجاد جنده في مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجه » (Covadunga = Cova de Onga) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود إلى المغارة هبط عليهم بلاى وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارتن المسلمون مسرعين نحو استورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب في نواحي اشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليابانا Liebana حيث هلكوا ، إما على يد الجلالقة أو لسبب آخر . وتشجع بلاى وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان ، وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبى الخطار والصميل ، فاطمأن بلاى وأصحابه ، وقوى مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٩- أهمية كوفادونجا هذه هي خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « بلاى » ومعركة « كوفادونجا » . وواضح جداً أن هذه المعركة لم تكن في واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق بلاى وأصحابه في الشجاعة والنجدة ، أو من تدخل قوى علوية خفت لنجدة النصارى في اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون إلى مهاجمة هذه النواحي الشمالية القاصية إلا في أيام المنصور بن أبى عامر ، فظلت منذ يوم « كوفادونجا » مهداً لدولة اشتريس الناشئة ، فثبتت

قواعدها و درست أصولها على نحو لم يستطع المسلمون معه إزالتها بعد ذلك أبداً ، أى أن هذه الواقعة كانت إيداناً بميلاد اشتريس وبدءاً حاسماً لحركة المقاومة النصرانية فى شبه الجزيرة ، وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الإيبانى .

وربما بدا لنا أن التواريخ الإيبانية تبالغ فى تعظيم هذه الواقعة ، وربما كان مرد هذه المبالغة إلى « بلاى » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على بلاى وأصحابه ، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية فى مثل هذه المبالغة ، لأن هذه المناوشات ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى فى نواحي اشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التى اختارت العيش فى هذه الناحية القاصية الفاحلة - مستقلة عن سلطان المسلمين - على العيش فى ظلالهم ، قد وضعت أساس الدولة الإيبانية النصرانية التى سيتاح لها أن تناوى المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة إخراجهم من البلاد .

والتاريخ الصحيح يعتبر «كوفادونجا» ميلاداً لهذه الحركة التى تستصل حلقات تاريخ إيبانيا النصرانية وتعيد البلاد إلى النصرانية وإلى ميدان الحضارة الغربية من جديد . وليس إلى الشك سبيل فى أن حركة بلاى تعد حادثاً رئيسياً فى تاريخ إيبانيا كله ، لأن العبرة فى أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة ، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخى الذى يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن - كما يقول المؤرخ باليستروس - بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعّم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربية على وجه الدقة ، ثم إن هذا ليس هو الأساس ولا المهم ، فسواء أوجد فى هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين ، وساء أكانت وقعت فى هذا المكان بعينه أو فى مواقع أخرى ، فإن الأمر المهم هو أن بعثاً إسلامياً - ربما كان صغيراً - أراد أن يقضى على مركز حركة ثورية ، وحاول الوصول إلى الموضع الذى اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين ، ففشل فى إدراك ما طلب بسبب النخوة والشجاعة التى أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليائس منافحين عما بأيديهم ، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون فى ذلك الحين ، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية . وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتملين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكاليف » .

« ثم إن ازدياد الإجلال لكوفادونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر إلى هذه البقعة من الجبل التي أشرنا إليها بالذات ، ليدلان على أنه قد وقع فيها محيط بها ويقاربها حادث باقى الأثر من حوادث الصراع الذى أراد خلفاء من حضروه وشهدوه أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين أيدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول - بأى حال - أن الموقعة كانت من الكبرياء يتفق مع هذه المعانى التى ذكرناها ، وليس معنا ذلك أن الكارثة التى نزلت بالعدو كانت بالشدة التى يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحاسهم أكثر مما ينبغى ، وإنما معنا أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للموقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر فى بناء ضخم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفشل اللذان أصابا القوة الحربية الإسلامية عوامل أفهمت النصارى أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبراً فى نظرهم رمزاً وهدفاً وغاية بعيدة عالية ، أى أنه إنما كان فى الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الإسلامى . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر»^(١).

وأما من وجهة النظر الإسلامية فهذه الحادثة فى ذاتها لم تكن تعنى شيئاً لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد فى قيمتها وأهميتها ، فلو لم يختلف المسلمون على أنفسهم وينقسموا شيعاً لما كان لكوفادونجا ولا لبلاى نفسه أهمية كبرى ، فإن انهزام الجيوش الإسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش فى إفريقية مثلاً عشرات المرات ، وكانت الهزائم فى بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما فى هذه المرة فقد عجز المسلمون عن إخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تختف من التاريخ بعد ذلك أبداً ، فأصبحت لهذا حادثاً حاسماً له خطره فى تاريخ إسبانيا الإسلامية .

والثابت على أى حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصى من جليقية دون فتح لأنهم هُزموا أمام بلاى أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من اللاتين ، بل لأنهم انصرفوا عنها إلى التافه من منازعات الجنس والعصبية ، فأضعفوا أنفسهم من جهة .

وأعطوا رجال الحركة فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ليثبتوا أقدامهم ولتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين إلى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى.

ومن الواضح جداً أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأ في شبه الجزيرة وضعاً جديداً سيكون محوراً من محاور التاريخ الأندلسي كله وهو: أن إسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً إسلامياً خالصاً ، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلاً من هاتين الدولتين ستسير في طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سيتهى بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والإسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الإسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلای : « ... وما زالوا ممتنعين بوعرها - أي بوعر الصخرة - إلى أن أعىى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجاً ! ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء إلى ما لا يخفاء به . وملك بعده - أي بعد بلای - أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة ... »^(١) . وهذا ابن سعيد يقول : « قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها المدن العظيمة ، حتى أن حاضرة قرطبة في يدهم الآن ، جبرها الله ، وهي كانت سرير السلطنة لعنسة »^(٢) .

وينبغي كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانباً عظيماً من قيمتها من طبيعة هذه الطوائف القوطية والإيبيرية الرومانية التي اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهي لم تقنع بالسلامة من أيدي المسلمين ، وإنما عولت على الاستمرار في مناجزتهم ، ومضت في ذلك بصبر وجلّد يستوفقان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذي كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يحاربون ويمالدون ، لا يتركون غرة من العرب إلا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يُخشى بأسها .

فإذا صح هذا استبان لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلای في التاريخ الإسباني عامة ،

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

فهو واضع أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بنى أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهياً موزعاً بين القصاص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصرارى المتفرقين وقيادتهم فى حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفى هذا كفاية ، فلا معنى إذن لإنكار وجوده كما فعل بعض المسرفين فى الشك من المؤرخين^(١) ولا معنى للإصرار على أنه ينحدر عن صلب البيت الحاكم القوطى القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما إلى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشئ الأسرة الأشتورية رجلاً عادياً من العوام ، رجلاً بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أى حال بخصال ممتازة أهله للرياسة . وسواء أكان قوطياً أم إيبيرياً رومانياً ، فقد استطاع أن يضع نفسه على رأس المغلوبين فى لحظات الخطر المحيى ، وحاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليستروس^(٢) ، فذلك لا يغير من الواقع شيئاً ، لأنه يبقى لبلاى بعد ذلك فضل إقامة دولة للنصرانية فى الشمال وتعزيزها أمام الفتح الإسلامى الجارف ، وفضل تكوين هذه النواة التى تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الإيبانى إلى الأمام حينما عجز المسلمون عن الاستمرار فى القيادة بعد انهيار دولة الخلافة الأموية وفشل كل المحاولات الجلييلة التى قام المسلمون بها لجمع الكلمة وإعادة سيادة الإسلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخى الإيبان المحدثين إجماع على إقرار ما تذهب إليه الروايات النصرانية من انحدار بلاى عن صلب قوطى - ملكى أو غير ملكى - بل منهم من يذهب إلى أنه من أهل أشتريس الأصلاء ، أى كلتى أو إيبيرى رومانى ، وأن اسمه الأصلى ليس بلاجيوس (Pelagius) كما تورده المدونات النصرانية بل بلايو (Pelayo) بدليل وجود ألفاظ كثيرة فى اللغة الأشتورية تنتهى بالياء والواو (yo) منها أسماء أعلام مثل (Volcayo) و (Poyayo) و (Olayo) و (Ubayo) وألفاظ مثل (orvayo) و (carbayo) و (bor-gayo)^(٣) و (argayo)^(٣) .

(١) مثل MASDEU, MAYANS (يقرر وجوده ولكنه يشك فى نسبة الكثير من أعماله إليه) SARMIENTO و NOGUERA و CASIRI و PELLICER

cf : BALLESTEROS : op. cit. p. 194 .

BALLESTEROS : op. cit. p. II, 174 .

RICARDO BURGUETE : Rectificaciones historicas , p. 284.

(٢)

(٣)

بل من علماء الإسبان من يقرر أن أصل بلاى من ناحية ليبانا بالذات^(١) ، ومراجعتنا العربية تؤيد هذا الرأي ، وهى أقدم من المراجع النصرانية ، فهى تسميه بلاى وهى تسمية أقرب إلى بلايو منها إلى بلاجيوس ، ثم إن أوثق مؤرخينا الإسلاميين يؤكدون أن الرجل كان جليقياً على ما سبق ذكره .

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (Can- (Cangas de Onis) (icas) الإسبانية ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديو سا (Gaudiosa) ، وخلفه ابنه فافلة (Fafila) على ما تُجمع عليه المراجع النصرانية (يؤيدها في ذلك ابن خلدون) ، ولم يكن على شيء من خصال أبيه ، وإنما كان مولعاً بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكد يفعل خلاهما شيئاً ذا بال كما يقول سباستيان السلمنقى^(٢) ، ويجعل المؤرخون وفاته في سنة ٧٣٩م ، وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفى سنة ٧٥٢م أى : قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليا (Frole- (Froiliuba) أو (ba) في كنيسة سانتا كروث في كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذى كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاى على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل إنه مات حتف أنفه إثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده^(٣) ومن قائل إن اليمينين انتهزوا فرصة ثورة بربر إفريقيا على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن مكانه^(٤) ، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة في « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتاحت له فرصة أطول لترك أثراً بعيداً في تاريخ الغرب الإسلامى .

وكان من سوء طالع الدولة الإسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت إلى عبد الملك ابن قطن من بعده ، إذ أن عبد الملك كان يمينياً شديد العصية قليل السياسة فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية في الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشاميين إلى الأندلس واحتدام الخصومة بين هؤلاء الشاميين ومن كان في الأندلس من

BALLESTEROS : op. cit.p. 182 .

cf:jios AMQZA GARCIA SALA : Gijon en La Historia general de Asturias II pp. 445 - (٢) 499.

(٣) ابن القطان ، في البيان المغرب لابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٤) الرازى في نفع الطب للمعمرى ، ج ٢ ص ١١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل الأندلس الإسلامية شعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفنيت من البربر جماعات ، وعادت جماعات أخرى منهم إلى مواطنها الأولى في إفريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود أشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهري المنهو ودويره من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حازجة بين الدولة النصرانية في أقصى الشمال والدولة الإسلامية التي أصبحت تُحد من الشمال بخط يبدأ من إفراغه على ساحل المحيط الأطلسي ويمتد إلى قورية فظليطة ، ثم يصعد حتى لارده في ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص إلا قدوم عبد الرحمن الداخل وإقامته صرح الدولة الأموية في سنة ١٣٤ هـ / ٧٥٦ م .

١٤٠- أدفونش وكان من حظ الإمارة النصرانية الناشئة في نواحي جليقية أن صارت قيادتها ابن بطرزه بعد فافيلاً إلى زعيم قوى نشيط هو أدفونش (ألفونسو) الملقب بالأول . ولم (ألفونسو الأول) يكن من بيت بلای ، وإنما كان ابناً لبطره (Pedro) دوق كنتبرية ، وكان أدفونش قد تزوج بتاً لبلايو تسمى ارمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافله ، مما يُفهم منه أن فافله بن بلای مضى صغيراً دون أن يخلف عقباً^(١) .

تولى أدفونش بن بطره دوق كنتبرية شئون إمارة بلايه الصغيرة فأضاف إليها دوقية كنتبرية ، فاتسعت حدودها اتساعاً طيباً مكّنها من الخروج من صخرتها القاحلة التي كانت حروب عقبة بن الحجاج السلولى قد ألجأتها إليها .

ويُجمع المؤرخون على أن أدفونش الأول كان زعيماً واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد انزاح عن الإمارة النصرانية خطر المسلمين إلى حين ، وشغلته عنها حروبهم سنوات طوالاً ، فعجل أدفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يخلف العرش إلا وهذه الإمارة النصرانية الصغيرة دويلة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكنها من الحياة والاستمرار في التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الإسبان حكومة أدفونش الأول الميلاد الحقيقي لإسبانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين في أعمال بطره كما اختلفت في بلای وأعماله ، فذهب هر كولانو إلى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات^(٢) ، وذهب سامودا إلى

BALLESTEROS : op.cit.II. p. 184

(١)

ALEJANDRO HERCULANO : Historia de portugal (Lisboa, 1863 IV).

(٢)

أنه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجاً فى ذلك^(١) ، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب فى هذه الأعصر ، وربما حرّكته إلى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجئ لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى فى تفصيل حروبه وفتوحه التى قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ^(٢) .

١٤١- المسلمون لم يكذبوا أذفونش يستقر فى الإمارة ويوطد أمورها بعد اتساعها الجديد حتى
يخلون الركن وجد البربر الذين كانوا يحتلون نواحي أشتريس وكنتبرية وجليقية وعمامة
الشمالى الغربى النواحي التى يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب »^(٣)
شبه الجزيرة يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون إلى الجنوب ، ووجد أن الهجرة
لا تقتصر على البربر بل تشمل العرب كذلك ، فقد انجفل الذين كانوا يقيمون منهم فى هذه
النواحي القاصية إلى نواحي وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا فى الفتنة
التى وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمين - ما بين عرب وبربر - من هذه النواحي
حادثاً خطيراً يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « فقصى أن بربر الأندلس لما بلغهم
ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية
وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائين التى خلف الدروب ، فلم يرغ ابن قطن إلا
فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب
سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر ، فأخرج إليهم عبد
الملك (بن قطن) جيوشاً فهزموها وقتلوا العرب فى الآفاق »^(٤) . وبهذا لم تبق منهم فى هذه
الناحية بقية ، ولم يعد العرب إلى الاستقرار فى « المدائين التى خلف الدروب » بعد ذلك ،

SAMOZA, op. cit. p.431-504 .

(١)

MASDEU, op. cit. XII pp. 60 sqq .

(٢)

(٣) الدروب هى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط إلى النواحي الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال وأهمها دويان : درب شرقى من طليطلة إلى وادى الحجارة إلى حوض إير ، ثم يسير بمحاذاة ماراً بقلهرة ونخره حتى بنبلونة Pampelona ومن ثم يقضى إلى إلبه Alava والقلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربى يبدأ من الجوف El Al-garve ويسير إلى ماردة Merida وقورية Coria ثم طليطلة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمقة Sala-manca وسمورة Zamora فجليقية .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

وكان ذلك آخر عهدهم بها : زالت آثارهم منها على الرغم مما بذلوا من جهد في فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القوط أو الإيبيريين الرومانيين بل على يد البربر شركائهم في الدين وحلفائهم في هذا الفتح الكبير .

١٤٢- هجرة وليت البربر حينما فعلوا ذلك استقروا في مواضع العرب وأقاموا يعمرون أعداد كبيرة من هذه النواحي ، بل اتجهت همتهم إلى التجمع في جيوش والسير إلى الجنوب البربر إلى إفريقية للقضاء على العرب جملة ، فتخرج مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمنيين وسيد الأندلس إذ ذاك بدأ من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانوا محصورين في سبتة لكي يخلصوهم من البربر (١٢٣هـ / ٧٤١م) فعبروا ونازلوا البربر وانتصروا عليهم في مواقع حاسمة عند شذونة وعلى مقربة من قرطبة وعلى وادي سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤هـ / منتصف ٧٤١م) وقتلوا منهم أعداداً عظيمة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعقبوهم بالأذى والقتل في نواحي الأندلس كلها « فلم ينبج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرّقوا الجيش في الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم »^(١).

١٤٣- المجاعة ولما كان البربر هم غالبية من استقر في نواحي الشمال الغربي للأندلس تجتاح شبه الجزيرة وريفها من المسلمين ، فقد بدأت هذه الأرياف والمزارع تخلو من العنصر الإسلامي ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن في الحقول ، فأخذت المحاصيل تقل من منتصف سنة ١٢٤هـ (٧٤١م) ، وتوالى ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التي أشرنا إليها ، انضافت مساءاتها إلى مساءات الحروب والمنازعات فقلّ العمار في النواحي وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا بريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة^(٢) . وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التي أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطاً بالغاً خيف منه على مصير الإسلام في البلاد جملة .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

١٤٤- إخراج المسلمين من ذلك ، فعجلوا بانتهازها ، وتشجع من كان في طاعة المسلمين من أهل جليقية وما يجاورها النواحي الشمالية من الإيبيريين الرومان فوثبوا بالعرب في نواحي جليقية وما يصاحبها ، ويشير إلى ذلك صاحب الأخبار المجموعة إشارة فيها خطأ في تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويراً حسناً بقوله : « وغلظ أمر علع يقال له بلاى قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) واسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشتريس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوبة ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذهب في دينه وضعف عن الخراج ، وقُتل من قُتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة حتى استحکم الجوع ، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة ، وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين (٧٥٤م) . واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فخفف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم^(١) . مما يفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالاً كاملاً ، فلم يدعوا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين إلا ابتدروها ، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم في المسلمين أشد وأبعد مدى .

١٤٥- حدود دولة الإسلام أذفونش بن بطره ، وهى لا تذكر أنه وجد هذه النواحي خالية أو شبه خالية تراجع إلى نهر دويره فدخلها ، وإنما تذكر أنه فتحها على المسلمين بحد السيف وانتزعها من أيديهم ، وهذا خطأ كما رأينا . وفي نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله « فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها » لأن « غيرها » هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل افراغه Praga وبورتو Oporto وفيزيو Visiu والنواحي المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويره Duero^(٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦١-٦٢ .

DOZY. Recherches I. p. 121.

(٢)

BALLESTEROS : Historia II.p. 185 .

أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية إلى حوض ابره وإقليم سرقسطة الذى لم تنله المجاعة لخصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيراً عند قورية وماردة في الغرب خلفين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيانقاس Simancas وشقوية Segovia وأبله Avila وأوكا Oca وأوسما Osma وميراندا^(١) ، وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الإسلامية بعد العناء والنصب وفقدتها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمياء لا معنى لها .

وأصبحت حدود الأندلس الإسلامية الشمالية قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة في أقصى الشمال الشرقى ثم تنحدر إلى تظيلة على الابره ومنها إلى وادى الحجارة إلى الشمال من تظيلة بين حوض الابره والتاجه ، ثم تظيلة وطلبيرة في حوض التاجه ، ثم قورية وتنتهى الحدود عند قلمرية على ساحل المحيط الأخضر . أى أن الأندلس الإسلامية فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) .

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الإسلاميين لا يؤيدون دوزى في هذا الرأى الذى انتهى إليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحي دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهى واضحة الدلالة . وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحي بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم في هذه النواحي ، وقد بقيت خلف هؤلاء جماعات من المسلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا في منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقوى عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا

DOZY: op.cit.p.123 .

(١)

وقد جعل المقرئ فتح بعض هذه النواحي في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفي عهد فرويلة الثانى ابن أذفونش بن بطرة ، وقال : « وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره ، قوى أمر الجلائقة واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة ابن أذفونش ملكهم إلى تغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لكه وبرتقال وسموره وشلمنقة وقشتالة وشقوية ، وصارت الجلائقة حتى افتتحها المنصور بن أبى عامر آخر الدولة ... » نفع الطيب ، ج١ ، ص ٢١٧ . ولكن إجماع المؤرخين متباعد على أن هذه المدائن سقطت في أيدي النصارى في أيام أذفونش .

BALLESTEROS : op.cit . II. p. 185 .

انظر :

قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية في بعض النواحي القاصية ، وتكاثر فيها وتركت أسماءها على بعض المواضع في أقصى نواحي جليقية وأشتريس .

١٤٦- ما بين نهري المنهو والدويره منطقة فراغ
وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بالفعل إلا على النواحي المحيطة بأشتريس أي ناحية لِيَانَا وبردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوضي المنهو والتاجه فكانت في ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين إسبانيا الإسلامية في الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية في أقصى الشمال^(١).

وتؤيدنا المراجع النصرانية في هذا القول لأنها لا تقول أن أذفونش استقر في هذه البلاد الكثيرة التي تعددها ، وإنما تكتفي بالقول بأنه خرجها وأقر أريافها (Eremavit cam pos)^(٢).

تذهب التواريخ الإسبانية إلى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩م إلى ٧٥٧م^(٣)، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم إلا ثمانى عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥هـ إلى ١٤٢هـ / ٧٥٢-٧٦٠م وهو خطأ ظاهر في الحساب ، والغالب أنه أراد أن يقول ثمانى سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبعاً للحساب الذى قدمناه . وتوفى في أوائل حكم عبد الرحمن الداخل ، فكانها أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين في هذا القطر الواسع برجل يعيد إليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول^(٤).

BALLESTEROS : op. cit . p. 185 .

(١)

MANUEL RISCO : Espana Sagrada, XXXVII.p.93.

(٢)

DOZY : Recherches, I.p.95 .

(٣)

(٤) انظر نص ابن خلدون الذى أورده دوزى ذيلاً لأبحاثه :

DOZY, op . cit . appendice III p. XII.

وإليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردها المدونات اللاتينية مقارنة بما أورده ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

ابن خلدون	المدونات اللاتينية	=
١١٤-١١٣هـ / ٧٣١-٧٥١م	Pelayo ٧١٨-٧٣٧م	بلاى
١٣٣-١٣٥هـ / ٧٥١-٧٥٣م	Fafila ٧٣٧-٧٣٩م	فافلة
١٣٥-١٤٢هـ / ٧٥٣-٧٦٠م	Alfonso I ٧٣٩-٧٥٧م	أذفونش بن يطرة
١٤٢-١٥٢هـ / ٧٦٠-٧٦٩م	Froila ٧٥٧-٧٦٨م	فرويلة بن أذفونش
١٥٢-١٥٨هـ / ٧٦٩-٧٧٥م	Aurelio ٧٦٨-٧٧٤م	أورال بن فرويلة
١٥٨-١٦٨هـ / ٧٧٥-٧٨٥م	Silon ٧٧٤-٧٨٣م	شيلون
١٦٨-١٧٥هـ / ٧٨٥-٧٩٢م	Mauregatos ٧٨٣-٧٨٩م	مورقاط

١٤٧-آراء وقد اختلفت أحكام المؤرخين الإسبان على أذفونش الأول ، فمن قائل إنه لم يكن إلا رئيس عصابات يفجأ بها الأماكن الآمنة العامرة ويخربها ، ومن قائل إنه لم يكن يرمى من وراء هذا الجهد كله إلا إلى السلب والنهب ، ومن قائل إنه كان يسعى واعياً إلى استرجاع إسبانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جاوره طمعاً في الغنائم التي لم يكن يستطيع تسير أموره في دولته بدونها ، وطمعاً في توسيع رقعة مملكته الصغيرة .

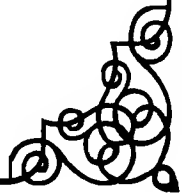
أما القول بأنه كان يسعى لاسترجاع البلاد من المسلمين فمبالغة في التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كان يغاور جيرانه النصاري ويُنزل بهم من البلاء أشد مما أنزل بالمسلمين ، ثم إنه - آخر الأمر - لم يلق المسلمين في موقعة واحدة ولم يفكر في السير إلى نواحيهم ، وإنما اقتصرته جهوده على النواحي الخالية التي لم يكن ليتوقع فيها مقاومة . ثم إنه لم يحتل من البلاد التي خلت من أهلها المسلمين إلا ما ذكرنا من نواحي أشتريس وليبانا وبردوليا ، أما الباقي فقد قام بإخراج بقية المسلمين منه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان ، بعد أن أخرج المسلمون أنفسهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصاري في الشمال في عصره من طور إلى طور : اتسعت حدودها واطمأنت أمورها وابتعد عنها الخطر الإسلامي ، فأتيحت لها الفرصة للتكؤن والسير نحو القوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعد أن كانت قد قاربت الزوال خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولى ، قبيل الثورة البربرية المشؤمة .

إلى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصرانية الشمالية خلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسى العام في شبه الجزيرة الإيبيرية في مطالع الإمارة الأموية الأندلسية على يد صقر قریش .



المَجْتَمَعُ الأَنْدَلُسِيُّ
(١) العَرَبُ وَالْبَرْبَرُ وَالْمَوَالِي



دامت فترة الولاة ستة وأربعين عاماً هجرياً ، تبدأ من رجب سنة ٩٢هـ (إبريل - مايو ٧١١م) وتنتهى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦م) وهو اليوم الذى أعلنت فيه إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل على الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون إلى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها فى تاريخ الأندلس الإسلامى ، بل نظر إليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة أنفقتها العرب فى منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته . ولعلنا رأينا فيها مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر إليها هذا النظر السطحي ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سنلاحظ أثره فى كل دور من أدوار تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك .

فقد قام المسلمون خلال هذه الفترة بأعظم جهود حرية قاموا بها فيها وراء البرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت فى أثنائها أسس النظم الإدارية والمالية التى ستجرى الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر فى أواخر سنة ٣١٦هـ (أوائل سنة ٩٢٩م) ، وفى خلالها أيضاً ولدت الولايات النصرانية الإسبانية فى شمالى غربى الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا هذه الظواهر كلاً على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقي أن نلقى نظرة عامة على الفترة كلها ، لنكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الإسلامى فى فجر تاريخه .

أ - العرب

دخل العرب الأندلس على هيئة تيار متصل لم تسجل المراجع من موجاته ١٤٨ - طالعة موسى إلا عدداً قليلاً تسميه « الطوابع » جمع طالعة ، وهى الجماعة من العرب الذين دخلوا الأندلس . وأول هذه الطوابع طالعة موسى^(١) ، لأن الجيش الذى أقبل مع طارق لم

(١) المقرئ: نفح ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

يكن يضم إلا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق . كانت طالعة موسى تضم نحو اثني عشر ألفاً من العرب ، معظمهم من القيسية واليمنية وموالى بنى أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين إلى موسى بن نصير ، وقد كانوا في حكم العرب رغم أصلهم البربري .

وقد استقرت هذه الطوائف في كل ناحية على طول الطريق الذي سار فيه موسى ، أي في نواحي الجزيرة الخضراء وإشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة في أقصى الشمال والشمال الغربي ، فيما تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمنيين استقروا في ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم في قرطبة وحواليها وفي إقليم إشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة في هذه الطالعة استقر معظمهم في نواحي الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف الثقفي إلى الأندلس في ذي الحجة سنة ٩٧هـ (أغسطس سنة ٧١٦م) استصحب معه أربعمئة من « وجوه أهل إفريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوابع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمنيين ، فإننا نستطيع أن نقول إن معظم هذه الطالعة كانوا من اليمنيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزره فقد أقاموا في قرطبة وما حوالها (١) .

وأهم هذه الطوابع - بعد طالعة موسى - هي طالعة بلج بن بشر القيسي في ١٤٩-طالعة بلج ذي القعدة سنة ١٢٣هـ (يناير سنة ٧٤١م) الذين نجوا من مذبحة العرب في موقعة الأشراف ، ولجأوا إلى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا إلى الأندلس في ولاية عبد الملك ابن قطن الفهري الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

ولما كان أهل الطوابع السابقة على طالعة بلج قد استقروا في البلاد وتقسما ١٥٠-البلديون خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل إليهم مثل هذا العدد العظيم من الشأميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يغلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة على البلاد .

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٣ .

١٥١- الشاميون ومن تاريخ نزول بلج وجماعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية في الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التي كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة بنازعة العصبية القبلية ، وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكنها من القضاء على ثورة البربر في زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين وبدأ الصراع المحزن بين جذمى العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتي بلج وثعلبة بن سلامة العاملي (ذو القعدة ١٢٣هـ / يناير ٧٤١م إلى رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) لأن بلجاً وثعلبة كانا من أعنف القيسيين .

انتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس إذ ذاك - عبد الملك بن قطن - حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يمينياً صرفاً بل كان فهيرياً يتنسب إلى مضر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين - ومعظمهم يمنيون - فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة في كل ناحية يقودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي «صاحب أربونة» أى حاكم الثغر الأعلى (إقليم سرقسطة وما يليه شمالاً حتى أربونة) وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن في ناحية ماردة .

» وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى»^(١) ، وانضمت إليهم جماعة قليلة من اليمنيين كانت في جيش بلج يتزعمها عبد الرحمن ابن حبيب رأس العرب البلديين في إفريقية فيما بعد ، ونهضت هذه الجماعة كلها لتحارب القيسيين الدخلاء لتستعيد منهم الزعامة ولتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢- النزاع بين البلديين والشاميين وقد احتدم الصراع بين العرب في شبه الجزيرة ، وينبغي أن ننبه إلى أمر هام ، هو أن ما تلا ذلك من أدوار الصراع بين العرب لم يكن في حقيقة الأمر صراعاً خالصاً بين كلب وقيس بقدر ما كان صراعاً بين عرب الأندلس القدماء (البلديين) والعرب الدخلاء الذين أخذوا يُعرفون من ذلك الحين بالشاميين ، وهى تسمية دقيقة تدلنا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين ، بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشاميين بل صراعاً بين حزبين

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثانى من الكلبيّة ، وتنضم إلى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحها الخاصة إلى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هذين الحزبين الكبيرين أقصاه في شوال سنة ١٢٤ هـ / أغسطس سنة ٧٤٢ م ، حينما التقى رجالهما في موقعة أقوة برطورة التي انتصر الشّاميون فيها انتصاراً حاسماً وصارت إليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين إلى قيام الدولة الأموية ، ولم يرفع البلديون رأسهم من جديد إلا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشرة سنة . ولما كانت غالبية الشّاميين قيسية ، فإن هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

ولم ير الأندلس فترة هي أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة الكبرى التي تعرض ١٥٣ - سيادة الشّاميين على الأندلس وأثرها
أمر الإسلام خلالها للضياع مدى إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، لأن الشّاميين أوقدوا البلد ناراً ونشروا بين أهلها روحاً من التقلقل والاضطراب لا سبب لها في الواقع إلا ما جُبل عليه القيسيون من ميل إلى الفوضى واستهانة بالدماء وإسراف في الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال ١٢٤ هـ / أغسطس ٧٤٢ م) ، فقد كان قيسياً جافياً غليظاً لا تكاد تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التي أقامها عند « المصاراة » لبيع أعدائه من العرب المغلوبين في موقعة أقوة برطورة ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : « ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل إنه صاح على ابن الحسن - رجل كان بالأندلس من أهل المدينة - وعلى الحرث بن أسد - من جهينة من أهل المدينة - فقال : من يخسر على هذين الشيخين ؟ ! فقال قائل : أحدهما عندى بعشرة دنائير ! فقال الصائح : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود .. » (١) .

ولم يتخذ البلديين - واليمنيين خاصة - إلا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والياً من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا إليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار في

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

اللحظة المناسبة ، وأنقذ اليمينين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعاً ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العافية ^(١) .

١٥٤- تفريق الشامية في النواحي اليمينية ولا من القيسية ، فاستشار أربطاس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلاً عاقلاً مجرباً كما سيجىء ، فأشار عليه بتفريق الشاميين في النواحي ، لأن بقاءهم إلى جواره في العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم في الكور التي لم يكن فيها من البلديين أحد ، وأنزلهم في هذه النواحي مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة الثلثان . ويبدو أنه وجد صعوبة في إقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر إلى إخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العاملي ، والوقاص ابن عبد العزيز الكنانى ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمي ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد ^(٢) . وأبى الباكون منهم بعد ذلك إطاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأمنوا إليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم في الشرق ^(٣) .

وقد فرّقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها الناحية التي أتوا منها من الشرق على النظام التالى :

جند مصر : في كورة أكشونة وباجه وبعض نواحي كورة تدمير .

جند الأردن : في كورة ريه .

جند دمشق : في كورة البيرة .

جند قنسرين : في كورة جيان .

١٥٥- خصومة القيسية واليمينية تمود ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام وعاد إلى البلاد هدوؤها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن نبض فيه عرق اليمينية ، فمال إلى قومه وحاباهم وأخذ يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٦ .

القيسيين رجل من طراز الصميل بن حاتم الذى أشرنا إليه ، وكان بدوياً جلفاً من جند قنسرين ، وكانت إليه زعامة القيسية بعد إخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه فى كل ما يريد دون أن يسألوه السبب ودون أن تكون هناك حاجة ظاهرة إلى ذلك. فلم يلبث أن تصدى لأبى الخطار ، وذهب إليه مرة يشكو إليه أمراً لحق ييمنى ، فتعمد أبو الخطار الإسراف فى إهانته فلكز وشتّم ، فخرج عنه ، فأتى داره ، وبعث إلى خيار قومه ، فشكا إليهم ما لقى ، فقالوا له : نحن لك تبع .. (١).

هكذا ثارت نيران العصبية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبدأوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزبين من جديد ، وثار بينهما حرب مخربة لم ينقذ مصير الإسلام فى الأندلس منها إلا قدوم عبد الرحمن بن معاوية .

١٥٦- تحول
الصراع من القبلية
إلى الحزبية

لم يكن هذان الحزبان الجديدان هما المضريين والقيسيين كما كان الحال قبل قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك البلديين والشّاميين كما كان الحال منذ دخول بلج إلى مجيء أبى الخطار ، بل تكوّنا من جماعتين من القبائل ألقت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة إلى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليمنيين كلهم فانضمت جماعة منهم إلى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمى هذين الحزبين إلا بحزب أبى الخطار وحزب الصميل ، وإن كانت اليمنية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثانى . وإليك التكوين القبلى لكل من الحزبين - على قدر ما تعينتا المراجع على تصوره :

حزب الصميل

معظم قبائل : لخم (يمن)

جذام (يمن)

قيس (عدنان)

غطفان (قضاة) (٢)

حزب أبى الخطار

طوائف من : جذام (يمن)

فهر (عدنان)

قضاة

جند حمص (خليط)

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

(٢) جاء فى الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم عندما قرر خصامة أبى الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاة واليهانية ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج راھط ، وندعو لخمًا وجذامًا ، وندخل منهم رجلاً نقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكتبوا إلى ثوبة بن سلمة الجذامى وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابهم لخم وجذام ... » (ص ٥٦ - ٥٧) .

أى أن الأمر لم يعد عصية قبلية بل عصية حزبية ، وربما عصية موطن . فسنرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية في شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التى تألفت كانت متجاورة المواضع ، ولا يعزى انصواء بعض جند حمص إلى حزب أبى الخطار إلا إلى أن إقليم حمص الذى كانوا فيه ، وهو إقليم إشبيلية ، كان يضم مواطن القبائل التى انضموا إليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسى ، لرياسة حزبه رجلاً من جذام ، أى من اليمن ، هو ثوبة بن سلامة الجذامى ، وهو ما كان ليفعل ذلك إلا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم إننا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصية القبلية لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب ، بل عصية المصلحة والموطن ، أى العصية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلاً واقعياً لا يؤمن إلا بما ينفعه ، وربما كان خلقه هذا هو الذى أخرج الصراع من الميدان القبلى الصرف إلى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوبة بن سلامة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع فى صفوف الحزب ، إذ تنازع الرياسة عمرو بن ثوبة ويحيى بن حريث ، ولكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلاً من محارب بن فهر ، أى من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالمحايدة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربى - وهو يوسف الفهرى - حسماً للتنازع وإرضاء للفريقين ، ودليلاً على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبى الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بل كانوا من قضاة ، وقضاة على ما نعرف مشكوك فى موضعها من عدنان وقحطان ، فبعضهم يجعلها من العدنانية وبعضهم يجعلها من القحطانية ، وإن كان الأخيرون أكثر : قامت جماعة من القضاة قوامها مائتا رجل وأربعون فارساً واختطفوا أبا الخطار وفروا به إلى منازل بعض القبائل اليمنية بناحية إشبيلية .

وكان يقود أولئك القضاة عبد الرحمن بن نعيم الكلبي (يمن) فبدأ حزب أبى

= وانظر تعليق دوزى على هذا الوضع :

الخطار ينهض من جديد ، واشتد ساعده عندما أخطأ الصميل فعزل يحيى بن حريث شيخ
لخم عن كورة ريه . فنفر يحيى بن حريث ومن تابعه من لخم وانضموا إلى حزب أبي الخطار .
وشيثاً فشيثاً انفصلت بقية القبائل اليمنية التي كانت في حزب الصميل وانضمت إلى أبي
الخطار ، فلم يبق مع الصميل إلا قيس . وهكذا وقف قيس وكلب مرة أخرى وجهاً لوجه ،
وهوى عرب الأندلس إلى دَرَكَ النزاع القبلي الخالص من جديد ، وانضم البلديون -
ومعظمهم من يمن - إلى الكلبية حزب أبي الخطار ، ووقف اليمنيون في جانب والقيسيون
في جانب على النحو التالي :

اليمنيون يرأسهم ابن حريث

حمير + كندة + مذحج + قضاة

القيسيون يرأسهم يوسف الفهري والصميل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقع أن أهل بعض القبائل المتجاورين الذين عاشوا إلى ذلك الحين في
سلام ووثام ، جعل بعضهم يودع بعضاً ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه في صفوف الجبهة
التي سيقا تل فيها دون أن تكون لديه أى دوافع خاصة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا
دليلاً على أن العرب ظلوا ، رغم الإسلام ورغم ما نالوا من خبرة ، بدواً جاهليين في أعماق
نفوسهم لا يكاد اختلاف الأحوال والظروف يغير من طبعهم الأصيل شيئاً^(١) .

وقد سدر العرب في هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم في ذلك القطر ، أو كأن
جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع - وهذا أغرب ما
في الموضوع - أنهم لم يكونوا إلا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن
توزيع القبائل العربية في شبه الجزيرة في هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهّم ذلك الوضع
الذى يبدو من الغرابة بمكان .

وإذا أخذنا بالمعلومات القليلة التي لدينا عن أعداد العرب الذين نزلوا
الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم إلا ببضعة آلاف : فقد كانت طالعة موسى تضم
١٢ ألفاً و طالعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفى معه

١٥٧- تكاثر

العرب في

الأندلس

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ - ٥٩ .

أربعمائة ومجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠ ، فإذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفاً . فإذا حسبنا من قُتلوا في حروب العصبيات ومن استشهدوا في الفتوح وراء البرت تبينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التي رأيناها .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالاً بدون نساء ، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد ، وقد توسعوا في ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً . ولكي نعطي القارىء فكرة عن خصوصية أولئك الداخلين نذكر جانباً من نسل عبد الرحمن الداخل وبينه ، وقد أحصاهم ابن حزم في جبهة أنساب العرب . وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا إحصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم ، وينبغي أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر إلا الظاهرين من بنى أمية ، أى أنه ترك الخاملين ، والخاملون في العادة أكثر أولاداً ، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الإناث في الغالب .

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور ، وهشام ابنه ستة ، والحكم الرضى ثمانية عشر ، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد ، منهم خمسون ذكراً وخمسون أنثى ، والأمير محمد نيفاً وثلاثين ذكراً ، والأمير عبد الله أحد عشر ذكراً ، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكراً... إلى آخره (١) .

فإذا نحن أحصينا الذكور فقط تبينا أن ستة من رجال البيت الأموي أنجبوا ١٤٤ ولدأ ذكراً ، أى بمتوسط ١٩ ولدأ للواحد ، وذلك غير البنات . وإذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعي ، لأن عبد الرحمن الأوسط أدخل بالتوازن الطبيعي وجاوز الحد المألوف ، أمكننا الاجتزاء من ذلك العدد بعشرة لكل شخص ، وأمكننا أيضاً أن نطبق نسبة التكاثر هذه على بقية العرب ، فقد كانوا جميعاً في سعة من النساء والعيش في ذلك البلد الطيب الرخى .

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفاً من العرب أصبحوا بعد عشرين سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب إليهم من مواليتهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم إليهم من أهل البلاد .

(١) ابن حزم : جبهة أنساب العرب (طبعة بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٨٦ - ٩٣ .

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلاً تاماً ، ولكنه يجعلها أقرب إلى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحاً إذا ذكرنا أن العرب انتشروا في شبه الجزيرة انتشاراً واسعاً بحيث لم تحل منهم ناحية من نواحي الشرق (من شماله إلى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب حتى نواحي قلمرية وشنترين وأشبونة . وقد كان العرب ، رغم ما رأيناه فيهم من العنف في خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربى قوماً يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن نزعات السيادة والتعالى التى تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط .

ثم إن مطاعمهم في أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسنرى عند دراستنا للناحية المالية ، أن الإدارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئاً ثقيلاً . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون في ناحية من نواحي الأندلس حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة وأن العرب كانوا يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القربى ، أى أنهم لم يكونوا سادة أو حكاماً بقدر ما كانوا مساكنين أو معاشين ، فأمن إليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلطوا الحيان ، وبدا وكأن العرب أكثر من عددهم الحقيقى .

ولدينا عن منازل العرب في شبه الجزيرة معلومات طيبة في معظم ما لدينا من ١٥٨ - مراجعتنا
عن منازل العرب المراجع ، وقد أورد المقرئ في نفح الطيب صفحات من «فرحة الأنفس»
بالأندلس لمحمد بن أيوب بن غالب الغرناطى من أهل القرن السادس الهجرى ،
وأورد أبو محمد على بن حزم في تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات
مستفيضة عن منازل العرب في الأندلس ، نستطيع إذا نحن جمعناها وأضفنا إليها ما لدينا من
بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب في شئ كثير من الدقة ، بل نستطيع أن
نرسم خريطة ديموجرافية لعرب الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصب فقط على الفترة التى
ندرسها ، وأن بعض من ذكرنا من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن
الداخل وابنه هشام الرضى ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين
دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لمن دخلوها في
تلك الفترة . ثم إن الداخلين أيام الإمارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو في جماعات صغيرة ،
وكانوا في الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم في النواحي ، أى : أن دخولهم لم

يغير الوضع العام ، وفي إمكاننا أن نعتد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب في شيء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التي دخلت الأندلس كانت تضم أعداداً طيبة من فحول العرب ممن يمثلون الخصال الرئيسية الأصلية لهذا الجنس خير تمثيل . وسواء نظرنا إلى الأعمال الإيجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتح فيما وراء الأندلس ، أو إلى النشاط السلبي كحروب العصبية ومنافسات الرياسة ، فإننا نتبين هذه الفحولة العربية بصورة لا نجد لها فيها شبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار إلى ذلك المقرئ بقوله : « فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ، فزل بها من « جراثيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان » ^(١) ،... والمراد بـ « الجراثيم » هنا الأصول .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأعقاب الذين يشير إليهم المقرئ كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففي الحديث عن المنتسبين إلى محارب بن فهر (من قريش الظواهر) يقول ابن حزم - برواية المقرئ - : « ولهم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلهم في طليطلة وأعمالها » ^(٢) . وفي الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « إنهم خلق كثير بالأندلس » ^(٣) ، وهكذا الأمر مع معظم القبائل التي يذكرها أولئك المؤرخون .

وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أقاليم ، قال المقرئ في الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر في الأندلس ، والملك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فإن القرشية قدمتهم على الفرقين... » ^(٤) . ويقول ابن غالب : « ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجرم الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعد هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشد عن العدد كثرة . ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً

١٥٩ - القحطانيون

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٢ .

(٣) نفس الموضوع .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٧٤ .

من الخزرج وعجوزاً من الأزد»^(١)، وهى مبالغة من ذلك الداعية الأندلسى البارع، يخفف من غلواتها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد - أزد الأندلس - من يفضل الانتساب إلى الأنصار، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية في الأندلس، ولهذا كان يلجأ إليه «الجم الغفير» من الأزد فيما نظن.

غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمنية التى نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التى تتحدث عنها النصوص، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢، ولا تُفسر الغالبية اليمنية إلا على أحد وجهين: فإما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمنية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية، أو أن يكون «الجم الغفير» من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنساباً أنصارية - ما بين أوس وخزرج - التماساً للمكانة والمنزلة، وقد يكون الأمران قد حدثا معاً.

وإذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب في الأندلس لاحظنا ما

يلي:

١٦٠- ملاحظات ١ - أن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى نواحي الأندلس على منازل العرب وتركوا للبربر النواحي القاحلة التى لا خير فيها غير صحيح، فقد ترك العرب لغيرهم نواحي من أخصب ما في الأندلس، فقد تركوا مثلاً أحواض الواديانة والتاجة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادي الأبيض ووادي لكه وغيرها كثير، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح إلا في حوضى الوادي الكبير ووادي ابره الأوسط وفروعها الكثيرة. بل هم لم يعمروا من وادي ابره إلا النهر الرئيسى والفروع الجنوبية، أما الشمالية فتركوها دون سكنى، ونزل البربر فيها عدا ذلك كله. ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريباً.

١٦١- استقرار ٢ - ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن العرب استقروا على طول خطوط العرب على طول خطوط الفتح الأول، فترى منازلهم تنتشر ابتداء من الجزيرة الخضراء، وتملاً معظم المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادي الكبير، ثم تكثر بصورة ظاهرة في إقليم إشبيلية، وتستمر على طول الوادي الكبير وفروعه. وعند إقليم إشبيلية

(١) نفس المصدر، ج١، ص ٢٧٥.

تنتشر منازل العرب في نفس الاتجاه الذى سار فيه موسى ، وتكثر في نواحي أوبنة ولبلة وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحي طلبيرة وطليلة فوادى الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض ابره الأوسط حول سرقسطة في منطقة واسعة تشمل حوض نهر جَلْتَى Gallego ونهر الحَمَّة Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربى آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليطلة ماراً بقلعة رباح .

ومن حوض الوادى الكبير انساح العرب شرقاً ، فملأوا نواحي ما يُعرف عادة بشرق الأندلس ، وهى نواحي بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلاً عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية ، لأننا سنجد الجماعات العربية التى استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضى . وقد زحف العرب مع السهل الساحلى الشرقى حتى وصلت بعض جماعاتهم إلى برشلونة ، فاستقرت فيها بطون من نجيب (كندة) .

٣ - أن واحداً من جذمى العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم يتفرد بالسكنى في ناحية بعينها إلا في قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلها متجاورة في كل ناحية تقريباً .

١٦٢ - منازل
العرب في الأندلس

أ - مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان :

قحطان

عدنان

إشبيلية ونواحيها

مرة بن ذبيان - غطفان - عك - غافق - هوازن - جذام - الأشعر - جزيلة - ثوابة - بلى - لحم - مراد - لبص - الحيار بن مالك - الأنصار^(١) .

(١) كانت كتلة اليمنين في ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو « أبو الصباح » شيخ اليمانية في غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرف إشبيلية (ابن القوطية ، ص ٢٠) .

البيرة وغرناطة

خزيمة - أسد - مرة بن ذبيان - نمير بن طيىء - همدان - غسان - الحضارمة^(١).
مضر .
واى آش
خويلد سعد العشيرة
بطلبوس
زهرة حضارمة

ب - مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمينيون) :

قحطان

عدنان

سرقسطة ونواحيها

خزرج - عذرة - قضاة - تحيب - كندة - جدام . تدمير	ربيعة
جدام - دوس - غافق - حضارمة	
ريه	
جزيلة - خزرج - ذورعين	نهد
مالقة	
حضارمة	خزيمة
شدونة	
جزيلة - عرمرم - جدام	كنانة
استجة ومورور	
لخم - خثعم	غافق
الجزيرة الخضراء	
خولان - بنو عذرة - لخم - جدام	كنانة

(١) يؤيد كثرة اليميين في إقليمى البيرة وجيان ابن القوطية بقوله : « ثم خاطبوا القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بنى أضحي بالهمدانين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بنى] حسان وبنى عمر أصحاب وادى آش الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان » - ص ٢٢ .

ج - مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

قحطان

عدنان

جيان

ملكان - مزينة - شوذر - ربيعة - غنم - بنو منخل - جذام - مرة - عنس (١) .

أقصى

باجة وبلبة

عوف - زهرة (٢) .

أونبه

سلول - الطماح - مطروح

خُثَيْن

طليلطة

الأنصار

الزبارقة (تميم) - باهلة - كنانة

د - مواضع لم يسكنها إلا قحطانيون :

قحطان

عدنان

قلمة رباح

خزرج - جذام .

دلایمة

عذرة - قضاة .

قرية صالحه (قرب مالقة)

غسان

قلمة خولان

خولان

برشلونة

نجيب

دار بلي (شمالي قرطبة)

بلي

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية : « وكانت الرئاسة لبلة لعبد انغفار ابن عم أبي الصباح ، ويواجه لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلثم بن يحصب » (وكلهم يمن) .

هـ - مواضع لم يسكنها إلا عدنانيون :

قحطان

عدنان

مدينة مرسية

ملكان - أقصى بن مضر

طلـبـيرة

عـوف

بلنسية

هــوازن

وينبغي أن ننبه إلى أن هذا الإحصاء تقريبي ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت في ثنايا كلامهم إشارات لمنازل العرب في الأندلس . وقد أدخلنا قضاة في جملة اليمن ، مع اختلاف النسابة في جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأي الأغلب هو أنهم قحطانيون^(١) .. وينبغي أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير إلى المواضع ، فهو يقول مثلاً : «ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عُدْثان بن أزان بن الأزْد ..»^(٢) .

٤ - أن هناك نواحى معينة حبيت إلى العرب سكناها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبة في الأندلس ، فقد كانت هى المهاد التى تكاثروا فيها وانتشروا منها إلى غيرها من النواحى . وقد ظل العنصر العربى غالباً على هذه النواحى حتى نهاية تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وكانت إلى نهاية القرن الخامس الهجرى نقط ارتكاز للإسلام الأندلسى ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلاً - ولم نذكرها فى الإحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبيلة عربية إلا كان منه فى قرطبة - وإشبيلية ونواحيها . واستجة وريه وقبرة والجزيرة الخضراء والبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسر قسطة وشذونة وقرمونة ولبللة وباجة وأونة .

(١) وقد كان القضاة فى الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء فى الأخبار المجموعة : « فأصفت يمن الأندلس ، خيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل » (ص ٥٨) .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٥ - ويقول المقرئ : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعرائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر ، الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء »^(١) ، ومعنى ذلك أن كل قطعة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة بكيانها القبلى ، رغم تزاوجهم مع أهل البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلى إلى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت - كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الإدارى - أساساً من أسس تكوين الجيش الأندلسى ونظام الضرائب .

٦ - ويبدو أن الكثير من القبائل التى نزلت مواضع في الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصوناً تعتصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التى شملت عهود الأمراء محمد والمندر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها إلى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، ومثال ذلك حصن مراد (بين إشبيلية وقرطبة) وقلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) في إقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية) .

ومنهم من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طمىء (جنوبى مرسية) ودار بلّى (شمالى قرطبة) وغيرها .

وكانت هذه المواطن العربية كلها في دور التكوين خلال الفترة التى نتحدث عنها: كانت كسّر القبائل الوافدة من المشرق تتجمع إلى ذوى قرباها وتكوّن العصبية التى لعبت الدور الخطير الذى فصلنا تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها إلا في النادر ، وإن كان كل مركز قد مد له فروعاً فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمى إلى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يدخلون الأندلس رجالاً فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعاً لا يمكن أن يكونوا عرباً من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مولّدين ، حتى البيت الأموى نفسه كان بيتاً مولّداً ، إنها كانوا عرباً بالإحساس والاتجاه واللغة إلى حد كبير .

ويدهى أن أولئك جميعاً لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثانى ، فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ، اختلطت بها لغة العرب ونشأت

(١) المقرئ : نفع ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

عن ذلك « عجمية أهل الأندلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه « العجمية » أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « دار بلج بشمال قرطبة ، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون إلية الشاة إلى اليوم ، ولهم دار أخرى بمورور » (١) ، مما يُفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمراً عاماً شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد في فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أى حال (٢) .

ب - البربر

١٦٣ - تيار من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر في فتح الأندلس وفي فتوح غالة الهجرة البربرية كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وأن هذه الأعداد لم تقتصر على من إلى الأندلس اشترك في الجيوش الغازية ، إذ أن تياراً من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقرئ في نفح الطيب : « وتسامع الناس من أهل ير العدو بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق » (٣) .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل

(١) ابن حزم : جبهة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢) اعتمدنا في هذه المعلومات ، كما أشرنا آنفاً على :

جبهة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليفي بروفنسال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردها المقرئ في نفح الطيب (القاهرة ١٩٤٩) ج ١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

ابن سعيد : مقتطفات من المغرب في الأغلب ، أوردها المقرئ في نفح الطيب ، نفس الجزء والصفحات السابقة .

المقرئ : نفح الطيب ، ملاحظات للمؤلف في نفس الصفحات .

الأخبار المجموعة : طبعة لافونتي إي الكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

ابن القوطية : تاريخ اقتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وسافيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .

LÉVI - PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne Musulmane (2e. èd. vol. I, Paris 1951) pp. 71 Spp.

ELIAS TERES : Linajes Arabes en Al - Andalus, Segun la "Jamhara" de Ibn Hasn, Al - Andalus vol. XXII fasc. I pp. 55- 113.

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

من حيث القوة أيضاً ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى : « ومكثوا سنين لا يجتمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثاني ولاية الأندلس ، وقد رضى به بقية مسلمي الجزيرة وظل في الولاية حتى ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ولو لم يكن البربر غاليين على الأمر في الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرصاه جميع المسلمين^(١).

وقد أمدنا ابن حزم في الجمهرة بمعلومات غاية في الأهمية تلقى ضوءاً على الهجرة البربرية إلى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنازل البربر في الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاة أن نتبين من أولئك البربر نزل الأندلس في ذلك الزمن المتقدم .

وينبغي أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاة ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً ، بحكم الجوار أولاً ، وبحكم الجاذبية الخاصة التي كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الإفريقي ثانياً ، ولأسباب سياسية ثالثاً . ومن ثم فإن القطع بشيء في هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ، وكل ما سنذكره فيما يتصل بمنازل البربر خلال عصر الولاة ينبغي أن يؤخذ بحذر .

١٦٤ - جماعات يذهب ابن خلدون إلى أن جموع البربر التي دخلت الأندلس مع الفتح وبعده البربر الأولى بقليل كانت من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة^(٢) ، وهذه القبائل كلها من زناتة أو من البربر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذي تتفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة في نواحي المغرب ، ولكن كتلة هواراة ونفوسة كانت منتشرة على سواحل البحر الأبيض من حدود مصر إلى طرابلس ، أما مديونة فكانت منازلها على ساحل البحر من نواحي المغرب الأوسط إلى سبتة ، ومطغرة كانت تحتل إقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسي .

ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طارق بن زياد ، وكانت الأمداد البربرية التي أتت

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ج ٦ ، ص ١٠٦ وما يليها .

عقيب الفتح وشاركت في إتمامه وفي فتوح غالة . ويضيف ابن حزم إليها نفزة ، وهم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوى الأكبر جد اللواتين جميعاً . ونفزة قبيل ضخم لا يقل عن مططرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضاً مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر ينتسبان إلى ضَرِي بن مادغيس أخى لاوى الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس أول الأمر كانوا جميعاً بتراً ، وفيهم زناتية مثل مكناسة والباقي من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البربر إذ ذاك يقسمون أنفسهم هذا التقسيم الحاد إلى بتر وبرانس ، لأن ذلك ظهر فيما بعد ، عندما سرت عدوى العصبية القبلية من العرب إلى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم ويقيمون الدول معترزين بالعصبيات والأصول : بدأت ذلك صنهاجة من البرانس ثم تلتها زناتة من البتر . أما في الفترة التي نحن فيها ، فلم يكونوا جميعاً إلا بربراً إلى جوار العرب . وتدل الدلائل على أنه كانت فيهم جماعات مصمودية ، فيحدثنا صاحب «فتح الأندلس» أنه كان يرأس جماعة البربر بتأكُرتا « في جبال رندة » زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة^(١) ، وهو جد بنى عوسجة المصموديين (من البتر أى البرانس) الذين كثروا فيما بعد في الأندلس وعمرُوا نواحي جنوب شتبرية الغرب ، حتى صارت تسمى «بلاد عوسجة» ، وإليه أيضاً ينسب دانس بن عوسجة الذى أنشأ قصر أبى دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنبيرة Colenbeira^(٢) في البرتغال الحالية .

ويذكر ابن القوطية أن رئيس بربر ناحية مورور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان إبراهيم بن شجرة^(٣) ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضاً أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف في نسبهم ، فهم من البتر حيناً ومن البرانس حيناً ، كما يختلف العرب في نسبة قضاعة^(٤) .

وقد ذهب سيزار دوبلر في بحث قيم عن « منازل البربر في الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الإسبانية التي يمكن ردها إلى أصل بربرى . واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لا بد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع إلى عصر الولاية ، لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الإسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضيع التي ذكرها دوبلر في أقصى الشرق أو في الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع إلى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون في الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا في أماكن متطرفة كانت في ذلك الحين ميدان حرب . واعتماداً على ذلك يمكن القول بأن مواضيع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأول في الأندلس :

Villa Nova de Ourem في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر وهران .

Tunis في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر تونس .

Alquerubim في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر القيروان .

Arzila في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر أرزيلا ، وهي أصيلا .

Adzenata في الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة إلى زناتة .

Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Benisanet قرب طركونة نسبة إلى زناتة .

Butsenit قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Barasal قرب جواردا في البرتغال نسبة إلى بني برزال (زناتة) .

Mequinenza في الثغر الأعلى عند ملتقى الابره بنهيره الأشقر (Segre) نسبة إلى مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة إلى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحي سرقسطة نسبة إلى صنهاجة .

Azinhaga في البرتغال نسبة إلى صنهاجة .

Cotanes قرب بلد الوليد نسبة إلى كتامة .

Cotanillos حتى من أحياء شقوية نسبة إلى كتامة .

Cotimos و Alcoutim في البرتغال نسبة إلى كتامة .

Benigomar بناحية انكا نسبة إلى غمارة .

Gómara بناحية صورية Soria نسبة إلى غمارة .

Gomeriz و Gomeris في جليقية نسبة إلى غمارة .

Albornos بناحية أبله نسبة إلى البرانس .

وغير ذلك كثير (١) .

وقد ذكرنا هذه المواضع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول في نواحي شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضع المتطرفة في أقصى الشمال الشرقي والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي ، إذ لا تكاد تخلو ناحية من هذه النواحي أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم إننا - كما قلنا - لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقي والجنوب الغربي من أول الأمر (٢) .

بيد أننا نستطيع القول بأن المواضع التي قامت فيها إمارات بربرية فيما بعد أو التي ولى عليها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ولاية من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميراً بربرياً على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير

(١) انظر :

CÉSAR E. DUBLER : Ueber Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel.

وقد نشره في " Romanica Helvetica " ، وهو عدد من " SACHE und ORT, Festschrift Jakob Jud Band 20, pp. 183 - 203. Zuerich. Genf. 1942 والنقد الذي كتبه J. OLIVER ASIN في مجلة الأندلس . العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة ، حيث يقول في كلامه عن الصراع بين العرب والبربر في الأندلس : « وكانت قد رأت البربر على أنفسهم ابن [بياض بالأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقورية وطلبيّة ، فأقبلوا في شيء لا يحصى عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجه » (ص ٤٠) وهي عبارة تدل على أن جماعات البربر في النواحي التي ذكرها كانت كثيرة قبل هذه الفتنة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعداداً لا تحصى . وقد هجر الكثير من أولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم في كل من هذه النواحي جماعات قليلة . أما في نواحي طليبة وماردة وقورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .

الممكن كذلك أن تقوم إمارة بربرية في ناحية لا يغلب على سكانها العنصر البربري ، لأن حكم هذه النواحي كان لا يقوم إلا على عزوة وعصب متأصلين .

١٦٥- البربر وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر البيانات التي يقدمها ابن حزم في كلامه في الثغور على « بيوتات البربر في الأندلس » في جمهرة أنساب العرب عن أصول البربر ومنازلهم ، مثل قوله :

أمراء الثغر^(١) :

بنو هذيل	من مديونة	
بنو عبدوس	من سُرَّة	من ناحية صَدَّيْنَة
بنو غزلون	من تيروال	
بنو عميرة	من أهاصة من نفرة	من ناحية شاطبة
بنو رزين	من مديونة	السهلة
بنو ذى النون	من هواره	وبدة
بنو فَرْفَرْن	من هواره	ماردة ومِدْلَيْن
بنو نبيه وبنو الأخطل		شدونة
بنو الفرج	من مصمودة	وادى الحجارة
بنو مضى	من مصمودة	قصر مضى
بنو رسين	من مصمودة	
بنو زروال	من مغيلة	المُتَنَانِيَة
بنو إلياس	من مغيلة	شدونة
بنو عزون	من زناتة	شتبرية

فهؤلاء جميعاً كانوا أمراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها ، ثم إن وصفه لهم بأنهم « أمراء الثغر » يدل على أن معظم أمراء الثغر كانوا من البربر ، أى أن معظم النواحي الشمالية كانت منازل للبربر . وعندما نذكر ما قلناه عن مونوسة الذى كان والى الثغر كله من حدود البرت إلى المحيط ، تتأكد لدينا هذه الحقيقة . أضف إلى ذلك أن مجموعة منازل البربر

(١) يلاحظ أن الكثير من المواضع التي سيذكرها ليس من الثغر .

التي ذكرها ابن حزم تكون خطأ واحداً يبدأ من نواحي جبال البرت عند لاردة ووشقة ثم ينحدر إلى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيها بعد) فقد نزلها بنو سالم من البرانس وأعطوها اسمهم، وسكن إلى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة .

وفي الدائرة الواسعة التي تحيط بمدينة سالم والتي تضم شنتبرية والسهلة ووادي الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحي كلها إلى أحواز طليطلة ، وهذه الكتلة تتكون من بنى الفرج وبنى سالم وبنى عوسجة وبنى صبرون وبنى شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين ، وكل هؤلاء من البرانس ، ثم بنى عزون وبنى بلال وبنى نعمان وكلهم من البتر . وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقاً فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البونت حيث نزل بنو قاسم ، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية ، بناء على البيانات التي يقدمها صاحب الأخبار المجموعة ، فتشمل مناطق طلبيرة (جنوبى طليطلة) وماردة وقورية بين التاجه والدويره ثم تصل إلى ساحل المحيط عند قلنبيرة حيث نجد فرعاً من بنى عوسجة وبنى دانس عند قصر أبى دانس .

ويذكر ابن حزم فرعاً من بنى الفرج استقروا في طرسونة أى فيما يلي جبال البرت من نواحي غالة ، وهذه الجماعة إن هي إلا بقية من البربر الذين كانوا يعمرن النواحي القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدنون بحذاء خليج بسكاية ويعمرن حوض نهر المنيو ويتوغلون في جليقية ، وقد اكتشف سيزار دوبلر - كما رأينا - مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة في هذه النواحي القاصية .

وقد رأينا في كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرن « ما وراء الدروب » أى شمالي نهر الدويره إلى الجنوب وعاد بعضهم إلى إفريقية ، ورأينا كيف أن جموعهم أزعجت العرب واضطرت عبد الملك بن قطن إلى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينقذوا من فيه من العرب ، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جداً لما أفرغت العرب إلى هذا الحد . ومعنى هذا أن ما يلي نهر دويره شمالاً والحوض الأعلى لنهر ابره ثم ما بين نهر الدويره وتاجة ، هذه النواحي الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار إسلام في ذلك الوقت المبكر ، ولم يخرجها من بلاد الإسلام ويجعلها بلاداً نصرانية أو بلاداً خلاء مفتوحة للامتداد النصراني من الشمال ، إلا هذه الفتنة العمياء التي وقعت بين شعبى الإسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه في نطاق الدولة الإسلامية

الواسعة^(١).

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسمّين بالبلديين وأصبحوا معهم حزباً واحداً لا فرق فيه بين عربى أو بربرى ، بل كان الجانبان إلباً واحداً على الشّاميين أو عرب الطالعة الثانية . قال ابن القوطية في «افتتاح الأندلس» : « وتولى أمر قرطبة والشّاميين والأمويين ثعلبة بن سلامة العاملى ، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشّاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا »^(٢) . وقال في خبر ولاية أبى الخطار : « فلما أشرف من فج المائدة والحرب قائمة بين الشّاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان إلى اللواء خلوا الحرب .. »^(٣) . وقال بعد ذلك : « فقال أهل البلد والبربر : سمعنا وأطعنا ، ولكن لا محل فينا لهؤلاء الشّاميين فيخرجوا عنا »^(٤) . وقال بعد خبر تفريق الشّاميين في الكور : « وبقي البلديون والبربر على غنائمهم لم يتقصصهم شيء »^(٥) . وقد ظل هذا الحلف بين البلديين والبربر قائماً حتى نهاية عصر الولاة ، بل إن « الموالى » أنفسهم - وستحدث عنهم - كانوا ينقسمون قسمين : البلديين والبربر في ناحية والشّاميين في ناحية أخرى ، وكانت الصدارة بين الموالى للشّاميين منهم .

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله في سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين : « فيناه محصوراً قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم البربر على ماردة إذ حضرهم عيد فطر أو أضحى »^(٦) ثم يقول بعد ذلك : « فجمع له أهل البلد - العرب والبربر - جمعاً »^(٧) .

(١) هذه البيانات مستقاة من « جبهة » ابن حزم ، ص ٤٦١ - ٤٦٧ . وعبارة « الأخبار المجموعة » التي أشرنا إليها واردة في ص ٤٠ وقد أوردناها بنصها فيما سبق .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٦) الأخبار المجموعة ، ص ٤٤ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

١٦٦- هل
اختص العرب
أنفسهم بأحسن
نواحي الأندلس ؟
وقد كثر كلام المؤرخين المحدثين في أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ، فلم يتركوا للبربر إلا النواحي الجبلية أو القاحلة أو القصية نواحي الأندلس ؟ في الشمال ، وأن ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا في كلامنا على هذه الثورة أن الذي أغضب البربر لم يكن احتجاج العرب لأحسن المواضع ، وإنما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الأيبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معاً . ثم إن العرب لم يختاروا مواضعهم ، فهم لم يدرسوا شبه الجزيرة ويتبينوا الطيب من أرضها وغير الطيب ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أى في النواحي التي عرفوها لأول دخولهم البلاد .

وقد فرّق أبو الخطار عدداً عظيماً من الشّاميين في الكور ، التي عرفت فيما بعد بالكور المجنّدة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أى أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أى أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم في الغالب نتيجة مصادفات ، فقد رأينا مثلاً كثرة العرب وتزاحمهم في منطقة جيان ، والسبب في ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب في كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة أن طارقاً «سار في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة» (١) . فلو لم يكن «معظم الناس» قد مروا بهذه الناحية لما كثرت العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم إلا القليل في زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها إلا جماعة من تُجَيَّب ، وقد أشرنا إلى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأوّل لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائماً أحلافاً للبربر على الشّاميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعاً - عرباً وبربراً - أن يحاول الشّاميون مشاركتهم في هذه الأراضي فنفروا يدافعونهم عنها ، واشتدت الخصومة بين الجانبين .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ، ص ١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصّح ذلك في نفس الصفحة فقال : إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم في أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عرباً وبربراً ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي : فأما العرب فكانوا يفضلون دائماً البساتن والمنخفضات والنواحي الدافئة والقليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم .

ففي الجنوب مثلاً استقر العرب في شذونة واستجة ، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها ، وسميت تاكرنا باسم بعض قبائلهم ، وأعجبتهن نواحي قبرة ومورور وأشونة فتزلوها واختلطوا مع العرب في بقية نواحي الجنوب ، ثم إن جماعات من البربر أحببت الانفراد بنواح يكونون فيها مستقلين ، على مثل أحوالهم في بلادهم الأولى في إفريقية ، فاستقروا فيها بين نهري دويره وتاجه ، وهي نواحي هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه .

١٦٧- تحول البربر إلى بلديين استقر البربر إذن إلى جانب العرب في بعض النواحي ، ومنفردين بأنفسهم في نواح أخرى ، واختلطوا في كل ناحية بالأهلين وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع الزمن إلى « بلديين » أي أندلسيين . وقد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جداً في انتشار الإسلام في الأندلس ، فإن البربري قريب جداً من حيث المزاج والطبع - والأصل أيضاً - من أهل البلاد الأصليين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرن الأرياف منهم ، فامتزجوا بهم دون تكلف . ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس التي أفسدت على العرب الكثير من أمورهم ، وكانوا شديدي الحماس للإسلام ، فقد كان الإسلام بالنسبة لهم رمز سيادة ، فأظهروا العصبية له ، واجتهدوا في نشره ، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته ، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل في تحوّل أهلها إلى الإسلام .

ولو درسنا طبيعة الإسلام الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري على الأقل ، لتبيننا أنها تشبه طبيعة الإسلام المغربي عامة من حيث التمسك الحرفي بأهداب العقيدة والتزام مذهب واحد والتعصب له ، والحرص على تبجيل رجال الدين ، والمتصوفين منهم بصفة خاصة ، والميل إلى تقديس الأولياء وحب الجهاد في سبيل الدين وما إلى ذلك . وقد أشار ليفي بروفنسال إلى غلبة الطابع البربري على الأندلس بقوله : « وفي هذا الصدد ، ربما كان

«الطابع البربري» أظهر وأوضح اليوم في إسبانيا وجنوبي البرتغال من «الطابع العربي» بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، وذلك في كثير من ظواهر الحياة الريفية، والنشاط الزراعي»^(١).

وكان معظم من أقبل إلى الأندلس خلال هذه الفترة الأولى من الزناتيين ،
 الزناتيين على البربر
 الأول في الأندلس
 وكان زعماءهم كذلك زناتيين ، فقد كان أبو زرعة طريف وطارق بن زياد زناتيين ، وكان زعيم البربر في ثورتهم الكبرى التي أشرنا إليها زناتياً ، وكان بنو الخليع وبنو وانسوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على إقامة إمارته زناتيين ، وقد رأينا أن معظم أسماء الأماكن البربرية في نواحي أشتريس وجليقية زناتية . ثم إن البتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل إفريقية إسلاماً ، وقد انضمت جماعات منهم إلى المسلمين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت في فتح المغربين الأوسط والأقصى، وكان ولاية إفريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم^(٢) . وكان منهم زعماء الثورة في إفريقية ، مثل ميسرة المطغرى وخالد بن حميد الزناتى . وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتى على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى .

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب إلى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين ، فقد كانوا بدواً مثلهم ، ثم إنهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد ، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنباً إلى جنب مع العرب الأول ، وخاصة البلديين منهم . وكان هؤلاء البربر في مجموعهم أبسط طبعاً وأكثر سذاجة من العرب ، وأقرب إلى تذوق بساطة الإسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد تقلب طويل في الفتن في المشرق ، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادئ العقيدة ، وكانوا يحتاجون العرب وينتقدون تصرفاتهم معهم مستندين إلى أصول الشريعة ، كما كان يلقيها لهم دعاة إسلاميون انبثوا بين صفوفهم . ولهذا أيضاً سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر إلى مبادئ الخارجية ، الإباضية والصفيرية بصفة خاصة ، لأن دعايتها بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادئ ، كما كان أولئك الدعاة يشرحوها ، أقرب إلى مبادئ الإسلام الصحيح .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) vol. I p. 880. (١)

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ .

١٦٦- البربر وإلى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع العرب إلى
والفتوح في غالة الاسترسال في الفتوح في غالة ، كانت جماعات البربر تجوز إلى الأندلس
وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بها من مغنم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا
يتجمعون في الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وحولها ،
فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كذلك التي قام بها السماح
ابن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتوفرة
المتعطشة للفتح ومغانمه . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب
وطمعاً في المغنم ، وربما اشتد طمع بعضهم في الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض
الحملات .

كان في هؤلاء البربر إذن قوة تدفعهم إلى الاسترسال في الفتوح ، كما كانت شعوب
المتبربرين يدفع بعضها بعضاً نحو أراضي الدولة الرومانية .

هكذا يمكننا تعليل جانب من هذا النشاط الحربي العظيم الذي أبداه المسلمون في فتوح
الأندلس وغالة .

ومن العسير جداً أن نقدر أعداد العرب والبربر الذين اشتركوا في هذه الأعمال الحربية ،
لأن أعداد من اشترك منهم في الجيوش الرسمية - وهي الأعداد التي رواها المؤرخون -
لا تكون إلا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا إلى الأندلس على حياة تيار
متصل: فقد كانت الاضطرابات السياسية في المشرق ، وميل خلفاء بني أمية إلى القيسية حيناً
وإلى اليمينية حيناً ، سبباً في هجرة جماعات من العرب معظمهم من اليمينيين والمدنيين إلى
الولايات وخاصة المغرب والأندلس ، وقد استقر نفر قليل من هؤلاء العرب في إفريقية
واستمر الأكثرون في طريقهم حتى حطوا رحالهم بالأندلس ، أما البربر فكان تيارهم أقوى
وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصور تحول بلد كالأندلس إلى الإسلام هذا التحول السريع إلا
بافتراض أن أعداد المهاجرين المسلمين كانت كبيرة فعلاً^(١) .

(١) ويؤيد ذلك بوضوح قول الرازي : « إن الذي أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عنانه
وشناه قافلاً ، وقفل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس فطنوا بيلاد الأندلس لطبيعتها فأقاموا فيها » مما يدل
على أن عدداً قليلاً جداً ممن ورد البلاد من الفاتحين المسلمين قد غادروا وعادوا إلى إفريقية أو إلى المشرق . وسنلاحظ
أن معظم من يقبل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود بفارقه أبداً (المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧) .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر - على حداثة عهدهم بالإسلام - كانوا أكثر تمسكاً بالإسلام وحامساً للفتح من العرب ، لأن الإسلام كان وسيلتهم الأولى في النهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب وسادة في البلاد المفتوحة وأصحاب حق في الغنائم والأرضين ، ولهذا نراهم يحتجون دائماً على العرب ويتهمونهم بمخالفة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشراطه . وكانوا إذا استقروا في الأرياف استمسكوا بالإسلام حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد ، ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن جانباً عظيماً من الفضل في إسلام أهل الأندلس يرجع إلى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد في سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الإيوان لأنه يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، فنيا في نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى إذا قامت الثورة البربرية في إفريقية وانتقلت إلى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما إلى عدااء سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا إلى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يثقون في حسن نواياه ، وكان لابد له من أن يخوض صراعاً طويلاً معهم - كما فعل مع غيرهم - حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم إلى الطاعة والاستقرار .

١٧٠- البربر ولا نزاع في أن البربر انضموا إلى البلديين وكونوا حزباً واحداً منذ بدء الصراع بين هؤلاء وبين الشاميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصاً ولا صادقاً ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين إلى ذلك الحين ما نفّرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج ابن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنه (ابنى عبد الملك بن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشداً من أقصى أربونة ، وراجعا أهل البلد والبربر وسيفوهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى » (١) مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعاً نحو العرب - بلديين وشاميين - من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا إلى ما خلفه القيسيون من الأحقاد في قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم

عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلديين انضموا إلى الشّامين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم في كل ناحية زاد نفور من بقى منهم ، وأخذوا ينظرون إلى العرب نظرهم إلى عدو ، فكانوا لا يسيرون معهم إلا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويه ابن القوطية في أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وإنشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشى ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بنى الخليج وبنى وانسوس وغيرهم وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم إلى ما أحبوه ووعدوهم ، إلى أن انحرفوا عن عسكرهم ، فلما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : إنّنا لا نحسن الحرب إلا فرساناً فاحملوا من بقى منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا إلى عبد الرحمن ، وقعت الهزيمة على عبد الغفار » (١) مما يدل على أن بعض البربر الذين كانوا في صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون في الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدي العرب إذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافياً لتغيير رأيهم فأخلصوا في القتال في صفوفه ونصروه .

١٧١ - جماعات
السودان في
الأندلس
وينبغي أن نذكر أنه كانت هناك إلى جانب البربر الذين هاجروا إلى الأندلس واشتركوا في الفتوح جماعات من السودان أو السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلاً في كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة » (٢) ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، وهذا كان أثرهم قليلاً . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون إلى جانب هؤلاء وأولئك ، ثم اندرجوا في جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

١٧٢ - تأثر
البربر بالبيئة
المحلية
تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تأثراً عظيماً ، فكان الجيل الأول منهم لا يكاد ينقضى حتى يطلع الجيل الجديد أندلسياً قد أنسى أصله واتخذ الأندلس وطناً ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانوا يجتهدون

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٢ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥ .

فى التعرب : يتعلمون العربية ويقبل من له ميل منهم على دراسة الإسلام والتفقه فيه ، وأما من الناحية المعاشية فنجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصهر والقراية ، وأخذوا عن أمهاتهم الإسبانيات لغتهن فى الحديث ، أى أن شأن أولئك البربر كان شأن غيرهم من مهاجرة العرب ، طوتم البيئة الأندلسية الغلبة فى ثناياها ، فأصبحوا أندلسيين ، ومنهم من اتخذ لنفسه اسماً عربياً زيادة فى التعرب ، ومن هنا كانت أسماء جماعاتهم ذات الأسماء العربية التى ذكرنا بعضها . ومن الواضح أن البربر كانوا أسرع اندماجاً من العرب فى البيئة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصبيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، لا عصبية ولا لغة مكتوبة . ثم عمل الإسلام عمله فيهم ، فانتظموا وتحضروا ، وأصبحت غالبيتهم مع الزمن فى جملة العرب الأندلسيين . وقد كان لهؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا إلى أصل بربرى أعظم الأثر فى بناء الأندلس الإسلامى من كل ناحية .

وقد أشار ليفى بروفنسال إلى أن الزواج بينهم وبين العرب كان قليلاً أو منعماً ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، لأن العرب مهما قيل فى اعتزازهم بأنفسهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جنساً متميزاً بدمه عن غيرهم ، كما كان الحال مع الرومان أو القوط ، بل كانوا من أكثر الشعوب امتزاجاً بغيرهم . وللإسلام فى ذلك أثر واضح .

ج- الموالى

ولا يكتمل الكلام على العرب والبربر بدون الإشارة إلى الموالى ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملاً من أكبر العوامل فى توجيه تيار الحوادث ، ثم كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى فى إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

نجد الموالى - المذكورين باسم « موالى بنى أمية » - لأول مرة فى حديث ابن موالى ١٧٣ - القوطية عن بلج بن بشر وفراره إلى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من « معركة الأشراف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » ^(١) . ولسنا نجد لهؤلاء الموالى قبل ذلك

(١) وهؤلاء الموالى جزء من عدد عظيم من الموالى كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . قال ابن القوطية : « فقدم كلثوم [بن عياض] إفريقية ومعه ثلاثون [ألفاً من موالى] بنى أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انهزم هذا الجيش أمام البربر فى موقعة بقدورة (أو نقدورة) ولم ينج من الجيش العربى إلا بلج وأصحابه ، ثم « انخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل مدينة طنجة ، وهى المعروفة بـ « الخضر » ، منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » ، ص ١٥ .

ذكر أ ككتلة « متياسكة » ، وإنما نجد أفراداً منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمح لنا بالقول بأن قيام « موالى بنى أمية » كحزب أو كقوة سياسية في الأندلس يرجع إلى تاريخ دخول بلج ابن بشر الأندلس ، وقد انضم إليهم بعد ذلك من كان في الأندلس من موالى بنى أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل في ولاء البيت الأموى من أهل البلاد .

ولا يتضح من إشارة ابن القوطية هذه ما إذا كان أولئك الموالى من موالى بنى أمية في المشرق أو ممن دخل في ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عدداً قليلاً منهم كان من موالى المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بنى أمية أو عيالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخلع وبنو وانسوس ^(١) .

١٧٤ - تكوين

كتلة الموالى في
الأندلس

ولا نزاع في أن إفريقية كانت تضم عدداً عظيماً من موالى البيت الأموى الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ، فحينما خرج كلثوم بن عياض من المشرق لقتال البربر مثلاً كان جيشه يتكون من « عشرة آلاف من بنى أمية وعشرين ألفاً من بيوت العرب » ^(٢) ، والمراد ببنى أمية هؤلاء مواليتهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البدسى أن الكثيرين من هؤلاء الموالى المشاركة قد شاركوه في فتح الأندلس واستقروا فيه ، وتكونت منهم ، ومن انضم إليهم ممن دخل في ولاء بنى أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبة القوية التى سيكون لها أعظم الأثر في مجرى الحوادث فيما بعد . وقد دخل في ولاء بنى أمية نفر كبير من أهل المغرب ودخل في ولاء عيالهم ، وخاصة موسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك ، وقد ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة الولاء نحو البيت الأموى حتى البربر الذين دخلوا في ولاء بنى أمية كانوا أقرب إلى إخوتهم في الولاء منهم إلى بنى عمومهم من البربر ، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبة الأولى ^(٣) .

ويبدو أن التفرقة بين الموالى وغيرهم كانت واضحة في ذلك العصر ، وأن الموالى كانوا معتبرين في مركز اجتماعى ومعنوى لا يقل عن العرب ، بل إننا نلاحظ أن العرب كانوا يميلون إلى أن يعتبروا أنفسهم موالى ، فقد ذكر ابن القوطية في أخبار أرطباس أنه « دخل

(١) كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١) .

(٢) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

عليه عشرة من الشّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلمّوا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه ، فلما أخذوا مقاعدهم وحيّا بعضهم بعضاً دخل ميمون العابد ، جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموال الشّاميين.. فقال الصميل : يا أرتباس ، ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاد الطيبة : أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابي هؤلاء معي ، وهم سادات الموال بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان .. » (ص ٣٨-٣٩) .

أى أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموال ، وابن القوطية يقول إنهم كانوا عشرة من الشّاميين فقط ، مما يُفهم منه أن الشّاميين جميعاً كانوا يعتبرون وصفهم بالموال شرفاً لهم ، ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جملة ، لا من الموال فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموال زادت في الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمينية الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن علقمة وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج في « عشرة آلاف من الأمويين والشّاميين »^(١) . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين في المشرق ، ومصادق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بنى أمية هربوا إلى الآفاق ، وكانوا يسمعون في الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم إلى إفريقية »^(٢) ، ولا بد أن الكثيرين منهم عبروا إلى الأندلس ، وسنرى براهين ذلك فيما يلي من الأحداث .

١٧٥- الموقف وكان هؤلاء الموال يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموي أو لمن عهد إليه السياسي للموال الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا إلى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالى الرسمى الذى سلفه وهو عقبة بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا إليه ، فلما قُتل بلج انضموا إلى خليفته ثعلبة بن ثوبة ، وكانوا لهذا يحاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بنى أمية ، ومصادق ذلك ما يقوله ابن القوطية : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشّاميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ..» (١) .

وبقى هؤلاء الموالى إلى جانب الشاميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع لهم ذكراً في عهده ، والظاهر أنه فرّقهم في النواحي فيمن فرق من الشاميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجيء عبد الرحمن متفرقة في نواحي ريه وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت في قرطبة وفيها زعماءهم من أمثال يوسف بن بخت ، وأمّية بن يزيد ، وغمام بن علقمة ، وأبو فرّعة .

وحينما انتصر يوسف الفهرى على أبى الخطار وتخلص منه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الموالى الشرعى وحاول لهذا أن يضع يده على موالى بنى أمّية ، فجعل يسميهم «موالينا ويظهر الميل إليهم» (٢) على اعتبار أنه الموالى الشرعى للأندلس والنائب عن خلفاء بنى أمّية وصاحب حق الولاء على مواليتهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأى وسياسة لأفاد منهم ولقوى مركزه بهم في صراعه المقبل مع عبد الرحمن بن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأى بعيداً عن السياسة ، وكان أمره كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم إليه ، فكانوا إلى جانبه إلى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يعلّ أمر موالى بنى أمّية في فترة كما علا خلال الفترة التى سبقت قدوم عبد الرحمن ، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشداء . وقد أيدوا يوسف الفهرى والصميل لتحاملهما على القحطانية (٣) ، لأنهم كانوا يكرهون هؤلاء القحطانيين (اليمنيين) ورؤساءهم ، فكانوا خير نصير ليوسف والصميل في صراعهما مع أبى الصباح وغيره من كبار اليمنيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبنى أمّية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فيمن قوى من بنى أمّية » (٤) .

فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفهم من المضربة يتغير ، لأن
١٧٦ - الموالى
وقيام الدولة
الأموية
بدرأ خاطبهم بأحب لغة إلى نفوسهم ، وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد
إنها هو إنقاذهم من فوضى العصبيات فى الأندلس . والمراجع فى خلاف على

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦٦ .

ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « إجارة » عبد الرحمن وإيوائه لإنقاذه من البربر فقط ، أو تحدث إليهم في تحويل السلطان إلى عبد الرحمن وإقامة دولة جديدة . والرأى الثانى أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا لمجرد إيوائه وتأمينه .

ولم يُخَفَ ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالى بنى أمية خداعه ، وكان الرجل رغم إسراره في الشراب وتشعث ذهنه ذكياً يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكذب يوافق على إيواء عبد الرحمن ويعد موالى بنى أمية بإرغام يوسف على إجارته وتزويجه ابنته ، حتى روى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسولهم في منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لهما : « إني منذ أتيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنتم ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان . فلما فارقتكما رويت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله . وهذا رجل قد حكمنا عليه ، مع ما له في أعناقنا (يريد يوسف الفهرى) ... وأنا أعلمكما أن أول سيف يسلم عليه (أى على عبد الرحمن) فسيفى ، فبارك الله لكما في رأيكما .. » (١) .

وهى عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصميل كشف بها عن أعماق ما كان يدور بنفوس الموالى ، وأعلن إليهم عدااه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فهم هؤلاء الموالى ألا خير هناك يرجونه من يوسف والصميل والمضربة جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمينيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلاً على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالى من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسى ، فقد سارت قضية مولاها عبد الرحمن من ذلك الحين صعداً ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالى يصف هذا التحول : « فانقطع رجائنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا إلى أطباء اليمن وإدخالهم في رأينا ، ففعلنا ذلك من فورنا : لم نمر بيبانى له بال وثقنا به إلا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوانه إليه ، فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم ، ورغبوا في عقد بنى أمية بالأندلس ، ثم رجعنا إلى جندنا وقد يثسنا من مضر فابتعنا مركباً .. » (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

ولصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالي وعلاقتهم بعبد الرحمن وبنى أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : إنما يرضى لك هذا الفهرى ببعض أعماله التى هى أعمالك وأعمال جدك ، وإنما هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذى يحاجنا به ، فإننا هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود إلى حالته الأولى ويترك الأمر لك » (١) . أى أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التى تربطهم إلى هذا الفهرى الذى هو فى الواقع عامل لعامل إفريقية ، وعامل إفريقية من عمال بنى أمية ، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالي بنى أمية قاموا بدور خطير جداً فى إقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا إخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الإمارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذى سارت عليه .

١٧٧- موال وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس فى ولاء بنى أمية بعد الفتح ، فقد من أصول إسبانية قال ابن حزم مثلاً فى « الجمهرة » فى سياق الكلام عن بنى قسّى : « كان قسّى قومس الشجر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولاته ، ولذلك كان بنو قسّى فى أول أمرهم ، إذا وقعت الفتنة بين المضرية والبيمانية يكونون فى جملة المضرية ، فولد قسّى : فزئون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى » (٢) وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالي الأندلسيين وبيوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية ، بنو قارلّه ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر فى ولاء بنى أمية فى المشرق ، ثم انتقل ولاؤهم إلى بنى أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظاً بهذا الولاء ، واندرج بعضهم الآخر فى عداد المولّدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التى جرى عليها نظام الولاء فى المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالي فى الأندلس كانوا موالي البيت الأموى لا موالي قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالي الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٧ .

ولاء قوم لقبيلة إلا نادراً ، فقد ذكر ابن حزم مثلاً في « الجمهرة » من بيوت البربر بنى سالم وبنى الفرج وقال إنهم موالى بنى مخزوم^(١).

١٧٨ - طبيعة وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالى الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالى ولاء الأندلسيين عتاقة إلا في حالات قليلة ، فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحي ماردة باسم « موالى موسى » وهم موالى موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا في ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا موالىه . وذكر ابن الفرضى في حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سعدان بن إبراهيم .. بن زياد وابنه قاسم أن الأب كان « مولى الإمام عبد الرحمن بن معاوية ولاء عتاقة »^(٢) . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالى بنى أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضى بالقول بأنه مولى بنى أمية ، كما هي عادته ، أما وقد ذكر أنه مولى عتاقة فلا يفسر إلا بأنه كان ممن صاروا إلى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا موالىهم بالعتاقة.

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضى عن عالم آخر هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد إذ يقول إنه « مولى نعمة لبنى أمية من أهل قرطبة »^(٣) ، وموالى النعمة هم موالى العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن مولى النعمة لا ينبغي أن يكون رقيقاً ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الإعزاز والتقدير . وهم في الأندلس يختلفون عن الموالى إطلاقاً ، لأن ابن الفرضى يذكر الكثير من الموالى محدداً ولاءهم الأول أو مكتفياً بالقول بأنهم موالى بنى أمية ، مثال ذلك : إسماعيل بن خلف المعروف بابن الخبازة من أهل سرقسطة « وينسب إلى ولاء بنى أمية »^(٤) ، وإسماعيل بن القاسم بن عبدون « مولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قاليقلا »^(٥) ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « مولى عثمان بن عفان رحمه الله »^(٦) ، وحرث بن أبى سعد « مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية »^(٧) ، وحسن بن عبيد

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

(٢) ابن الفرضى : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤ .

(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .

(٥) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .

(٦) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .

(٧) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .

الله بن محمد .. بن رافع «مولى رسول الله ﷺ» ^(١) ، وزكريا بن يحيى بن عايد بن كيسان «مولى هشام» ^(٢) ، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد «مولى معاوية بن أبى سفيان» ^(٣) ، وهكذا .

وقد يكتفى المؤرخون بقولهم : « من الموالى » ^(٤) ، كما هى الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن ، أو بقولهم : « مولى لهم » ^(٥) كما هى الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبى . وقد يذكر الولاء محددًا فى دقة كقول ابن الفرضى فى ترجمة شمر بن نمير : « مولى بنى أمية ثم لآل سعيد بن العاصى » ^(٦) . وقد يرد ذكر الولاء فى صورة غير واضحة ، كقول ابن الفرضى فى ترجمة سهل بن إبراهيم بن نوح : « نسب فى البربر ويوالى بنى أمية » ، وقد أشرنا فيما سبق إلى دخول أعداد من البربر فى ولاء الأمويين ، فقد رأينا أن بنى وانسوس يعتبرون أنفسهم موالى عبد العزيز بن مروان .

١٧٩- موالى وإذن فقد عرف الأندلس فى هذا الرقت المبكر نظام الولاء ، وكان الموالى الاصطناع إما مشاركة أقبلا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموى أو لأفراد منه ، أو مغربيين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب ، وانتقلوا إلى الأندلس محتفظين بهذا الولاء ، أو إسباناً دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين ، هم وأبناؤهم ، بهذه العلاقة .

والنصوص التى بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الإسبان ، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالى عتاقة ، بل موالى اصطناع ، دخلوا فى ذلك الولاء التماساً للحماية أو شرف المنزل ، كما رأينا فى حالة بنى قسى .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم أولئك الموالى كانوا موالى اصطناع ، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهرى بعث إليه وفدًا من موائيه ، «وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب إليه يذكر له اصطناع آباءه جُد يوسف

(١) نفس المرجع ، رقم ٣٤١ .

(٢) نفس المرجع ، رقم ٤٤٣ .

(٣) نفس المرجع ، رقم ٥٥٧ .

(٤) نفس المرجع ، رقم ٤٨٢ .

(٥) نفس المرجع ، رقم ٤٨٤ .

(٦) نفس المرجع ، رقم ٤٩٥ .

(أى اصطناع بنى أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهرى) ولأهله ، ويدعوه إلى الصهر والتوسعة « (١) مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل في الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يراعون حرمة الولاء ، ويحافظ الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد بن موسى - وكان من بيت من العرب يقال لهم بنو موسى ، « وكان بنو عبد الرحمن الغافقى عامل الأندلس المتقدم ذكره يدعون أنهم مواليه » - عندما تولى الوزارة أيام الأمير محمد ، « بعث في بنى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وكان لهم عدد وثروة بمرنانة الغافقيين من شرف إشبيلية ، فقال لهم : إنكم تدعون أمراً لو كان حقاً وعلمناه لم يحل لنا الانتفاء عنه ، فهلم إلى أن تخلصونا بأنفسكم وتدعون أهلاً ، فإن كنا مواليكم كما تقولون فنحن منكم ، وإن كنا من العرب فنحن بنو عمكم ، فأجابه القوم وشكروا على ذلك ، وصاروا أهلاً وصاهر بعضهم بعضاً ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ » (٢) .

وعلى أى الأحوال لم يكن الموالى في الأندلس في هذه الفترة وما بعدها ، في نفس الوضع الذى كان فيه موالى المشرق ، فهناك كان المولى في وضع اجتماعى أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث إلا نادراً أن ترفع العرب على الموالى ، فقد ذكر ابن القوطية أن العرب احتجوا عندما عين عمرو بن عبد الله بن الليث - وكان مولى - قاضياً للجماعة في قرطبة (٣) ، وفيما عدا ذلك كان الموالى في مركز اجتماعى لا يقل في شئ عن مركز الأحرار . وعندما أتى عبد الرحمن وأعانوه على إقامة الدولة أصبحوا في مركز أعلى من مركز العرب الأحرار ، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بنى أمية على الاحتفاظ ببيوت الموالى وإعطائهم مكاناً ممتازاً في الإدارة والمجتمع ، فلم يكونوا يعتمدون إلا عليهم .

وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالى للبيت الأموى إخلاصاً عميقاً مستمراً ، وحلت عن البيت الأموى جانباً كبيراً من المسؤولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموى بدون التأريخ لهذه البيوت إلى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبى عبدة وبنو حدير وبنو شهيد وبنو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٦ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٣ .

عبد الرؤف وبنو فطيس وبنو مغيث ^(١) - وأصلهم كلهم من موالي بنى أمية ، بعضهم موالي البيت الأموي نفسه ، وبعضهم موالي قوادهم ؛ وقد كان موالي البيت الأموي يسمون بموالي قریش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالي . وفي عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعاً حتى صاروا يسمون بالأبناء ^(٢) .

فأما بنو أبي عبدة فهم أبناء حسان بن أبي عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م مع ابنه عبد الغافر الذي أصبح فيما بعد وزيراً لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب إلى أيام المنصور بن أبي عامر ، وقد تفرع عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبي الحزم بن جهور أصحاب قرطبة في عصر الطوائف ^(٣) .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالي بنى أمية في الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن أتى بمولاه هذا من المشرق . وقد أظهر أمر بنى حدير عندما نبغ منهم موسى بن محمد بن حدير الذي تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون في كبار الوظائف حتى أيام الناصر ^(٤) . أما بنو شهيد فهم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، وقد ظلوا في الوظائف إلى أيام الدولة العامرية . وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التي ذكرناها ^(٥) . ومن الطريف أن بعض مؤسسى هذه البيوت دخلوا الأندلس عرباً أحراراً ثم دخلوا هناك في ولاء بنى أمية المشاركة ، ثم انتقلوا إلى ولاء بنى أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرؤف .

وفي عداد هذه البيوت من موالي بنى أمية ذوات الأصول المشرقية تدخل بيوت الموالي ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجالي ، وذات الأصول الإسبانية كبيت بنى قسى ، وإن كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالي المشاركة والمغاربة من حيث

(١) هم أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك (أخبار مجموعة ، ص ١٠) وأول من امتاز منهم في الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتل مغيث في معركة القرن بإفريقية (أخبار ، ص ٣٤) .

(٢) LÉVI - PROVENÇAL : L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle (Paris, 1932) p. 106.

LÉVI - PROVENÇAL: Histoire de L'Espagne Musulmane. 2e. éd. II. p. 126, III, p. 194.

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

LÉVI - PROVENÇAL, L'Espagne Musulmane. II, p. 101.

(٤) الحلة السيرة ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

LÉVI - PROVENÇAL, Op. cit. pp. 99 sqq.

(٥)

الوظائف ، فقد قصرها أمراء بنى أمية على الموالى البلديين والشاميين ؛ ولكن مركز الموالى الإسبان الاجتماعى كان عظيماً ، فقد كانوا سادة فى نواحيهم^(١) .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بنى أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون فى إخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم إلى ألا يولى غيره ، فأخذته ضجرة ، فأقسم ألا يولى واحداً منهم ، وأمر بالإقراع بين الخزان ، (خزان الأموال) وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبى هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالى هذه) ومهران بن عبدربه لا قديم له ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرجت إليه القرعة فولى الحجابة أعواماً .. ثم مات .. » . وقد وضعت خطأ تحت « لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك إلى آل غانم ثم إلى آل شهيد وهم من موالى البيت الأموى .

١٨١- آراء حول وقد لاحظ بعض الباحثين شيئاً من التشابه بين « الاصطناع » الذى شاع فى أصل ولأء الأندلس الإسلامى ونظام الانتفاع Benefactoria أو Behetoria الذى الاصطناع عرفته الدولة الليونية الأشتورية الإسبانية ، و « البنفاكتوريا » أقرب إلى نظام « الإلجاء » الذى عرفته الدولة الإسلامية فى المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجرى ، ومعناه أن يلتجئ مالك صغير إلى مالك كبير و « يلجئ » إليه أرضه ويصبح من أتباعه فى نظير قيام المالك الكبير أو الإقطاعى القوى بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر « لاجئاً » والأرض « ملجأ » ، وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الرومانى Beneficium الذى أصبح فيما بعد لوناً من ألوان الإقطاع الأوروبى . وقد لاحظ ليفى برونسال أن صاحب القاموس اللاتينى العربى المعروف بالفوكايبولستا Vocabulista يترجم كلمة Benefacere بلفظ « اصطنع » بل إن لفظ « مولى » انتقل كما هو إلى المصطلح القانونى فى تلك المملكة النصرانية ، فكانوا يقولون Maullatus .

وقد ذهب الذين يرجعون نظم الدولة الليونية الأشتورية كلها إلى أصول رومانية ، إلى أن مسلمى الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الرومانى Patrocinium وهو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٢ .

رأى معقول إذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التى أحاطت بتكوين النظم الإسلامية فى الأندلس ، فقد يكون أولئك الأندلسيون الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية من الداخلين فى ولاء البيت القوطى ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم إلى بنى أمية ليحتفظوا بها كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية . وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسى عندما ذهب إلى المشرق ليدخل فى ولاء الخليفة الأموى مباشرة^(١) .

١٨٢- ملاحظات ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الإسلامى فى ذلك العصر نظام أخيرة على الموالي الموالي ، وكان هؤلاء أنواعاً وطبقات : منهم موالى رسول الله ﷺ ، وموالى فى الأندلس عثمان بن عفان ، وموالى خلفاء بنى أمية ، ثم موالى بعض موالى البيت الأموى مثل مغيث الرومى وموسى بن نصير ، ثم موالى بعض القبائل العربية ؛ وقد كان عددهم جميعاً قليلاً بالنسبة لعدد السكان ، ولكن عددهم كان محترماً بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن يظل الموالي فى نفس الوضع الذى كانوا فيه فى المشرق ، ولكن الظروف المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم إلى التحارب فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالي مركزاً ممتازاً ، إذ ظلوا كتلة واحدة يسعى اليمينيون والشاميون إلى كسب تأييدها ، ثم سنحت لهم الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا فى إقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا ، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء فى الأندلس ، وأصبح وسيلة من وسائل علو المنزل فى المجتمع وعلو المرتبة فى الإدارة ، وأصبح أقرب إلى « الاصطناع » منه إلى الولاء الصرف . وأفاد من ذلك الإسبان الذين نقلوا ولاءهم من البيت القوطى إلى البيت الأموى ، أو الذين دخلوا منهم فى ولاء الأمويين على أساس الباتروسيونيوم الرومانى ، فاحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طالبت بالبيت الأموى الأيام فى الأندلس^(٢) .

وسيجرى على اصطناع الموالي كل أمراء البيت الأموى وخلفائهم ، فقد اتخذ كل منهم لنفسه موالى انضموا إلى طبقة الموالي ، حتى المنصور بن أبى عامر اتخذ لبيته موالى عُرفوا بالموالى العامريين .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Esp. Mus. III. p. 210 - 213.

(١)

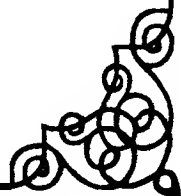
(٢) ويؤيد ذلك أن أولئك الموالي أصبحوا يسمون « بالآبناء » أى أبناء بيت الإمارة أو « أبناء نعم الخلفاء » كما يقول ابن القوطية (ص ٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء ، وقد كان الواحد منهم يسمى « خليفة » (انظر : ابن القوطية ، ص ٦٩) .

وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالي في المشرق ووضعهم في الأندلس يرجع إلى الظروف الخاصة التي أحاطت بهذا البلد خلال الفترة التي نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل موالي الأندلس في نفس وضع أشباههم في المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان الحال في مصر الإسلامية مثلاً . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر الولاة ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد الذي نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواحٍ أخرى من النظم الأندلسية التي وُضِعت أسسها في عصر الولاة .

* * *



المَجْتَمَعُ الأَنْدَلُسِي
(٢) المولَدون والمستعربون



تحدثنا في الفصل السابق عن عناصر السكان التي دخلت الأندلس بالإسلام أو مع الإسلام ، ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته ، وبدأت في تاريخ شبه الجزيرة اليبيرية صفحة « الأندلس » ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة في بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالى ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التي تعيننا في هذا الكتاب . وبقي الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

١٨٢ - إسبانيا وسنرى في سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الإسلام والعروبة قد أثرا في النطاق الغربي فيها تأثيراً لا نكاد نجد له مثيلاً في غير الأندلس مما دخل في رحاب قبل دخول العرب الإسلام ، فهذا الشعب اليبيري الذي دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعباً أوروبياً نصرانياً في غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلاً في نطاق الغرب الأوروبي الذي نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجهاً بإيمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية ^(١) ، ويتحدث لغة رومانية ييبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى ، سماها العرب لأول سماعهم إياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم بها سموها اللطينية ^(٢) . وكان هذا الشعب - نتيجة لذلك كله - يدور في فلك الحضارة الغالبة على غرب أوربا إذ

(١) انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : La Iglesia en la Espana Visigoda (en Historia de Espana dirigida por RAMON MENÉNDEZ PIDAL) tomo III. pp. 265. sqq.

(٢) انظر : RAMON MENÉNDEZ PIDAL : Origenes del Espagnol (3a. éd. Madrid, 1950.) مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التي كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلّة الأصول التي يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط ، أما بقيتها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر : ISIDIRO DE LAS CAGIGAS. Los Mozárabes (Madrid, 1947) p. 58 - 59 . Y nota 42 p. 73.

ذاك ، وهى حضارة لاتينية متأثرة بما حملته جماعات المتبريرين إلى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعد الأثر فى تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التى جرت عليها ممالك الجرمان جميعاً فى غرب أوروبا فيما بعد^(١).

١٨٤- طبيعة حركة الامتداد الإسلامى
ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل القوط سادة حكاماً يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظاً على سلامة عنصرهم أو صيانة لهية سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى . وإنه لمن مخالفة الواقع مخالفة مقصودة أن يقال إن امتداد الإسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو أنه كان إنشاء لامبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وإنما كان فى الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً ، فلا يكاد الإسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهبوا ليحملوا رايته بأيديهم . فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق ومصر ، ثم انتقلت الراية - فيما يتصل بنا هنا - إلى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون فى تلك الحركة كلها بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر إليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوة ورسولها عربى ، وكتاب الدعوة ودستورها - وهو القرآن - عربى ، والمثل الأخلاقية التى أدت إلى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع فى أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئاً عظيماً شديد الجاذبية ، ولا نزاع كذلك فى أن العربى الذى حمل عبء الفتح الأول ، وشارك فى بقية الفتوح ، وهاجر إلى البلاد - المفتوحة ، كان - مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية فى تلك البلاد - شخصاً ممتازاً جديراً بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعاً لا يهاب شيئاً ، دؤوباً لا يمل السعى ، كريماً لا يضمن بذات يده ، غنياً - إذا استثيرت عواطفه - عنفاً جاهلياً كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان إلى جانب ذلك رقيقاً تهفو نفسه إلى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه

(١) سندرس هذه الناحية فيما بعد .

بيت من الشعر إلى ما لا يحركه إليه الخطر الداهم^(١).

وكان أُلُوفاً بسيطاً لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصايرهم. وعتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم في أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوى القاسى يجب اللين والترف ويستطرف الجمال في شتى صوره ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم فإننا نجد هذا العربى الذى أشعل الأندلس نارا ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت . فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، وإسرافهم في الخصومة على هذا النحو الذى رأيناه ، ظلت المدن التى نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيداً عنها وهى آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمراً خاصاً بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا إليهم.

ومن أعجب ما يقرأ الإنسان في حوليات هذه الأيام أن الصميل بن حاتم ، هذا البدوى الجافى ، على ما رأيناه من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب إلى أربطاس كبير عجم الأندلس على أيامه في رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب إليه أن يمنحهم شيئاً من الأرض ، ولقد حاوره أربطاس محاورة ند لند ، بل أخذ يُقرّعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، إن أهل دياتك يخبروننا أن أديهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر على بر من بررت ! » ثم مضى يلقي عليه درساً في الإيمان فقال : « إنكم يكرامكم [من أكرم] الله ، إنما تكرمونه عز وجل . وقد رويانا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم الله من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه » . ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : « فكأنها ألقمه حجراً ! ثم «وهيبم» مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بآيات جعلته يغير سياسته نحو اليمنية ، مما كان له أبعد الأثر في تاريخ الأندلس في هذه الفترة ، وهذه الآيات هى :

أفأنتم بنى مروان قياً دماءنا	وفى الله - إن لم تصفوا - حكم عدل
كانكم لم تشهدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا	ولبت لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المثارب والأكل
تفاقلتم عنا كان لم يكن لنا	بلاء وأنتم - ما علمت - لها غفل

.... إلى آخره .

قال ابن القوطية : « ولما وردت الآيات منه ولّى حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية ، وأمره أن يولى عمه أبا الخطار الأندلس »

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨-١٩ .

ضياع»^(١).

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، وإذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب إلى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشيء. وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحداً من كبار صالحى العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرتباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه بعتمرها بيده ويؤدى إليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرتباس : « لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع إليه المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد وادفع إليه القلعة بحيان ، وهى المعروفة بقلعة حزم ، فملكها... »^(٢).

١٨٥- العرب وإذن فلم يستقر العرب فى الأندلس سادة مترفعين ، وإنما نزلوها ناساً عاديين وأهل البلاد يطلبون العيش فى سلام إلى جانب أهل البلاد . وربما كان هذا السلوك العربى أثراً من آثار البيئة الأندلسية فيمن نزلها من العرب والبربر ، فقد كان الإيبيريون الرومان شعباً مسالماً مجدداً حسن العشرة ، لم يلبث أن أنس إلى العرب وأنسوا إليه . ولدينا صورة طريفة جداً عن الحياة العائلية فى بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد ، قال صاحب « الأخبار المجموعة » فى أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم إن ابنه عبد العزيز تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فهِمَّ بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتزوجوا فلا ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندى من الجوهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس هذا فى ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ .. فلم تزل به حتى فعل . فبينما هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد ابن النابغة التميمي . من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فو دين المسيح إنه لعلى إمامكم ! فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا : تنصر ! ثم هجموا عليه فقتلوه ... »^(٣).

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

وربما تكون يد القصاص قد فعلت فعلها في هذا الخبر ، ولكن مغزاه في جملة عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التي كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم في الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلي فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعاية ذات معان عظيمة بالنسبة لمن يؤرخ لذلك المجتمع العربي الأيبيري ، أو الأندلسي بتعبير أصح ، الذي نشأ عن الفتح الإسلامي للبلاد^(١).

١٨٦- التزاوج لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع التزاوج بين العرب وأهل المسلمين وأهل البلاد ، إلى الجوارى ، ومضى يلتمس في مجموعات الوثائق البلاد المستعملة - كمجموعة أبي جعفر أحمد بن محمد بن مغيث - نصوصاً تثبت إقبال العرب على شراء الجوارى الجليقيات والقطلونيات ومن إليهن^(٢) ، ولكن فاته أن الزواج بالجوارى كان قليلاً بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن في تلك البلاد . قال الإصطخرى : « والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجوارى المثلثات ، تأخذ الجارية والخدام عن غير صناعة على وجوهها ألف دينار وأكثر »^(٣) . ولم يكن يستطيع دفع هذا الثمن إلا القليل ، أما بقية العرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذى رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المُنْدُ بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك إياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمي ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجرّز ، وهؤلاء أشرف ولد عمير بإشبيلية ، إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره »^(٤) .

JULIAN RIBERA Y TARRAGO, Disertaciones Y Opúsculos (Madrid 1928) tomo I. p. (١) 122 .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالإصطخرى : مسالك الممالك ، طبعة دي خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦ .

ولقب بنى حجر الوارد هنا : الجرّز ، يغلب أنه لفظ عجمي : el gordo ، أى : السمين . وبني سيد الوارد ذكرهم في النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

وإذن فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الإسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا إرغام الناس على دخول الإسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الإسلام ، أو عن كراهة لانتشار الإسلام بسبب إضراره ببيت المال كما يقول ليفي بروفنسال^(١)، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذي جروا عليه في نشر الإسلام في كل بلد دخلوه : كانوا - على الأغلب - يدعون الناس حتى يتيبنوا فضائل الإسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحاً أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعنى بالدعوة إلى الإسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرصون على إدخال الناس في الإسلام ، ومثال ذلك : « أن الناس قحطوا بإفريقية عاماً فخرج [موسى ابن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلاً فقص على الناس ورقّتهم ، فجعل يذكر ... »^(٢).

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلولى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل »^(٣).

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع انتشار الإسلام في الأندلس ، ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان انتشار الإسلام وقوته في الأندلس في أول ولاية السماح بن مالك (١٠٠هـ / ٧١٩م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد إلى السماح بإخلاء الأندلس من الإسلام ، إشفاقاً دخل عليهم (كذا) إذ خشى تغلب العدو عليهم ، فكتب إليه السماح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلمهم ، فوجه حيثنذ جابراً مولاه ليخمس الأندلس .. »^(٤).

أما ابن عذارى فيقول إن السماح كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن الناس قد

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de L'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) tome I, p. 74.

وقد قال ذلك أيضاً في كتابه عن « إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر » ص ٣٢-٣٣.

(٢) انظر القطعة التي أوردها خليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلب أنها مقتطعة من « الإمامة والسياسة » ، ص ١٨٤ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، طبعة محي الدين ، ج٤ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

والعبارة التي كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها : إشفاقاً [عما] دخل عليهم ...

كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك «^(١)» ، والمراد بالناس هنا المسلمون . ثم إن الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلداً إسلامياً استبحر الدين واستقرت قواعده فيه ، وتلك ظاهرة فريدة في بابها ، فإن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهي حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعثر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧- عجم وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعاً اسم العجم أو عجم الأندلس وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومي ، وإن كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصراني أو النصراني المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين^(٢) .

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون في الإسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالمة - مفردة مُسلم - أو الأسالمة - مفردة أسلمى - ثم أطلق على أولادهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين - مفردة مولد - واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز^(٣) .

١٨٨- خطأ أما لفظ « مستعرب » ، وجمعه مستعربون ، فلم يظهر في النصوص تسميتهم أو الكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان بالمستعربين اللفظ جارياً على الألسن في اللغة الدارجة ، كما نقول نحن « إفرنجي » فإذا كتبناه قلنا فرنسي أو إنجليزي أو أوربي أو أمريكي . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الأدب ومن إليهم ، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم في كتابات

(١) ابن عذاري : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص ٢٦ .

(٢) انظر البيان الذي أورده سيمونيت :

FRANCISCO JAVIER SIMONET. Historia de los Mozárabes de España (Madrid, 1897 - 1903) pp. VII- IX del Prólogo.

(٣) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص ١٦ من المقدمة .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) I. pp. 74 - 75.

نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو الإسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادى عشر أيضاً .

ففى الوثائق اللاتينية كانوا يقولون : Castellanos, Mozárabes atque Francos ، وذلك تمييزاً للنصارى الأندلسيين من أهل النواحي التى استولى عليها ملوك إسبانيا النصرانية عن القشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون إلى إسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم فى حرب المسلمين ، ثم استقر فى النواحي التى استغلبيها النصارى وأصبح من أهلها . وكان ملوك النصارى يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الإسلامى الذين دخلوا فى طاعتهم . فقد كان أولئك الآخرون مستعربين ثقافة ولساناً وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة El Rito Mozárabe ، وكان لهم رجال دين خاصون بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغة خاصة هى عجمية أهل الأندلس ، وهى خليط من الايبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى إسبانيا جميعاً .

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها فى إسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها إسبان نصارى مستعربون ، لأن إحدى الوثائق التى صدرت عن الامبراطور ألفونسو السابع حوالى سنة ١١١٨ تقول : quos vacabunt Mozárabes (= الذين يسمون مستعربين) ، وفى خطاب وجهه البابا يوجين الثالث إلى أهل طليطلة سنة ١١٤٦م (سقطت طليطلة فى أيدي النصارى سنة ١٠٨٥م) يقول : quidam Muzárabes Noncupantur (= أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء فى تاريخ حياة القديس تيوتونيوس Teotonius التى كتبت فى نفس العصر : -quos vulgo mozárabes vo-cant (= وأولئك نفر من المسيحيين الذين يسمون فى اللغة الدارجة مستعربين) وفى منشور صدر عن الامبراطور ألفونسو السابع إلى أهل وادى الحجاره سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum...

(= إليكم يا جميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقاً واضحاً كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى في طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعراهم ، فقد جاء في كتاب عن الراهب شيمينيوس أسقف طليطلة:

*Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistárabes
appellati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistárabum*

(= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعرية)^(١).

وخلال القرن الثاني عشر ظهرت الكلمة في وثائق النصارى الأندلسيين في البلاد التي استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلاً : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان - أيام العرب كان يسمى يحيى - المستعرب) . وفي بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء في إحدى الوثائق « دون يوان - مستارب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة في هذه الوثائق في صورتها العربية الصحيحة : « دون بطرّه بن مرتين مستعرب » و« دون لب بن بيطره مستعرب » و« .. من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقشتائين » و« دون دُمْنَقَه (Domingo) ابن بيطره الذي كان أميناً للحصارين » . بل كانوا يستعملون اللفظ في صيغته الإسبانية : « .. بقرية عين الديك المسماة ببال دى مستعربش في شُشْلة مدينة طليطلة » ، أى أن قرية عين الديك كانت تسمى *Val de*

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمونت في مرجعه الذي أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة) .

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل الذمة من النصارى الذين عاشوا في ظلال الحكم الإسلامي بالمستعربين ، وهي تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع في ذلك الخطأ هو سيمونت نفسه ، فإنه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل في اكتشاف أصله العربي ، فقد كان الناس قبله في حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم محرفاً عن *Mixtarabes* أى المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقرأ اللفظ « مستعرب » بكسر الراء وصحته بفتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون « موزاراب » لا « موزاريب » . وقد جرى على نفس الخطأ فسمى نصارى الأندلس الإسلامي مستعربين ليفي بروفنسال وإيزيدورو دى لاس كاخيغاس وبقية مؤرخي إسبانيا الإسلامية من الأوربيين . وقد عتينا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ في كتب المسلمين فلم نجده ، فرجع لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على ألسنة الناس في الأندلس للدلالة على الذميين الذين استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر في الكتابات إلا من القرن الثاني عشر الميلادي أو أواخر الخادي عشر على الأكثر : ظهر في الكتابات اللاتينية أولاً ثم انتقل إلى كتاب الإسبان أنفسهم كما هو وارد في النص .

Mozárabes (وادى المستعربين) فى ناحية طليطلة (١).

وإذن فلفظ مستعرب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية ، وإنما كان الجارى قولهم : « العجم » أو « النصارى » أو « نصارى الذمة » ، تفرقاً لهم عن أسلم منهم حديثاً (الأسألة والمسألة) أو أبناء هؤلاء (المولدين) . فابن حيان يقول : « حصون المسألة والنصارى » و « تحزبت المسألة مع المولدين » وابن الأبار يقول : « فصب على المولدين والعجم منه » .

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الإسلام فى معظم الحالات ، فقد اختلط العجم بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم فى الحياة ، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً ، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوقاً فى العربية ، بل منهم من تفوق فى الفقه ، فقد جاء فى « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضى فى ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، من أهل إشبيلية أنه كان « من مسألة الذمة ، فملاً إشبيلية علماً وبلاغة ولساناً ، حتى شرقت به العرب ، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالى قتل يومئذ ، وذلك سنة ٢٧٦ » (٢).

وكان هذان الفريقان : أهل الذمة والمسألة ، ثم أبناؤهم من المولدين ، يُكوّنون معظم سكان الأندلس ، ابتداء من نهاية الفترة التى نتحدث عنها . وكان عدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسألة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس .

١٨٩- المسألة فأمّا عن المسألة والمولدين فواضح من النصوص أنه لم يكن هناك فرق ما بين والمولدون وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصلاً ، فقد كان الذمى إذا أسلم انتقل إلى وضع المسلمين دون تفریق أو تمييز ، وهذه ظاهرة أخرى يختلف فيها الأندلس عن سائر نواحي الدولة الإسلامية ، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة . نعم شرع بعض الولاة فى إحصاء نواحي الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحاً وما فتح عنوة ، كما سنرى ، ولكن هذه العمليات لم تتم ، وبقي الحال فى الأندلس مبهماً فى هذه الناحية ، فأصبح غير المسلمين كلهم ذمة دون تمييز ، ومن أسلم منهم دخل المجموعة الإسلامية ، وتلاشى كل شىء يتصل بأصله تماماً .

F. J. SIMONET, op. cit. pp. XIV - XV.

(١)

(٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ترجمة ٦٤٧ .

وربما كان السبب فى ذلك هذه القلقلة التى سادت عصر الولاة كله ، فلم يتسع وقت الولاة لتنظيم شىء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسنرى مصاديق ذلك فى كلامنا عن الإدارة والمال فى الفصل التالى ، وستبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو أن « جهيزة » الولاة والعمال عملت فى هذا البلد عملها الذى عملته فى غير الأندلس من بلاد الإسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرقة فى تاريخ الإسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن إسبانيا القوطية ضمت من الأولين آلافاً كثيرة ، ثم إن حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الإسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات فى الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها فى الأمصار الأخرى ، وأن أهل الأرياف كانوا أحراراً ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا فى ظل هذا العهد الجديد الذى طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفها أوروبا إلى أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل .

١٩- راى كان أولئك المسألة والمولدون إذن من طبقات اجتماعية شتى قبل إسلامهم ، بروفنسال كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع وأهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موالٍ وغير موالٍ ، فتساووا جميعاً فى رحاب الإسلام . وجدير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى إمارة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاماً إلى جانب الأمراء .

ويؤيد الأستاذ ليفى بروفنسال ما ذهبنا إليه من إقبال أهل الجزيرة على الإسلام ويقول : « وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا فى هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين فى إسبانيا قبل الإسلام بزمان طويل ، وذهب بعضهم إلى ادعاء نسب عربى - دفعوا فى تلفيقه مالأ كثيراً - يسمح لهم بالزهو بأنهم من أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد إسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها مثل

بنى أنجلينو Angelino وبنى شَبْرِيْقُ Savarico الإشبيليين ، وفيها بعد ذلك بزمان طويل ، بنى لُنُقُ Longo وبنى القَبْطُرُنُ Kabturno وآخرين كثيرين .

ولقد فخر أحد مؤرخي إسبانيا الإسلامية ، وهو ابن القوطية ، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ، بأصله الذى يرجع به إلى بيت الملك غِيْطْشَة ، وهذا هو السبب فى تلقيه باين القوطية . ولكن الذى كان يحدث فى غالب الأحيان أن التزاوج بين المولّدين والمسلمين الداخلين كان يقضى عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الإسبانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية ، وأصبح من العسير شيئاً فشيئاً تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم .

« ومهما يكن من أمر فإنه - حتى فى حالة أولئك الإشبان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا فى نطاق نظامهم الاجتماعى - لم يفقد المولدون أبداً شخصيتهم الخاصة بهم ، وإنه ليرجع إلى وجود أولئك المولدين فى ذلك البلد - ووضعه متطرف وجزرى منعزل بالنسبة لبقية بلاد الإسلام - أن تميز الأندلس فى نواح كثيرة بأنه قطعة فريدة فى بابها فى عالم الإسلام ، سواء أكان ذلك التفرد فى صور حياته السياسية أو كان فى مثله الأعلى الحضارى والثقافى .

ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادى) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية قط هى اللغة الوحيدة المستعملة فى الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالايبيرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شئ من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه إلى عصر متأخر من عصور التاريخ الأندلسى ، غلبت على السنة أهل الأندلس رطانة عامة إسبانية ^(١) فى كل مكان تقريباً ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك أظهر فى الأرياف منه فى المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية ^(٢) .

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ xóñe اليونانى . والكوينيه كانت لغة دارجة مستعملة فى البلاد التى على شواطئ البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين فى نواحي هذا البحر كلها .

(٢) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) Paris, 1950 Vol. I, pp. 76 - 77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة فى الهامش بالإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب دار بلى =

١٩١- آراء في وفي موضع آخر من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » يقول ليفي بروفنسال :
 أجناس سكان « وتعطينا عبارة لم تنشر بعد لمؤلف أندلسي نجهل اسمه ، أوردها في سياق
 الأندلس رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس^(١) بياناً بالغ الغرابة عن التكوين
 البشري للمجتمع الأندلسي وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التي كان يتألف منها
 السكان المسلمون في الجزء الذي سادته الإسلام من شبه الجزيرة في نهاية الخلافة بشيء من
 الأعمال الزراعية أو الصناعات اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره
 ذلك المؤلف المجهول إلى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب
 أو إفريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الإسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم -
 بطبيعة الحال وفي المكان الأول - العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا
 إلى الأندلس من جزيرتهم بكل جرائيمهم (= أصولهم) . وقد انضافت لكل من هذه
 الأجناس جماعات من الموالي » .

« واستناداً إلى المعلومات التي يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا إسبانيا من
 الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبيا أو إفريقية وحتى من السوس الأقصى ،
 يتجمعون في المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة
 ويحتلون أعلى الوظائف في خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عونا

= شمال قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون « اللطينية » (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان
 شيئاً نادراً .

(١) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس في القديم » ، وقد أُنْف في القرن الخامس عشر . انظر :

LÉVI - PROVENÇAL : Islam d'Occident. I p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط في المكتبة الشريفة في رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه في الورقة ٢١ .
 وإليك نص التعليق الذي يشير إليه بروفنسال في هذا المرجع : ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة
 في مراکش ، وهو موجود في المكتبة الشريفة في رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير
 إما إلى عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ / ١٦٨٠ م - انظر عنه كتابي (كتاب بروفنسال) تاريخ الشرفاء
 Historiens des Chorfa, pp. 264 - 265 - أو إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة النرين »
 المتوفى في فاس عام ٨٠٧ / ١٤٠٤ - ١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب إلى المؤلف الثاني أقرب إلى المعقول ، بشرط أن
 يُفهم أن الإشارات المتعلقة بحوادث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أُضيفت فيها بعد ، وهي إشارات كثيرة تتعلق
 بحوادث القرن التاسع الهجري . انظر : عبد الحى الكتاني : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، ج ١ ،
 ص ١٠١ .

Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX.
 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدينا آراءنا فيها في المتن .

باستثمار أراضيهم . وليس في هذه العبارة - أى عبارة المؤلف الأندلسي - شىء جديد لم نكن نعلمه . ويكفى أن نلقى نظرة على خريطة توزيع السكان في الأندلس في القرن التاسع ، لكى نتبين أن المهاجرين العرب لم يعقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا في الأندلس في المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصباً أو التى حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحلى والذى يليه إلى الداخل في جنوبى الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم في هذه النواحي بأحسن الأراضي ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولاً تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء في ممتلكاتهم ، أو - وكان هذا هو الأغلب - في عواصم النواحي أو في كبار المدن ، وخاصة إشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى في العاصمة (قرطبة) في القرن العاشر ، إذ اجتذبهم إليها لطائف الحياة المترفة التى كان يحياها أشراف قرطبة حول بلاط الخليفة...»^(١).

وقد عاد بروفنسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسي وذهب إلى أن سكان الأندلس يُقسَّمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلي :

(أ) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين صلحاً ودخلوا في الإسلام وأقاموا في مواضعهم التى كانوا فيها .

(ب) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا في مواضعهم .

(جـ) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصارى الذين أتت بهم الفتوح والغزوات ، ثم اعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً في الأندلس^(٢).

ثم قال : « إن هذا التقسيم يبدو مطابقاً للواقع إذا عرفنا أن دخول الإسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة في الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحاً ومن أسلموا عنوة . وعلى أى الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد - الذين كانوا يُعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسالمة (أو الأسالة) ، وبحسب هذا النص - على تربية الماشية والزراعة في الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما في المدن فقد زاولوا ، هم ومواليهم حرفاً وأشغالاً يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III pp. 172 - 173.

(١)

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III p. 180.

(٢)

التقريب . وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهي تؤكد الدور العظيم الذى قام به المولدون - الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية - فى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، فقد كانوا فى هذه الناحية أوفر العناصر نشاطاً وأكثرهم تلاؤماً مع ظروف الحياة فى شبه الجزيرة ، مثلهم فى ذلك مثل المستعربين ثم البربر إلى حد معين .

وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك بإطلاق الحرية للكثيرين منهم فى أن يتمولوا ويندرجوا أكثر فى الجماعة الإسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكون أرستقراطية قليلة العدد جداً . وكذلك دل الذين سبقوهم إلى حكم الأندلس فى القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين ، فحلوا - على الصورة الوحيدة المعقولة - تلك المشكلة التى واجهتهم كما واجهت غيرهم من حكام المسلمين فى كل البلاد التى استقر فيها أمر الإسلام ، وذلك الحل هو السيطرة - بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم - على بلاد واسعة لم يكن الفاتحون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتلال ما يكفى للمحافظة عليها ولمواجهة موقف العداء الذى اتخذته أهل البلاد الذين كانوا ينتظرون أول فرصة ليتحرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال^(١).

١٩٢ - خطأ هذه الآراء والأحكام وهذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ذلك المؤلف المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها على معرفة صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصور الأولى ، فلم يكن سكان الأندلس يتألفون من العناصر الأربعة التى ذكرها أولاً وهى : العرب والبربر والنصارى واليهود الذين أسلموا ، أو من العناصر الثلاثة التى ذكرها ثانياً وهى : الإيبان الذين فتحت نواحيهم صلحاً ثم أسلموا ، والذين فتحت نواحيهم عنوة ثم أسلموا ، ثم أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، ويضاف إليهم أولاد أسرى الغزوات والفتوح الذين استقروا فى الأندلس .

فأما تقسيمه الأول فواضح منه أنه أسقط النصارى الذين ظلوا على دينهم ، وكانوا كما سنرى يمثلون نسبة هائلة من سكان البلاد ، وأما تقسيمه الثانى فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم إن تقريظه بين من فتحت نواحيهم صلحاً ومن فتحت نواحيهم عنوة لا محل له

هنا ، فإن مسلمى الأندلس لم يستطيعوا أبداً تمييز أرض صلح من أرض عنوة في هذه البلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى اعتبار من أسلم منهم جميعاً مسلمين يتمتعون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهل ذمة ، وطبقوا عليهم أشراف الشريعة في أبسط صورها .

وينبغي أن نلاحظ أن صدر الإسلام لم يعرف ما عرفته العصور المتأخرة من مضايقات أهل الذمة ، كاختصاصهم بملابس خاصة وتحريم ركوب بعض الدواب عليهم وما إلى ذلك ، إنما كان الإسلام إذ ذاك سمحاً طلقاً يترك الناس وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه الساحة هي التي حبيت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنما اجتذبهم إليه عدم إصرار المسلمين الأول على إدخالهم في الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقننون ويشرعون ويخرّجون ويستعينون بالعوام على إقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة - إن لم يزد عليه - ظهرت هذه المضايقات التي ازدادت ثقلًا كلما بعد العهد بسماحة الإسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء إنقلاً على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكاً به ونفوراً من الدخول في الإسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وإنما تحدياً وتهديداً ، والتحدى من جانب يبعث تحدياً في الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبي في دراسته الجلية للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مستقاة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخرين ممن كانوا ينظرون في كتب الفروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاماً يطلقونها على الماضي ، ظناً منهم أن الإسلام كان هكذا دائماً ، أو رغبة منهم في توجيه سياسة أهل الحكم في أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

ولقد تابع بروفسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك في الأندلس تمييز بين
١٩٣ - هل كان
العرب أرستقراطية
مترفعة عن غيرها
في الأندلس ؟
أهل الصلح وأهل العنوة ، وسرى أن شيئاً من هذا لم يكن في الأندلس ،
ثم اعتبر اليهود جنساً قائماً بذاته ، ولم يكونوا إلا قلة اندرج معظمها في
عداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده إن العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة ،
والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وإنما كانت الأرستقراطية الحقيقية في بيوت الموالى ولم
يكونوا عرباً على ما رأيناه في الفصل السابق ، وقد ظل الجاه والسلطان في هذه البيوت إلى
آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم في أهل البلاد من اندرج ، وبقي منهم

في العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم، وبقيت منهم في الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم، فيما عدا عرب الكور المجندة، وكان هؤلاء وضع خاص كما سنرى، إذ كانوا نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين في كل مكان في تلك العصور.

وعندما استبدل أمراء بنى أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب إلى المكان الثانى، فأحفظهم ذلك، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التى أشعل العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد إلى أوائل عهد الناصر. ويلاحظ بصفة خاصة أن ثورة العرب هذه وغضبهم على الأمراء، الذين أحلوا غيرهم مكانهم في الجيش واعتمدوا على الموالى في شئون الدولة، كانا السبب الأول في اتجاه العرب إلى أذى المولدين والعجم، وهذا الأذى بدوره هو الذى روع هؤلاء واستنهضهم إلى المقاومة، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم إليهم من نصارى الذمة، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو ثقل الجبايات، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتماله يجاوز الطاقة كما قال بروفنسال.

* * *

١٩٤ - أهل الذمة من الطبيعي أن يكون أهل الذمة معظم أهل الأندلس الإسلامى خلال السنوات الأولى التى أعقبت الفتح، وأن يقل عددهم شيئاً فشيئاً كلما قدم عهد الإسلام في البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والبربر والمسالمة والمولدين. ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين، ما بين عرب وبربر في الريف والمدن، وأشرنا كذلك إلى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين في الوضع والمعاملة، لم يظهر إلا في عصر متأخر، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب، بل على المسلمين أيضاً.

ولقد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة أحوال الذميين في الأندلس وغيره من بلاد الإسلام، عندما التمسوا الحدود والقواعد التى وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الإسلامية، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت في زمن متأخر عن عصر صدر الإسلام،

فهى لا تمثل الوضع في صدر الإسلام ، بل هى لا تمثل الوضع في العصور التى كتبت فيها ، فالكثير مما تحويه من قواعد وأحكام إنما تمثل « أمانى » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى إليه تصورهم وتفسيرهم للآيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة .

ونحن إذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبى يوسف ، أو كتاب « الأموال » لأبى عبيد ، أو « الأحكام السلطانية » للماوردى إنما ندرك أن ما في كتبهم إنما هو « المثل الأعلى » للنظم الإسلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذى كان جارياً بالفعل : إذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير مما في هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ، حسباناً منهم أن هذا يسرع بإسلامهم ؛ ولم يتحقق شيء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع إسلامهم .

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار عرب الأندلس والذميين في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة

وكبير نصارى الذمة أرطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب ، وأن ميمون العابد ، وكان قطباً من أقطاب الإسلام الأندلسي في ذلك العصر ، ذهب يطلب إلى هذا الذمي قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أى اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصيين مستبدين - كما زعم خافيير سيمونيت ، وايزيدورو دى لاس كاخيغاس - لما احتاج هذا الرجل إلى أن يطلب أرضاً من أرطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع في أن العرب لم يمسوا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبی ﷺ أثناء عبوره إلى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشرکين » (١) ، وهى رواية أسطورية في الغالب ، ولكنها على أى حال تدل على اتجاه المسلمين حيال غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . وما يؤيد ذلك عبارة للرازى يقولها في سياق الحديث عن أم عاصم (إيلونا) زوج لذرقي : « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها ، إلى أن

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ، ويقال إنه سكن بها في كنيسة ياشبيلية ^(١) ، مما يدل على أن من كان يصالح على نفسه من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء « في ظل نعمته » .

وسرى أن ذلك كان صحيحاً في جملته وتفصيله ، وأن كل ناحية من نواحي الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت في الروح والأساس ، بل إننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفاً واسعاً فيما يعقدونه من عهود مع أهل النواحي ، بل ذهب بعضهم إلى حد « الابتكار » الذي يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من أنه « عندما وصل موسى إلى الفج المنسوب إليه انقطع إليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالي موسى » ^(٢) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما حكاه الرازي عن فتح طارق لاستجة ، قال : « ثم نازل أهل استجة ، وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها ، وكان مغترأ سىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى للمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلى سبيله ، فوفى بها عاهد عليه .. » ^(٣) . وقد كان المسلمون يحرصون على الوفاء بعهودهم ، حتى في الحالات التي يبدو لهم أنهم خدعوا فيها ، كحالة تدمير الذي احتال على جند المسلمين بحيلة بارعة فصلنا أمرها في كلامنا عن الفتح ، وقد وفى المسلمون رغم ذلك لتدمير ، قال الرازي : « فمضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم » ^(٤) .

١٩٦ - عهود المسلمين للنواحي وقد ضاعت نصوص معظم المعاهدات التي عقدها المسلمون مع ما فتحوه ولكن بقى لنا النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع

(١) رواه المقرئ في نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ١٤ .

(٣) رواه المقرئ في نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

تدمير وقطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازي في القطعة الباقية من تاريخه في ترجمتها الإسبانية ونصها : «... فذهبوا (يريد أهل ماردة) إليه ، وقالوا إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن جرح (في القتال بينه وبينهم) وممتلكات الكنائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة وكل ممتلكات رجال الدين . وبعد أن تم التوقيع على ذلك في عهود صحيحة (مؤكدة) فتحوا له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه إياها ، ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضى دون أذى .. » (١).

وأما نص الأمان الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير فقد أورده الضبي في « البغية » ، ووردت ترجمته الإسبانية في قطعة الرازي المشار إليها ، وقد أوردنا نصه في كلامنا عن فتح الأندلس وسنعرض له في الفصل التالي عن الإدارة ، ويهنا في هذا المقام أن ننص على ما فيه من الضمانات التي منحها للذمين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الإسبان في دراسة أحوال أهل الذمة في الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنصارى » . وهى وثيقة ظاهرة الوضع ، إذ أنها تشير إلى إلزام النصارى بملابس خاصة منها « القلنسوة » و « العمامة » وهى ملابس لم يعرفها المسلمون في أيام عمر رضى الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما إلى ذلك ، ولم يُعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساساً لدراسة أحوال أهل الذمة في عصر صدر الإسلام (٢).

(١) النص :

"...Et fueronse para el, et pletaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, ansi como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clerigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrieronse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal ... "

PASCUAL DE GAYANGOS, Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis. p. 78.

(٢) نشر هذا النص المستشرق بيلان في المجلة الآسيوية الفرنسية . انظر :

BELIN, Fetoua relatif à la condition des dzimmis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans, dans Journ. Asiat. tome XVIII de la IVe. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت في كتابه الأنف الذكر . ملحق ٢ ، ص ٨٠١ وما يليها .

١٩٧- تطور يبدو أن مؤرخي الإسلام جميعاً ، ما بين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير المسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التي جرى المسلمون عليها في حكم الأقاليم والمعاملة التي اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وإنما تكاملت شيئاً فشيئاً مع الزمن ، وخضعت في كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب في كتاب « الخراج » إلى أن تقدير الجبايات تقديرًا إجمالياً ودفع الخراج جملة واحدة غير جائزين ، في حين أن الوثائق البردية التي عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر: ففي مصر مثلاً اتفق عمرو بن العاص مع ممثلي القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعاً ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، ثم كان التقسيم والتقنين بعد ذلك ^(١).

بل إن تحديد معنى الجزية والخراج غير واضح ، فتسمى الجزية في بعض الأحيان « خراج الرءوس » ويسمى الخراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقدوا العهود مع أهل البلاد المفتوحة هم الفاتحون ، وهم رجال عسكريون عمليون ، كل ما كان يعينهم إقرار الأمن وضمان طاعة البلاد المفتوحة وإشعار أهلها بسباحة الإسلام وعدل الدولة الإسلامية ، ثم ضمان حق الدولة في الجبايات ، وهم لهذا كانوا لا يدققون في طريقة الجباية ولا يتدخلون في شئون أهل البلاد إلا بالقدر الذي يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر إلى أيدي الفقهاء والمقننين إلا فيما بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب علمي : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتمسون الأحكام من القرآن الكريم والسنة ، ويتصرفون فيما يصدرونه من أحكام تصرفاً واسعاً ذكياً يدل على إدراك وسعة فهم ، كما نرى في موطأ مالك وما استند عليه مثل مدونة سحنون .

ثم مضى عهد كبار الفقهاء وأئمة الشرع في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً ، وبدأ عهد « الفقهاء السياسيين » أي الفقهاء الذين طمحووا إلى السلطان عن طريق التقرب من الحكام حيناً أو الاستعانة بالعوام حيناً آخر لإقامة جاه يستندون إليه . ولا نجد هذه الظاهرة

(١) انظر مناقشة ذلك في :

C. H. BECKER, Beitrage zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam. II, p. 83 sqq, 124 sqq.

-,Die Entstehung von Ustr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) 301 - 319.

-,Papyri Schott Reinhardt, I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

على صورتها الواضحة ، التي يمكننا تأريخها ، إلا في المغرب والأندلس ، وفي هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجهاً لوجه أمام دولة الأمراء ، ونجد دولة الفقهاء تبنى جاهها على إيمان العوام ، وتشرع بما يرضيهم ويستثير عواطفهم ، ومن هنا كانت مناديتهم بكل ما يرضى مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحريض الأمراء عليهم وتحريض العامة على الأمراء إذا هم قربوا رجلاً منهم^(١) . وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع ، وربما ابتكروا وثائق ونسبوا إلى رجال الدولة الإسلامية الأولى ، كما رأينا في الوثيقة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب وكما نرى في الوثيقة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير^(٢) .

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر عن إدراك فطري أن هذه هي السياسة المثلى لاجتذاب الناس إلى الإسلام وإقناعهم بعدالة الدولة الإسلامية . وذلك أمر لا ينبغي أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الإسلامية : ينبغي أن نقف عند ما لدينا من الوثائق الأصلية وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة إكمال الفجوات من أحكام أبي يوسف ، وقدامة بن جعفر ، ويحيى بن آدم ، وأبي عبيد بن سلام .



ضمن المسلمون للتصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، وأدخلوهم
 ١٩٨- المسلمون يدفعون أهل الذمة أحراراً
 في ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الإسلامية .
 وسنرى في الفصل التالي أن المسلمين في الأندلس لم يفرقوا كثيراً بين
 الصلح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريباً نفس الحقوق ، ولم يمس المسلمون من
 الممتلكات إلا ما كان ملكاً لبيت لذريق وأفراده أو للذين قتلوا في الحرب مع المسلمين ،

(١) انظر مثلاً تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الرضى لأنه أطلق يد ربيع القومس متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى في المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦) ، ص ١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأمير محمد على قومس بن أثنيان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٨٢ - ٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والتصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة » .

وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أخرج خمسها فجعل ملكاً للدولة ، وترك الباقي بيد من كانوا يزعمونه يؤدون عنه خراجه فيئاً للجماعة الإسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جداً ، فإن الدولة لم تستطع إحصاءها كلها ، بسبب اشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل إن المسلمين أطلقوا أسرى النصارى في أراضي الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان .

١٩٩ - النصارى وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً ينظمون أمورهم على النحو يتقاضون بقانونهم الذى أرادوه ، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون في أفضيتهم وفقاً للقانون القوطى القديم^(١) ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجماعات المسيحية الكبيرة في المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comes ، وهو لقب كبير كان مقصوراً قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكان الفتح الإسلامى رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية^(٢).

٢٠٠ - الجماعات النصرانية تنظم أنفسهم وقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدنى وإدارى أيضاً ، أى أن القائمين بأمره كانوا مسئولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم ، كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم بحسب القانون القوطى ، وكانوا يشرفون على كنائسهم ويتولون أمور قساوستها ، أى أنه وُجد من أول الأمر نظامان إداريان جنباً إلى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما في القضايا التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام ، ولهذا جاء في أحد كتب الفقه الأندلسية : « ويستحب للقاضى الجلوس للحكم في رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضيق عليه في جلوسه في غيرها ، ليصل إليه اليهودى والنصرانى والضعيف وهو أقرب

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفي الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم Lex Gothorum أو Lex Judi cum .

SIMONET, op. cit. pp. 106 - 107.

(٢)

المواضع « (١) ».

٢٠١ - التشريع
الإسلامى والقانون
القوطى

وسنرى فى الفصل التالى أن مسلمى الأندلس فى ذلك العصر كانوا يجرون فيها يتصل بالتشريع والتنظيم على مذهب الأوزاعى ، وهو مذهب أهل الشام فى ذلك العصر ، يعتمد على القرآن والسنة ، وينسج مجال الرأى ، فيعتبر ما فعله الصالحون من خلفاء بنى أمية من الآثار الصالحة التى يمكن القياس عليها ، وقد كان العصر الأموى كله عصر فتوح وحروب وتوسع كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم جديدة فى الإسلام ، وكان لابد من القضاء فيها برأى سريع حازم عملى ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعى فقه عسكرى ، وكان معظم امتداد الإسلام إذ ذاك فى بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطى أو الرومانى ، فدخل تشريع خلفاء بنى أمية ورجالهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية والرومانية ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعى تأثر بالتشريع الرومانى^(٢) ، وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هذا الرأى اعتزازاً منهم بأصالة التشريع الإسلامى^(٣).

ونظن أن الوضع فى الأندلس يعطينا رأياً نافعاً فى هذا الموضوع ، فها نحن أمام حالة فريدة فى بابها : تشريعان ساريان جنباً إلى جنب تقر الإدارة الإسلامية ما يصدر عنها : تشريع إسلامى يطبق على المسلمين ، وغير المسلمين فى حالات خاصة ، وتشريع قوطى رومانى نصرانى يطبق على النصارى . والتشريعان يسيران جنباً إلى جنب . فإذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس فى الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أى يطبق عليهم القانون القوطى ، وأن القاضى المسلم كان إذا جلس للحكم ، جلس فى موضع يصل إليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع إلى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد فى أن يصدر حكماً يرضاه المتخاصمون ويكون فى نفس الوقت متمشياً مع أحكام الشريعة الإسلامية ويكون قابلاً للتنفيذ فى نفس الوقت - أفليس من المعقول فى هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو فى مجلسه إلى ما يقوله النصرانى معتمداً فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطى ، ولم يكن كله متعارضاً أو بعيداً عما يقول به الشرع الإسلامى ؟

SIMONET, op. cit. p. 99.

(١)

(٢) انظر :

JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288 - 289.

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٤٨ .

لقد كان القاضى المسلم فى ذلك الحين قاضى المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضى الجند » لأن المسلمين جميعاً كانوا إذ ذاك معتبرين جنداً ، ولم يسم بـ « قاضى الجماعة » إلا فى زمن متأخر ^(١) ، عندما صارت الجماعة الأندلسية كلها جماعة إسلامية ، وتضاءل نفوذ « قاضى العجم » حتى اقتصر على الأقلية المسيحية . وكان « قاضى الجند » هذا مضطراً إلى الاستماع إلى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ، ومنهم من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطى ، فهل يستبعد والحالة هذه أن يجتهد القاضى فى العثور على رأى يضمن للناس حقوقهم ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الإسلامى ؟ ^(٢) .

لقد جاء فى وصية عقبة بن الحجاج السلولى إلى قاضيه مهدي بن مسلم - وهى دستور القضاة فى الأندلس إذ ذاك ، وكان مهدي بن مسلم من أبناء المسالمة ، أى من المولدين ، أى نشأ فى بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين القوط - : « ... وأمره أن يساوى بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ، ويستأنى بكل عى اللسان ناقص البيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى قاضياً وللواجب فيه راعياً ، فقد يكون بعض الخصوم ألحن بحجته وأبلغ فى منطقته وأسرع فى بلاغ المطلب ، وألطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جواباً من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه ... » ^(٣) . والإشارة هنا - كما يغلب على الظن - إلى أولئك الذين لا يحسنون الإبانة عما فى نفوسهم بالعربية ، إذ هم حديثو عهد بها ، فإذا ذكرنا أن مهدي بن مسلم هو الذى كتب عهده بنفسه عن الأمير عقبة بن الحجاج تأكد فى نفوسنا هذا المعنى ^(٤) .

ولدينا أمثلة قليلة جداً من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجارى فى تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الخشنى : « ومن ذلك أن أحمد بن خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم إليه رجل فى قرن بناء صاحبه فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم أن ذلك من الضرر الذى يجب

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخنت عن فقه الأوزاعى وحركة إدخال بعض قواعد التشريع التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة فى الفقه الإسلامى :

JOSEPH SCHACHT, op. cit. pp. 288 - 289.

(٣) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

قطعه ، ولا يباح اتخاذه ، فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك : أن يجعل أنبوباً في أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره ، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتي بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرني أحمد بن خالد ^(١).

وهناك مثل آخر يحكيه الخشنى في ترجمة القاضى الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمي ، فقد ذكر أن جماعة حدثت في أيام الأمير محمد ، فكثرت التناول من المفسدين ، « فولى السوق حيثنذ إبراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد ، وعهد إليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ في القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان ، فكان إبراهيم يجلس في مجلس نظره في السوق ، فإذا أوتى بالفساد المفدح قال له : اكتب وصيته ! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصى به ، ثم صلبه ونحره ؛ فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم . فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا إليه تطاولاً على ما يكون من أشرار الأحداث ، وهم لا يشكّون أنه سيزجره الزجر القوي ، وإن أفرط في عقابه فالسجن ، فقال لشيخ منهم : ما يستحق عندك ؟ فقال - على وجه المثال - : ما استحق هؤلاء ! وأشار إلى المصلبين ، فقال إبراهيم بن حسين [له] ولأصحابه : انصرفوا ، فانصرفوا . ثم قال للفتى : اكتب وصيتك ! فقال له : اتق الله فيّ ، فإنه لم يبلغ ذنبى أن أستحق القتل والصلب . فقال له : بذلك شهد عليك الشهود ، فقتله وصلبه . فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له : لم نشهد عندك على الفتى بذنب يجب فيه القتل ! فقال : أو لم يقل قائلكم إنه يستحق ما يستحق هؤلاء ؟ فقالوا له : « على المثل ! » ، قال : فإثم ذلك في رقابكم ، إذ لم تحسنوا الإبانة من أنفسكم ^(٢).

وظاهر أن هذين الحكمين مستقيان من جارى العرف والقانون القوطي ، فوضع المدخن أمر لم يكن معروفاً في المشرق ، والحكم به يعتبر تجديدأ مقتبساً من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز في الشريعة الإسلامية ، ولكنه جائز في شريعة القوط . بل إن القضاة أنفسهم كانوا يميزون لأنفسهم ما لا يميزه أهل التقى والورع في المشرق ، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن - الذى أصبح قاضياً فيما بعد - ابنة القاضى معاوية بن صالح ، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس ، فتحيل النساء عليه في ذلك وأتين به عند العشاء الآخرة ، فصار في الأسطوان ، فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله ،

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(٢) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

حتى خرج معاوية إلى الصلاة فسمع حس الدابة فراه ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زياداً في مذود الدابة في بعض زوايا الأسطوان ، فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمت المسلمين يستوص الله] بكم خيراً ، ثم خرج إلى الصلاة ^(١) . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى والعلم في المشرق ، ولو فعله رجل لما ولى القضاء أبداً ، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولى القضاء بعد ذلك وصر من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيعة الأندلسية في تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشنى أن القاضي محمد بن زياد اللخمي كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتزايد سكرأ » فأمر القاضي بأخذه ليقم عليه الحد ، وكان يرافق القاضي صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان في موضع ضيق . « تقدم القاضي وتأخر الأعشى ، ففى تأخره عن القاضي التفت إلى الذى كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضي : أطلقه ! فأطلقه ، ثم افترقا جميعاً . ونزل القاضي ودعا بالسكران ، فقبل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشنى على ذلك محتجاً ، وقال : « وما أتى عن القضاة في هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقعة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجهاً من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، إلا وجهاً واحداً ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول ﷺ .. إلى آخره » ^(٢) .

وقد فات الخشنى ، وهو من فقهاء القرن الرابع الهجرى ، أن قضاة الأندلس أيام محمد ابن زياد ، أى منتصف القرن الهجرى الثانى ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط ، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية ، ويتأثرون بها حولهم ، وأن القانون كائن حتى يغتذى بها حوله وينمو ويتطور ، وإذا كان تاريخ أى جماعة يتجلى بأصدق صوره في تاريخ تشريعها ، فلا شك أن المجتمع الإسلامى والشرع الإسلامى لا يشدان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع في صدر الإسلام كان حياً متطوراً متقبلاً لكل جديد ، مثله في ذلك مثل الجماعة الإسلامية في ذلك العصر ، فلما جددت هذه الجماعة جدها الآخر ولم يعد يتطور .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وقد جدد التشريع الإسلامى ووقف عن التطور عندما تحول إلى علم ثابت الأصول والفروع على أيدي الفقهاء ، ولا يبدو ذلك فى صورة هى أوضح مما ظهر به فى الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع فى هذين البلدين أول الأمر سهلاً مرناً يأخذ من البيئة المحلية كثيراً ويطوع ما يأخذ لأصول الإسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس فى تكوين مذهبه ، فأهل الأندلس يذهبون إلى أن مالكا روى عن قاضيه معاوية بن صالح^(١) ، وأهل المغرب يقولون إن سحنوناً كان صاحباً لابن القاسم يجالسه ويشاوره^(٢) ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل إلى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبه وحلوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جدد التشريع ولم يعد له سبيل إلى التطور ، وأخذ باب الرأى يضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح « رأى مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعى وقامت دولة المالكية وقتها.

ومن الملاحظ أن تشريع قضاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشنى : « وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهلُه يومئذ أهل علم ! قال : أضعتم والله علماً عظيماً ! »^(٣) . وقال محمد بن عبد الملك بن أيسن أنه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال : « فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أهلها »^(٤) . ويؤكد الخشنى أن أحد قضاة ذلك العصر الأول فى الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن « بالمتسع فى علم السنن ولا فى رواية الأخبار » فيها إذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك أن « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام »^(٥) مما يُفهم منه أن أحكام الأندلس لم تكن تجرى قبل ذلك على فقه ثابت معروف ، بل على الاجتهاد والرأى والقياس .

وربما كان المراد هنا أن زياداً أول من دخل الأندلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغير من

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

(٢) المالكي : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سنة ١٩٥١) ج ١ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

الوضع كثيراً، ولدنيا براهين تؤيد ذلك، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عندما تزوج سارة القوطية قدم معها إلى الأندلس « وقبض ضياعها »^(١)، والزواج في الشريعة الإسلامية لا يقبض أملاك زوجها إلا بشروط، ولكن القانون القوطي يقره مبدأ عاماً. ويؤيد ما نقوله النباهي في حديثه عن المصعب بن عمران القاضي، قال: « وكان يروى عن الأوزاعي وغيره، وكان لا يقلد مذهباً، ويقضى بما يراه صواباً »^(٢).

ومن الثابت أن قضاة الأندلس في ذلك العصر لم يكونوا يرون بأساً بمخالفة ما ينص عليه الأئمة، ومن ذلك أن القاضي محمد بن بشير كان « لا يميز الشهادة على الخط في غير الأجلاس، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد »، وقد علق على ذلك محمد بن عمر بن لبابة بقوله: « قد علم القاضي - حفظه الله - اختلاف أهل العلم، وما ذهب إليه مالك وأصحابه من اليمين مع الشاهد، وما ذهب إليه قضاة بلدنا منذ دخلته العرب، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به .. »^(٣) مما يدل على أن قضاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها.

ومن الثابت أيضاً أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون عليه وينكره غيرهم
٢٠٢- عمل قرطبة من قضاة المغرب والمشرق، وهذا الفقه القرطبي يسمى بتسمية خاصة تدل على أنه مستقى من جارى العرف وأعمال الناس بحكم العادة، فكان يسمى « عمل قرطبة »، وللمقرى رواية طويلة في هذا الباب لا بأس من إيرادها على تواليها لأهميتها. قال المقرى: « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى أنهم يقولون في الأحكام: هذا مما جرى به عمل قرطبة. وفي هذه المسألة نزاع كبير، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك. قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى: في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقداً المشتراط اجتهاداً وتقليداً - ثلاثة أقوال: الصحة للباقي، ولعمل أهل قرطبة، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة، قال الماذري: مع احتمال كون الرجل مجتهداً. الثانى: البطلان للطرطوشى، إذ قال: في شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم. الثالث: تصح التولية ويبطل الشرط، تخريجاً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للماذري عن بعض الناس، انتهى مختصراً.

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦.

(٢) النباهي: قضاة الأندلس، ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٠.

قال ابن غازى : أن ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى .. ولما ذكر مولاى الجدد الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقرئ التلمسانى فى كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس فى «عمل المدينة» ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى وابن مسعود ومن كان معهم : ليس التكحل فى العينين كالكحل ، سنح لنا بغض الجمود ومعدن التقليد !

الله أخّر مدتى فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجائباً

يا الله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقيه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية - كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك - وأسماها - كالعتمة ويثرب - وكذا التناوب بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أساً ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط فى ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نحمله إلا كلاً ؟ .. انتهى » (١).

وهذه عبارة لا تحتاج إلى تعليق ، فهى تُجمل كل ما قلناه من تأثير التشريع فى الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرى القضاة فى قضائهم «على العادات القديمة» واعتبارهم ما يصدر من أحكام «عملاً» خاصاً بهم يلتزمون به ولو اشترط الأمير الذى يوليهم أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعى المعقول ، لأن القانون جزء من الحياة العامة يتأثر بها فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من إفساح المجال لما جرى عليه الناس ، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساساً من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ فى حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعى أن يكون لقضاة الأندلس فلسفة خاصة فى أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جارى العرف والقانون والتقليد ، وإن وصف الفقهاء ذلك بأنه «جهل عظيم» .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، طبعة بحى الدين ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

٢٠٣ - اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق
 وإنها استطرادنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ - إلى جانب ما أوردناه من البراهين - يؤيد ما ذهبنا إليه من تأثير التشريع في الأندلس بالتشريع القوطي الذي كان العمل جارياً به في الأندلس قبل أيام المسلمين : وإذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى » ، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الإسلام ، جنباً إلى جنب ، وكلما انقضى حين دخل نفر من النصارى في الإسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فإن تسرب أشياء من « قضاء العجم » إلى قضاء المسلمين أمر طبعى . بل بلغ من ذلك التأثير أن أخذ تنظيم القضاء العام في الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء في المشرق جملة وتفصيلاً ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألقت منهم هيئة تسمى « المشورة » وهى صورة « الكوريا » Curia القضائية في نظام القضاء الرومانى ، وهذه « المشورة » أو الكوريا هى التى تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادئ ، فى حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته فى العصر الذى نؤرخ له ^(١).

٢٠٤ - العرب يحترمون نظم البلديات
 وقد وجد العرب فى الأندلس مدناً كبيرة كثيرة منظمة أمورها تنظيمياً طيباً ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها . وقد كانت أحوال المدن الرومانية فى

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجه اختلاف نظم القضاء فى الأندلس عن مثيلاتها فى المشرق . وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا فى مقدمته لتاريخ القضاة للحارث بن أسد الخشنى ، واعتمد على كلامه لىنى يروفسال فيما أورد من مادة طيبة عن القضاء فى الأندلس فى الجزء الثالث من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . وقد قدمت مادة طيبة عن الموضوع فى بحثى عن « سقوط خلافة قرطبة » (بالفرنسية) ويعنى أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد من اشتغل به ، وهى :

JOSÉ LOPEZ ORTIZ : La recepción de la Escuela Maliqui en España.

-, La Curia Musulmana.

SANCHEZ ALBORNOZ : Los Arabes y las origines del feudalismo.

LACARRA : Fueros navarros del siglo XII.

GONZALEZ PALENCIA : El Fuero latino de Albarracin

SALVADOR VILA : El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Moguit.

وكلها ظهرت فى حوليات تاريخ القانون الإشباني :

Anuario de Historia del Derecho Español.

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفى كتاب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبى العباس أحمد بن يحيى التلمسانى الونشريشى (أو الونشريسى) طبع حجر ، فاس ١٣١٤ و ١٣١٥ ، مادة طيبة ونافعة ابتداء من الجزء الخامس .

غرب أوروبا قد اضطربت واضمحلت بسبب غارات الجرمان وما أحدثته من الفوضى والاضطراب والفقر ، ولكن هيكل التنظيم المدني كان باقياً ما يزال (١) . وقد احترم العرب هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الذمة ، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن . وقد أفاد العرب من احتفاظهم بهذا النظام فيما بعد ، إذ أنه عندما أسلم معظم أهل المدن وتعربوا اتسعت حدود هذا النظام فشمل المسلمين أيضاً من أهل المدن ، وغرب وأصبح جزءاً من النظام العام للأندلس .

٢-٥ قومس أقام العرب على أهل الذمة والنصارى رئيساً منهم ولقبوه بقومس الأندلس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة ، وجعلوه مسئولاً أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، وأحاطوه بما يليق به من الاحترام . وكان أول القياس هو اربطباس ، وستحدث عنه بعد قليل . حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر في النصوص إلا أيام عبد الرحمن الداخل ، ولكن صورة الخبر الذى يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة والجديد هو اللقب (٢) . وستستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك .

٢-٦ العرب ويذكر الراهب الذى كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense أن العرب تركوا لأهل البلاد من النصارى حق اختيار حكامهم ومنظمى حرية اختيار رؤسائهم : أمورهم :

" .. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur" (٣)

(١) لم يدوس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى ، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن في غالة وإيطاليا . والرأى الغالب هو أن الانصهار العام الذى شمل المدن الرومانية جميعاً خلال العصر الرومانى المتأخر أدى إلى تدهور المدن ، فاختفى بعضها وتحول الباقى إلى قرى ، وأصبح التقسيم الإدارى زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التيريتوريا وموضع المدينة القديمة civitas وزمامها urbs . انظر :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : en Historia de España dirigida por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

والآراء التى يبدىها المؤلفان حافلة بالأخطاء . وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين نقلوا أقوال مؤرخين ألمان وفرنسيين حاسيين أن مثل ذلك قد حدث في إسبانيا ، وفاتها أن الفتح الإسلامى أوقف الانصهار المدن في إسبانيا كما سترى فيما يلى .

(٢) انظر عن لقب قومس Comes في إسبانيا القوطية :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. p. 221

SIMONET, op. cit. p. 108.

(٣)

وورود هذا اللفظ بصيغة الجمع في هذا النص يُفهم منه أنه كان هناك أكثر من قوس ، والأقرب إلى المعقول أنه كان على رأس النصارى في كل ناحية قوس ، لأن كل ناحية في إسبانيا كان لها قوس على أيام الرومان ثم القوط من بعدهم ، فأقر العرب هذا الوضع ^(١) ، واشترطوا - كما هو واضح في النص - أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، إذ أن ملك القوط كان يعين القمامسة من أصحابه والمقربين إليه ، إذ أن المعنى الأصلي للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغير في طريقة تعيين القمامسة طبيعي ، لأن مُلك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام إلى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القوس الأعلى وهو الملقب بقوس الأندلس ، ولم يروا أن يتركوا له حق تعيين قمامسة النواحي ، لأن ذلك كان يعطيه سلطاناً واسعاً خطراً ، إذ أن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى . وسرى بعد قليل كيف أن قوس الأندلس أساء التصرف مع إخوانه في الدين ، حتى في الحدود التي وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونيت إلى أن سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التي يتخبرهم أهلها ، بل يمتد إلى كل الناحية الداخلة في زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت إدارتهم خاضعين لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من إدارية ومالية وقضائية » ^(٢) .

٢٠٧ - الوظائف
القوطية تدخل في
النظام العربي العام

وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بالقباهم اللاتينية التي عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عرّبها الناس عندما غلبت العربية على غيرها في شبه الجزيرة ، ثم أخذت اللفظة العربية على السنة

(١) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس في قول مانويل توريس في الموضع الذي أشرنا إليه في المايش قبل السابق أن القوس في أيام القوط كانت له سلطات عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يسمى Comes civitatis (قوس المدينة) أو Comes territorii (قوس الناحية) أو Comes provinciae (قوس المديرية) أو Comes exercitus (قوس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قوس ، لكل منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أى القائد أو الحاكم الأعلى ، وهذا هو الذي كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامسة كانوا قد أصبحوا في أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من نواحي الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامسة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة أنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادى لكة ، ولكن يمكن أن يقال أيضاً أن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم تذكرهم النصوص .

الناس صورة إسبانية عندما جرت في الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظي تطور في معنى الوظيفة واختصاصها في بعض الأحيان .

٢٠٨- قاضى العجم كان القاضى يسمى أولاً « يودكس Judex » ، ثم حلت محلها لفظة « القاضى » العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس ألكالد Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها إلى اليوم ، وتطور معنى الألكالد أيضاً مع الزمن فصار إلى ما يشبه « العمدة » عندنا (في المدن الصغيرة والقرى) ، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضى العجم في الفصل في القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفي تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هي حالة العمدة في المدن الصغيرة .

وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط في اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون في اللاتينية Millenarii وفي الداريجة Theofadi إلى جانب قاضى الأهالى من الايبيريين الرومان الذى كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضى الايبيريين الرومان والقوط جميعاً وتحول قاضى القوط (الميليناريوس أو الشيوفادوس) إلى موظف عسكري (١) .

٢٠٩- صاحب المدينة وإلى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمامها ، وهو ما عُرف في النظام الإسلامى بالكورة ، كان يوجد في النظام الرومانى ثم القوطى حاكم خاص للمدينة Defensor Civitatis أى حامى المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعُرفت إلى « صاحب المدينة » ، وصارت في عجمية أهل الأندلس Zahalmedina

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) في التشريعات القوطية استعمالاً واسعاً ، فيطلق على القاضى وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلاً من Comes ، ومن ثم فإن ما يذكره القانون القوطى Liber Judicium من وجود iudex provinciae أو iudex civitates ليس معناه قاضى المديرية أو قاضى المدينة بل يراد به الحاكم . وكان هؤلاء اليوديسيس Iudices نواب في النواحي . وكان يشترط في اليودكس أن يكون من القوط في حين كان النواب Vicarii من أهل البلاد . ويلاحظ أن هذا الاضطراب في استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الاختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا إلى قضاة العجم في الأندلس الإسلامى ، فهم يسمون في بعض الأحيان « الوزير القاضى » ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضى العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضى إلا في الأزمنة المتأخرة عندما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .

انظر : PEDRO AGUADO و MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : ibidem . BLEYE, Manuel de Historia de España, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة في النظم الإسلامية الأندلسية ، وسيتولاهما مسلمون فيما بعد ^(١) .

وكان هناك موظف يوكل بشئون المال في الناحية ، يعرف قبل العرب باسم المشرف ٢١٠ - Praefectus aerarii فعربها العرب إلى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور شتى : alamosérie و almossarif و almoxerife و almoxarife ، وبهذه الصورة الأخيرة بقي اللفظ في اللغة القشتالية.

٢١١ - مستخرج أما قومس الخزانة Comes thesaurorum فقد حل محله « مستخرج الخراج » أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب عامل الخراج المعروف في النظم الإسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

٢١٢ - صاحب وكان هناك موظف مكلف بالأمن في المدينة يعرف باسم praetor urbanos الشرطة فحل محله « صاحب الشرطة » ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور مختلفة مثل Sahba Seorta و Sacbascorta ، ودخلت الوظيفة في النظام الإسلامي كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها في المشرق من البيزنطيين (شرطة = Securitas) ثم حملوا الوظيفة بلفظها إلى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية في العجمية الأندلسية.

٢١٣ - الأمين وكان العمال في المدن منظمين منذ العصر الروماني على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية collegia ^(٢) ، وكان لكل منها رئيس مسئول عن أهل الحرفة وضرائبهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيساً من أهلها يسمى « الأمين » ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية الأندلس ، فكان يقال el alamin .

(١) ذهب سيمونت في كتابه المعروف Historia de los Mozárabes (ص ١٠٨ - ١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلي :

judex = القاضي

praetor urbanus = صاحب المدينة

praefectus aerarii = المشرف

وقد خالفناه في ذلك كما يرى في النص

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك في كلامنا .

٢١٤ - العريف وكان لهذا التنظيم أثره في استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، إذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساتذة مهرة في صناعاتهم عُرف الواحد منهم بالعريف والجمع عرفاء ، وقد انتقل لفظ عريف إلى عجمية أهل الأندلس في صورة alharif (وتحرف إلى alhariz) ومنها إلى القشتالية - el al arife واقتصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقياً في الإسبانية إلى اليوم .

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطوراً أوقع الكثير من الباحثين في الخطأ ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحاسب ، وستحدث عن هذا الأخير في كلامنا على التنظيم الإسلامي العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضى والوزير ، لأن الوزير أخذ معاني خاصة في الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظاً من ألفاظ التشريف ، فيقال : الوزير القاضى فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما إلى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص في استعمال لفظ الوزير ، والقاضى كذلك ، بدأ أولاً بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيههم بقولهم : «الوزير القاضى الأفضل دون ملنده ابن لِنَبْطَار رحمه الله» أو «الوزير القاضى دُمِنْقَه أَتْلَيْن» ، ومن الغريب أن لفظ القاضى في الإسبانية وهو Juez لقى أيضاً مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء في قاموس بطرس القلعى (Pedro de Alcala) في تعريف لفظ Juez albañir : (= قاض بناء ، يريد معلم بناء) ، و Juez de edificios (= قاضى مبان ، يريد معلم مبان) (١) .

٢١٥ - الزراع وستحدث في الفصل التالى عن تنظيم العرب للسكان عموماً ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئاً عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذى كان سائداً أيام القوط والذى كان يجعل الزراع جميعاً إما رقيق أرض Servi ، أو عمال أرض أحراراً أقرب إلى الرقيق - ingenui in feriores ، أو عبيداً esclavi فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق إلا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فإذا أسلم الرقيق صار حراً ، له ما للأحرار من حقوق ، أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم الرقيق كله في العالم الإسلامى ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع في قرى أو ضياع aldeas .

٣١٦- المسلمون يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة الإسبانية من الأذى على أيدي المسلمين ، ويظيل بعضهم - مثل سيمونيت ولاس كاخيغاس - الحديث بالتفصيل عن الكنائس التي تهدمت والمتاعب التي لقيها بعض النصارى على أيدي المسلمين ، ولا يسع القارئ وهو يتبع ما يقولونه إلا أن يأسف إذ يجد مؤرخين محدثين لا زالوا يجهلون في مضمار عصب الدين في حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ، خاصة وقد عادت إسبانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل بإسبانيا الإسلامية تاريخاً ماضياً ، وأصبحت المبالغة في المعصية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه المعصية تشمل عصور ما قبل الإسلام ، ففى كل ما لدينا من التواريخ التي كتبت حديثاً لإسبانيا يحاول المؤرخون أن يثبتوا أن إسبانيا كانت على الأقل منذ المجمع الدينى الطليطلى الثالث الذى عقد فى سنة ٥٨٩ بلداً كاثوليكياً خالصاً لا شبهة فيه للمذهب مسيحى آخر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررهما ذلك المجمع ، بل إننا لنجد مفكراً طائر الصيت مثل مارثيلينو منتدز اى بلايو يتصدى لنقد المذهب الأريوسى فى حماس البشر الذى يخشى خطر أقوال أريوس المصرى على العقيدة الكاثوليكية الراهنة ، هذا وقد ذهب أريوس وذهبت أيامه منذ نيف وثلاثة عشر قرناً (توفى أريوس سنة ٣٣٦ م) ولم يكن الرجل إلا مفكراً مسيحياً حاول جهده أن يصل إلى الحق بحسب ما انتهى إليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس .

والمؤرخون المنصفون ينظرون إليه بإجلال ، لا تقديراً لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين عن حقيقة العقيدة المسيحية فى عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . وإذا ذكرنا أن أريوس ولد سنة ٢٨٠ وأبغ وأخذ يتعرف عقيدته المسيحية حوالى سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعاً كانوا إذ ذاك يطلبون النجاة فى باطن الأرض ، وقيمون كنائسهم فى السرايب والغاور ، إذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده كمفكر وكؤمن مسيحى ، لأن المسيحية لم يُعترف بها ديانة كغيرها من ديانات الامبراطورية الرومانية إلا بعد صدور منشور ميلان فى سنة ٣١٢ ، ثم إن الذى دحض آراء أريوس وقطعه بالحجة كان مفكراً مصرياً آخر هو أثناسيوس المعروف باسم الأنبا طنانش ، فقد تولى بطريركية الإسكندرية بعد الأنبا إسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية إننا ننظر لأريوس - رغم إنكار الكنيسة المصرية له - على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية

لها قيمتها في تاريخ الفكر المسيحي والإنساني عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آراؤه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن منندز بلايو وأجوادو بلاي من مؤرخي إسبانيا المحدثين يحملان عليه حملة عنيفة، ويرددان كلام القديس إيزيدور الإشبيلي في حماس كأننا لا زلنا اليوم في معركة الأريوسية والكاثوليكية^(١) .

٢١٧ - المسيحية وهذه الروح نفسها هي التي تسود ما لدينا اليوم عن أحوال الكنيسة أيام في إسبانيا القوطية القوط ، فلم تكن المسيحية الإسبانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة ينادى بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاماً ، فقد كانت هناك اضطهادات ومحاكمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا نظفر إلا بإشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزاً لوحدة الوطن الإسباني وسلامه ، مما يجسم بطبيعة الحال ما أصاب إسبانيا بدخول الإسلام فيها ودخولها في الإسلام ، ويعظم بالتالي قيمة عودتها إلى المسيحية .

٢١٨ - الكنيسة . بل إن أجوادو بلاي ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول أن ينفي عن والدولة أيام القوط : الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهي حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية في شيء ، وإليك مثلاً من حديثه :

« إن الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطلي الثالث ، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أى عالمية) ، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ، ولا يجوز كذلك أن نسمى الدولة القوطية حكومة ثيوقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل في الشؤون الكنسية ، ولكن هذا التدخل يرجع في أصوله إلى أيام الامبراطورية وأيام الأريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الامبراطوران

MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, Historia de los Heterodoxos Españoles, tomo I (١) (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.

AGUADO BLEYE, op. cit. I p. 363.

وانظر ص ٣٤٧ حيث يقرر بلاي أنه غير آسف على إحراق كتب الأريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين بأسفوف على ضياعها !

قسطنتين وثيودوسيوس . بل إن ملوك القوط لم يكونوا يدعون إلى عقد المجمع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطلى يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية-aula regia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكى tomo regio وهو برنامج الموضوعات التى سيبحثها المجمع . وكانت قرارات المجمع توقع بإمضاءات من حضر من رجال الحاشية إلى جانب إمضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس .

« ولم يكن لمجمع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشئون المدنية ، بل فى الشئون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر فى الشئون المدنية إلا إذا أقرت ذلك القوانين التى يصدرها الملوك . كانت القرارات فى هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجمع ، وإنما بإقرار الملوك إياها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءاً من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعاً لذلك جزءاً من المحكمة التى تنتظر فى الجرائم السياسية والمخالفات التى يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك فى شئون الكنيسة بعد ذلك بقليل فى كل الدول الأوروبية فى العصر الوسيط . إن تأثير الكنيسة فى قرارات الملوك لم يكن ناشئاً عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائماً على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكرى الذى تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على إسبانيا ، بل كان شائعاً فى كل بلاد غرب أوروبا . »

ثم يقول بعد ذلك : « ... إن مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع فى سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لجنة الكنيسة مبدأ سياسياً ، أصبح محكمة عليا ، ضماناً للملك ورعاياه ، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطاناً معدلاً لسلطان الملك ، وأوجدت نوعاً خاصاً من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولعنة الكنيسة . وقد قال منتدذ بيدال : إن هذه الملكية الكاثوليكية التى كان للأخوين لياندر و إيزيدور عليها أثر عظيم لا يمكن أن تكون ثيوقراطية . لم يكن رجل الدين يحكم بل يوجه ، وكان ينفع الحاكم كما ينفع المحكوم : إن التداخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى فى إسبانيا منها فى أى بلد آخر معاصر ، لأنها كانا من صنع المجمع » (١) .

وهذا الكلام - الذى اجتهد عالمان الجليلان فى صياغته على هذا النحو الذى يبدو

MENENDEZ PIDAL. Historia de España. tomo III (Madrid, 1940) Introducci6n, p. XLI. (١)
AGUADO BLEYE. op. cit. p. 366.

وكأنه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية - يحاول الرد على حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الإسبانية ، وقد أوجزها جيون في عبارة بسيطة عندما قال إن إسبانيا القوطية كانت : *a priest ridden state* « دولة يركبها القساوسة » ، وربما كانت خلاصة ما أراد أجوادو بلاي الرد عليه في عبارته الآتفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاويدو إلى الكاثوليكية وفرض سلطانها على الدولة ، فاستولت على أراضي وعقارات بلغت خمس الأرض الخصبة في إسبانيا كلها ، وقامت سيفاً مسلطاً على رعوس الناس ، كما ستصبح الملكية فيما بعد ، فحرقت كتب المذاهب المخالفة ، وفي مقدمتها المذهب الآريوسى ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفى والتشريد وانتزاع أبنائهم منهم وما إلى ذلك من العقوبات ^(١) .

٢١٩- رأى ولسنا نريد أن نجارى المؤرخ راينهارت دوزى في مبالغته في تصوير سوء راينهارت دوزى حالة الكنيسة وما جر إليه اتحادها مع الدولة في ذلك العصر ، فقد كان دوزى ملحداً يحسب أن حرية الفكر معناها مهاجمة رجال الدين أيّاً كانوا ، ولقد قسا في « تاريخ إسبانيا الإسلامية » على رجال الدين جميعاً نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفى من كلامه بعبارة تغنى عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا إلى القوة والسلطان : « ... ومن الآن فصاعداً ، وبعد أن أصبحوا ملاكاً لأراض فسيحة ت عمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحاباً لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تبين القساوسة أنهم أسرفوا في المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحين إلا بعد انتظار قرون لا أدري عددها » . لقد دهش القديس إيزيدور الفرمى ^(٢) وهو متأبد في صحارى الصعيد ، من أن مسيحياً يستطيع أن يملك عبداً ، في حين أن قديساً آخر يحمل اسم إيزيدور أيضاً ، هو أسقف إشبيلية المشهور ، الذى كان خلال زمن طويل روح مجامع طليطلة الدينية و« فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا في المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سميهِ وإنما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الإغريقى : « إن الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الآخر ليطيعوا » ، وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس هناك ظلم في أن

MENENDEZ PELAYO, op. cit. I p. 352.

(١)

وهذا المفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

(٢) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusii نسبة إلى بلوزيوم وهى الفرما . ولهذا سميته الفرمى .

يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وإيزيدور الإشبيلي يقول نفس الشيء :

acquus Deus ideo discrevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= ... ولهذا السبب أيضاً ميّز الله مصائر الناس بعضهم على بعض : فصار بعضهم عبيداً ، وصار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعاً لسريان الشر الذى يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن خطيئة الإنسان الأول ، وهو يعتبرها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . « وإننا لبعيدون كل البعد عن الرغبة في لوم رجال الدين إذ لم يعتقوا العبيد ، وعن الرغبة في مجادلة رأى أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل ، وإنما نكتفى بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهى أن رجال الدين بسبب تناقضهم ، لم يحققوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلاً من أن يتحسن ، لقد اغتدبهم الجرمان - مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية في ولايات الدولة الرومانية الأخرى - خدماً خاصاً لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الإشارة إلى عُرف جدّ ولم يكن معروفاً أيام الرومان فيها يبدو ، وهو أن تُكَلِّم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة إلى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء في ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال النجارة ، وخامسة بالحداثة وهكذا » (١) .

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فإذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، وإذا تزوج رجل من طبقة الرقيق امرأة في ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . وإذا فقد كان قانون القوط في هذه الحالات أقل إنسانية من قوانين الامبراطورية الرومانية ، لأن الامبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والإخوة

ولإخوتهم^(١) وعلى العموم لا يمكن الشك في أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تتأمل القوانين العديدة القاسية التي أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس - وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه في إسبانيا كلها دون تغيير - يقومون بثورة عامة ضد سادتهم^(٢) .

ثم يستطرد دوزي قائلاً : « وإذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق ، فإنهم لم يفعلوا شيئاً أيضاً للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التي يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أى مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان إلى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل إليهم من تقاليد الرومان ، بل إنه يبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) في هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى إذن في شقتها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

« وبقيت كل الجروح التي كان الناس يثنون منها في العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة في أيد قليلة (في صورة إقطاعيات ضخمة) ، وبقي الرق بصورة عامة ، ونتيجة لذلك ظل العمل في الأرض نصيب الزراع وملك الأراضي نصيب الملاك »^(٣) .

٢٢٠ - الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة ، بعد تحول ريكاويدو إلى الكاثوليكية لم يجلب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين إلى السلطان إلا بالنتائج الطبيعية التي نتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاکمات الدينية وإثراء رجال الدين وتحول الدين إلى أداة للحكم ، وتعرض لكل ما تتعرض له أدوات الحكم كلها من نزوع إلى الاستبداد ، وأخطاء في السياسة ، وتعرض رجال الدين للنقد والمخاصمات ونفور الناس . وقد حدث مثل ذلك في الإسلام ، عندما وصل المعتزلة إلى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت دولة المالكية في الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

(١) انظر :

MUÑOZ, Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon

Forum Iudicum, V, 4, 19 : De non alienandis privatorum et curialem rebus.

(٢)

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة واردة بنصها على هامش كلام دوزي الذي نتابعه :

Cf : R. DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (2e éd. dirigée par LÉVPROVENÇAL. Leyde, 1932) vol. I, p. 265 - 266.

DOZY, Ibidem.

(٣)

ومع ذلك ، فإن الاتجاه الغالب على التأريخ الإسباني للعصر القوطي ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحماس والبلاغة والقسوة في الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ. ويبدو هذا الاتجاه في أظهر صورة في كلام كاتب إسبانيا الأكبر في العصور الحديثة منذد بلايو ، وإليك مثلاً من كلامه الذى يُذكرنا بعنف أبى محمد على بن حزم في مجادلاته مع خصومه : « يقولون إن المجامع الدينية اغتصبت اختصاصات ليست من حقها . من الذى يستطيع تأييد هذا السخف ؟ في أى ناحية كان العلم وفي أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تنزل عنه لأتباع وبتريك (Los Witericos) ووخشندش Los Chindasvintos أو إيرفيج Los Ervigios الذين وصلوا إلى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة تحرمه من التاج ؟ لقد كانت الإنسانية تستطيع أن تحقق تقدماً واسعاً في حكم أمثال أولئك الأمراء ! إن وصاية المجامع على الدولة لم تُفرض فرضاً ولم تُنتزع انتزاعاً ، وإننا ساقها القانون الإلهي وسعى إليها ملوك القوط أنفسهم » .

« لم يوافق كل الشعب الأريوسى على الانفضاض عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالإضافة إلى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الإسبانية الرومانية ، التى لم يستطع إدراك كنهها ، ولم يستمع إلى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولاً في صورة وبتريك Witerico وتمثلت ظاهرة إلى حد ما في اغتصاب وخشندش Chindasvinto للعرش ، وفي الحرب التى شنها هيلديريك وبولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وأمباً » ، وتمثلت قبل كل شئ في موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة - أيأ كانوا - الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك إلى إدراك ما طلبوا من الانتقام الوضع ، وزالوا من الوجود كشعب جزاء وفاقاً لهم على ما كان من شرهم وخبثهم . إن الشعب الذى نهض لاسترداد أرض الوطن شبراً شبراً كان شعباً إسبانياً رومانياً ، إذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجاً تاماً ، أما عصبة النبلاء الذين باعوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم في بحر التاريخ » ^(١) .

٣٣١ - الخلافات

الدينية والفتح

الإسلامى

وهذا الكلام يفتح لنا باباً فى تفسير سرعة انتشار الإسلام فى الأندلس ، فهو - على ما فيه من مجافاة «السياسة العلم» كما يقول أصحابنا الأندلسيون فى نقدهم لابن حزم - يربط بين تصرف غيطشة وأولاده والنفور الذى ساد بعض جماعات من أهل إسبانيا القوطية من استبداد الكنيسة واستعانتها بسلطان الملوك . وعلى ضوء هذه الإشارات نفهم أن عداء غيطشة لإيخيكيا كان من بعض نواحيه نفوراً من سلطان الكنيسة واتجاهها إلى فرض مذهبها بالقوة . وإذا نحن ذهبنا لتعمق الأمر تبين لنا أن الأمر فى إسبانيا قبيل الإسلام كان يشبه إلى حد بعيد الموقف فى مصر قبيل الفتح ، فقد كانت منازعات المذاهب فى مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتداء من القرن الثالث المسيحى فى صراع متصل مع الدولة البيزنطية ، وكان المصريون - قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية فى نزاع العقائد - يسوون مشاكلهم بأيديهم ، كما حدث فى الصراع بين الآريوسية والأثناسيوسية ، إذ انتصرت الأخيرة وتلاشى مذهب آريوس ، وتفرق الباقيون من المتأثرين به ، ومنهم أوريجانوس ، الذى ذهب إلى أنطاكية حيث تكونت حوله مدرسة كان لها فى تاريخ المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الإسكندرية فى محاربة كل بدعة تناقض المذهب الأرثوذكسى كما تقرر فى مجمعى نيقية وافيسوس الأول .

فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض على الناس مذاهب معينة ، كما حدث فى مجمع افيسوس الثانى ، بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفاً معارضاً للدولة ، بدافع التحدى لسلطانها فى صورة معارضة لسلطانها السياسى ، وظهر هذا بصورة واضحة فى مجمع خلقيدونية الذى تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه على منافستها كنيسة الإسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك إلى نزاع قومى ، وصمد المصريون وتحولوا شيئاً فشيئاً نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد قيسرى ، ثم انضم قيسرى إلى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجاً من أذى الدولة إياه إلا بالاتفاق مع العرب ، إذ رجا أن يجد فى حكمهم خلاصاً من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم فى شئون العقيدة .

وقد درجنا فى دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر إلى الخلافات المذهبية التى كانت متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من أكد الأسباب فى تيسير فتح مصر على العرب أولاً ، وفى دخول المصريين فى الإسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافات فى تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، وأما عن تيسيرها دخول المصريين فى

الإسلام فنقول فيه إن مناقشات رجال الدين في موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب في اجتذاب الناس إلى رأيه وتغيير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينة في ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس في حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء في أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهم من أذى الحكام من ناحية أخرى . فإذا هم في ذلك إذ دخل عليهم العرب بالإسلام ببساطته وبمروءته ، فبما لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلقى مسألة الطبيعيين باستنكاره نبوة المسيح لله وتقريره أنه نبي كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بنفيه مسألة صلب المسيح مما ينقض نظرية الخلاص نقضاً مبرماً . وكان القول « بالخلاص » عبثاً ثقيلاً على نفوس الناس ، إذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم محملاً بإثم خطيئة الإنسان الأول ، وكيف ينهى عليه أن يسمى في خلاص روحه بالإيمان بالصلب أولاً ثم بشراء نصيبه من الخطيئة بألوان من الحرمان والعذاب من بينها تلقى الشهادة ثانياً .

وينبغي أن نذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله في الإسلام ؛ فاما عن أثر الأحوال في إسبانيا في تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا إن القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلاً على الناس ، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين . ولا عبرة بالقول بأن القوط غيروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث في سنة ٥٨٩ وبعد إلغاء الملك رِخْسْفِنْتُو للقانون الذي يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فإن سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الإسلام زمناً قصيراً لا يسمح بحدوث هذا التغيير الحاسم الذي يتغنى به متننذ بلايو (١) .

فقد ظل القوط حكاماً معترزين بالسلطان وإن أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالت لكان من الطبيعي أن يحدث التمازج الذي افترضه متننذ بلايو ، ولكن العرب دخلوا الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين اليبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى ، وساعد على

تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك هيندز بلايو بقوله: «لقد كان لحرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعية ، وربما لم يكن أولئك النبلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدي إلى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغارة العربية التي قام بها طارق وموسى بنصر سريع عجيب ، وذلك بفضل العناصر المعادية التي كانت تغل في إسبانيا ، وفُتحت المدن والحصون عنوة أو صلحاً ، واستسلمت في أوريولة المقاومة الضعيفة التي حاولها تدمير، وهو القوطي الوحيد الذي حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية في إشبيلية وقرطبة وطليلة وباجة...» (١) .

وإذن رأى في ٢٢٢- رأى في الخلافات الدينية المسيحية للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر في فتح مصر . والمؤرخون الإسبان يستنكرون هذه الخلافات ويحملون حملة بالغة على ما خالف العقيدة الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والإجرام والمروق وما إلى ذلك ، ولكنهم لو أمعنوا النظر لبدا هم الأمر أهون من ذلك بكثير . فإن المسيحية نفسها كانت إلى ذلك الحين موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية في الشرق والغرب تجتهد في تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأياً يقرر أنه الصحيح ويحاول أن يحمل الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع يبدو في بعض الأحيان وكأن كلاً منها ينادى بدين يختلف عما ينادى به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة الغربية تعتبر مذهبها عالمياً (كاثوليكي) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان في داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففي الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية والمونوفيزية والخلقيدونية ، وفي الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعنى عقيدة فقط وإنما عقيدة ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون إذ ذاك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافياً على أحد ، فكان الملوك يؤيدون بابوات روما أو يناهضونهم تبعاً لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجة وحاربهم

اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يوليانوس مطران طليطلة إلى البابا في سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها في مسائل العقيدة داخل الكنيسة الإسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacramento baptismatis وما إلى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهى عادة بقرار من مجمع طليطلة يُقرض على الناس فرضاً .

فإذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الحيرة في مسائل العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس ، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفاً ؟ كيف نتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة في أذهانهم بهذه الصورة التي يفترضها مؤرخو إسبانيا ؟ إنما الطبيعي أن تكون أذهانهم مبللة كما كانت حال غيرهم من علمة المسيحيين في ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعوذة في إسبانيا وغالة ، وهى ظواهر لا تعم إلا في أزمنة الاضطراب السياسى وانتشار المخاوف وضعف الإيمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلى الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما إليها لكفّ أذى الأرواح الشريرة ، بل إن المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ إلى الكهان ملعوناً من الكنيسة محروماً من رحمة الله ، وإننا لنلمح في بعض قرارات المجمع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون إليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الآخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس إلى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلى الثانى عشر عام ٦٨١ إلى حفز همم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يحرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادى والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجية والرقى ^(١) .

لم تكن النصرانية في إسبانيا القوطية إذن بالشمول الذى نتصوره ، ولم تكن العقيدة

المسيحية واضحة محدودة المعالم لعامة الناس ، وإنما كانت القلوب في حيرة والعقول تتلمس طريقها لتفهم ما يلقي إليها ، وكانت الخلافات المذهبية كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم في سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطبيعي : نفر الكثيرون منها وأخذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأثمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضاً . ولا شك أن الخلاف بين بيتي غيطشة واخيككا كان له وجهه الديني ، والأسقف لذريق الطليطلي يؤيد ذلك فيقول : « إن غيطشة لم يكن طاغية بغيضاً فحسب ، بل كان ملكاً منشقاً على الكنيسة واثراً ، يؤيد اليهود ويحاييهم ، ويجمع مجلساً في طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قراراً يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويشير غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوبه Oppas مطراناً لطليطلة فقد حشره في هذه الوظيفة حشراً روع الناس ، وكان يحتل كرسي المطرانية قبل ذلك سِنْدِرْد (الذي عاه إليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Fávila دوق كنتبريه وسمل عيني ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حباً في السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيام الثورات على سلطانه المستبد»^(١).

ولقد أعفى أصحاب هذه المذاهب والآراء من اضطهاد الكنيسة والدولة
عندما صار الأمر للمسلمين، فقد دخلت الغالبية العظمى من أهل البلاد في
الإسلام ، إذ وجدت فيه حلاً سعيداً مريحاً للمشكلة العقيدية . وتلك
ظاهرة واسعة المدى لا ينبغي أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ
انتشار الإسلام : كانت المشكلة الدينية هما ناصباً لكثيرين جداً من المسيحيين في تلك
الأعصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتعبوا أنفسهم في مسائل
الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليهما ، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين
كانوا يخرجون كل يوم برأى جديد في هذه المشاكل ، وأخذوا يرددون ما يقال لهم أو صاغوا
العقيدة الجديدة في قالب الوثنية القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيماً ، إذ كانت
تصر على أن تفهم دينها في حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم إلا
التصديق والترديد.. وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية في ذلك العصر .

ثم جاء الإسلام يقدم لهم حلاً يطمئن إليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولاً لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة في العراق وبعض نواحي الشام ، وأمن المونوفيزيون في مصر والشام ، وأمن أصحاب الأقوال المختلفة في إسبانيا . وفي ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقي ما شاء له القول ، وتفلسف اسبيراندوس في الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة إفريقية البيزنطي سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلاً متديناً وأرثوذكسياً مخلصاً ، وكان يعارض كل رأى يناقض المذهب الأرثوذكسي كما أقرته الدولة أيام قسطنطين الثالث ، ثم قتل قسطنطين هذا فجأة في مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمرها بالارتداد إلى مذهب هرقل ، وكان مونوثلياً ، ووصل الخبر إلى جريجوريوس فأنكره ، حاسباً أنه إشاعة ، « وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هي إلا وسيلة يراد بها النيل من الامبراطورية المؤمنة الطاهرة الدليل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد في تتبع المونوثليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكذ الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دعى إلى هناك ليحاسب أعمر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل إلى القسطنطينية ، وهو - من حيرته - لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً» (١).

وربما بدا غريباً أن يقال إن دخول المسلمين هذه البلاد قد وضع حداً للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فإن المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ، ولم تجد البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقتعت بالشئ الوحيد المعقول: المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأي الرسمي للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتفون بخطابات يدحضون بها آراء اليباندوس Elipandus مطران طليطلة الذي قال بعد الفتح العربي بقليل إن المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابناً لله بالتبني فحسب :

" (Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellen-

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

tiam, quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus " .

وهى مقالة لو نطق بها أحد في أيام القوط لكان جزاؤه القتل ، ولكن البابا هدریان الأول ورجاله لم يستطيعوا إلا حض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأى الذى انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكتتيرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين، وكتب ايتريوس Heterius كتاباً في الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum, sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الآراء تظهر وتختفى خلال العصور الإسلامية ، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأى يطرح للناس ، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد ، ولا يبقى آخر الأمر إلا الرأى الذى يقبله العقل ويطمئن إليه القلب ، ولو كانت هناك المجامع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأى منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية ، إذ أنه لا يحىي الآراء ويقوى المذاهب شىء كالاضطهاد . وقد وقفت الدولة الإسلامية في الأندلس موقف الحياد الكامل ، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلاً عندما ناصرت النساطرة على من سواهم . وقد بلغ من عدم حفل الدولة الإسلامية في الأندلس لهذه المذاهب ، ولآراء نصارى الأندلس جملة ، أن ضاق ذرع المظهرين من رجال الدين بهذه الدولة التى تغرى المسيحيين بتساعدها على دخول الإسلام ، ولا يقرأ أحد من أهلها شيئاً مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه في نقد الإسلام ويملاؤونه بالطعن الجارح !

لقد شكى الراهب ألبُّ القرطبى من أن أحداً من إخوانه النصارى لا يقرأ اللاتينية أو يلقي بالاً إلى الكتب المقدسة المكتوبة بها ، لأن الناس في الأندلس كانوا في شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحاولة التمكن منها ، فلما لم يستمع أحد لشكاياته أخذ يحرض المسيحيين على التحرش بالإسلام والقرآن والرسول ﷺ ، فجعل نفر من النصارى يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى ، فكانت محنة نصارى قرطبة أولاً ثم طليطلة ثانياً ، وهى الفتنة الوحيدة من نوعها في التاريخ ، لأن الغالب أن تضطهد الأثرية الأقلية ، أما هنا فقد شاء طموح رجال الدين إلا أن تُضطهد الأغلبية الحاكمة بالطعن في مقدساتها ، ولم يدفع هذا

النفر من رجال الدين المسيحيين إلى تحريض الناس عليها إلا هذا التسامح الذى جرى عليه أمراء بنى أمية فى الأندلس . وهو تسامح بلغ حد الإهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمرهم قد ضاع فلا هم يجدون سبيلاً إلى الحكم ، ولا هم يملكون الوسيلة إلى السيطرة على عقول الجماهير بإظهار براعتهم فى مسائل الدين ، فلم يجدوا طريقاً للخروج من ذلك الخمول إلا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤ - آثار الإسلام فى نصراية الأندلس
ولقد ذهب سيمونيت ومن تبعه إلى القول بأن كل ما ظهر بين نصارى الأندلس خلال العصور الإسلامية من الآراء المخالفة لرأى كنيسة روما إنما كان أثراً من آثار الإسلام فى نصارى الأندلس، وليس ذلك من الضرورى، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الإسلام ، مثال ذلك أن مذهب اليباندوس - الذى أشرنا إليه - أقرب ما يكون إلى قول النسطورية ، وقد عرفت إسبانيا النسطورية قبل مجئ الإسلام^(١) ، ومثال ذلك أيضاً أن القس اسبيرائندوس Espiraindus وكان من شيوخ الكنيسة الإسبانية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (أى فى أيام الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى) ، كتب رسالة صغيرة « ضد بعض المذاهب المنحرفة التى ظهرت فى هذه الفترة التعيسة ، يقول أصحابها بإنكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجروا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى إنكار عقيدة الثالوث ، إذ أضلتهم الآراء الإسلامية » كما يقول سيمونيت فى أسلوبه المقذع الجافى ، وعنوان رسالة اسبيرائندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo ^(٢).

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثراً من آثار الإسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت فى المسيحية فى المشرق والمغرب قبل ظهور الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الإسلام فى الأندلس قد أعطى أصحابها حججاً وآراء وقوى مركزهم .

* * *

(١) انظر عن النسطورية فى إسبانيا :

MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I p. 313 sqq.
SIMONET, Mozárabes, p. 341 - 342.

(٢)

٢٢٥ - المسلمون
والكنيسة الإسبانية

وإذن فلم تكن المسيحية في إسبانيا قبل دخول الإسلام ثابتة الأركان ولا موحدة الكلمة ولا متمكنة في قلوب الناس جميعاً على النحو الذى يصوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصارى بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى كانت عليه . ومن هنا فإنه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدي المسلمين مبالغ فيه إن لم يكن مناقضاً للحقيقة والواقع . حقيقة أن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التى تركها أساقفتها وقساوستها وفُرّوا ملكاً للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعنى أذى المسيحية والمسيحيين، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك نحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين فى شىء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجداً بقى فى إسبانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان فى إسبانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم فى قواعد الأقسام الإدارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهى : طركونة وماردة وإشبيلية وإفراغة وقرطاجنة وطليلطة ، ويبدو أن مجمع طليلطة الثانى عشر قد اعتبر مطرانية طليلطة رأس المطرانيات جميعاً .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها إحدى وعشرون فى إسبانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور فى التنظيم الإدارى الإسلامى ، وسنذكرها بأسمائها اللاتينية ونتبع كل اسم بمقابله العربى إن وجد ثم القشتالى الذى أخذ عن الصيغة العربية فى بعض الحالات ، وبقي إلى اليوم :

Acci وادى آش Guadix

Arcábrica أركيبيقة Arcábrica

(عاصمة إقليم كونكة البونانى)

Baeza أو Biatia بياسة

Baza	بسطة Boasti
Bigastro	Bigastra (في مرسية)
Cartagena	قرطاجنة Cartago
Cazlona	قسطلونة Castulo
Alcalá de Henares	مدينة المائدة Compluto
Denia	دانية Diania
Elche	إلشي Illici
La Guardia, Jaen	مَنتِيشة Mentesa
Granatula, Ciudad Real	أوريط Oreto
Osma	أشونة Oxuma
Palencia	- Palentia
Játiva	شاطبة Setabis
Segovia	شقوبية Segobia
Segorbe	- Segòbriga
Sogüenza	- Segontia
Valencia	بلنسية Valentia
en Cuenca	Veleria (في قونقة)
Villaricos	Urci على مقربة من
	وفي ولاية بيطى عشر أسقفيات هي :
Sevilla	إشبيلية Hispalis
Medina Sidonia	شذونة Asidonia
Ecija	استجة أو إسجة Astigi
Córdoba	قرطبة Córdoba

Cabra	Egabro قبرة
Niebla	Elepla لبله
Elvira	Eliberis أو Iliberri إلبيرة
Italica	Italica طالقة
Malaga	Malaca مالقة
Martos	- Tucci
وفي لشدانية (Lusitania) - وهي البرتغال الحالية - ثلاث عشرة أسقفية هي :	
Mérida وهي القاعدة	Emerita ماردة
Avila	Abela أبله
Viseo	Beseo بيزو
	Caliabria (على مقربة من Cuidad Rodrigo)
Coria	Cauria قورية
Coimbra	Conimbria قلمرية
Evora	Ebbora يابرة
Idania la Vieja	- Egitania
Lamego	- Lameco
Lisboa	Olisipone الأشبونة
Oxonoba (Faro)	Ossonoba أكشونة
Beja	Pax Julia باجه
Salamanca	Salamantica شلمنقه
	وفي جليقية تسع أسقفيات هي :
Braga القاعدة	- Braga

Astorga	Asturica استرقه
Orense	- Auriense
Santa María de Breto	- Britonia
(cerca de Mondeñeds)	Braga قرب Dumio
Padron (Coruña)	- Iria
Lugo	لُكُ Lucus
Meinedo o Oporto	Magneto أو Portucale برتقال
Túy	Tude توده
وفي إسبانيا الطركونية (الشرق) ١٥ أسقفية هي :	
Tarragona القاعدة	Tarracona طركونة
Oca	Auca أوقه
Osona (ق مقاطعة	Ausona أشونة
Vich نبش (
Barcelona	- Barcimona
Zaragoza	Caesaraugusta سرقسطة
Calahorra	Calagurris قلهرة
Tortosa	Dertosa طرطوشة
Tarrasa	- Egara
Ampurias	Empurías امبرياش
Gerona	Gerunda جرنده
Lerida	Ilerda لاردة
Huesca	Osca وشقة
Pamplona	Pampilona بنبلونة

Tarazona	Tirassona طرسونة
Urgel	– Urgello
وفي المقاطعة التربونية ثمان أسقفيات هي :	
Narbonne وهي القاعدة	Narbona أربونة
Agde	Agatha أجدة
Bezîers	– Beterres
Carcassonne	Carcassona قرقشونة
Elna - Perpignan	– Elena
Ludève	– Luteba
Magallon Montpellier	Magalona مجلونة
Nîmes	Neumaso نيمه

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذا كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و٦٩ في شبه الجزيرة^(١) . ومن هذا العدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، إلى أن العرب خربوا عدداً يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغه نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا في الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا في إسبانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين إياها ، وعندما انتشر الإسلام في البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من النصارى ، وأذن لهم في بناء كنيسة أخرى بدل القديمة التي أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة في الأقاليم التي ظلت خلال الفترة التي نتحدث عنها دار حرب ، وهي كنائس أقاليم جليقية والولاية

التربونية والجزء الشمالى من إسبانيا الطركونية وولاية لشدانية . فقد ظلت هذه النواحي ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهى لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب فى كل زمان ومكان .

وربما كان الذى أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية فى الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الإسلامية ، ظناً منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا إلى بلاد الشمال القصى ، فظن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم إلى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الإسلام والمسلمين بين المؤرخين الإسبان المحدثين ^(١) .

وعلى أى الأحوال ، فإن المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها فى سلام مع المسلمين :

مطراتيات طليطلة وماردة وإشبيلية ،

وأسقفيات وادى آش - اَرْكِيَّة (فى ولاية قونقه) - شذونة - استجه - برشلونة - بَسْطَه - بياسة - بيجاستر (نقلت فيها بعد إلى قرطاجنة) - قَلْهُرة - قورية - سرقسطة - مدينة المائدة (Compluto - Alcalá de Henares) - قلمرية - قرطبة - قبرة - بلبة - البيرة (غرناطة) - جَرُنْدَة - الش - مالقَة - ارجلُو (Urgel) - اوسمه - سِجِيَّة (Exea Segia) - سِجُونثيا (Sigüenza) - توكى (Martos) - أرشى (Urci) ، على مقربة من المرية) - طَالِقَة - بلنسية .

المجموع إحدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فإذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسى الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة فى جليقية فى ناحية لم تخضع للمسلمين ، ومثلها سبعة لم تخضع لهم من كراسى الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسى ولاية لشدانية فى نواح لم تدخل فى طاعة المسلمين ، ومثلها أربعة من كراسى ولاية إسبانيا القرطاجنية - إذا استبعدنا هذه الكراسى التى كانت واقعة فى نواح خارجة عن دار الإسلام وعددها خمسة وعشرون

كرسياً ، كان الباقي الذى دخل فى ديار المسلمين من قواعد الكراسى الكنسية أربعاً وأربعين. وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أى أن الذى اختفى من الكراسى الكنسية أحد عشر .

نقول « اختفى » ولا نقول أزيل أو محى ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغي أن نهمل أمرها فى ذلك الحساب ، وهى أن قيام دولة الإسلام فى الأندلس اقتضى تغييرات إدارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الإدارية القوطية عند تحويلها إلى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت إلى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام إلى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الإدارية الإسلامية وهكذا ، فكانت النتيجة أن خمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسى كنسى . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الإسلامى بل حدث مثله فى إمارة أشتريس التى أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلاً كرسى افراغه (Braga - Bracara) إلى كرسى لوك (Lugo - Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسى الكنسية فى الأندلس الإسلامى . وعندما كانت تعمر ناحية وتتمدن قاعدتها - أى تصبح مدينة - كان المسلمون لا يمانعون فى إنشاء كرسى كنسى فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبعليلوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسياً كنسياً رغم قربها من قورية وماردة . وكان فى كل منها كرسى ، بل كانت الأخيرة مطرانية^(١).

وربما كان أهم تغيير فى النظام العام للنصرانية فى الأندلس هو انتقال مركز الثقل من طليطلة إلى قرطبة . لم ينقل المسلمون كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة إلى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريباً منهم فى العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة فى قرطبة^(٢) ، وذلك إجراء بسيط لم يؤثر فى أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاها الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخى إسبانيا النصرانية ينفذون ذلك ويعتبرونه عدواناً على كنيستهم وتعصباً على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم لم يبقوا فى الأندلس

٢٢٦ - انتقال
مركز المسيحية
الأندلسية إلى
قرطبة

SIMONET, op. cit. p. 122 - 123.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 123 - 124.

(٢)

كله - عندما صار الأمر إليهم - على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الإنسان في منطق أولئك المؤرخين لا يسعه إلا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم في عصرنا هذا من الإحساس الإنساني .

٢٢٧ - الكنيسة
الأندلسية في
النطاق الشرقي

حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانتقل إليهم بذلك الإشراف الأعلى على شئون الكنيسة في بلادهم ، وجعلوا قرطبة المركز الفعلي للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا لأنفسهم بالحق في تعيين المطران - أو إقرار انتخابه بقول أصح - وفي الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا في ذاته تغييراً حاسماً في تاريخ الكنيسة الإسبانية ، لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحياً وأديباً ومالياً أيضاً من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الإسبانية كيانه مستقلاً ، فلم يعد النصارى المقيمون في النواحي الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئاً من أموالهم إلى روما ، وانقطع مجيء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وإيطاليا بصفة رسمية ، أى أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماماً عن إخوانهم النصارى في إيطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب إلى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية في عداد النصرانية الشرقية وإن كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعاً لذلك بمؤثرات نصرانية - إسلامية - آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التي سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول المسلمين ، في حين ظلت بقية الكنائس الكاثوليكية التي كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديثات تصدر بها أوامر من المجمع الكنسي العام أو مجمع الكرادلة في روما .

٢٢٨ - الطقوس
القوطية الكنسية

إسبانيا كان القديس الرسول سان توركواتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة وادي آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه إيزيدور ، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر إيزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسميها بعضهم الإيزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية - Offi-Oficio Góteco

cium Góticum ، وربما سميت الطقوس الطليطلية Oficio Toledano لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تعميمها في كنائس إسبانيا وغالة النربونية كلها . وقد جرى بها العمل في الكنائس في الأندلس الإسلامي دون أن يتعرض لها المسلمون بشيء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين ، أطلق الليونيون على من كان في هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضاً على شعائرتهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozárabe .

٢٢٩- البابوية وما كادت البابوية تقف على أقدامها في حماية الدولة الكارولنجية الفرنجية والطقوس القوطية حتى أخذت تلقى الشكوك في قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيته ، فبدأت بإرسال خبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظرا في أمر هذه الطقوس ويعرضا عليه رأيها فيها ، فذهب الخبران إلى كنائس ممالك إسبانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها شعائر كاثوليكية سليمة . ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على إلغاء هذه الشعائر وإحلال الشعائر الرومانية (نسبة إلى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شأنه ملك تَبْرَه وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر المستعربية في نبره وقشتالة وليون فيما بين سنتي ١٠٧٧ و ١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين (١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الإسلامي عندما بدأوا يدخلون في طاعة ملوك إسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائرتهم ما داموا في حمي المسلمين ، فلما صاروا إلى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا إلى ما كانوا فيه في العصر القوطي ! وقد تحول الأمر إلى صراع دموي اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمراً كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الإسلامي ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم في أبدى أولئك الناس ! لقد جمع الامبراطور ألفونسو السادس مجعاً في برغش عام ١٠٨٥ ، وألغى الشعائر

(١) يحتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقذعة على المسلمين ، ولو أن المسلمين مساو طقوس الكنيسة لما وجد في ألفاظ العنف - بل البذاءة - ما يكفي . وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذي كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب بشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامي تشويهاً تاماً .

المستعربة التي حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضاً بسلطان الرهبان الكلونيين ، وهم أجانب عن إسبانيا ، كانوا يدخلونها إذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضاً .

ولم يرض الشعب عن ذلك ، وسرت في صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن نقبل هذا التغيير » . ووقف الملك وحيداً أمام رعيته كلها . وتدخل نفر من الوسطاء في الأمر ، واستقر الرأي أخيراً على تحكيم القدرة الإلهية جرياً على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا ناراً ثم يلقي فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربة ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منهما فهو الباطل . ويقص ردريجو الطليطلى هذا الخبر ويؤكد أن النار أكلت كتاب الشعائر الرومانية في حين بقى كتاب الشعائر القوطية سليماً لم يمس ! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر ، ويروي رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم ممالئون للبابا ، إذ أنهم يقولون إن كتاب الصلوات الروماني عندما طرح لم يقع في النار ، أما القوطى فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ! (١) .

ويقولون إن الطقوس المستعربة سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الإلهي ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلاً ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك يلحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وإنما استطردنا مع تاريخ هذه الطقوس لكي نؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الإسبانية القومية عاشت في سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت في ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين .

* * *

بقى نظام الكنيسة بعد الفتح سليماً دون تغيير ، كل ما حدث هو أن أسماء الوظائف الكنيسة الوظيفية تغيرت تبعاً لاستعراب ألسنة الناس ، وظهرت لها أسماء هي مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية ، وإليك بياناً بأهم هذه الوظائف كما وردت في كتابات نصارى الأندلس ، نوردها على سبيل المثال :

مطران أو مطروبول (Metrópol).	Metropolitanus
أسقف أو أسقف.	Episcopus
أرج برشطر ، وربما سموه بالتسمية الإسبانية Arcipreste فقالوا أُرْجُبرِشت أو أُرْسبرشت . وقد يضعون له اسماً مركباً Archi اليونانية الإغريقية «وقس» العربية ، فقالوا : أرج قس .	Archi - presbiter
أرجدياقن أو أرسدياقن (إسبانية : Arci- Arcediano أو diacono).	Archidiaconus

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمحوها بأذى، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة Capellas، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم^(١)، ثم غيروها شيئاً فشيئاً من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لساناً وأسلوب حياة، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يُعرفون بها بين الناس، وإن كان لكل منهم اسمه الكنسي اللاتيني أو الإسباني الأصل.

وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك الكنيسة الواسعة،^{٢٣١ - المسلمون وأملاك الكنيسة} واستولوا كذلك، أيام الفتح فقط، على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التي تركها رجالها وسدنتها وهربوا. وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس. وقد اعتبر المسلمون ما وقع في أيديهم من ذلك غنائم يجري عليها حكم الخمس، فأما خمس أراضي الكنيسة فقد اعتبر ملكاً للدولة ووزع الباقي بين الفاتحين، وكان الجند في الغالب يتركون الأرض بيد زراعتها يؤدون إليهم عنه مالاً، ويدفعون منه ما يشاءون لكنائسهم، فكان الأمر لم يتغير كثيراً بالنسبة لهذه الأرضين، وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقي. وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الإسلامية آمنة لا يروع أصحابها شيء، وقد درج المسلمون على التردد عليها لالتباس النبيذ الطيب على

SIMONET, op. cit. p. 127.

(١)

ISIDORO DE LAS CAGIGAS, Los Mozárabes, I. p. 65.

عادة مُجان المشرق في هذا الباب ، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم في قرع النواقيس .

وظلت الجماعات النصرانية في المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسوسها وورعاتها ، لم يتدخل المسلمون في شيء من علاقاتها بهم ، فظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية ، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمدون المواليد ويختارون لهم الأسماء ، ويسجلون المبيعات والعقود بين الناس . وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك ، ثم هو ليس بمعقول ، وقد كانت عملية دخول النصارى في الإسلام على قدم وساق .

والآن وقد ألمنا بأحوال أهل الذمة من النصارى ، فلنمر سراعاً بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة .

كان عهد عبد العزيز بن موسى - ثاني عمال الأندلس المسلمين - عهد أمن
سياسة
أمرأه المسلمين
تجاه أهل الذمة
وخير للنصارى الإسبان ، فقد كان الرجل سمحاً ليناً لا يميل إلى الشدة إلا
حيث لا يجد لنفسه مخلصاً عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوجاً للنريق
(فيما يقال) وسماها أم عاصم ، وكان بينه وبينها ود كريم كانت نتيجته وبالأعلى عليه ، لأنه
أسرف في الانقياد لها وأحب أن يرضيها باتخاذ سمات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك
وقتلوه ^(١) . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب ،
وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمي ، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب
والبربر والإسبان بدأت من زمن مبكر جداً ، وهذا طبيعي ، لأن المسلمين حينما دخلوا هذا
البلد دخلوه رجالاً بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد ، أي أن الجيل الثاني
من مسلمي إسبانيا كان هجيناً ، ولما كان ورود العرب إلى الأندلس قليلاً جداً نظراً لبعدها
المسافة ، فإن الدم العربي الصريح تلاشى في هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام
الإمارة الأموية عربياً صريحاً إلا في النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجيناً ^(٢) ،

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢ .

الأنخبار المجموعة ، ص ٢٠ .

SIMONET, op. cit. p. 149.

(٢) انظر عن ذلك :

JULIAN RIBERA, Disertaciones y Opúsculos I, p. 4 - 15.

إذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا في ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجاء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الإسبان في عهد عبد العزيز وبدأوا يطمنون إلى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخى الإسبان في التعليق على سياسة عبد العزيز ، فيذهبون إلى أنه مال إلى النصرانية وأنه كان يفضل الإسبان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطق ، وكل ما في الأمر أن دواعى الشدة قد انقضت وهدأت البلاد فلم يبق إلا اللين والمحاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحى المسلمين كعمرو بن العاص في مصر (١) .

ولم يصادر المسلمون في ذلك العهد المبكر من كنائس إشبيلية - وكانت عاصمتهم إذاك - إلا واحدة هى كنيسة القديسة ريفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة رُبينه ، ولم يأخذوها كلها بل جزءاً منها جعلوه مسجداً ، وبقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يمسُّوا عقيدة الإسبان في كثير (٢) .

وفي ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى كبنى المُنْدُ فيها مسلمون ٢٢٣- بيوت أخى غيطشة ، فقد كان حليفاً للمسلمين وتوفى عن ولدين وبنت ، فأما ونصارى الولدان فهما أبه (أو عباس) الذى قُتِلَ في واقعة كوفاء دونجا وأصبح الثانى مطراناً لإشبيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرتباس فذهبت تشكوه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوّجها عريباً هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفى عنها في العام الذى دخل فيه عيد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمى ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها وولدت له حبيب ابن عمير جد بنى سيد (لعل صحتها سعيد) وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرُّز .. » أى أن إسحاق وإبراهيم ابنى عيسى بن مزاحم (٣) المسلمين كان لهما خال نصرانى

SIMONET, op. cit. p. 152.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 151.

(٢)

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ - ٦ .

هو مطران إشبيلية . ولا نزاع في أن مثل هذا حدث في أسر كثيرة ، ونحن إذ نشير إلى هذا إنما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربي في العنصر الإيبيري ، هذا الذوبان الذي نتج عنه شعب إسبانيا الإسلامية حاملاً خصائص العرب والبربر والإسبان .

وتذهب المراجع النصرانية إلى أن خلفاء عبد العزيز وهم أيوب بن حبيب
 خلفاء - ٢٣٤ - عبد العزيز بن
 اللخمي والحر بن يوسف والسمح بن مالك كانوا معادين لنصارى
 موسى وأهل الذمة الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن ثلاثهم
 أنفقوا خير أيامهم في الجهاد فيما وراء البرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحي
 التي ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالإسبان مثل ذلك ^(١) ، وليس
 ذلك صحيحاً ولا نملك نصاً واحداً يشير إليه ولو عن طريق غير مباشر . بل الثابت أن كبار
 القساوسة كانوا نشطين في ذلك العهد في تجديد الكنائس ، ويذكر إيزيدور الباجي أن
 فريدواريوس أسقف وادي آش. *Freduaris, Accitanae sedis Episcopus.*
 وأربانس أسقف طليطلة *Urbanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis*
 عمرا كنيسة وادي آش في ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل الناس إليهما دون أن يتعرض
 المسلمون لهم في ذلك بشيء ، ويذكر سيمونيت - رغم تعصبه - أمثلة كثيرة تدل على أن
 النصرانية الإسبانية انتعشت بعد الفتح الإسلامي - كما حدث لنصرانية مصر - انتعاشاً
 ظاهراً ^(٢) بعد دخولها في طاعة المسلمين أيضاً .

وكان سندريدو *Sindredo* مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفرّ حينها أقبل
 المسلمون ^(٣) ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه
 مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال
 الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامراً بالكنائس
 الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » *Omnium Sanctorum* ، وظلت الأديرة التي

SIMONET. op. cit. p. 156 - 157.

(١)

SIMONET. op. cit. p. 160 - 162.

(٢)

(٣) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجي ، فقرة ٣٥ .

SIMONET. op. cit. p. 163.

في أرياض البلد قائمة لم يمسسها المسلمون بأذى كبير ، وإن كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرها كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور في النصوص العربية بإئدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهى كنيسة القديسة مريم (سانتا ماريا) التى كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى في إسبانيا فقد حوّلها المسلمون إلى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية إلى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دى ألفيثين Santa María de Alficen ، وقد نقل النصارى إلى هذه الكنيسة أوراقهم ووثائقهم وكل ما كان في الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية ^(١) .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) ^(٢) مطراناً للبلاد خلفاً لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه في مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطراناً آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلاً في الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم في البلاد وإخضاع مراكز ٢٢٥-ثورة
أكويلا واستلامه المقاومة فيها ، قد مضوا في احتلال بقية النواحي التى كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة وإقليمها تم احتلالهما على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية إسبانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويلا Aquila ، فحسب أن العرب يتركون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتركون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون في البلاد وأنه لن يصل إلى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم في طركونة ، فسار إليه السماح وأخضع البلد وأنزل به شيئاً من التخريب . فلما قتل السماح بعد ذلك في وقعة طولوشة حاول أكويلا الثورة من جديد ، ولكن عنبسة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهباً ذريعاً ، واستسلم أكويلا وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن ألبرُّ ALvaro قاضى العجم ^(٣) .

SIMONET, op. cit. p. 166.

(١)

(٢) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص ٤ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ .

سيمونيت ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

٢٣٦ - نصارى
الأندلس يحجون
إلى بيت المقدس
ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الإسبان انتهزوا فرصة دخولهم في طاعة الدولة الإسلامية لكي يذهبوا إلى بيت المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى القديس فيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج إلى الأراضى المقدسة ، ووصل إلى الرُّها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربى في أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة في الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف فيليبالدو فلم يعد إلى بلده وإنما إلى دير مونت كاسينو في إيطاليا ، ومنها انتقل إلى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفاً لمدينة أَيْبُخْشَتَات في ألمانيا ^(١) . ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيراً .

٢٣٧ - عبد
الرحمن الغافقي
وأهل الذمة
عبد الملك بن قطن ، ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وإن كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة بسبب احتواء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلاً عسكرياً عنيفاً ومسلماً متفانياً لا يكاد يحفل بغير الإسلام والمسلمين . ويؤكد ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفاً شديداً في ولايته الأولى ^(٢) .

٢٣٨ - موقف
عبد الملك بن قطن
من أهل الذمة
وقد أراد عبد الملك أن يعتدى على تدمير صاحب ناحية مرسية الذى عقد العرب معه الصلح المعروف على يد عبد العزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير إلا الرحيل إلى المشرق حيث لقي هشام بن عبد الملك وشكا إليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذى عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان بن عبد الملك ، وانتهز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقي منهم إكراماً عظيماً ، ثم عاد إلى بلاده حيث أقام في إقليمه آمناً حتى توفى سنة ٧٤٣ م ^(٣) .

٢٣٩- المسلمون وكان المسلمون حينما فتحوا نواحي الغرب قد قبلوا من أهل قلمرية Co- ونصارى قلمرية nimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، وأقام عبد العزيز بن موسى عليه حاكماً عربياً تسميه وثيقة لآتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn Tarif - وربما كانت صحة الاسم العربي أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف - في سنة ٧١٦م . وكانت المدينة إذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد قومساً يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atanagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، وأقام على الأسقفية قساً يسمى لوربان Lorban .

واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الإسلامية العليا حتى سقطت في يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيما بعد إمارة البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وإنما أشرنا إلى ذلك لنضع أيدينا على أوائل احتلال المسلمين للبرتغال وحكمهم إياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد - وكان مولعاً به - معهم ، وكان يوقر الرهبان ويقرهم ، وتذهب الوثيقة التي أشرنا إليها إلى أنه ألزم نصارى قلمرية بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها ، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالاً Pesanta من الفضة ، وعلى كل أسقفية مائة مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالاً ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شيء ، لأن رئيسه كان حليفاً للمسلمين^(١) ، وترك رهبانه أحراراً . وتذكر المراجع حاكماً مسلماً آخر لقلمرية في هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبي عاصم وسار على طريقته في التودد إلى الأهليين والإحسان إليهم والولع بالصيد .

٢٤٠- عقبة وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبة بن الحجاج السلولى من النصارى ابن الحجاج وأهل الذمة وحالمهم في أيامه ، فأما القطعة الإسبانية التي بين أيدينا من تاريخ الرازي فتقول في حوادث سنة ٧٣٤م : « وقد وضع عقبة هذا أموره كلها في أيدي النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار »^(٢) . وأما إيزيدور الباجي فيقول عنه إنه « رآك البلاد روكاً جديداً وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما

SIMONET, op. cit. p. 182.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 184 - 185.

(٢)

عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أى وسيلة تمكّنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أى طريق»^(١) . ولكنه يقرر في نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أى أنه اشتد على الناس أجمعين . والواقع أن عقبة كان رجلاً حازماً شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهاده في محاربة النصارى في الشمال وفي غالة ، وكان إلى ذلك مولى بعيداً عن نزعة العصبية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرّب أهل البلاد وسوّى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وهذا تصدق الروايتان وتضيفان شيئاً جديداً هاماً عن عقبة بن الحجاج وحكمه في الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين فوتو Voto وفيلكس Felix أنشأ في عهد عقبة دير سان خوان دى لاينيا San Juan de la Peña في لحف جبل أورويل Oruel في أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيها بعد وكان له أثر بعيد في التاريخ الأندلسي بعد ذلك بثلاثة قرون : إذ اتخذ أنييجو خيمينيث Iñigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكراً وعاصمة لإمارة بنبلونة التي أنشأها وكان لها دور عظيم فيها بعد في حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الإمارة حينما اتسعت بعض الشيء مملكة شُبرب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك في مملكة نبرة . وكان الأخوان فوتو وفيلكس من أغنياء النصارى في سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين في هذه الناحية وانتشار الإسلام بين أهلها باعاً ممتلكاتها وفَرَقَها على الفقراء ومضيا إلى جبل أورويل حيث أنشأ دير بينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طيبة ضمنت لأهلها الحرية في كل شيء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون في ببطء منذ أوائل أيام الحكم الإسلامي ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة^(٢) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة في الأندلس ، أخذ بعض النصارى الإسبان يهاجرون إلى نواحي الشمال القاصية : إلى أشتريس وكتبرية ،

(١) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

SIMONET, op. cit. p. 190 - 191.

(٢)

ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعنا العربية لا تشير إليها (١) .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرَّق الشَّاميين وأنزلهم في بعض كور الأندلس «وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم» (٢) ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة » . وقد حاول سيمونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الإسبان الذين أنزل العرب في كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير خاطيء ، إذ لم يزد على أهل الذمة شئ جديد ؛ وإنما أخذ الشَّاميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب إليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء في أيام أبى الخطار بسبب هذه الزيادة المزعومة .

بيد أن أبا الخطار أخطأ في إنزال بعض الشَّاميين في نواحي تدمير التى ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذى عقده تدمير مع عبد العزيز بن موسى ثم عاد هشام بن عبد الملك فأكدّه . وكان صاحب تدمير إذ ذاك أتاناجيلدو Atanagildo الذى خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣م ، فلم يكذب يسمع بتصرف أبى الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين في أرضه من البلديين طيبة ، فنهضوا ينصحون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتاناجيلدو ، ففرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسبّه وأهانته ، فمضى أتاناجيلدو يتحجب إلى جند مصر من الشَّاميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبههم بإحسانه ، فتوسطوا له عند أبى الخطار ، وما زالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره واحترام حقوقه (٣) . وإنما ذكرنا هذه الحكاية لكي نستدل منها على أن علائق من الود كانت قد تأصلت بين العرب النازلين في الأرياف وأهلها من النصارى الإسبان ، فهذا أتاناجيلدو يعاونه البلديون والشَّاميون على رفع الظلم عنه ، وسنرى في تاريخ كبير نصرانى آخر - هو أرتباس - أمثلة أخرى كثيرة تؤيد ذلك .

SIMONET, op. cit. p. 193.

(١)

إيزيدور فقرة ٦٣ - ٦٦ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٠ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

فتح الأندلس ، ص ٣٦ - ٣٧ .

SIMONET, op. cit. p. 199 - 200.

(٣)

ويذهب الإصطخرى إلى أن المسلمين وضعوا يدهم على نصف كنيسة قرطبة الجامعة (١٣١هـ / ٧٤٨م) أى فى هذه الفترة التى تتحدث عنها . ذلك أنهم كانوا قد عاهدوا أهل قرطبة على أول الفتح بأن يدعوا لهم هذه الكنيسة الجامعة المعروفة بكنيسة القديس بجنت أوبزنت San Vicente (Sanctus Vicentius) وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيرة . فلما نقلوا مركز الدولة إلى قرطبة وكثر المسلمون فيها وفى أرياضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا إلى مسجد جامع ، فقاموا النصرى كنيستهم الجامعة كما فعلوا فى دمشق والرّها ، « فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة فى كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثانى بأيدى الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس »^(١) .

ويذهب مؤرخونا إلى أن ذلك تم على أول زمان الفتح، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة فى سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م^(٢) ، وللرازى رواية تدل على أن ذلك حدث فى ولاية أبى الخطار ، وبعد سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م على الأغلب^(٣) .

وفى هذه الفترة تظهر شخصية أرطباس Ardabast زعيم عجم الذمة وابن غيطشة إلى جانب كبار الشخصيات العربية فى أيام أبى الخطار ومن جاء بعده . ويبدو لنا أرطباس رجلاً مهذباً حسن التصرف واسع الحيلة ، ينصح عمال الأندلس فى شئون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو إلى الإعجاب . ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التى أتينا بطرف منها ، وهى رواية تدل على حسن تصرفه وتلقى ضوءاً على أسلوب حياة العرب والإسبان والنصارى فى ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيها سبق فقرة منها ولا بأس من إيرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبّابة رحمه الله عمن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال فى أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة

(١) ابن عذارى : بيان ، ج١ ، ص ١٤٤ .

ابن بطوطة : رحلة ، ص ١٩٨ .

ابن جبير : رحلة ، ص ٢٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة : ص ٦١ .

(٣) المقرئ : نفع ، ج١ ، ص ٣٦٨ .

من السّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيّاً بعضهم بعضاً ، دخل ميمون العابد جد بنى حزم البوايين ، وهو أحد الموالى السّاميين ، فلما رآه أرطباس داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيه الذى قام منه ، وكان مصمّداً بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لى هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك إلى مثلى ؟ فقال ميمون : قدمنا إلى هذا البلد وظننا أن ثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما نتوهم به أنّا لا نعود إلى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأؤدى إليك الحق منها وأخذ الحق . فقال له أرطباس : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة ! ودعا بوكيل له فقال له : ادفع إليه المجسر الذى على وادى شوس وما فيه من الغنم والبقر والعيبد ، وادفع إليه القلعة بجان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فشكر وقام ، وعاد أرطباس إلى مقعده ، فقال له الصميل : يا أرطباس ! ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاد الطيبة ! أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السّؤال ، فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ! فقال له أرطباس : يا أبا جوشن ! أهل دياتك يخبروننا أن أدهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر علىّ برّ من بررت ! وكان الصميل أمياً لا يقرأ ولا يكتب : إنكم أكرمكم الله ، [وأنتم] إنما تكرمونه عز وجل [إذا أكرمتهم الصالحين] . وقد رويانا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكأنها ألّقمه حجراً . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يرضيكم إلا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صار منها لكل منهم عشر ضياع ؛ منها طُرُش لأبى عثمان ، والفُتَيْن لعبد الله بن خالد ، وعُقدة الزيتون بالمُدَوَّر للصميل بن حاتم ؛ وهى حكاية حافلة بكل ما يعيننا على تصور العلاقات بين العرب ونصارى الإسبان فى ذلك العصر ^(١) .

ولم يكن أرطباس رجلاً كريماً كيساً فى كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

وقد حَرَفَ سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص ٢٠٥ .

وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه المُنْدُ وتركه ابنة واحدة هي سارة وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة إلى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوّجها عيسى بن مزاحم^(١) . وكان أرتباس يتخذ هيئة الأمراء فيجلس على كرسي مَصَّمَد بالذهب والفضة كما رأينا في الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة إذا خرج مع الأمير « وحولها من الهدايا غير قليل ، إذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه . فنَقَسَ عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] ... »^(٢) .

٢٤٢- المطران وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصبهم شيء من الأذى أثناء الحروب سيثيليا العنيفة التي دارت بين العرب ، بين أبي الخطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها حبر جليل ضليع له صيت في الحوليات النصرانية وهو سيثيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصرانية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكان يعمر ما يبى من الكنائس ، وكتب النصارى في امتداحه القصائد اللاتينية^(٣) .

ومن دلائل الحرية التي كان النصارى يتمتعون بها في هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التي انتشرت من الكنائس التي تهدمت إلى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمّرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة إلى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى في شيء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة في كل ما يتصل بأمورهم الدينية^(٤) .

ويذكر ابن حيان في عداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهري رجلاً يسمى عروة ابن الوليد « ثار في مدينة باجه في أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية وكثر جمعه ، إلى أن خرج عليه يوسف فقتله »^(٥) ولم يذكر لنا ابن حيان شيئاً نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانياً مستعرباً ، وإنما عربياً جمع نفراً من العرب وأهل الذمة وثار بهم في هذه الناحية .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤ - ٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) SIMONET, op. cit. p. 207.

ويكتب اسمه في النصوص بصور مختلفة : Zixilanus, Cixilanus, Cigilia :

(٤) SIMONET, op. cit. p. 211 - 212.

(٥) المقرئ : نفع ، ج ٢ ، ص ١٣ .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى إلى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التي فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التي دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقين منهم بأداء المبالغ التي كانت قد تقرر عليهم في اتفاقات الصلح ، فنقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها^(١).

٢٤٣- النصارى
بعمرون بعض
البلاد الخالية
وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة بجيرانها على الأندلس بين سنتي ١٣٣ و ١٣٨ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٥ م ، وعادت جماعات البربر التي كانت تعمر النواحي الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التي كانت خاضعة لحكم المسلمين إلى هذه النواحي الخالية الفاصلة بين دار الإسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهري تاجه ودويره لتعميرها ، فعمرت لك وليون وسلمنقة وأبله وأوكا وشقوبية وأمايا ، وقد كان المهاجرون إلى هذه النواحي من كل طبقات النصارى : أشرافاً وغير أشراف - tam no biles quam ignobilis . وعمرت لك بالنصارى وقام على تعمير كنيسة حبر كبير هو أدواريوس (Odoario في النصوص الإسبانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب ، فعاد إليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة ، واتخذ لقب مطران .

٢٤٤- تعمير
شقوبية
وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا إلى شقوبية الجبال على أوائل أيام الفتح ، ولكن معظم الهاربين عادوا بعد أن صالح الباقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة في كل شيء لقاء دفع جزية مقررة ، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنائس الكبيرة ، مثل سانتا ماريا دلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان فيسنت San Vicente ولا ترينيداد La Trinidad وسان خيل San Gil وسان أنطون San Antón وكلها قديمة ترجع إلى ما قبل عصر ريكايردو^(٢) . وقد اطمأن النصارى في بلدهم هذا بعد أن تأكدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر ، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago .

SIMONET, op. cit. p. 217.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 223.

(٢)

وكان العرب ينزلون كثيراً بهذه المدينة في غزواتهم نحو الشمال ، ثم تحوفوا من كثرة النصارى فيها ، فأخرجوا الكثير منهم إلى الأودية المحيطة بها لكي يجعلوا البلد ثغراً . ويبدو أن مقامهم بها لم يطل ، لأنهم لم يخلفوا فيها إلا أثراً قليلاً جداً ، ولم يرد لها ذكر كثير في التواريخ الإسلامية ، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أحبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثلاثة Los tres Santos mozárabes كانوا على جانب عظيم من الزهد والصلاح ، حتى لقد فرقوا أملاكهم في الفقراء وخرجوا إلى بادية عند مصب نهر الدوراتون el Rio Duratón وخف إليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية القاحلة من برديل Bardulia ، وهكذا نلاحظ أن الفتح الإسلامي أدى - بطريق غير مباشر - إلى تعمير الكثير من نواحي الأندلس الخالية ، وكانت هذه الناحية من أعمر نواحي برديل حينما تكونت فيها إمارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادي^(١) .

وعندما اشتد ساعد الإسلام وانتظمت أموره في خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهري التاجه ودويره ، ووضعوا أيديهم على كبار مدائنهما مثل أبله وشقوبية . وقد ثبتت حدود الإسلام فيما بعد عند خط في منتصف المسافة بين الدويره وتاجه ، فبينما كانت أبله وشقوبية من بلادهم نجد شلمنقة خارجاً عنها . ولم يحاول المسلمون الوصول إلى نهر الدويره والثبات عنده بصورة دائمة .

٢٤٥ - ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبرة
وفي خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان المسلمين عن كثير من نواحي الشمال الشرقي القاصية في جهة ابشكنس Vasconia كما تقلص ظلهم من ناحية الشمال الغربي على ما روينا ، وإلى هذه الفترة يرجع ميلاد إمارات شبرب Sobrarbe وأرغون Aragon ونبرة Navarra في ناحية البشكنس وجبال البرت ، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة إلى ثلاث مقاطعات صغيرة هي Calagurri (قلهرة) في الجنوب و Segia (Exea de los la balleros) في الشمال الشرقي و Pamplona (بنبلونة) في الشمال^(٢) . وكلها واقعة في سهل ريوخه Rioja وكانت قلهرة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار رجال الدين فيها إلى غالة أو إلى جليقية ، وأقام بعضهم في أبيت (Oviedo) .

IBID, p. 226.

(١)

IBID, p. 227.

(٢)

وفي هذه السنوات أيضاً عاش ذلك الراهب الذى كتب الحوليات التى نسبت زماناً طويلاً إلى إيزيدور الباجى Isidorus Pacensus ، إذ حسب الناس أنه كان أسقفاً لباجه (Pax - Julia) فى البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب فى باجه وإنما فى طليطلة ، ولم يكتبها إيزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جداً لأحداث الأندلس فى هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك^(١) .

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى سياسة القوط حيال اليهود ، وبينّا كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر فى موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفى موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلىنا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيراً عليهم ، وسنرى فى غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسماً فى تاريخ اليهود جملة ، وأن المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن فى الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عداً واضطهاد ، وما زال ذلك العداء يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود فى فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، فتفرق اليهود فى نواحي الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، وإلى هذا الظن الخاطئ يرجع السبب فى الاضطهادات الأولى التى لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة ، وفى تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حيال المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعاً ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلباً للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئاً غير ملحوظ فى المشرق ، وأما فى الغرب ، فقد تابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا إلى النواحي التى كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفاً ، هربوا إلى إسبانيا والشمال

الإفريقي وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم في بلاد الجرمان حتى أدركوا سواحل البلطيق ، وفي بلاد الصقالبة حتى الفولجا وشواطئ البحر الأسود .

٢٤٧ - اضطهاد القوط لليهود
وقد كثرت جماعاتهم في إسبانيا حتى أننا لنجد مدناً كاملة يعمرها اليهود في أواخر العصر القوطي ، ومن تلك المدن اليُسَّانه Lucena والبيره Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين إلى السلطان على عهد ريكايدو ، بدأت المجمع الطليطلية تضيق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث قراراً بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششوتو سنة ٦١٣ قراراً بخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس إيزيدورو هذا القرار ، وأيد مجمع طليطلة الرابع قرار ششوتو فاضطر الكثيرون من اليهود إلى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعاً فقرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على إقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونة .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك إيرفيج حيث قرر المجمع الطليطلي الثامن عشر إرغام اليهود جميعاً على التنصر أو مبارحة البلاد في مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المستترين . وبدأ اليهود يتحركون سراً للقضاء على الدولة القوطية ، وأحسن القوط بها كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلي السادس على أيام اخيكا اعتبار اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين ، وحرّم على هؤلاء الآخرين عقبتهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتمانية^(١) .

وقد حاول اخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلقبونه من إرهاب ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونمى إلى اخيكا أنهم يتصلون بأبناء عموماتهم في المغرب ويحاولون إغراء العرب بفتح إسبانيا ، فانقلب عليهم ، وأصدر المجمع الطليطلي السابع عشر قراراً في سنة ٦٩٤ بالعودة إلى الاضطهاد السابق .

وليس لدينا - من مراجعنا العربية - دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم إياهم على المسير إلى إسبانيا ، وإن كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود إلى جانب العرب أثناء الفتح وبعده (١) .

٢٤٨ - المسلمون واليهود وقد رأينا كيف وقف اليهود إلى جانب المسلمين أثناء الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات الأسوار وما إلى ذلك ، وكان من الطبيعي أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرساً لما يفتحونه من البلاد إلى جانب الحرس الإسلامي . وقد لقي اليهود بعد ذلك تسامحاً مطلقاً من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الإسلامية باضطهاد اليهود إلا ابتداء من القرن الحادي عشر ، أي بعد سقوط الخلافة وافتراق الكلمة وشيوع الفوضى .

ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلها : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر إليهم المسلمون نظرهم إلى إخوان ، حتى أصبح الأندلس موئلاً لليهود ، بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبري بدأت في إسبانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على إنشاء نحو لغتهم . ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا في غمارهم (٢) .

٢٤٩ - تنظيم وليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود في الأندلس جماعات اليهود الإسلامي ، ولكن القوانين والمنشورات التي أصدرها ملوك إسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامي في أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات في ظلال الإسلام . وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة إلى تشريعات خاصة لهم ، بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، إذ أُفرد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم في إسبانيا كلها . وهذا وحده يكفي للدلالة على فضل المسلمين على يهود إسبانيا ، وهو فضل لم

IBIDEM. III, 132.

(١)

LÉVI - PROVENÇAL, Histoire..., 1, p. 80 - 81.

(٢)

يُغنَى مؤرخ يهودى واحد بالإشارة إليه : لقد أظلمهم الإسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من إسبانيا كان ذلك إيذاناً بزوال أمر اليهود أيضاً .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، فى الوثائق الإسبانية ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، منظمة تنظيمياً دقيقاً . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعى أن يكون قد بدأ فى صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الإسلامى فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الذميين ، ومنهم اليهود .

رأينا فى كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا إذا وجدوا فى بلد يهوداً جعلوهم فى جملة حرس المدينة ، و« ضمّوهم إلى القصبة » أى أنهم أوسعوا لهم مكاناً فى الجزء المحصن من البلد ، وهو القصبة . ومن الطبيعى أن يتجمع اليهود فى جزء معين من القصبة ، وهذا الجزء هو الذى أصبح مع الزمن حى اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعنى حياً أو قسماً من المدينة ، كما هو الحال فى المغرب إلى اليوم ، إذ تقسم المدينة إلى حارات ، وهذا الحى أو الحارة هو الذى عُرف فيما بعد باسم اليهودية أو الخودرية Judería فى مصطلح إسبانيا النصرانية .

٢٥٠- حكومة وتسمى جوالى اليهود فى النصوص الإسبانية باسم عربى : aljama الجماعات اليهودية (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على جماعة اليهود فى النواحي الداخلة فى دولة الإسلام ، أو فى نواحي قشتالة وليون التى تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحي التى لم تتأثر بالحضارة الإسلامية إلا قليلاً ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبرى : كاحال Kahal . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « البرور » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى « البروريم » (البرورين) وقد يسمى البرور مُقَدِّماً (الجمع فى العبرية مقدميم = مُقَدِّمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم Ne'emanim) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يُعرفون عادة باليوعاظيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مُقَدِّم غلب فى جماعات اليهود التى أقامت فى البلاد الإسلامية ، وقد ترجم هذا اللفظ إلى الإسبانية عندما زال أمر الإسلام ، فأصبح المُقَدِّمون فى المدن التى استغلبيها النصارى يعرفون باسم أدلانتادوس (adelantados) أو (Adenatados) .

وكان البرورون والمقدّمون والنعمانون يُنتخبون أول الأمر ، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاماً ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسئولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاتهم ، وكانت الإدارة الإسلامية لا تتدخل في شئونهم ، بل كان للجماعة اليهودية الحق في تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفي الحالات التي كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يُرفع لقاضى المسلمين .

وكانت لليهود يتّبعهم التى تُقام فيها صلواتهم ، وكانوا أحراراً في ذلك لا يعرض لهم المسلمون في شيء ، وليس لدينا دليل على أن حى اليهود كان يحاط بأسوار في البلاد الإسلامية ، بخلاف الجودريات في البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية . وكذلك كان الحال في بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت في بولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto . وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج في الجماعة الإسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن ^(١) .

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الإسلام والمسلمين شيئاً ؟

كانت النتيجة أن وقف اليهود إلى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير إسبانيا ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التي قاموا بها

(١) اعتمدنا في جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم في إسبانيا ، ومن الغريب أن نفرأ أنهم يستطرد عن أحوال اليهود في الأندلس الإسلامى كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالى على العرب واغتصابهم قطعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود - حتى علماءهم - كانوا يضمرون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر .

ABRAHAM A. NEUMAN, The Jews in Spain. (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes. 1948.

FRITZ BOER, Die Juden in Christlichen Spanien.

JACOB, Sources of Spanish _ Jewish History (New York 1894).

J. PERLES, Rabbi Salomo ibn Abraham ibn Aderth. (Breslau 1863).

للمسلمين . وإذا نحن فرنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خيانتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم إلا خيراً ؟ لقد أحس المسلمون في القرن الحادى عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح وإكرام مع اليهود ، ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الإسبان أنفسهم تكفلوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين ، وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأفتهم من البلد الذى تحونوه أكثر من مرة . وفرّ من نجا بحياته منهم إلى المغرب ونواحى البحر الأبيض وهم اليهود السّفراديون ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائل أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية إلى بلاد الجرمان والصقالبة ، تكاثروا هناك وانضمت إليهم جماعات من الهاربين من انفجارات العداوة التى كانت تثور بهم فى بلاد أوروبا الغربية ، وفى ألمانيا وبولندا ونواحى روسيا ، عاشوا فى مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجُتُّو ، ولم يبارحوها إلا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعاً على أيامنا ونسوا ما أسلف إليهم الناس جميعاً من أذى ، ولم يصبح لهم هدف فى الحياة إلا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن إليهم فى التاريخ أحد بمثل ما أحسن العرب والمسلمون ..

* * *

الْفَضْلُ الْحَادِي عَشَرَ

الإدارة والمال

٢٥١- قلة لم تصمت مراجعنا العربية - الأندلسية وغير الأندلسية - عن ناحية من المراجع عن شؤون نواحى التاريخ كما صممت عن نواحى الإدارة وشؤون المال . فعلى طول الإدارة والمال التاريخ الإسلامى وعرضه ، ليس لدينا بيان رسمى واحد عنيت دولة من الدول الإسلامية بوضعه ، تورّد فيه النواحى الداخلة تحت سلطانها وحدودها ، وما يتبع كلاً منها من المدن والقرى بوصفها وحدودها ، وما ينبغي على أهلها من مال ، وما كان لهؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع القانونية على الأرض وما فيها ، كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة الرومانية . واعتادنا فيما يتصل بالشرق على بضعة بيانات نقلها بعض المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ، تحدّد دخل جزء من الدولة أو نفقاته في فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان الذى أورده ابن خلدون في « المقدمة » ، نقلاً عن خط رجل يسميه أحمد بن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحى ، نقلته من جراب الدولة » (١) . وهو بيان ناقص لا يبين إلا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل بالمشاكل ، سواء فيما يتصل بأسماء النواحى وتقسيمها ، أو معانى المصطلحات التى يستعملها .

ومثال ذلك أيضاً البيان الذى أورده قدامة بن جعفر في جزء من « كتاب الخراج » نشره دى خويه في ليدن سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم (٢) ، وهو بيان مضطرب في حاجة إلى دراسة طويلة . وهناك بيان ثالث وصل إلينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير على بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حساباً » عما وصل إليه من أموال الجباية وما أنفقه منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريمر على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على ما فيه اعتماداً تاماً ، نظراً لأنه صادر عن وزير في موقف الدفاع عن نفسه (٣) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ط. بولاق ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى : نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .

ALFRED VON KREMER, Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

(٣)

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الإداري وشؤونها المالية ، حتى إذ استعنا في فهمها بالشروح التي أوردها الخوارزمي في كتابه القيم « مفاتيح العلوم »^(١) للمصطلحات المالية ، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والإدارية الذي أورده ياقوت في مقدمة « تقويم البلدان » . وربما كانت مصر أوفر البلاد الإسلامية حظاً من هذه الناحية ، نظراً لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة ، ونظراً لاهتمام بعض مؤرخي مصر ، كالمقريزي في « خططه » والقلقشندي في « صبح الأعشى » ، والنويري في « نهاية الأرب » ، بالكتابة في مسائل الإدارة والتقسيم الإداري وشؤون المال .

* * *

ولكننا لا نملك ، فيما يتصل بالأندلس ، شيئاً يشبه ذلك . وبين هذا الحشد ٢٥٢ - التقسيم الإداري الحافل من المؤلفات الأندلسية في كل فن ، لا نجد مؤلفاً عنى بناحية كالتى عنى بها المقريزي والقلقشندي والنويري ؛ حتى ابن حيان ، أمير مؤرخي الأندلس ، لم يجذ علينا الزمان بنسخة كاملة من تاريخه ، وليس في القطع التي بين أيدينا منه شيء يتناول التقسيم أو التنظيم الإداري ، بل لم يورد لنا بياناً شافياً عن نواحي الدولة وأموالها ، مع أنه وأباه كانا من كُتّاب الدولة ورجال الدواوين ، ومع أنه كان ينقل عن أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى بن أحمد ، وكان كلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء .

ولا يعلل هذا الصمت إلا بافتراض أن التقسيم الإداري للأندلس والجبايات التي تقرر على النواحي لم تكن ، بالنسبة للأمراء أو كتابهم ، مسألة تستوقف الاهتمام والنظر ، كأن الحرب حينئذ دخلوا البلد وجدوا فيه نظاماً إدارياً جارياً ثابتاً صالحاً فجروا عليه ، دون الحاجة إلى إعادة التخطيط والتنظيم ، وكان الظروف العامة في الأندلس ، إلى سقوط الخلافة الأموية على رأس المائة الخامسة للهجرة ، كانت مستقرة بصفة عامة ، وكأن مقادير الجباية كانت وافية طوال هذه الفترة ، فلم تقع الدولة في أزمت مالية وإدارية كالتى تعرضت لها دولة العباسيين ، أزمت جعلت الناحية المالية هي المشكلة الرئيسية للخلافة العباسية من أواخر القرن الهجري الثالث ، ولم يتورط الأمراء والخلفاء الأندلسيون في تلك الأخطاء الفادحة التى زعزعت الأسس العامة التى قامت عليها دول المشرق ، فاضطرت إلى إعادة التنظيم والروك ، وزيادة الجبايات وابتكار الجديد منها ، وما إلى ذلك .

(١) الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦هـ) القاهرة ١٣٤٤هـ ، ولايدن ١٨٩٥ .

٢٥٢ - كتاب
الأندلس وتقسيمه
الإدارى

وهذا - على الأقل - هو ما يبدو لنا مما بين أيدينا من تاريخ الأندلس . فعلى الرغم مما يحفل به هذا التاريخ من أخبار الفتن والثورات ، فإن الحال كان دائماً رخيماً والناس فى سعة ، وبيت المال عامراً بالدخل والمدر ، حتى فى أيام فتنة العرب وأهل الذمة التى شغلت الأندلس من أواخر إمارة محمد إلى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن إفلاس بيت المال أو مصادرات العمال والوزراء والتجار التى يحفل بها تاريخ دول المشرق ، وهذا أمر لا يمكن أن يتج إلا عن رخاء شامل جعل عامة السكان بنجوة من الفقر المدقع الذى يؤدى إلى الثورة ، ولا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولة ، مما لا يمكن أن يتحقق إلا مع افتراض وجود نظام إدارى سليم وتنظيم مالى صالح ، هذا بالإضافة إلى الحكمة الإدارية التى اتصف بها الأمراء والخلفاء ، والنزاهة - النسبية - فى شؤون المال والحكم التى اتصف بها الوزراء والعمال ورجال الدولة فى العاصمة والنواحي .

وهذا الاستقرار الإدارى والاقتصادى ، هو الذى صرف المؤرخين والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الإسلامى إنما يؤرخ عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً ملاً فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكتّاب والفقهاء ومن إليهم . وإن الناظر إلى تاريخ دول المشرق فى موجز تاريخى جامع ، مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الأول هى مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم ؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها ؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفى مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة فى حالة إفلاس حقيقى من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الأزمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكتّاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلاً ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة .

وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بنى العباس ، فقد تربع خلفاؤها على امبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام إدارى وآخر مالى ، ولم يوضع هذا ولا ذاك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتنبه إلى الأمر أحد طالما كانت الدولة فى سعادتها والجبابة وافرة ، ولكن الإنفاق كان دائماً أكثر من الوارد ،

وقد أحس بذلك هارون الرشيد فطلب إلى أبي يوسف القاضي أن يضع له دستوراً إدارياً مالياً، فوضع له مبحثاً فقهياً لم يتفع به الرشيد أو من جاء بعده. وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خالياً، فبدأ في مصادرة أموال الناس، ونظر الوزراء والكتّاب إلى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسراً، فثبّطت الهمم وأخذت الثروة القومية تتلاشى، ونزر الوارد إلى بيت المال شيئاً فشيئاً، حتى وصلت الدولة إلى الإفلاس، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجري.

أما في الأندلس فلم يحدث من ذلك شيء، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بأنه لا بد أنه كان هناك نظام إداري مالي ثابت سليم، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لا تغنى شيئاً إذا كان النظام فاسداً. فقد كان «ارتفاع» الأهواز مثلاً مضرب المثل، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبطا بها إلى حضيض الفقر البالغ. ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة الإسلام في المشرق، ولكنها أفلست تماماً في منتصف العصر الفاطمي بسبب سوء الإدارة وفساد النظام المالي، وتوالت عليها المجاعات والغلوات والمحن التي يُفصّلها ويشرح أسبابها المقرئ في كتابه الفريد في باب «إغاثة الأمة وكشف الغمة». ولسنا نجد في الأندلس شيئاً يشبه ذلك: لا نجد أميراً أو خليفة يسمح أراضي الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الإدارية، لا نجد كوراً يُجمع بعضها إلى بعض أو تقسم تقسيماً جديداً لمواجهة ظروف إدارية طارئة، ولا نجد جبايات ثقيلة تُفرض على الناس فيشكون منها. وهذه ظاهرة لا تُفسّر إلا بما قلناه: وجد العرب تقسيماً إدارياً مستقراً صالحاً، فأخذوه كما هو، ووضع العرب من أول الأمر نظاماً مالياً لم يحتاجوا بعد ذلك إلى تغييره، ومضى العمل به على ما هو عليه، ولم يتعرض واحد من النظامين لشيء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين.

ثم إننا نجد أن كل التفاصيل التي لدينا عن تقسيم الأندلس إلى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقاً واضحاً مع اختلاف العصور التي كتبت فيها، وحتى مع افتراض أن كل ما كُتِبَ بعد الرازي أخذ عنه، فلا يعقل أن ينقل عنه أحمد بن عمر بن أنس العذري المتوفى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥، وأبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وأبو الحسن على ابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري الذي كتب في سنة ٨٨٦ / ١٤٨١، وغيرهم كثيرون، دون أن يشير واحد منهم إلى تعديل أو تغيير

أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف الأعصر التى كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رسته والإصطخرى والمقدسى ، وهم جميعاً ممن يهتمون بالتقسيمات الإدارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التى أدخلت عليه ، بل وقف ياقوت طويلاً عند مصطلحات الأندلسيين الإدارية ، وبيّن الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير إلى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقى فى الروع أن الرازى ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، إنما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب فى وضعه مشقة . وليس فى ما بين أيدينا من كتب التاريخ إشارة إلى وضع هذا النظام أو من وضعه أو فى أى وقت كان وضعه ، مما ينتهى بنا إلى القول بأن العرب وجدوا فى الأندلس عند دخولهم تقسيمياً إدارياً ثابتاً للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة - وسنشير إليها - واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فإذا صح هذا رأى ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم إسبانيا الإدارى على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطى ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هى درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الإسلامى إلى كور وأقاليم ؟ .. أم هل هو التقسيم الكنسى إلى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ - أصول التقسيم الإدارى الإسلامى فى الأندلس
من الثابت أن القوط لم يضعوا لإسبانيا تقسيمياً إدارياً ، وأنهم قنعوا بالتقسيم الرومانى الذى وجدوه فى البلاد عند دخولهم ، فلنرجع إلى العصر الرومانى لنتتبع هذا التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الإدارى ، فلا تكاد ناحية من النواحي تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الإدارى العام لدولتهم ، ويجددوا وضعها السياسى داخل الدولة أو علاقتها بها إذا كانت محالفة أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا ينفك يعيد النظر فى النظم ويعدها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ إدارى حافل بالتطورات . وفيما يتصل بإسبانيا سار هذا التطور جنباً إلى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكّن قبضتهم منها ، وتأثر إلى جانب ذلك بما قام فى

البلاط من ثورات أو حركات معادية للرومان . وبعثنا من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذى وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذى تم فى عهد دقلديانوس ، والذى يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كتابنا الإسلاميون .

٢٥٥ - تقسيم فاما التقسيم الأول فهو الذى يجعل إسبانيا قسمين إداريين كبيرين ، يحكم كلا دقلديانوس دقلديانوس منها موظف كبير بلقب بروكنسل Proconsul أولاً ثم بلقب قسطنطين برايتور Praetor فيما بعد ؛ هذان القسمان هما إسبانيا الدنيا Hispania Ci- terior وإسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساساً لكل تقسيم جاء بعده فى الفترة الرومانية ، فانقسمت إسبانيا القصوى فى عهد الامبراطور أجريتا سنة ٢٧ قبل الميلاد إلى ولايتى بيطى Betica ولشداية Lusitania . وفى أيام كاراكالا ظهرت ولاية إسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم إقليمى جليقية وأشتريس ، وفى عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا إسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis وإسبانيا القرطاجنية Hispania Cartaginensis . وهذا يصل بنا إلى تقسيم دقلديانوس الأخير الذى يُنسب إلى قسطنطين ، وبمقتضاء أصبحت إسبانيا ديقونية Diocesis - أى عملاً كبيراً بالمصطلح العربى - تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخله فى القسم الغربى من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذى وصل إلينا فى وثيقة رسمية اسمها : بيان بالوظائف الجليلة فى الدولة وغير ذلك Notitia dignitatum utriusque imperii^(٢) . وتضم إسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هى : باطقة Betica ، ولشداية Lusitania ، وجليقية - أشتريس Calicia Astúrica ، والولاية الطركونية ، والولاية القرطاجنية ، ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Provincia Balear-ica .

MANUEL TORRES, La Peninsula Hispanica, Provincia Romana. En Historia de España (١) dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid, 1935. p. 371 - 372.

(٢) نشر هذه الوثيقة الهامة seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها أيضاً :

TH. MOMMSEN, Verzeichnis der römischen Provinzen aufgesetzt um 297. Abhandlungen der Berliner Akad. d. Wiss. Phil. Hist. Kl. 1862. S. 489 - 518. Gesammelte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561 - 588.

C. JULLIAN, De la réforme provinciale attribuée à Diocletien. Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331 - 374.

وقد ذكر كُتَّابنا العرب هذه التقسيمات مع تحريفات ظاهرة ستحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العذرى : « ... تَمَّ ذِكْرُ الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جَزَّأها على ستة أجزاء : أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء ، وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، إلى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوربولة إلى سرقسطة وما وازاها . وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجزى الأنهار ؛ فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى أنهاره إلى الشرق سماه الشرقى . والقسمة من تدمير ، ونهرها جارٍ إلى الشرق » ^(١) . وإذا نحن نظرنا إلى التقسيم الرومانى الأول إلى إسبانيا الدنيا وإسبانيا القصوى تبين أنه ينطبق تماماً مع كلام العذرى ، فيما عدا المدن التى يذكرها ، فإن الحد الفاصل بحسب التقسيم الرومانى هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله إن بعضهم يسمى القسمين الأندلس الشرقى والأندلس الغربى فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للحياة العامة لشبه الجزيرة الأيبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقى لشبه الجزيرة كله ساحلاً جنوبياً تقريباً .

٢٥٦ - قسمة ولأبى عبيد البكرى نص أكثر تفصيلاً وأهمية ، لا بالنسبة للتقسيم الإدارى قسطنطين كما أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما سنرى ، قال : « وَحَدَّتْ الأوائِلُ الأندلس يعرضها البكرى بعبارات مختلفة . وَحَدَّهَا قسطنطين حدوداً ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غالْيوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حوالها وهى بَطْرُش (Béziers = Betteris) ، وطلُيُوشة (Tolosa = تولوز) ومَقْلُونَة (Maguelonne = Magallona) ، ونومُشو (Nîmes - Nemauso) وقرقشونة . وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى سُنْتُ مَرِيَّةَ غَرَاثِيَّةَ (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الأفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوماً .

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة (Braga = Bracara) ، وهو حوز جليقية

(١) أحمد بن عمر بن أنس العذرى : نظام المرجان فى المسالك والممالك (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) ورقة ١٧ .

وشلطيانة (Celtiana) وهو بلد ابن غومس^(١)، وجعل لها اثنتى عشرة مدينة مما حوالها ، منها : مدينة برطقال (Portus Gallensis = بورتو) ، ومدينة تُودَى (Túy = Tude) ومدينة أورِيّة (Orense = Auria = Sedes Auriensis) ، ومدينة لُكُّه (Lugo = Lucus Asturicum) ومدينة برطانية-بري (Santa Maria de Bretoña = Bri) ، ومدينة أشترقة (Astorga = Asturica) ، ومدينة شنت ياقو (Santiago) ، ومدينة كنيسة الذهب^(٢) ، ولها يوم يرد فيه من افرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها . ومدينة ايرية (Iria = Iria Flavia) وتسمى اليوم (Padrón) ، ومدينة بطقة ، ومدينة شارة (Sarria).

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونة (Tarragona - Tarracona) وأضاف إليها مدينة سرقسطة وأشقة (Huesca = Osca) وتسمى أيضاً وشقة (ولاردة وطرطوشة وتطيلة ، وأعمال بلدان ابن شانجو كلها^(٣) ، وبلد بليارش (Pallars) ، وبرشلونة وجرندة (Gerona) ، ومدينة أنبورش (Ampurias) ، ومدينة بنبلونة ومدينة أوقه (Oca = Auca) ومدينة قلهرة (Calagurris = Calahorra) ، ومدينة طرسونة (Tarazona) ، ومدينة أماية (Amaya) وتكتب أيضاً أمايا .

وجعل الجزء الرابع عشرين مدينة ، قاعدتها مدينة طليطلة ، وأضاف إليها مدينة أوريط (Oreto = Oretum) ، ومدينة شقوبية (Segovia) ، ومدينة أركبيقة (Ercávica) ، ومدينة وادي (الحجارة) ، ومدينة شغونسة (Sigüenza) ، ومدينة أكشومة (Osma = Oxuma) ، ومدينة بلنسية ، ومدينة بلازيا (Palencia = Palentia) ؟ ، ومدينة أوريوالة ، ومدينة ألش (Elche) ، ومدينة شاطبة ، ومدينة دانية ، ومدينة بياسة (Baeza) ، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona) ، ومدينة منتيشة (Mentesa) ، ومدينة وادي آش

(١) في القرن الحادى عشر كان الإقليم الواقع في الركن الشمالى الغربى من إسبانيا فيها بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلكت Celticos .

أما ابن غومس ، فالمراد به على الأغلب غرسية بن فرناندو الأول ملك جليقية في أيام البكرى (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١) .

Cf : LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 247, n. 3 - 4 .

(٢) يبدو أن هنا اضطراباً في سياق الكلام . وقد يستقيم المعنى إذا قلنا : و [هى] مدينة كنيسة الذهب ...

(٣) المراد هنا شأنه الرابع ملك نبره ، وقد حكم بين سنتى ١٠٥٤ و ١٠٧٦ .

Cf : LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 248. n. 1.

(Guadix) ، ومدينة بسطة (Baza) ومدينة أرش (Urci) وهي بجانة (Pechina) ^(١) .
وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف إليها اثنتى عشرة مدينة ، وهي :
باجه (Beja) ، مدينة أكشونبه (Ocsonoba) ، ويابره (Evora) وشنتره (Cintra) ،
وشنترين (Santarem) ، والأشبونة وقلمرية (Coimbrá) ، وقورية (Coria = Cauri) ،
(um) ، وشلمنتقة (Salamanca = Salamantica) ، وصموره (Zamora) وهي محدثة
براً إلى شنت ياقوب .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة إشبيلية ، وأضاف إليها لبله (Niebla) وقرطبة
وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرا وريه وأشونه
(Osuna) واستجه (Ecija = Astigi) وقبرة وأعمالها إلى بجانة ، والبيرة وجيان ومنتيه
(?) وباركرته (?) وأبذه (Ubeda) وبياصة (Baeza) ، ^(٢) .

وخلاصة كلام أبى عبيد البكري أن تقسيم قسطنطين يجعل إسبانيا ستة أقسام كبرى
يسمياها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلي :

١ - قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكري منها إلا خساً ، هي : بطرش - طليوشة
- مقلونة - نومشو - قرقشونة .

٢ - قسم براقرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلث ، ويتبعه ١٢ مدينة لم يذكر البكري
منها إلا ١١ هي : برطقال - توذى - أوريه - لكه - برطانية - أشترقة - شانت ياقو -
مدينة كنيسة الذهب (كذا) - إيريه - بطقة - شارة .

٣ - قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هي : سرقسطة - أشقه - لاردة - طرطوشة -
تطيلة - بليارش - برشلونة - جرندة - أنبورش - بنبلونة - أوقه - قلهرة - طرسونة -
أماية .

(١) يلاحظ أن الإقليم المجاور للمرية وبجانة كان يسمى أرش اليمن ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميرى في مادة
بجانة إلى أن الأرض من الأرض وهو العطية أى النخلة ، أى أن أرش اليمن معناه الإقليم الذى منح لليمنيين ؛
وهذا غير صحيح ، وأصل أرش هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم في تلك الناحية .

انظر : الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ٤٧ ، هامش ٣ .

(٢) أبو عبيد البكري : قطع من جغرافية البكري نشرها ليفى بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية لـ «الروض المعطار» .

LÉVI - PROVENÇAL. La Péninsule Iberique, pp. 246 - 249.

وأدخل في ذلك الجزء « أعمال بلد ابن شانجه كلها » أى نبره (نافار) .

٤ - قسم طليطلة : ويتبعه ٢٠ مدينة ذكر منها ١٨ هى : أوريط - شقوبية - أركيكة - وادى الحجارة - شغونسة - أكشومة - بلنسية - بلازيا - أوريوالة - ألش - شاطبة - دانية - بياسة - قسطلونة - متيشة - وادى آش - بسطة - أرش (بجانة) .

٥ - قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هى : باجة - أكشونة - يابرة - شنترة - شنترين - الأشونة - قلمرية - قورية - شلمتقة - صمورة .

٦ - قسم إشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هى : لبله - قرطبة - قرمونة - مورور - مرشانة - الجزيرة الخضراء - تاكرنا - ريه - أشونة - استجة - قبرة (وأعمالها) - البيرة - جيان - متيتة (?) - باكرتة (?) - أبدة - بياسة .

ونلاحظ ما يلى :

١ - أن البكرى لا يعطى الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لها حدوداً بل يكتفى بالقول : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و « جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهذا على الأغلب : « من حد مدينة نربونة » و « من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذى يتبع المدينة بحسب النظام الرومانى كما سنرى .

٢ - أنه لم يذكر قواعد الأجزاء إلا فى ثلاث حالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته إشبيلية .

٣ - المفهوم ضمناً أن لكل مدينة مما يذكر أعمالاً تابعة لها ، فهو يقول مثلاً : « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهى محدثة برا إلى شنت ياقوب » ، وهى عبارة جعلها ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samura) ville de fondation moderne, dédiée à Saint Jaques.

أى أنه قرأ برا بكسر الباء ، وفسر « إلى شنت ياقب » بقوله : « بشت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : « وصمورة ، وهى محدثة ، [وأعمالها] برا إلى شنت ياقوت » قياساً على « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » .

٤ - وقد سميت الأجزاء إما باسم القاعدة ، كما هو الحال فى الأجزاء الرابع والخامس

والسادس ، أو بالنسبة إلى المدينة الرئيسية فيه ، التى يميزها بقوله مثلاً : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة » ، ويريد أن الجزء يُحكم من المدينة التى يذكرها .

* * *

٢٥٧ - تقسيم الكنسى وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماماً من حيث الأجزاء على التقسيم الكنسى لإسبانيا أيام القوط ، فقد كانت هناك ست مطرانيات تقابل تماماً أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكرى ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذى وصل إلينا فى وثيقة سنة ٢٩٧م التى أشرنا إليها ، وإليك جدولاً مقارناً يوضح هذه الحقيقة:

تقسيم دقلديانوس بروفنسيات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجزاء	التقسيم الكنسى مطرانيات	قواعد الأجزاء
جليقية أشتريس	ما بين جاليوش والأندلس	أربونة	نربونة
طركونة	حوز جليقية	جليقية	براقرة
قرطاجنة	طركونة	طركونة	طركونة
لُشدانية	طليطلة	قرطاجنة	طليطلة
باطقة	ماردة	لُشدانية	ماردة
	إشيلية	باطقة	إشيلية

ويلاحظ أن تقسيم دقلديانوس لا يجعل ولاية نربونة داخلة فى ديقونية إسبانيا وإنما فى ديقونية غالة ، وكانت الاثنان تكونان مديرية الغالتين *Praefectura Galliarum* كما قلنا.

وقد أضيفت إلى ديقونية إسبانيا فى نفس عهد دقلديانوس ولاية مرطانية الطنجية (*Mauretania Tingitana*) ، وهى إقليم طنجة أو ما عرف فيما بعد باسم العدو الإفرىقية. وفيما بين ٣٧٠ و ٤٠٠ ميلادية أضيفت إلى إسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (*Provincia Balearica*) .

وسنقف عند هذا التقسيم قليلاً ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذى قام عليه كل تقسيم إدارى آخر لشبه الجزيرة ، بما فى ذلك التقسيم العربى ، لأن شبه الجزيرة الإيبيرية مقسم

طبيعياً إلى أقسام تصلح بهيئتها الجغرافية لأن تكون أقساماً إدارية ، وخاصة بالنسبة للأقسام الصغيرة . وإذا كان تقسيم إسبانيا إلى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات إلى مديريات قد مر في أدوار مختلفة ، حتى انتهى إلى الصورة التى ثبت عندها في تقسيم دقلديانوس سنة ٢٩٧ ميلادية ، فإن تقسيم هذه المديريات إلى أقسام إدارية أصغر لم يكلف الرومان أى عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيرة قائمة ، فلم يكن عليهم إلا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها في الوضع القانونى الذى ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التقسيمات نفسها هى التى أخذتها الكنيسة وجعلتها أساساً لتقسيم المطرانيات إلى ديقونيات ، مع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسى^(١) ، وأخذها العرب بعد ذلك مع إدخال تغييرات محلية في الغالب اقتضتها طبيعة النظام الإسلامى العام ، وستحدث عن ذلك في حينه .

* * *

ومن الواضح أن هناك تشابهاً بين الأسس العامة التى سار عليها كل من
 ٢٥٨ - المدينة
 أساس للتقسيم
 الإدارى الرومانى
 الرومان والعرب في تقسيماتهم الإدارية . فقد كانت « المدينة » هى الأساس
 الذى قام عليه التنظيم الإدارى السياسى الرومانى^(٢) ، وكانت المدن هى
 المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضاً في الحكم والإدارة . ولقد انتفع العرب باهتمام
 الرومان بالمدن وتنظيمهم إياها وعنايتهم بإتقان بنائها وتزويدهم إياها بما استطاعوا
 تزويدها به من وسائل العمران المدنى ، ولا يبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها في
 الشام والأندلس . ففي الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ،
 وألحقوا بكل منها جانباً من الريف اعتبروه حوزاً للمدينة أو زمناً ، وهذا هو ما عرف
 بالأجناد . أما في الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد
 وجدوا فيها مراكز ومواضع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة (Civitas)
 وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب إلى القرى (Gens - Gentes) .

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, en Hist. de España, dirigida por R. (١)
 MENÉNDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276 - 279.

MANUEL TORRES, en Hist. de España, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Ma- (٢)
 drid 1935, p. 379.

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوماً سياسياً واجتماعياً خاصاً، أخذوه عن الإغريق وأضافوا إليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم. وأصبحت المدينة مرادفاً لنظام سياسى يتضمن حريات وحقوقاً وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولاً على حق المواطنة الرومانية. فإذا دخل الرومان بلداً قسموه أقساماً بحسب طريقة دخول نواحيه في حوزتهم: عنوة أو صلحاً أو بمخالفة أو ما إلى ذلك. وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحي بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة. ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs - is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات. وإذا كان هذا الزمام واسعاً قسم إلى أقسام، لكل قسم اسم ينسب إلى قرية كبيرة أو إلى زراعة غالبية عليه أو إلى ظاهرة معينة تميزه كسند جبل أو جبل أو ساحل أو سهل أو ما إلى ذلك. فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما، وإذا ذكرت مدينة قصد في نفس الوقت ما يتبعها من النواحي وقد ثبتت الرومان زمامات المدن وفصلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها^(١).

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) في نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديریات عن مجموعات من المدن وزماماتها، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال، وأصدر بمديریات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلاً منها من المدن وأحوازها، وفيما يتصل بإسبانيا لدينا قانون أو قائمة ولايات إسبانيا (Lex o Formula Provinciae Hispaniae) الذى يحدد ما يتبع كل مديرية من المدن والنواحي. وإذا كانت المديریات قد تكونت من زمامات ما أدخل في حوزها من مدن، فإن الأساس الثابت للتقسيم الإدارى في إسبانيا كان المدينة وحوزها، فقد تغيرت حدود المديریات من عصر لعصر، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هى الأساس، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضاً.

وقد تحدت أحواز المدن بالوثائق التى كان يصدرها الرومان، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب، وعناية بتسجيل كل شىء، وقد كانوا إذا فتحوا بلداً اجتهدوا في ترتيب أرضه وأهله: فأما الأرض التى وجدوها أو أدخلوها في حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية. وأما

الأرض التى استصفوها أو وجدوها طليقة لا تتبع أحداً فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Co-loniae) وجلبوا إليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت فى طاعة الرومان صلحاً ، وهناك مدن دخلت فى طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، فمنها ما صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه الرومان وضع الحليف (deditio) ، ومنها ما كان يمنح حق إنشاء مجلس بلدى له حق التصويت فى المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق (sine suffragio) ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان مُعْفًى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم فى تاريخها خلال العصرين الرومانى والقوطى ، سواء فيما يتصل بمركز البلد فى الإقليم الذى يقوم فيه أو بطريقة حكمته لنفسه والحوز التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولاً ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة لوضع هذه البلاد ونواحيها فى الدولة الإسلامية . فنلاحظ مثلاً أن معظم نواحي إسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محالفات محلية تشبه تلك التى كانت قائمة بينهم وبين الرومان ، فلم يتغير عليهم شئ بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو إلى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحي داخل الدولة الإسلامية استقراراً سلمياً قائماً على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الإسلامية . وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى فى أيام الفتن التى فصلنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكد أسباب الاستقرار والرخاء فى الأندلس الإسلامى فيها بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك إلا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصلاء (Cives) وأهل النواحي التابعون لبلديتها (Muni- ceps) والمعمرون (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك إما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أو (Comitia Curiata) تقوم

بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها^(١) .

* * *

٢٥٩ - القوط والتقسيم الروماني ولم يُدخِل القوط تغييراً ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد حلوا في البلاد محل الرومان^(٢) ، وكانوا من الناحية القانونية معتبرين مجرد نازلين في البلاد بمقتضى العرف الروماني المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما في الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أى أن الهوسبيتاليتاس كانت أول الأمر إذناً للقوطى في أن يتزل وعائلته « ضيفاً » على مزارع روماني مع إعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الروماني وينزله فيه من بيت أو أرض . ثم أصبحت هذه الضيافة حقاً مقررّاً للجرماني ، يستولى بمقتضاه على أراض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها يتزلونها مزارعين مع أهلها ويكون لهم في الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التي نزل بها القوط أرض الدولة ، فإن الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحي على صورة تعبر عنها إحدى المدونات بقولها فيما يتصل بإئزال الدولة الرومانية للقوط في أقطانية : « إن أقطانية سلمت للقوط Aquitania Ghotis tradita » .

وكانت القاعدة في مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثي الأرض ، ويتركون للمزارع الروماني أو اللاتيني أو الإيبيري الروماني الثلث فحسب ، أى أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثي أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديداً دقيقاً في حالة نزول الجرمانى الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده ، أما في حالة عدم اشتغال الجرمان بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثي الغلة للقوط ، وكانت حصص القوط تسمى الأنصب ، واحدها نصيب (Sors, sortes) ، أما الباقي يبد أهل البلاد فكان يسمى بالأثلاث (Terciae)^(٣) . ولم تكن القسمة تقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والرقيق أيضاً . وخرجت من القسمة أراضي الغابات (Compascua) وأراضي المراعى ، فقد تركت مشاعاً . أما الأراضي التي

MANUEL TORRES, op. cit. p. 384.

(١)

ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, Historia de España y su influencia en la historia universal, tomo I (2a. ed Madrid, 1934. p. 909) .

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. III. p. 151.

(٣)

كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، في حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) في القسمة أيضاً ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط ^(١) .

وقد دخل القوط غالة وإسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصبية العربية تسمى (Sippe) وتسمى في المصطلح الروماني (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم للجيش القوطي مئة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العصبية القبلية القوطية بتقادم عهدهم في البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالمزارعين منهم .

٢٦٠- اضمحلال المدن في الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، حتى ليذهب بعض الباحثين إلى أنها أخذت تتلاشى ابتداء من القرن الرابع الميلادي ، نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياع الأمن ، وقد تحول بعضها إلى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماماً ، وتحول غرب أوربا كله إلى عالم زراعي قروي ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدين كالتجارة والصناعة المنظمين ، وتحول المجتمع الأوربي إلى مجتمع زراعي ، وهى الصفة الغالبة التى يوصف بها المجتمع الأوربي في العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا إسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادي ، أى في الوقت الذى كانت المدن تتلاشى فيه في بقية غرب أوربا ، فقد وجدوا فيها كثيراً من المدن باقية في حالة اضمحلال شديد . وذكرها قليل في النصوص على أى حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التى كان الرومان يستعملونها : - (Civitas, Civitates) (Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذى أشرنا إليه . وتذكر النصوص أيضاً قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الباجى (Pagi) - مفردها باجوس - ويراد بها الدوار الريفى ، أما المدينة المحصنة القائمة على مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos) وهى معسكرات القوط التى تحولت إلى مدن أو قرى كبيرة ، والفلا (Villa) وهى الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم يتحول إلى قرية وربما مدينة وربما سورت

وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسمىها العرب مدناً دون تمييز أول الأمر ، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

٢٦١ - الكنيسة
تحتفظ بالتقسيم
الرومانى

وإذا كانت أحوال الدولة الرومانية فى عصورها المتأخرة قد أدت إلى اضمحلال المدن واختفائها شيئاً فشيئاً ، فإن الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الرومانى القديم ، فجعلت المديريات على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesiasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحي التى كانت داخلية فيها فى التقسيم الرومانى ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة فى الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كلاً منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلاً منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو إشارة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائماً ، وإن تعارض مع الواقع^(١) ، فقد تضاءلت مدن كانت كبيرة فى العصر الرومانى ولم تصبح غير قرى ، ومع ذلك ظل لأهلها الحق فى أن يكون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماماً ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبح هذا التقسيم النظرى هو التقسيم الإدارى فى نظر الناس . ولم يحدث هذا فى إسبانيا وحدها بل فى كافة بلاد الامبراطورية الغربية ، التى دخلت شيئاً فشيئاً تحت سلطان كنيسة روما . وظل هذا الوضع قائماً حتى أقبل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأساً ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخذوا عنهم هذا النظام وأعطوه صفة إدارية مع تعديلات اقتضتها ظروف الدولة العربية الإسلامية .

وهذه الظروف تلخص فى أن مركز الثقل فى الأندلس الإسلامى كان فى الجنوب ، فى حوض الوادى الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازى حوض هذا النهر فى شرق الأندلس وغربه ، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران وأزهرت المدن القائمة ، ونمت قرى وغمدنت وأصبحت مدناً مما اقتضى إنشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التى كبرت وعظم شأنها . فبينما كان مركز الثقل أيام الرومان فى الشمال الشرقى حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشداية وما إليها إلا فيما بعد) ، وبينما كان مركز الثقل أيام القوط هو الوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه إلى الجنوب .

وكان الاتجاه الإداري في الأندلس الإسلامي يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال ، بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه في الإدارة الإسلامية عامة ، فحوض الدجلة والفرات مثلاً كان يضم ما لا يقل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك إلا الشام ، فقد قسم إلى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

٢٦٢ - الاتجاه

العربي في التقسيم الإداري

ثم إن النظم الإدارية الإسلامية كانت لا تميل إلى تجزئة الوحدات الإدارية إلى أجزاء والأجزاء إلى أجزاء صغيرة كما رأينا في النظام الروماني والنظام الكنسي الذي قام على أساسه . فاكفى المسلمون بالكور ، كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها ، وقد أدى ذلك إلى تبسيط السلم الإداري ، فالإدارة المركزية يتبعها عمال الكور ، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملاً خاصاً بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة . ومن هنا فقد كان عدد الموظفين في الإدارة الإسلامية لا يبلغ خمس عددهم في الإدارة الرومانية ، وخاصة منذ أيام دقلديانوس الذي زحم الإدارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، فثقل عبئهم على الخزانة من ناحية واتسع المجال لكل أموال الدولة من ناحية أخرى .

٢٦٢ - الأجناد

وقد عرف الأندلس الإسلامي نظام الأجناد أو الكور المجتدة . وقد أخذ العرب هذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » والجند خمس فرق من المحاربين ، وهي تقابل (Tema) في التنظيم البيزنطي ، ويسمى العرب البند والجمع بنود ، وهي تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكري . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ، ويكون لها خراج الناحية في مقابل تقديمها لجند كامل أى خمس فرق من المحاربين . ولم يعرف نظام الأجناد إلا في الشام ، إذ قسمها المسلمون إلى أجناد خمسة هي : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين (وتبعها أول الأمر بلاد الجزيرة) . وقد كان نظام الأجناد من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية ، إذ ضمن لها المحاربين ^(١) . ومن الشام انتقل نظام الأجناد إلى الأندلس على أيام أبي الخطار الحسام ابن ضرار سنة ١٢٥ / ٧٤٣ مع اختلاف واحد ، هو أن الجند في الشام كان يضم كوراً كثيرة أما في الأندلس فكان يقابل كورة واحدة . ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأندلس كان

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، ج١ ، ص ٣٨ .

عليها أن تقدم أعداداً من الجند أقل من خمس فرق . وقد ظلت هذه الأجناد عصباً من أعصاب القوة العسكرية الأندلسية إلى منتصف حكومة عبد الرحمن الناصر على الأقل . ولدينا من عهد الأمير محمد بيان بأعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان إلى جيش الدولة . وإذا نظرنا إلى هذا البيان تبيننا أهمية نظام الأجناد بالنسبة للقوة العسكرية للإمارة الأموية الأندلسية :

كوراة البيرة ٢٩٠٠ فارس	<u>جيان</u>	٢٢٠٠ فارس
كوراة قبرة ١٢٠٠	باغة	٩٠٠
كوراة تاكرنا ٢٩٩	الجزيرة	٢٩٠
كوراة استجة ١٢٠٠	قرمونة	١٨٥
كوراة شذونة ٦٧٩٠	<u>ريه</u>	٢٦٠٠
كوراة فحمص {	مورور	١٤٠٠
البلوط		
كوراة تدمير ١٥٦	ريينة	١٠٦
قلعة رباح {		
وأوريط		

٣٨٧ ، (١)

وهذا البيان ناقص ، والكور المخطوط تحتها هي من الكور المجتدة ، ويلاحظ بوضوح أن أربعاً من الكور المجتدة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجتدة . وذلك يعطينا فكرة عن الأهمية العسكرية لنظام الأجناد . ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المالي الخاص بالأجناد في الشام والأندلس ، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذي أوردناه ، إذ لا يفسر أن كوراة شذونة تقدم أضعاف ما تقدمه كوراة أكبر منها وهي تدمير إلا بأن هذه الكور كانت تقدم فرساناً بدلاً من الضرائب ، ويؤيد ذلك قول المؤرخين أن الشاميين الذين نزلوا هذه الكور « كان إنزالهم على أموال العجم من خير ونعم » (٢) ، أي

(١) ابن حيان، برواية ابن عذاري : البيان المغرب، طبعة بروفنسال وكولان (لايدن ١٩٥١) ج ٢، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب (نفس الطبعة) ص ٣٣ . وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان في هذه المناسبة ، فقال إن الذي أشار على أبي الخطار بذلك كان أرطياس ، أشار عليه « بتغريق القبائل الشاميين الغالبيين على البلد من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على مثل منازلهم التي كانت في كور شامهم ، ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كوراة البيرة ، وجند الأردن كوراة جيان ، وجند مصر كوراة باجة ، وبعضهم بكوراة تدمير ، فهذه منازل العرب الشاميين ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة ، وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم ... » - الإحاطة ، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٠٩ . =

فى مقابل تملكهم لجزء معين من أملاك العجم ونعمهم ، ويؤيده أيضاً أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التى شغلت عصرى محمد وعبد الله وجزءاً من عصر الناصر ، وأسبابها ترجع إلى تمسك العرب النازلين بهذه النواحي بما كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم إلى عسف من كان يسكنها من أهل البلاد ، ونفور هؤلاء لمحاربتهم ، ورفض أولئك العرب لطاعة الإمارة القرطبية ، اعتزازاً منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال .

ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة فى الأندلس وغيره كانت تقع فى كثير من الأحيان نتيجة للرخاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم إلى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات بيكون أن يذكره ضمن ما ذكر من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ إشارة واحدة إلى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه إلى أقسام إدارية ، حتى أحمد بن محمد الرازى صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر إلى ذلك . ونحن نجد الأندلس فى كلامه مقسماً تقسيماً إدارياً ثابتاً منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما فى جغرافيته فهو يعطينا بياناً كاملاً لا يضم إشارة واحدة إلى تغيير أو تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحداً من المسلمين لم يضع هذا النظام وإنما وجدوا تقسيماً قائماً فأخذوه .

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقين عن تقسيم الأندلس إلى كور إلا

٣٦٤ - المقدسى
والتنظيم الإدارى
للأندلس

المقدسى فى « أحسن التقاسيم » ، أما الإصطخرى وابن حوقل فكلامهما عام غير دقيق ولا يمكن التعويل عليه فى هذا المطلب . فإذا نظرنا فى كلام المقدسى بشىء من التدقيق وجدناه حافلاً بالمشاكل ، وخاصة إذا قارناه بكلام الرازى ، والمصطلح الذى يستعمله مضطرب ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو رجل مشرقى على علم تام

= ويلاحظ أن هذه هى أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتعطيهم الحق فى تملك ثلث أملاك هؤلاء الآخرين . وفى النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنها الأستاذ عنان « ثلثا أموال أهل الذمة » ، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت « ثلث » من عنده ، ونظن أن الثلثين أصح لأنها تقابل أنصبة القوط من الأرض على ما ذكرناه ، ثم إن صاحب رأى فى إنزال هؤلاء الشاميين على أموال العجم قوطى هو أرباس . وسنعود للكلام على هذه الناحية عند الحديث عن الناحية المالية .

بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهیطل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب كلامه لبس شديد . ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظراً لقلّة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسى قرطبة كورة كبيرة ، ويسمى أقاليمها الرساتيق ، ويقول فى رواية المعلومات التى أخذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فإشبيلية وبجاجة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هیطل ، فليست بأقل منها ، فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثّل المشرق ، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهیطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أننا نعجز عن تكوير الأندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثمانى عشرة كورة ، فعَدَّ : بجاجة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) - يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها بياسة) - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليطلة - إشبيلية - بطليوث - باجة - قرطبة - الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد لبيرة - خُشْبَة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحى قياساً على إيلاق وكُش والصَّغَانَتَان ، والله أعلم بالصواب » (١) .

ولو عددنا الكور التى يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فإذا أضفنا إليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم إنه يذكر كوراً مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن أنه ينبغى تصحيح الأولى إلى سرقسطة والثانية إلى بياسة . ومعلوماته كلها فى هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هیطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل » (٢) ،

(١) شمس الدين المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . (طبعة دى خويه) لايدن ١٩٠٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ .

وموضع الغرابة في هذه العبارة أن الإصطخري كتبها بينما كان كتاب الرازي في جغرافية الأندلس ذاتعاً بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الإصطخري - على تدقيقه وسعة اطلاعه - لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، وإذا كنا نستنتج من ذلك شيئاً ، فهو أن كتاب الرازي لم يكن متداولاً بالصورة التي نتصورها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب في صفة الأندلس .

ويذهب المقدسي إلى أن الكورة في الأندلس تعادل الرستاق والإقليم في المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لانستطيع الاعتماد عليها ، فهو يقول : « وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم إنه يقول : « قلت : وهل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا » ، ونخلص من ذلك بأن المقدسي يرى أن الأندلس تنقسم إلى كور ، والكور تنقسم إلى رساتيق ، أى أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموي للكورة وللرستاق (١) .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التي هي قواعدها ، فيقولون مثلاً : جيان وماردة ويريدون كورتى جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك في أخطاء واضحة ، لأن الكورة في الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وإنها جاء الخطأ من أن المدن في الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهى التى سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدناً لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

٢٦٥- نصوص وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية في الأهمية بالنسبة لموضوعنا جديدة الأول : أصل كامل للترجمة البرتغالية لجغرافية إسبانيا للرازي ، والثانى : مختصر لجغرافية الرازي وضعه ابن غالب وضّمّه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث : قطعة صالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذرى للأندلس .

٣٣١- ترجمة فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد الرازي فهي أكمل ما كاملة لجغرافية لدينا من النصوص المترجمة لهذه الجغرافية التى ضاع أصلها العربى ، وقد الرازي عشر عليها الأستاذ البرتغالى لويس لندلى سنترنا ضمن نسخة كاملة من ترجمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجي) ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٨ .

برتغالية كاملة لتاريخ إسبانيا العام الذى صنفه الملك العالم ألفونسو العاشر ، وترجم القطعة الجغرافية إلى الفرنسية الأستاذ ليقى بروفنسال ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها إن هذه النسخة أكمل من كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازى ، وذكر كيف أن هذه الجغرافية - فى صورتها العربية - هى الأصل الذى نقله عدد عظيم من الجغرافيين وأولهم فى المغرب أبو عبيد البكرى وابن عبد المنعم الحميرى ، وفى المشرق القزوينى . وقال إن هذا النص يدل على أن الناقلين عن الرازى قد أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئاً ، واستطردات تاريخية ضيعت الكثير من نظام الأصل وتناسقه (١) .

وأما قطعة محمد بن أيوب بن غالب فقد نشرها الدكتور لطفى عبد البديع
 ٢٦٧ - تعليق
 متقى من « فرحة
 الأنفس » لابن
 غالب
 فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهى ليست نص ابن غالب بل « تعليقا
 متقى » منه كما يدل على ذلك العنوان . ولكننا ما نكاد نطالعها حتى نتيقن أن
 ابن غالب قد نقل جغرافية الرازى نقلاً حرفياً فى معظم المواضع ، وأفسد
 هذا النقل هنا وهناك باختصارات أدخلت بالسياق وإضافات من عنده . غير أننا نستطيع
 بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازى بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازى كاملة مع
 الاستعانة بالفقرات التى نقلها عنه البكرى وابن سعيد والمقرى وابن الخطيب وغيرهم .
 وقد كوناً نحن هذا النص الكامل للاستعانة به فى هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الإدارى
 وسنرى فى الفصل التالى أن الرازى اعتمد فى تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها
 المؤرخ اللاتينى الإشباني بولوس أوروزيوس المعروف عند العرب بهروشيئ (٢) .

LÉVI - PROVENÇAL, La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi. al - Andalus, vol. (١)
 xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهى ترجمة فرنسية للنص الذى نشره لويس لندل سترا .

Crónica Geral de Espanha de 1344, edição crítica de texto português por LUIS F. LINDLEY
 CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia).

ونص جغرافية الرازى يقع فى صفحات ٣٩ - ٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسى جديد : قطعة من كتاب « فرحة الأنفس » لابن غالب عن كور الأندلس
 ومدنها بعد الأربعمائة . وعنوان القطعة : تعليق متقى من [فرحة] الأنفس فى تاريخ الأندلس ، للمحافظ محمد بن
 أيوب بن غالب الأندلسى ، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (القاهرة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢
 وما يليها .

٣٦٨ - قطعة من جغرافية العذرى
والقطعة الثالثة نص فريد في بابيه لأحمد بن أنس العذرى في جغرافية الأندلس ،
عثر عليه الدكتور عبد العزيز الأهواني وتفضل فأذن لنا في الاستفادة منه .
ومن أسف أن النص ناقص ، فهو لا يتناول إلا بضع نواح من الأندلس ،
ولكنه تناولها تناولاً شاملاً عظيم القيمة بالنسبة لموضوعنا ^(١) .

وإذا نحن درسنا المعلومات التى تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على ضوء البيانات القيمة التى يقدمها لنا ياقوت فى مقدمة « معجم البلدان » وفى تضاعيف موادها الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج إيجابية تمكننا من تصور التقسيم الإدارى للأندلس الإسلامى تصوراً لا يبعد عن الحقيقة كثيراً . وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام خاص يختلف كثيراً عن النظم التى جرى عليها العمل فى الدولة الإسلامية . وإذا كان المسلمون قد جروا فى التقسيم على أساس الكورة والريستاق فى بلاد الجزيرة وما يليها شرقاً ، ونظام الكورة فقط فيما يتصل بمصر ، ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام ، فإن الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات المشرقية إلا فى صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة ، بل هو لم يعرف نظام الرساتيق أصلاً ، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقاً محدوداً من حيث المساحة التى طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا .

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التى لدينا لجغرافية الرازى تقسمها إلى أقسام تسميها (Dis- tritos) أو (Districts) وهى لفظة يجعلها ليفى بروفنسال معادلة للفظ كورة . فإذا قارنا ذلك بنص ابن غالب ، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الإدارية : الكورة والمدينة ، ولكى نستطيع تبين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة - البيرة - جيان - تدمير - بلنسية - ماردة - باجه - لبلة - قرمونة - إشبيلية - مورور - شذونة - الجزيرة الخضراء - ريه - استجة .

(١) عثرت على ترجمة العذرى واسم كتابه عند ياقوت ، فقد قال فى مادة المربة : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذرى ، ويعرف بالدلائى المرى . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو أكثر ، سمع منه الحميرى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منها ، وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعاً منه . وله تأليف حسان ، منها « كتاب أعلام النبوة » وكتابه المسمى « نظام المرجان فى المسالك والممالك » . ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية » .
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، ج ٨ ، ص ٤٣ .

المدن : طرطوشة - طركونة - لاردة - بريطانية - أشقة - تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شنتبرية - طليطلة - قلعة رباح - أوريط - فريش - شنترين - أشبونة - أكشونة - قرطمة - حصن بيشتر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص ستحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع في أخطاء في عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلاً « لبله » تحت اسم حصون لبله ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبله كورة ، وكذلك جعل « قرطمة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازي وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضاً أن « الانتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد إلى اختصار مغل في بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب نفسه قطعاً كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذى بين أيدينا . وسنشير في بعض تعليقاتنا إلى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازي ، فواضح أن المترجم أدخلوا يدهم فيه ، فأضافوا أشياء جديدة لا يمكن أن تكون عند الرازي ، وفي بعض الأحيان تكون الإضافة خفية يعسر تبينها ، وفي أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارئ وهو يتصفح ، ومن ذلك إضافة كورة باسم إشتانيا (Exitania) بين قلمرية ولسبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروشة وروقيل (Racupel) وسرته (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم إسبانيا على الصورة التى كانت عليها أيام هذا الملك . ومن هنا فإن ذلك النص قد يفيد الذين يدرسون نظم إسبانيا النصرانية في القرن الثانى عشر الميلادى فائدة لا يجدونها فى أصل آخر . وستظهر هذه الإضافات كلها فى جغرافية الإدريسي ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

وبعد ذلك نسأل: ما السر فى التقسيم إلى مدن وكور ؟ إذا نظرنا إلى «المدن» ٢٦٩ - التقسيم
إلى مدن وكور وجدناها تشبه الكور إلى حد بعيد ، فلكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة « لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة » ^(١) ، ومدينة

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٦ .

لاردة « لها حصون كثيرة »^(١)، ومدينة بريطانية لها أحواز ومدن، « فمن مدنها بیشتر وهي من أمهات مدن الثغر »، « ولها حصون كثيرة »^(٢)، وكذلك مدينة وشقة، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثل طرسونة وأرنيط وفارة وناجره^(٣)، ومدينة فريش « لها من الأقاليم إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى »^(٤)، وهكذا . بل إن « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة، فيقول : « ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون، تذكر في مواضعها »^(٥)، ويقول إن فريش « لها رستاق يكون فيه قرى »^(٦)، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحي سرقسطة نهرها يسقى أربعين ميلاً طولاً »^(٧)، والناحية هنا هي الإقليم، لأنه يقول إن أهل الأندلس « يسمون الناحية إقليماً »، أى أن ناحية واحدة من نواحي مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلاً طولاً، وهو يذكر أوقانية (Ocaña) ويقول : « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون »^(٨)، ويذكر أشقة ويقول : « مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانية »^(٩). وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول : « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها »^(١٠). ويقول عن مدينة قلعة أيوب : « مدينة عظيمة جلييلة القدر بالأندلس بالثغر .. من أعمال سرقسطة، ولها عدة حصون »^(١١)، ويقول عن قلعة : « مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس »، أى أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هي قلعة^(١٢). ويقول عن بقيرة (vigüera) : « مدينة في شرق الأندلس معدودة من أعمال تطيلة، بينها أحد عشر فرسخاً »^(١٣).

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٨٧ .

(٤) نفس المصدر، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان، ج ٧، ص ٣١٣ .

(٦) ياقوت، ج ٦، ص ٣٧٤ .

(٧) ياقوت، ج ٥، ص ٢٩٠ .

(٨) ياقوت، ج ٢، ص ٣٧٦ .

(٩) ياقوت، ج ١، ص ٢٩٥ .

(١٠) ياقوت، ج ٦، ص ٤٢ .

(١١) ياقوت، ج ٧، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٢) ياقوت، ج ٧، ص ١٥٤ .

(١٣) ياقوت، ج ٢، ص ٢٥٣ .

ويُفهم من ذلك كله أن هناك أقساماً إدارية تسمى مدناً أو تنسب إلى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لا شبه له في المشرق . فإن المدينة هناك مدينة ولا زيادة ، لها خطتها وأرباضها ، وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها . أى أن نظام المدن كأقسام إدارية لم يُعرف إلا في الأندلس .

فإذا نظرنا إلى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية . كلها تقع في حوض نهر ابره ، وما بين ابره وتاجه ، وفي حوض تاجه ، ثم ما بين المجرى الأدنى للوادي أنه وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وستحدث عنها فيما بعد ، أى أنها كانت النواحي الثغرية ، السياج الذى يحمى الأندلس الإسلامى . وهذا السياج يبدأ عند طرطوشة في الشرق ثم طركونة فلاردة - بريطانية ، وشقة ، تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شتبرية - طليطلة وقلعة رباح - شترين - أشبونة - أكشونة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هى قرطبة وطليلطة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص أنها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى ، بل إن ابن عبد المنعم الحميرى يقول عن قرطبة : « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات » ^(١) ، وليس فى تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وإنما الذى يُفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسى فى « أحسن التقاسيم » : « وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة إليها والمدن فقال : إننا نسمى الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط .. الخ » ^(٢) ، أى أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود إلى هذه العبارة بعد قليل . بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميرى اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسواراً ، فقد ذكر المقدسى أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا فى أى مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يُفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسى الذى ذكرناه .

(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعمار ، ص ١٥٣ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ .

وينطبق ذلك أيضاً على سرقسطة وطليلة ، فهما إما تذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منهما ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن ومعقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليلة القدر ، ولها من الأقاليم عدة »^(١) . وكذلك طليلة فهي « من أجل المدن قدراً وأعظمها خطراً وأشدّها حصانة .. ولها من الأقاليم إقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم إقليم شيلة ، ومدينة وقش ، ثم إقليم الاشبورة وإقليم القاسم وغير ذلك »^(٢) . وابن عبد المنعم الحميري يذكر طليلة على أنها مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات »^(٣) ، وياقوت يقول : « طليلة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس ، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق »^(٤) .

وأما فريش ، فهي درع قرطبة ، فهي بأقاليمها الواسعة تقوم إلى الشمال الغربي من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالاً وشمال شرقياً ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هي « إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى »^(٥) ، فهي إذن في عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

وإذا تذكرنا قسمة قسطنطين التي حدّت الأندلس حدوداً ستة هي : نربونة وجليقية وطركونة وطليلة وماردة وإشبيلية ، والتي قام على أساسها التقسيم الكنسي إلى ست مطرانيات هي : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشدانية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها إشبيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليلة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الإسلامي هما جليقية وأربونة ، فالباقية هي لشدانية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، وإذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة وإشبيلية وطليلة وطركونة ، وقد استبدل المسلمون إشبيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أي أن الباقية على هذا الأساس هي أقسام ماردة وقرطبة وطليلة

(١) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٨٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، ص ١٣٢ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٥) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٩٠ .

وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدناً ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالقوط قاعدة قسم إداري كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عدداً من الديقونيات على النظام الروماني حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولاية ، وإنما هي مدينة لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هذه المدن تسمى دوقيات أو كونتيات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت في التنظيم الإسلامي ، فبقيت مدناً لها أحواز^(١) .

* * *

٢٧٠- المدينة
كقسم إداري
والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة حتى اشتبهت بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله : « وفيها - أي في الأندلس - مدن يزيد بعضها على بعض في المحل والجبابة والارتفاع والولاية والقضاء والمخلفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة ، فيها ضياع عداد وأكرّة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع »^(٢) ، وإذن فليس في الأندلس - على قول ابن حوقل - إلا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذي قلناه .

وهذا هو الذي حَيَّرَ الجغرافيين المشاركة في أمر تقسيم الأندلس ، فالإصطخرى يقول : « والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة »^(٣) ، ثم يمضي في وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلاً : « ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، إلى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليلة ونفزة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وتُرْجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلّة وقرمونة ومورور واستجة وريه ، وكلها مدن عظام »^(٤) ، ثم « ووادي الحجارة مدينة ، وهي وما حوالها من المدن والقرى تُعرف بمدن بنى سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » في الأندلس إلا في ثلاث حالات : « وريه كورة عظيمة خصيبة ومدينتها أوجذونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذي خرج

(١) LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, tome III (Paris, 1953) p. 48.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٣) الإصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٤١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤١ - ٤٢ .

على بنى أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومدينتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصبة وقعت بينهم .. وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة .. وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية ..^(١) ، أى : أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيها عدا ثلاث يجعلها كوراً مع خلط واضح . هذا مع علمنا باهتمام الإصطخري بالتقسيمات الإدارية ، وذكره الكور والرساتيق بالتحديد فى كل ناحية يتحدث عنها^(٢) .

وموقف المقدسى ، وهو لا يقل عن الإصطخري اهتماماً بالتقسيمات الإدارية ، لا يختلف عن موقف الإصطخري ، فهو يقول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل ، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعنى المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة إليها ، والمدن ، فقال : إننا نسمى الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بُلْكُونَة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادى عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هى ناحية مدنها : الجعز ، ببيغا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناته ، منتيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة ، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالقة ، جزيرة جبل طارق ، شذونة ، إشبيلية ، أخشنبة ، مرية ، شنترين ، باجة ، لبلة ، قرمونة ، مورور ، استجة »^(٣) ، وهذا كلام مختلط بعض الشيء ، ولكننا نخرج منه بما يلى :

١ - أن ابن خرداذبة يقول إن الأندلس أربعون مدينة .

٢ - أن أحداً من الجغرافيين والكتّاب لم يسبق المقدسى إلى ذكر كور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ - أن أهل الأندلس يسمون الرستاق إقليماً .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٢) لاحظ مثلاً دقته فى الكلام عن فارس وعنايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٤ - أن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ - سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسمائها ، وجعلها كلها مدناً ليس فيها كورة واحدة .

وللإصطخري نص آخر طويل ، ملخصه ما يلى :

١ - أن لقرطبة ١٣ رستاقاً هى :

أرجونة على ١٥ ميلاً .

قسطللة على ١٣ ميلاً من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلاً من قرطبة .

مارثش على ١٥ ميلاً من قرطبة .

قَبْنَانْش على ١٥ ميلاً من قرطبة بموضع يقال له قنابانية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلاً من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلاً من قرطبة .

بُريانة

حصن بلكونة على ٤٠ ميلاً من قرطبة .

الشنيدة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادي عبد الله على ٤٠ ميلاً من قرطبة ، المنزل وادي الرمان .

فريش على ٦٠ ميلاً من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلاً من قرطبة ، اسم الرستاق أولبة .

٢ - يعتبر الإصطخري جيان كورة ، ويقول إن « بكورتها حر هو فى عداد نواحيها » .

ومن رأينا أن « حر » ينبغى أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أى مدن جيان :

الجَفَز على ١٠ أميال من جيان .

بيغوا .

مارتش فى قنباينة .

متيشة .

غرناطة ، على وإد به مُنيّة طولہ ۱۳ ميلاً فيه للسلطان كل عجيبة .

بياسة .

٣- ويقول : قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فإشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة . وهم يسمون الرستاق إقليياً ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤- عرض المقدسى كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ۱۸ كورة ، فعد : بجانة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقسطة - يابسة ؟ - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليطلة - إشبيلية - بطليوث - باجة - قرطبة - شذونة - الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : لبيرة - خشنية (١) .

وغريب أن يخلط المقدسى هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازى بنحو قرن ، فإن جغرافية الرازى كتبت حوالى سنة ۸۹۰ م . فى حين أن المقدسى كتب كتابه سنة ۹۸۵ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا إن بلادهم أقاليم ، وأنهم يسمون الرستاق إقليياً ، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة ، وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا إن الأندلس يجب أن تكون على ذلك ۱۳ كورة . ويهنا فى كلامه ما نقله عن ابن خرداذبة أن الأندلس ۴۰ مدينة ، وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك ، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتى ۲۳۰ و ۲۳۴ / ۸۴۴ - ۸۴۸ ، وقال ذلك أيضاً يعقوبى الذى كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمدانى وقد كتب بعد يعقوبى بثلاثين سنة . أما

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ۲۳۴ - ۲۳۶ .

معاصره ابن رسته فحديثه عن الأندلس قليل القيمة^(١).

فإذا كان أوائل الجغرافيين - من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبي والهمداني وابن رسته - لا يشيرون صراحة إلى أن الأندلس كان مقسماً إلى كور، وإنما هو عندهم مقسم إلى مدن، ولا يذكرون « الكورة » إلا نادراً وعلى سبيل التجوز لا التحديد، وإذا كان متأخروهم - كالإصطخرى وابن حوقل والمقدسي - ينصّون على « المدن » نصّاً صريحاً، فلا تذكر الكورة عندهم إلا على سبيل الشرح والتوضيح، كما رأينا في حالة المقدسي، فإن ذلك يدل على أن الأساس الأول الذي اتخذ لتقسيم الأندلس كان الأساس الروماني والقوطي من بعده، وهو نظام المدن ذات الحوز. فإذا قالوا مدينة تطيلة مثلاً أرادوا بذلك « ولاية » واسعة منسوبة إلى تطيلة. ولم تأت بلفظ « الولاية » هنا من عندنا، بل إنه مصطلح يستعمله الجغرافيون كقول ياقوت. « طرطوشة، مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها^(٢). وقوله: « كركي، اسم حصن من أعمال أوريث بالأندلس له ولاية وقرى^(٣). » و« ولاية » هي الترجمة الاصطلاحية للفظ (Provincia)، وقد سميت الديقونيات الرومانية ولايات دوقية (Provincia Ducado) ودوقية كونتية (Provincia Condado)^(٤) بحسب رتبة القائد الذي كان يتولاها، لأن الأقسام الإدارية كلها أصبحت وحدات عسكرية، فقد كان القوط شعباً محارباً. وحلّ محلهم العرب، وكانوا شعباً محارباً أيضاً، فمضوا على هذا النظام، واعتبروا الأندلس كله مدناً لا كوراً.

* * *

٢٧١- ظهور أما مصطلح الكورة فلم يظهر إلا بعد سنوات، وظهر على سبيل التجوز مصطلح الكورة لا على أنه مصطلح إداري. وأول ما نسمع به في سنة ١٣٥ / ٧٥٢ في خبر تفريق أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي للشامية على ست كور مذكورة بأسمائها وهي: البيرة وريه وشذونة وإشبيلية وجيان وباجة^(٥). وتذكر أيضاً تدمير ولكنها لم تكن إذ ذاك

Cf : JOSÉ ALEMANY BOLUFER, La geografía de la Peninsula Iberica en los escritores (١) árabes (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3 - 4 pp. 119 sqq.

(٢) ياقوت، ج٦، ص ٤٣.

(٣) ياقوت، ج٧، ص ٢٤١.

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III, p. 48.

(٤)

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٣٣.

كورة ، وإنما كانت ناحية معاهدة بيد صاحبها تدمير ، ولم تصبح كورة إلا في عهد عبد الرحمن الداخل .

ونلاحظ أن هذه الكور كلها في الجنوب والجنوب الغربي ، وأنها كانت كوراً مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كوراً » ككور مصر مثلاً ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة استعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب « الأخبار المجموعة » أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ومن معها « اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة ربه ليحيى بن حريث » (١) .

ويبدو أن نظام الكور فيما يتصل بنواحي الجنوب عُُمِّم من أيام عبد الرحمن الداخل ، أما نواحي الثغور التي ذكرناها فقد ظلت مدناً ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا - فيما يتصل بالتقسيم الإداري - بالنظام الروماني القوطي الذي وجدوه ، ثم عدّلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي : مدناً عسكرية ذات أحواز (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن في بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذي تصوره ، خذ مثلاً تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحث (كذا) يقع على قسم من أقسام الاستان . وقد استعارها العرب وجعلتها اسماً للاستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين ، فجعلته اسماً للكشغر . فالكورة والاستان واحد ... قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، كقولهم : دارابجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارابجرد ، ونحو نهر الملك ، فإنه نهر عظيم يخرج من الفرات ، ويصب في دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك » - (ياقوت ، ج ١ ، ص ٣٦) .

وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك الغموض أن « الكورة » كمصطلح إداري لم تستعمل بصورة منتظمة إلا في مصر ، أما في العراق وما يليه شرقاً فكان المصطلح يستعمل تجزئاً ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسي والاصطخري للتسهيل . وهما يخلطان بين الكورة والرياسات والاستان والترم وما إلى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما في الأندلس ، فلم يستعمل لفظ « كورة » استعمالاً دقيقاً ، وأظهر مثال لذلك استعماله في الروض المعمار . مثلاً : أفليش : « ... وهي قاعدة كور شتيرية » (ص ٢٨) - أليش : « ... من كور تدمير » (ص ٣١) - أندة : « ... مدينة من كور بلنسية » - أوربولة : « ... حصن بالأندلس ، وهو من كور تدمير » (ص ٣٤) ، ومثل هذا كثير جداً . وقد ذهب ليفي بروفنسال إلى أن كور هنا معناها كورة ، أي : أن الجمع يستعمل في معنى المفرد .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Esp. Mus. III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

٢٧٢ - التقسيمات الفرعية : الإقليم ولكنهم لم يتابعوا المشرق في التقسيمات الفرعية للكور والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة إلى رساتيق أو ما يشبهها . لأن الرستاق - كالكورة - قسم زراعى يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات الأرضية هى أساس التقسيم فى الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل بها من أحواز . وإذا كانت المدينة تابعة للكورة فى المشرق ، فإن الكورة هى التى تتبع المدينة فى الأندلس . ولهذا فقد قُسمت الكورة أو المدينة فى الأندلس إلى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى الإقليم . قال ياقوت فى تعريف الرستاق : « قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى . ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد (أى أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والاستان » (١) .

وقال فى تعريف الإقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثانى لأهل الأندلس خاصة ، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليمياً . وربما لا يعرف هذا الاصطلاح إلا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن حمزة الأصفهاني ، فإذا قال الأندلسى : أنا من إقليم كذا ، فإنما يعنى بلدة أو رستاقاً بعينه » (٢) . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين يعنون بالإقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعاً . قارن ذلك بمعنى الإقليم عند المشاركة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية ونحو ذلك » (٣) فالإقليم فى الأندلس بلدة تتبعها أرض ، وفى المشرق أرض تتبعها بلاد ، والفرق واضح لا يحتاج إلى بيان . فى الشرق أخذ العرب الأساس الفارسى وهو الأرض ، وفى الأندلس أخذوا الأساس الرومانى وهو المدينة .

ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق جميعها قرى كبيرة فى اضمحلال متصل ، ومدن الأندلس مدناً حقيقية ذات نظام وتخطيط وهيئة ، وكانت فى صعود دائماً . ولا غرابة فى أن يفاخر المرقى المشاركة بمدن الأندلس ، ويقول إننا نجد فى الأندلس المدينة الكبيرة إلى جانب المدينة الكبيرة . ولا غرابة أيضاً فى أن نجد فكرة أمراء الأندلس فى إنشاء المدن أقرب إلى المفهوم الصحيح للمدن ، وما من ناحية اختطوها هناك إلا بقيت إلى يومنا هذا ، وأماننا

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

مرسية والمرية وتطيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما إليها ، نستطيع أن نقارنها بالبصرة والكوفة وواسط والأنبار والفسطاط والمهدية وما إليها مما دثر وذهب أمره ، لأنها إما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التي تنقسم إليها الكور والمدن ذات الأحواز ، ولكن العذرى يقدم لنا نصوصاً تزيد معنى الإقليم الأندلسى وضوحاً ، ويهمننا بصفة خاصة حديثه عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر إقليماً :

إقليم المدور :

عدد قرأه فى المغارم ^(١) تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [...] .

القمح : ٨٥ مدياً و٤ أقفزة .

الناض ^(٢) : ٣٩٨٠ مثقالاً .

الطبل ^(٣) للعام : ٤١٤٠ ديناراً .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ ديناراً و٤ دراهم .

إقليم القصب :

القرى فى الوظائف ٨٧ ، منها فى العشور ٥٦ قرية .

القمح : ١٤٢ مدياً .

الشعير : ١١١ مدياً .

الطبل للعام : ٢٧٠٠ دينار و٤ دراهم .

الناض للحشد : ٤٧٧٢ مثقالاً .

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و٤ دراهم .

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المنقولات فى الأندلس تحبى نقداً أو عيناً ، فإذا بيعت نقداً سميت الناض ، وإذا بيعت عيناً سميت وظيفاً ، وكان الناض يعتبر فى الأندلس ضريبة خاصة بالجيش ، وهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

(٣) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة فى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية .

إقليم لَوْرَة :

٦٤ قرية ... منها للعشور ...	القرى
١٧٣ مدياً و ١٠ أفقرة	القمح
٣٠٠ ... و ... قفيز	الشعير
٢٤٧٢ مثقالاً	الناض للحشد

إقليم الصَّدَف :

٢٨ قرية ، منها للعشور ...	القرى
٨٩ مدياً و ١١ قفيزاً ...	القمح
١٩٣ مدياً ...	الشعير
[...] ٤٧٥ مثقالاً	[الناض]
[...] :	الصدقة
[...] ٥٥ [...] و $\frac{٢}{٧}$	الطبل للعام

إقليم بنى مُرّة :

١٧ قرية	القرى
١١٧ مدياً [...] أفقرة	القمح
٢٥٤ مدياً و ٣ أفقرة	الشعير

إقليم مَنبَانَة :

٢٦ قرية	القرى
١٢١ مدياً [...] قفيزاً	القمح
٢٢٨ مدياً و ٦ أفقرة .	الشعير
٧٠٠ مثقال	الناض للحشد

إقليم كُرَتَش :

٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية	القرى
-------------------------------	-------

القمح	: ٢٢٠ مدياً [...] أفزة
الشعير	: ١١٦ مدياً و٦ أفزة
الناض للحشد	: ٧٣٠ مثقالاً
الطبل للعام	: ١٧٨٢ ديناراً ، و٤ دراهم
الصدقة والبيزرة	: ٤٩ ديناراً و٤ دراهم

وهكذا بالتفصيل في بقية الأقاليم ، وهذه هي أسماؤها مع عدد قراها :

إقليم الفتل	: ٤٨ قرية
إقليم المزهاز	: ٧٣ قرية
إقليم وإيه الملاحه	: ٨٤ قرية
إقليم وإيه الشغراء	: ٩٤ قرية
إقليم أولية السهلة	: ١٠٢ قرية

ولى هنا ينتهى بيان الأقاليم كما يورده العذرى ، أى أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر إلا ١٢ (١) .

ونخرج من هذا البيان القيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديداً دقيقاً بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغي أن يؤديه كل إقليم في مجموعه من أصناف الضرائب . أى أن الإقليم كان وحدة مالية في نظر الدولة ، وهذه هي الحقيقة الأولى التى تهتمنا ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذى عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحظنا بين الأقاليم لوناً من التناسب في عدد القرى على الأقل ، فلا نجد

(١) قال أبو عبد البكرى : « وبقرطة أقاليم كثيرة وكور جليلة ، وكانت جباية هذه الأقاليم في أيام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطبل وناض البيزرة للعام ... ١٤٢٠٠٠

ومن وظيفة القمح ، مدياً ... ٥٣٠٠٠

ومن الشعير ... ٧٣٠٠٠ ... ٤٠٠٠

أوراق من جغرافية البكرى جمعها ليفى بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :

إقليماً ١٧ قرية وإقليماً ١٠٢ ، ثم إن أسماء معظمها ليس عربياً مما يدل على أن الإقليم بحدوده واسمه كان موجوداً قبلهم ، كما حدث في مصر ، عندما أخذ العرب الباجركيات الـ بيزنطية (Pagarchoi) وسموها كوراً ، وتلك هي الحقيقة الثانية التي يحتمل النص عليها .

وإذن فالأقاليم وحدات إدارية مالية وجددها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبنا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل إقليم يضم عدداً من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهى بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدى جبايات تحدد بحسب طبيعة إنتاجها ، وهى نواحي الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصيد والمعادن وما إليها . والقرية فى ذاتها ليست وحدة ، بل الإقليم هو الوحدة .

وللعذرى نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، وإذا ضممنا هذا النص إلى النص السابق ازداد معنى الإقليم عندنا وضوحاً . يقول العذرى :

أقاليم سرقسطة :

إقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبله منها إلى عقبة مليلة .

إقليم قصر عباد : وهو متصل بإقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو فى هذا العصر منصرف إلى طرطوشة .

إقليم قُنتُدة : وهى على ستين ميلاً من مدينة سرقسطة . وفى هذا الإقليم يخرج نهر بلطش (Pleitós) من فج يُعرف بفج بذره (Pedro ?) .

إقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبليسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشتت بربه . وفى هذا الإقليم من ناحية مدينة غُلُوَاذه يتفجر نهر شليقُه (Jalico) ثم يمضى حتى يواقع نهر شلون (Jalón) .

إقليم بَلْطُش (Pleitós) : ونهره يسقى من قرية مواله (Muela del Ebro) إلى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلاً ، غرب عن عين بلطش .

إقليم قَتَش : وله عين ، يسقى من ناحية بلد نوبه (Villa Nueva) إلى أن ينصب ماؤها فى نهر ابره ، طوله ٢٠ ميلاً .

إقليم شَلُون : وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قَبَانِس (Cabañas de

Ebro وركله (Ricla) . وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثنائين قرية .

إلى آخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تُعنى بالرى والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعى فى أساسه مالى ، لأن الذين يرسمونه ينظرون إلى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم إن التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغير الأعصر ، أى أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجودة قبلهم ، فأخذوها كما هى ، بأسمائها فى معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية فى أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هى ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبائل العرب والبربر فى بعض النواحي أوجد أقاليم جديدة تنسب إلى من سكنها ، كإقليم القاسم أو بنى القاسم الداخلى فى حوز مدينة سالم ، فقد كان إقليماً واسعاً نسب إلى أولئك القوم ، وهو الذى ذكره الإدريسى باسم إقليم القواسم وصحتها القواسم ، وإقليم بنى مرة فى حوز قرطبة ، وإقليم زناتة وإقليم كنانة فى حوز بلنسية ، وما إلى ذلك .

ويذكر العذرى إلى جانب الأقاليم أقساماً إدارية أخرى تسمى الأجزاء ، ٢٧٢-الجزء مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك فى كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

إقليم المنيرة (Almenara) ، إقليم أنده (Onda) ، إقليم شُيزب ؟ ، إقليم زناتة (Za- nete) ، إقليم كنانة (Benicanena) ، إقليم شلينة ، إقليم أولهيل (Ollierea) ، إقليم لبايه ، وله رتبة أولية ، إقليم مح ؟ ، إقليم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أى تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قلبيرة (Calavera) ، وجزء الجزيرة ، جزء البيضاء (Albayda) وغلثار ، جزء الأسناد ، جزء فحص شاطبة ، جزء براكانه ، جزء مدينة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بنى غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مريبطر .

ونلاحظ أولاً أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة إلى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان إلى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان إلى معالم جغرافية : الساحل ، الأستاد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع في ظني أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضاً أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت - وهو كثر الجغرافية الإسلامية ، ولم يُدرس بعد دراسة كافية - تعريفاً للجزء في الأندلس يعيننا بعض الشيء على فهم معناه ، فقد قال في كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمونها الأجزاء ، يقوم مقام الإقليم ، كما ذكرنا في اصطلاحهم في لفظة الإقليم في أول الكتاب ، منها جزء البكرين ، وجزء اللخمين وغير ذلك »^(١) . وقال تحت لفظ « جزء » : « رمل الجزء بين الشَّحَر ويثرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعدّ ؛ وعامتهم من بنى خويلد بن عُقيل ، قيل إنه يسمى بذلك ، لأن الإبل تجزأ فيه بالكلاً أيام الربيع فلا ترد الماء »^(٢) . وهذا التعريف ينطبق على ما ذكر آنفاً من الأجزاء : « جزء البكرين وجزء اللخمين وغير ذلك » . ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد إلا في النواحي التي تكثر فيها أراضي المراعى مما نزلته بطون العرب بكثرة : إشبيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد في النواحي المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب إلى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للإبل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلاً في التشريع الإسلامي ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وإنما مشاعاً للجماعة كلها ، ولا يجزئ عنها مال . وقد كانت في شبه الجزيرة أراض كثيرة يجري عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهي أراضي المراعى المشاع (Compascuas) التي ذكرناها آنفاً .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة إلى حد ما عن الأساس الذي اتخذته العرب لتقسيم الأندلس تقسيماً إدارياً : ساروا على ما وجدوه قائماً في البلاد مع تكييفه على نحو

(١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ياقوت ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

يتفق مع ظروفهم في شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : ظلت المدينة هي الأساس تتبعها الأرض ، وحينما حولوا بعض المدن إلى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هي الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة في الأندلس بمعناها في المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ، بل بالمعنى الرومانى : نواة لإقليم أو أقاليم كل أهلها يُعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كوراً ، لأن مركز الثقل في الأندلس الإسلامى كان في الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور في الجنوب بينما اتسعت في الشرق والغرب . أما الوسط ونواحي الشمال فقد ظلت مدناً بالمعنى الرومانى القديم ، مدناً لها أحواز وفي أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤- المدينة الأم وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردها بنت ، وقد تتحول الأم إلى بنت إذا زادت عليها في العمارة لإحدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميرى في كلامه عن طرسونة : « كانت مستقر العمال والقواد بالثغور . وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً . وكانت ترد عليها عُشر مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة ، عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم إياها لفضل بقعتها واتساع خطتها » (١) . وكذلك حدث لالبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت البيرة من بناتها . ومثل ذلك حدث لبجانة ، إذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أمًا ، ثم خربت وانتقل أهلها إلى المرية وعادت المرية أمًا .

وتسمى المساحة التى تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأهمها دون أن تكون القاعدة أو القصبة ، لأن القاعدة أو القصبة يُشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة في نواحي الثغور . فلم تكن قبرة مثلاً قصبة الكورة المنسوبة إليها ، بل كانت القصبة بيّانة ، لأنها - كما يقول ياقوت - « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار وأنهار » (٢) . وكذلك الحال مع قلب - وهى Calpe القديمة - فقد كانت أول الأمر قاعدة

(١) الروض المعطار ، ص ١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ « الأم » للدلالة على أكبر مدن الناحية ، قال صاحب « الروض » في الكلام عن أولية السهلة (ص ٣٤) : « بالأندلس ، قرية من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهى أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخطه ، مشرفة الأرضين ، بها ديار للعجم متقنة البنيان ... » .

(٢) الروض المعطار ، ص ١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٤ وتعليق ٣ .

كورة مورور^(١). وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادى الحجارة. وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية، نقل إليها قاعدة كورة تدمير، وكانت قبل ذلك في أوربولة^(٢). وتسمى الضواحي بالأرباض، مفردها ربض، إذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة، فإذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر، مثال ذلك أن طريانة كانت « حاضراً من حواضر إشبيلية »^(٣).

٢٧٥- الحصون وكما تتبع المدينة مدن، ف كذلك تتبعها حصون ومعقل. ويغلب على الظن والمعقل أن هناك فرقاً بين الحصن والمعقل. فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينة، وقد تتبعه حصون أخرى، وقد يكون له حوز. مثال ذلك حصن يبطرة فقد عرّفه ياقوت بقوله: « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة »^(٤)، وقال عن كركى: « اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى »^(٥)، وقال ابن عبد المنعم عن قيشطة: « حصن بالأندلس كالمدينة، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلاً، وفي قيشطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق »^(٦). أما إذا اتسع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أى حصناً كبيراً ومدينة كبيرة أيضاً، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح. في حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعاً محصناً يلجأ إليه المزارعون إذا داهمهم خطر، أى أنه مجرد كراال (Kraal). وقد كانت المعقل كثيرة جداً في الأندلس، لا يشذ عن ذلك إلا معقل « رُنْدَة » فقد تحول إلى بلد.

ومن غير المسور الآن تقدير حوز كل كورة ومدينة، أو رسم خريطة دقيقة للأندلس الإسلامية وتقسيماته الإدارية، لأن البيانين اللذين يقدمهما نص جغرافية الرازي المترجم و« التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » وما لدينا من جغرافية العنري وأوراق جغرافية البكري، كل هذه لا تقدم إحصاء بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم، ولعل

(١) ياقوت، ج٨، ص ٣٩٤.

(٢) ياقوت، ج٨، ص ٢٤.

(٣) ياقوت، ج٦، ص ٤٧.

(٤) ياقوت، ج٢، ص ٣٣٩.

(٥) ياقوت، ج٧، ص ٢٤١.

(٦) الروض المعطار، ص ١٦٥.

وراجع أيضاً كلامه عن حصن « جنجالة » (ص ٦٧) وحصن الثلج (ص ١٠٨) وحصن الكرم (ص ١٦٦ -

١٦٧).

جغرافية العذرى لو كانت كاملة لأعانتنا على إدراك هذا المطلب ، ولكنها كما قلنا ناقصة ، فلم يبق لدينا إلا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم وإحصاء الكور والمدن على ما بيناه ، وربما أعاننا الحظ في المستقبل على إكمال الصورة .

وقد ذهب ليفى بروفنسال إلى أنه من الممكن رسم صورة كاملة للتقسيم الإدارى للأندلس بالاستعانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريخ الأندلس مبتور فى مواضع شتى ، كما هو الحال مع جغرافية العذرى . وقد أحصى بروفنسال سبعاً وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكور هى : قرطبة - فحص البلوط - قبرة - استجة - إشبيلية - قرمونة - لبلة - أكشونية (شلب) - باجة - مورور - شذونة (قللسانة) - الجزيرة الخضراء - تاكرنا (رندة) - ريه أو مالمقة - البيرة - جيان - بجانة - تدمير (مرسية) - شاطبة - بلنسية - طليطلة - طلييرة (أفلش) - ماردة - بطليوس - شنترين - لشبونة - قلمرية (١) .

وقد تكون هذه هى كور الأندلس فى القرن العاشر الميلادى ، ولا نستطيع الآن أن نناقش هذه القائمة ، لأننا لا نملك إحصاء كاملاً لما فى كتب التاريخ من معلومات .

* * *

٢٧٦- تقسيم مجارى الأنهار وقد تبع اعتبار المدن وأحواضها وحدات إدارية بضع صور إدارية لا نجد لها شبيهاً فى المشرق ، كاتباع الأنهار أو أجزاء منها للمدن التى تقع عليها أو الأقاليم التى تقع فيها ، مثال ذلك قول العذرى فى كلامه عن إقليم جَلْقُ من أقاليم سرقسطة : « ونهره يسقى ما وأزى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً . ومخرج نهر جَلْقُ (El Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ، ويقع فى ابتره ، والجزء الأعلى من نهر جَلْقُ يروى من الصخرة إلى منزل حسان إلى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً » (٢) . فهنا نرى بوضوح أن النهر تابع للإقليم ، بل إن الأجزاء التى يروىها محددة تحديداً تاماً ، كما تحدد النواحي التى تروىها الترع والقنوات فى نظم الري الحالية . وتسمية النهر باسم الإقليم هنا ليست تسمية جزافية بل لها معنى التبعية الإدارية .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, III pp. 49 - 51.

(١)

(٢) العذرى : نظام المرحان ، ورقة ١٦١ .

ومثال ذلك أيضاً قوله فى الكلام عن إقليم شلون (El Jalón) : «وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبانش وركله إلى باب سرقسطة ٤٠ ميلاً ، وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلاً» ^(١) . ومعنى ذلك أن أربعين ميلاً من مجرى شلون تبع لإقليم شلون ، والباقى خارج عن هذه التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما إلى ذلك ، فقد كانت لهذه الأنهار أسماؤها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أى أن نهر مرسية داخل فى حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل إن مجارى الأنهار الطويلة كانت تقسم ، فدخل كل قسم منها فى حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادى الكبير ، فهو فى زمام إشبيلية نهر إشبيلية ، والجزء الداخلى من مجراه فى حوز قرطبة يسمى نهر قرطبة ، وفى حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقس على ذلك بقية كبار الأنهار .

وكانت لمسلمى الأندلس من أول الأمر عناية بالموانى ، نظراً لأهمية الصلات ٢٧٧- المراسى مع العدو الأفريقية . وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهى تسمية لها معناها بالنسبة لطبيعة الموانى الإسلامية فى الغرب الإسلامى فى هذه العصور الأولى . ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الإسلامية ، توسعوا فى استعمال لفظ المرسى مقابلاً للميناء وخاصة فيما يتصل بما أنشأه المسلمون منها ، فهم يقولون «مرسى تونس» و«مرسى الخزر» و«مرسى الدجاج» و«مرسى المرية» و«مرسى بجانة» وما إلى ذلك ، وهذه كلها موانٍ جديدة نشأت بعد الفتوح الإسلامية ، أى أن الميناء كان يبدأ عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدناً ومراسى فى نفس الوقت .

ويُفهم من كلام صاحب «الروض المعطار» أن الميناء قد يبدأ فى أول أمره رباطاً بحرياً ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول إلى مدينة ، كما حدث فى المرية ^(٢) ؛ وقد يبدأ إقطاعاً بحرياً لقبيل من العرب فى مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة . وفى حالة هذه الأخيرة نضع أيدينا على «ميلاد» مدينة . قال صاحب «الروض» : «وبقرب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم ، إلا أنها كانت حارات مفترقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فجمعوها وبنوا

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الروض المعطار ، ص ٣٧ .

سورها»^(١). وقد كانت بجانة - كما هو واضح هنا - قرية صغيرة (هى التى تعرف باسم Pechina)، وكان حولها أحياء كثيرة أهلة متفرقة هى المسماة هنا بالحارات. وكان لأهل هذه الحارات مسجد جامع كبير بقرب بجانة، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها إلى بعض، وأقاموا سوراً حولها وحول بجانة والمسجد الكبير، فنشأت المدينة.

وتظهر «الضياع» فى الأندلس الإسلامى من أول الأمر، فقد ذكر ابن القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على «أن يمضى لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك»، وقد أجابهم طارق إلى ذلك؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب. والضيعة الواحدة هى مقابل الفيلا (Villa) فى النظم الرومانية، والضياع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium). وإذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضياع استمر فى الأندلس واتسع مداه، كما كان الحال فى المشرق أيضاً، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابهاً بين الفيلا، وهى القصر الريفى تحيط به ضيعة أو ضياع واسعة يملكها صاحب القصر، ومصطلح «المنية» الذى كان شائعاً فى الأندلس. فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الفيلا، ولكن هناك فرقاً واضحاً بين الضياع والمنيات، فالضياع قرى تصير إلى ملك مالك كبير وربما أقام فيها، فى حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفى ينشئه المالك الكبير، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الفيلات الرومانية، ومعروف أن هذه الفيلات أيضاً كانت تختلف فيما بينها، ففيها ما يشبه الضياع وفيها ما يشبه المنيات.

وهناك مصطلح آخر تحسن الإشارة إليه فيما ذكرنا من مصطلحات جغرافية إدارية، وهو مصطلح «الفحص» وهو كثير الاستعمال فى المغرب أيضاً حتى يبدو لنا أن أصله مغربى، وقد وضع ياقوت تعريفاً للفحص، قال: «وسألت بعض أهل الأندلس: ما تعنون به؟ فقال: كل موضع يُسكن - سهلاً كان أو جبلاً، بشرط أن يزرع - نسميه فحصاً، ثم صار علماً لعدة مواضع»^(٢) وكانت الفحوص فى الأندلس كثيرة، ومعظمها أقاليم فى كور ومدن، فيقال إقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال أكشونة أو إشبيلية. وأكبرها فحص البلوط الذى أصبح كورة فيما بعد.

* * *

(١) الروض المعطار، ص ٣٧.

(٢) ياقوت، مادة فحص.

وقد يكون بعض الحقائق التى ذكرناها قد وقع فيها بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدون تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وُضع أو متى عُدل ، فلم يبق إلا أن نذكر ما لدينا من المعلومات مطلقة حتى تعيننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح ، وإذا كان الرأى الذى ذهبنا إليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جارى لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التى نتحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد.

٢٨٠- المشيخة والكوريا وقد بينّا كيف كانت هذه النظم فريدة فى بابها فى العالم الإسلامى كله ، ومن الطبيعى أن ينسحب هذا الحكم على ما بُنى عليها ، فإذا قلنا إن دخول العرب أحى المدن التى كانت تتلاشى رويداً رويداً فى الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الإحياء استتبع انتعاش مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الإسلامية فى الأندلس ، مما أدى إلى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجماعة الوزراء وما إلى ذلك مما جدد بعد الفترة التى نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص فى الأندلس ، فالمشيخة فى المشرق هى الرئاسة أو هى الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثلاً إن فلاناً « تولى مشيخة دار الحديث » أو « مشيخة الحديث بترية أم صالح ومشيخة الرباط الناصرى ومشيخة المالكية » أو « ولى مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصرى بالجليل » أو « برع فى النحو وانتهت إليه المشيخة » ، أما فى الغرب الإسلامى فكان له معنى المجلس أو الجماعة ، قال ابن خلدون : « واستبد مشيخة كل بلد بأمره » أو « وكانت مشيختها فى القديم فى بنى ورمان من أهلها بها كاثروا ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد فى بيوتات من أهلها » . والمعنى فى هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة من أعيان الناس يتولون أمر البلد .

ويفسر دوزى معنى المشيخة هنا بأنه « الحق الذى كان لعدد من الأسر الكبيرة فى أن تؤلف مجلساً بليدياً لحكم البلد أو مجلساً جمهورياً » ، بل إن الكلمة وردت بمعنى المجلس البلدى أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعى Pedro de Alcalá فى قاموسه أن الشيخ هو

العضو في مجلس البلد (Jurado en la cibdad) والمشيخة هي الطائفة ^(١) . وهذه كلها معان لم تُعرف إلا في المغرب والأندلس ، وفي هذا الأخير خاصة ، وثابت على أى حال أن العرب عندما قضوا على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقداً أو معاهدة ، وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة ، وترجمها العرب إلى المشيخة ، وكانت هذه المعاهدات سبباً في إحياء مشيخات البلاد ، فأصبح في كل بلد مشيخة من أهله هي التي تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن والأموال ، فنشطت المشيخات وانتظم أمرها ، وعندما أسلم أهل البلاد احتفظوا بمجالسهم وهي مشيخاتهم ، ومن هنا كان للمدن في الأندلس نظام بلدى يرعى شئونها وشئون أهلها ، وثبتت صلاحية هذا النظام فامتد حتى شمل الحرف ، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس ، ونشأت مشيخة الفقهاء ، وهي جماعة من الفقهاء يتخذهم الأمراء والخلفاء مستشارين وسموا « الفقهاء المشاورين » ، ووزعت اختصاصات الوزير بين نفر من الوزراء كان لهم مجلس .

٢٨١- انفصال
العرب عن أهل
البلاد أول الأمر

وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب ، مستقلين بحكومة أنفسهم ، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان « قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين » ^(٢) . أى أنه هو الذى كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ما عليهم من الأموال ويؤديها للحكومة المركزية . وكان تعامله مع مشيخات البلاد ، أى أن كل مشيخة كانت تجمع ضرائب بلدها وتؤديها إلى القومس . وقد أشرنا فيما سبق إلى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها . وقد أقام العرب لكل ناحية حاكماً من المسلمين ، فأما حاكم الكورة فكان يسمى العامل أو الوالى ، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى القائد ، لأنه كان يُختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغوراً أو مناطق عسكرية على ما قلناه ، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز .

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم ، سواء من نزل منهم المدن أو من عاش منهم في الريف ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب في الإحاطة بنص رواه عن ابن حيان

(١) انظر دوزى : ملحق القواميس ، مادة شيخ ، ج١ ، ص ٨٠٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عنان) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٠٩ .

والرازي يوضح أحوال المسلمين من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورده هنا بنصه مع تقسيمه إلى فقرات زيادة في البيان :

١ - « قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبي الخطار أرتباس قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمرأء المسلمين - وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء - لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغاليين ^(١) على البلد ، من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم .

٢ - ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ؛ فهذه منازل العرب الشاميين ^(٢) .

٣ - وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ - وبقي العرب البلديون والبرابرة شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم ^(٣) لم يعرض لهم في شيء منها .

٥ - فلما رأوا (يعني العرب الشاميين) بلداناً شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه موضعاً رصيناً فإنه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق ^(٤) بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشاذة ^(٥) حيثئذ .

٦ - قال أحمد بن موسى [الرازي] ^(٦) : وكان الخليفة يعقد [للشاميين] لواءين : لواء غازياً ولواء مقيماً .

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : العَلَميين ، وشرحها في الهامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا عمل لذلك التكلف لأن صحتها الغاليين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار أنزل أهل دمشق بالبيرة ، وأهل الأردن برية ، وأهل فلسطين بشذونة ، وأهل حمص بإشيلية ، وأهل قنشرين ببيان ، وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليفي يروفسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

(٣) أثبتنا محمد عبد الله عنان : عنائهم ، وهي قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلي كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضى به تشريع عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) أثبتنا عنان : ولحق بجنده ، والواو زائدة .

(٥) أثبتنا عنان : الشاذة بالبدال ، وهو خطأ . راجع دوزي : ملحق القواميس ، مادة شاذ ، ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازي ، لا أحمد بن موسى العدوي الذي ذكره عنان في الهامش نقلاً عن كشف الظنون .

وكان رزق الغازى بلوائه (أى صاحب اللواء) ٢٠٠ دينار ويبقى المقيم (أى صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله أو غيرهم .

٧ - وكان الغزاة من الشاميين ، مثل إخوة المعهود له (أى صاحب لوائهم) أو بنيه أو بنى عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .

٨ - وكان يعقد المعقود له (أى صاحب اللواء) مع القائد (أى قائد الجيش المركزى ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكربة له .

٩ - وكانت خدمتهم (أى خدمة الشاميين) فى العسكر (أى الجيش العام للدولة) واعتراضهم إليه (أى أن قيادة الجيش هى التى كانت تستعرضهم قبل الخروج) .

١٠ - ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد (أى من غير بيوتات أصحاب الألوية) ارتزاق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .

١١ - ولم يكن يعطى أحد من البلديين شيئاً غير المعقود له .

١٢ - وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان : لواء غازٍ ولواء مقيم .

١٣ - وكان يرتزق الغازى [بلوائه] مائة دينار وازنة . وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم .

١٤ - ولم يكن الديوان والكتبة إلا فى الشاميين خاصة .

١٥ - وكانوا أحراراً من العشر ، معدين للغزو .

١٦ - ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم .

١٧ - وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد) .

١٨ - وكان أهل بيوتات منهم (أى من أهل البلاد) يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيسير بهم إلى ما تقدم ذكره ؛ وإنما كان يكتب أهل البلد فى الغزو .

١٩ - وكان الخليفة يخرج عسكريين إلى ناحيتين .

٢٠ - فيستتر بهم (أى يستعين بالمقيدين من أهل البلاد فى الغزو ليحتمى بهم أثناء غياب العسكريين الرسميين فى الغزو) .

٢١ - وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين ، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين » (١) .

وهذا نص واضح مفصل يلقي ضوءاً على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم في المجتمع الأندلسي . وأهم ما يعيننا منه هو أن جماعات العرب انتشرت في البلاد ونزلت النواحي وملكت الأرض ، وكثرت وتمولت . وغالبية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتابة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزي لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو إلا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، وكان لكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يُرزق عشرة دنائير في نهاية كل غزوة . وكانوا في مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العُشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أى أن الدولة منحتهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فإذا ذكرنا أن القوط أيضاً كانوا يستولون على ثلث الأموال في مقابل الخدمة العسكرية ، تبين أن أولئك الشاميين حلوا في الواقع محل القوط في وضعهم وحقوقهم . وإقطاع المحاربين الثلث عُرف غير إسلامي ، وإنما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الإسلامية ، فإن القوطى كان يستولى على الثلثين (Sors - Sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

أما العرب البلديون - وهم القدامى من اليمنيين والشاميين ، ومعظمهم من اليمنيين - فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكري ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط في ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء إلا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئاً ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ، في حين كان الشاميون معفيين من العشور ، بالضبط كما كان القوط معفيين من الضرائب .

والإشارة إلى أهل البلاد هنا جديرة بالملاحظة ، والمراد بهم كما قلنا أهل البلاد الأصليون ، فهؤلاء لم يكونوا ملزمين بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ،

٢٨٢ - اشتراك
أهل البلاد في
الجيوش

ويقيد اسمه في سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم في ذلك شأن البربر والعرب البلديين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم إذا خرجت جيوشه للغزو .

٢٨٣ - التقليد الشامي والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ، أى أن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجيء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوى المكانة العليا فيها ، وهنا ما يعرف في تاريخ الأندلس بالتقليد الشامي ، وقد أيد أمراء بنى أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمداً رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذى سيحافظون عليه حتى منتصف إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

* * *

٢٨٤ - الإدارة المركزية لا تكاد المراجع التى بأيدينا تقدم لنا شيئاً يعيننا على تكوين صورة تقريبية عن النظام الذى أدار العرب به شئون الأندلس خلال الأربعين سنة التى سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان من الميسور أن نقول إن الأندلس أدير على النحو الذى أدير به مصر مثلاً خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، لو كانت لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر فى الأندلس كان كما كان فى غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج والجزية - وكنا موضع اهتمام مؤرخى الفتح - لا نجد لهما ذكراً واضحاً فى تواريخ الأندلس التى بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدرة الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا إن الأندلس لم يرسل إلى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه أداروه على غير نظام ثابت معروف كما سنرى (١) . وسنورد فيما يلى ما لدينا من البيانات عن الإدارة المركزية .

* * *

(١) اكتفى صاحب « فتح الأندلس » فى بيان سياسة المسلمين فى الأندلس بقوله إن موسى غفت عنه أثناء العبور إلى الأندلس و« رأى موسى النبى ﷺ بفسره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشرىكين ... » ، وهذا هو كل ما نجده فى هذا الكتاب عن حكومة المسلمين فى الأندلس فى عهد الولاة !
انظر : « فتح الأندلس » ، ص ٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف فى الكلام عن تصرف طارق فى الغنائم بقوله : « وجع طارق الغنائم وأخرج خمسها ، وقسم باقياها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس - (فتح الأندلس ، ص ٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبباً ومتاعاً وأرضين ورباعاً (أى يوتاً) - نفس المصدر ، =

٢٨٥- نظام ويبدو اضطراب هذا النظام في صورة واضحة جداً في طريقة تولي ولاية الأندلس مناصيهم ، فقد فُتح الأندلس على يد عامل إفريقية موسى بن نصير : بعث موسى من مواليه البربر هو أبو زرعة طريف فاستطلعها له ، ثم بعث موسى آخر بربرياً هو طارق بن زياد ففتحها ، ثم عبر هو بنفسه فآتم هذا الفتح وأصبح أول ولايتها ، واعتبرت الأندلس جزءاً من المغرب يولى عليها عامل المغرب من يريد من رجاله ، كما اعتبرت أفريقية ولاية تابعة لوالى مصر في أول أمرها ، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل إلى المشرق في أواخر سنة ٩٥ هـ . ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك في الولاية ، فظل والياً معتمداً على وصاة أبيه له بالحكم .

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس بإقامة واليهم ، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير : لم يولّه والى إفريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضاً ، ويُفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى في قيامه بالولاية .

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ ، فقرر أن يعيد هذا الحق إلى والى إفريقية ، فلما ولى على إفريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث إليها الحر بن عبد الرحمن ، ويبدو أن الحر أحس أن عرب الأندلس سيعارضون في ولايته وسيدافعون عن هذا الحق الذى كسبه لأنفسهم ، فاستصحب معه أربعمائة من وجوه إفريقية ليؤيدوه ، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة ، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل بنقل دار الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة ، وربما كان دافعه إلى هذا رغبته في الابتعاد عن جماعات العرب التى استقرت في إشبيلية وكثرت فيها ، ورغبته في أن يكون بموضع أقرب إلى الجزيرة الخضراء والمغرب من إشبيلية ، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة في جعل دار الإمارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع ، لأن قرطبة ليست في وسط الجزيرة على أى حال .

ولم تطل ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشهر (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ / أغسطس ٧١٦ - مارس - أبريل ٧١٩ م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذى بال .

= ص ١٣ . وبلغ من اضطراب أخبار مصر خمس الدولة من المغانم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لحفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له ، وتلك أسطورة من غير ريب ، يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية - (فتح ، ص ١٥) .

٢٨٦- تفكير
الخلافة في إخلاء
الأندلس

فإذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام أمر غريب لم نسمع بمثله في بلد آخر مما فتح المسلمون ، وهو رغبة الخلافة في إخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا في مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن إجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر في البواعث التي حدث بعمر بن عبد العزيز إلى التفكير فيه ، وهو المتحمس للإسلام الراغب في بسط رواقه وإدخال الناس كلهم في رحابه . ولا شك في أن دافعه إلى ذلك كان إحساسه بأن أحوال المسلمين في الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الإسلام في هذا البلد القصي لا ينبئ بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من إرسال السمع كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماماً عن مركز الخلافة ، وأن عمر ابن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئاً ، ولم يكن يصل إليه شيء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنها راها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها ونقلهم عنها ، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقليل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك » (١) .

يبد أن ارتباط فكرة إخلاء الأندلس بمجىء السمع وأمره بتخميس ما غلب عليه من أرضها يلقي على الموضوع شعاعاً من النور ، ويُفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه إلى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث إلى دمشق بشيء من أمواله ، فلا عجب أن قر في أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا إخلاءه . ثم إن أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل في صلاح مستقبله . فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، فكان في توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، ولم يوله سليمان وإنما ولاه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ؛ وكانت البلاد في حاجة إلى من يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين في شأن الأندلس : إما إخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانَت صعوبة الأمر الأول لم يبق إلا المضي في الثاني .

(١) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

وستحدث عن أعمال عمر بن عبد العزيز الإدارية في فقرة تالية ، وإنما يكفي أن نذكر هنا في حديثنا عن نظام الولاية ، أن السماح كان أول وال تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضي في تعمير الأندلس ، لم يعهد إلى واليه السماح ابن مالك في روك البلد وإحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل نذب لذلك مولً من مواليه تسميه المراجع « جابراً » نستطيع القول إن الخلافة اعتبرته عامل خراج للأندلس ، وفصلت بذلك شئون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح لجابر هذا أن يستمر في مهمته ، فقد رفع يده عن التخسيس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السماح نفسه أن انتهت ، إذ قتل على ما روينا وعادت الأندلس إلى التبعية لإفريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال إفريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقي والياً ، وكانت تلك هي ولايته الأولى ولكنها لم تدم إذ أن بشر بن صفوان عامل المغرب ولى أحد رجاله - وهو عنبسة بن سحيم - على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تمكنهم من استعادة هذا الحق إلا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧هـ / فبراير - مارس ٧٢٦م) عجلوا بإقامة أحد رجالهم وهو غُذرة بن عبد الله الفهري ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل إفريقية عجل بإرسال يحيى بن سلامة عاملاً على الأندلس في شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على مستين وستة أشهر على أوسع الفروض ، إذ عزله وإلى المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأحوص القيسي (ربيع الأول ١١٠هـ / يونيو - يوليو ٧٢٨م) (١) .

ولم تطل ولاية حذيفة إلا أشهراً ، إذ خلفه عثمان بن أبي نسعة الخثعمي (في شعبان ١١٠هـ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨م) وكذلك وقع للواليين اللذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابي ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، فلم تطل ولاية هؤلاء الأربعة عن ستة وخمسة أشهر (شعبان ١١٠ - صفر ١١٢ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ - مارس - أبريل ٧٣٠) . وقد ولاهم جميعاً عمال إفريقية ، حتى عبد الرحمن الغافقي الذي أتى بعدهم فقد كان لا بد أن يقر عبيدة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف (٢) .

(١) انظر ثبت الولاية الذي ذيل به لافوييتي إلى الكائنات ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقي (رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢م) ولَّى جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهرى ، وقد أقر عامل إفريقية هذا الاختيار، ولكن عبيد الله بن الحبحاب لم يلبث أن عزله بُعيد ولايته على المغرب وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى . ولا نزاع في أن عرب الأندلس - واليمنيين منهم بوجه خاص - لم يرضوا عن ذلك الإجراء ، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى إذا سنحت لهم باشتغال عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر في إفريقية عجلوا فوثبوا بعقبة^(١) ، ويقال إن عقبة أوصى لعبد الملك ابن قطن قبل موته ، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بإرادة جند الأندلس .

ولم يتدخل عمال إفريقية ولا الخلفاء في تولية عمال الأندلس من ذلك الحين إلى قدوم أبى الخطار ، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وزعم أن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لا نملك ما يؤيده ، وخلفه ثعلبة بن سلامة بإرادة القيسيين ، ولم يعد الأمر إلى عمال أفريقية إلا في رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل ٧٤٥م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل أفريقية أن يولى على الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) .

ولا نزاع في أن أبا الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين في ولايته ولهذا سار إلى الأندلس شبه مستخف ، وكان معه ثلاثون رجلاً من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بنى عمومتهم ، وكان لواؤه في سِنٍّ داخل عيبته ، فلما نزل على وادى شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء في القناة ، ثم تقدم . فلما أشرف من فج المائدة ، والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ، ونظر الفريقان إلى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين إليه ، فقال لهم : « تسمعون وتطيعون ؟ فقالوا : نعم .. »^(٢) . وقد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبا الخطار الذى أتاهاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام إليه ، ولكن طاعتهم لم تطل إلا ريثما استبانوا في أبى الخطار بعض الميل إلى اليمينية فانقلبوا عليه وقتلوه ، وصار الأمر إلى يوسف الفهرى والصميل ، ولا زالا فيه حتى انتزعه منهما عبد الرحمن الداخل .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٩ .

لم تسر الولاية في الأندلس إذن على قاعدة واحدة ، بل كانت في يد الخلافة المركزية حيناً ، ويبد عمال المغرب حيناً آخر ، ويبد مسلمي الأندلس أنفسهم في معظم الأحيان ، وكان هذا مظهراً من مظاهر الاضطراب الإداري الذي ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذي تمتع به كل واحد من هؤلاء الولاة ، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم ، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك ، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية إلا في حالتين : حالة جابر الذي تحدثنا عنه ، وحالة رجل يسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمة الأرض والخراج »^(١) ، وربما جاز أن نقول إن شئون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاءون ، وسنرى أن شئون المال كانت تروح تحت خلل شديد .

ولما كنا لم نسمع عن إرسال خراج من الأندلس إلى أفريقية أو إلى المشرق ، فالغالب أن عامل الأندلس كان يتفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقي لنفسه : إما ليتفق منه على الحملات والمرافق العامة أو لشئونه الخاصة .

ولم يرد في النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى في المناسبات التي كان الوالي يُخرج فيها بعض المال لشئون الجند ، نجده يخرج من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يحفلوا بإنشاء إدارة خاصة لشئون الخراج .

ولم يمتد سلطان الوالي على عرب الأندلس أجمعين إلا في النادر ، وكانت هناك دائماً جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه في أيام يوسف الفهري على إقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك إلى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الوالي على البلاد خلال السنوات العشر التي سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطاً بالغاً .

وكان جهد الولاة الأول - قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصبية - منصرفاً إلى إتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيما وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأول حتى نهاية ولاية عقبة بن الحجاج السلولي^(٢) ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, I. p. 28.

(٢)

انصرفاً تماماً تقريباً ، ولم يعد أمراء الأندلس إلى الغزو إلا بعد أن قامت الإمارة الأموية على يدى عبد الرحمن الداخل .

أما اهتمام الولاة بشئون المرافق العامة فلم نسمع عنه إلا فى مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمع بن مالك القصيرة ، فقد ابتنى قنطرة قرطبة على الوادى الكبير بناء حسناً أورد خبره صاحب « فتح الأندلس » بتفصيل لا بأس من إيراده فقال : « وقال ابن مفرج فى تاريخه : أصاب المسلمون إذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الدائرة ، لم يبق منها إلا رسوم ، ولا يصل الناس إلى قرطبة إلا فى السفن ، فيلقون فى ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى المدعوها »^(١) ، وهذا هو المرفق الوحيد الذى حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، إذا استثنينا جبانة قرطبة التى أنشئت فى زمن السمع بن مالك أيضاً^(٢) .

٢٨٧- ثبت ونختم كلامنا عن عصر الولاة بثبت بولاية الأندلس من لدن الفتح إلى قيام بولاية الأندلس دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

١ - طارق بن زياد

من رجب ٩٢هـ / أبريل - مايو ٧١١م إلى رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م

٢ - موسى بن نصير

من رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م إلى صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م

٣ - عبد العزيز بن موسى

من صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م إلى رجب ٩٧هـ / مارس ٧١٦م

٤ - أيوب بن حبيب اللخمي

بعد شهور من مقتل عبد العزيز إلى ذى الحجة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٢٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

- ٥ - الحُر بن عبد الرحمن الثقفي
من ذى الحجة ٩٧ / أغسطس ٧١٦ - إلى رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩
- ٦ - السمع بن مالك الخولاني
من رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩ إلى ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١
- ٧ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرّة الأولى)
من ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١ - صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١
- ٨ - عنيسة بن سحيم الكلبي
من صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١ إلى شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦
- ٩ - عُذرة بن عبد الله الفهري
من شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦ إلى شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦
- ١٠ - يحيى بن سلامة العاملي الكلبي
من شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦ إلى ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨
- ١١ - حُذيفة بن الأحوص القيسي
من ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨ إلى شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨
- ١٢ - عثمان بن أبي نسعة الخثعمي
من شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ إلى المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩
- ١٣ - الهيثم بن عبيد الكلابي
من المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩ إلى ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠
- ١٤ - محمد بن عبد الله الأشجعي
من ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠ إلى صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠
- ١٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرّة الثانية)
صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠ إلى رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢

- ١٦ - عبد الملك بن قطن الفهري (المرة الأولى)
من رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ - شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤
- ١٧ - عقبة بن الحجاج السلولي
من شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤ / صفر ١٢٣ إلى يناير ٧٤١
- ١٨ - عبد الملك بن قطن الفهري (المرة الثانية)
من صفر ١٢٣ / يناير ٧٤١ إلى ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١
- ١٩ - بلج بن بشر القشيري
من ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ إلى شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢
- ٢٠ - ثعلبة بن سلامة العاملي
من شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ إلى رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣
- ٢١ - أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي
من رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ إلى رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥
- ٢٢ - ثوابة بن سلامة الجذامي
من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ إلى المحرم ١٢٩ / سبتمبر - أكتوبر ٧٤٦
- أعقبت موته أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها عبد الرحمن بن كثير اللخمي
دون ولاية
- ٢٣ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري
(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم)
من ربيع الثانى ١٢٩ / ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ إلى ١٠ ذى الحجة ١٣٨ / ١٤ مايو ٧٥٦ .
- وهو تاريخ بدء إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

٢٨٨- الناحية المالية
يبد أن عقدة العقد في تاريخ عصر الولاة هي ناحية الخراج وتوزيع الأرض، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا الموضوع ، والواقع الذى نستطيع استخلاصه من مجرى الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة في الأندلس اضطراباً شديداً ، وأن ولاية الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها للقواعد التى تقررها الشريعة للأرضين والعقارات في البلاد المفتوحة ، هذا على الرغم من أن موسى ابن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح ثم حاد عن النظم التى وضعها وأساء التصرف في الأموال ، وكان هذا من أسباب نكبته ، وكان كذلك من أسباب البلاء في الأندلس فيما بعد ، لأنها لم ترزق بعد ذلك بوالٍ أتاح له مواهبه وظروفه إعادة الأمور إلى نصابها الذى كان ينبغى أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩- أسس النظام المالي في الأندلس برواية محمد بن مزين
وإليك أسس النظام المالي كما قررها موسى بن نصير بين يدي الفتح ، قال محمد [بن مزين] : « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى ابن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبئها وسائر مغانمها ، وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرج من سبئها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبى (كذا ، ولعل صحتها كبار السبى) ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها لثلاث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا في المعازل المنبوعة والجبال الشاخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، في أرض الثمر وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به ﷺ بيهود خيبر في نخيلهم وأرضيهم .. » (١) .

وهى عبارة يُفهم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحي الشمال ، قد

(١) راجع نص محمد بن مزين الذى نشره دوزى كملحق لمباحته .

Dozy, Recherches. I. Appendix pp. III - VI.

ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفة ، وهى قطعة من « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » للغسانى ، كما سنرى بعد قليل .

وانظر عن محمد بن مزين :

Dozy, Scrip. Ar. Loc. de Abb. II. 123.

فُتِحَتْ عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقي بين الفاتحين ، وأخذ جزءاً من خمس السبي فبعث به إلى الوليد بن عبد الملك وأطلق الباقي في أرض الخمس ليزرعوه وليثلاث مال المسلمين ، وهى عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريبي مستعينين بما سنورد من النصوص القليلة التى عثرنا عليها .

وأما إشارته إلى الأراضى التى تُركت بين يدي أهلها على شرط أداء الجزية عنها فإشارة لا تكاد تغنى ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا في المعازل المنبعة ، والجبال الشاخة .. بأرض الشمال » ، فأى أرض شمال ^(١) ؟ وهل لم تكن في غير الشمال بلاد فتحت صلحاً على الإطلاق ؟

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشيء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيا فمهم وتصيرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد هى شنترين وقلنبرية في الغرب وشية (Xea) في الشرق ، وسائر البلاد حُمست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير » أى أن هذا التقسيم لم ينطبق إلا على النواحي التى قُتِحَتْ بالسيف (عدا النواحي الثلاث المذكورة) . أما ما قُتِحَ صلحاً فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس أن أكثرها إنما فتح صلحاً إلا الأقل من مواضع معروفة ، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ، وكذلك بقى الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويبيع منهم » أى أن الذى قُتِحَ عنوة وحُمس وقسم باقيه بين

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير في الرسالة الشريفة كما يلي : « قال محمد بن مزين : وجدت في خزنة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضى بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سباه بكتاب الرايات ... وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعازل المنبعة والجبال الشاخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية في أرض الشجرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به ﷺ بيهود خيبر في نخلهم وأرضهم... » - الرسالة الشريفة ص ١٩٩ .

و« الرسالة الشريفة » خطوط صغير عثر عليه خيلان ريبيرا ونشره ذيلأ على « تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية » (مدريد ١٩٥٦) ، ص ١٨٩ وما يليها تحت عنوان « نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية » ، ثم تبين فيها بعد أن هذه الرسالة هى الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لافتكك الأسير » لمحمد ابن عبد الوهاب الغساني (وزير مولاي إسماعيل وسفيره إلى كارلص الثاني ملك إسبانيا عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ - ١٦٩١ م . توفى في زنقة الرطل من قاس القرويين عام ١١١٩ هـ - ١٧٠٨ م) . نشرها الفريد البستاني في تطوان سنة ١٩٥١ . وتُعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفة ، والجزء الذى نشره ريبيرا منها يبدأ في ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستاني .

الفاحين كان قليلاً جداً ، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاءون على أن يؤدوا عنه الخراج ، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التي صالح عليها أهلها .

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحي التي فُتحت صلحاً وتُركت بيد أهلها توارثها أصحابها ، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم ، فهذه لم يمسها المسلمون بشيء .

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك : « ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفيحين للأندلس معه يستأذنونه في إخلاتها والرحيل عنها إلى أوطانهم ، قَرَّبهم وأنَّسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها ، وأقرهم على [يياض بالأصل]^(١) ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها ، ولا أوسعهم عذراً في إخلاتها وردهم إليها وإلى جيرانهم^(٢) بجوابه . وطبيعي أن هؤلاء الذين عادوا إلى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب ، زهدوا في البلاد لبعدها عن أوطانهم ، فاستألمهم الوليد إلى البقاء بإقطاعاتهم الإقطاعات ، وطبيعي كذلك أن هذه الإقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التي تخص بيت المال .

فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، وواله على الأندلس السمع بن مالك ، أقبلت معه جماعة من العرب من وجوه إفريقية ، ولم يكن عددهم عظيماً لأن المراجع تحددهم بأربعمائة فقط ، « فأراد (أي جند السمع) النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيها بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه في الرجوع إلى بلادهم وإدانتهم بمن ورد مع السمع ، فمنعهم من ذلك وأنَّسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمع إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسدها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم يتفد ذلك ليلغ الكتاب أجله^(٣) .

(١) يياض في النسخ الثلاث ، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هي : أرضهم .

(٢) هذه الكلمة قلقة هنا ، وقد وردت على هذه الصورة في النسخ المطبوعة الثلاث . وربما كانت صحة قراءتها : حيزانهم ، أي ما حازوه من أرض .

(٣) دوزي : نفس المصدر ، ص ٥ .

ورحلة الوزير لمحمد بن عبد الوهاب الغساني ، ص ١١٣ - ١١٤ .

ونستنتج من هذه العبارة ما يلي :

١ - أن عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها قبل سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م كانوا أحرص ما يكونون على ما أصابوا من أرض ، وأن مجرد تفكير السماح في إشراك أربعائة فقط من العرب الجدد معهم في إقطاعاتهم كان كافياً لدفعهم إلى تقرير العودة إلى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه ملاحظة هامة تلقى ضوءاً على طبيعة عرب الأندلس في ذلك الحين ، ومقدار حرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ - أن تفكير عمر بن عبد العزيز في إخلاء الأندلس كان راجعاً إلى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ - وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا فيما استقروا فيه من أرض على اعتبار أنها إقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الإقطاعات الأندلسية .

٤ - وأن عمر بن عبد العزيز اضطر إلى إرضاء العرب الجدد بمنحهم إقطاعات جديدة من أرض الخمس .

٥ - وأن هذا الإجراء كان كفيلاً بإقناع العرب بالبقاء في البلاد .

أى أن أرض الخمس أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتتحول إلى إقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستتلاشى تماماً .

ويُفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخمين أرض الأندلس ، «وأعجلته حركته منها وإرسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك». وكان قد قسم الأخماس التي استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الإقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السماح بن مالك أن ينزل من معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم في ربايعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس ، وإقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم ، فأقرهم أمير المؤمنين رضى الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى ابن نصير ، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم إلى السماح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا إلى ما تخلفوه مسرورين ومبشرين بما

لقوه من فضله وعدله ، وكتب إلى السمع أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخماس^(١) .

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه إلى النهوض لإتمام ما كان موسى ابن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكي يجد لبيت المال أرضاً غير التى استفدتها إقطاعات العرب ، ولكى يجد أرضاً يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمع بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ بإقليم قرطبة فأخرج خمسة فجعل جزءاً منه جبانة للمسلمين ، ولا نعرف إن كان قد أقطع الباقي للعرب أو تركه ملكاً لبيت المال . ولم يفعل السمع أكثر من ذلك ، لأن مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس وأمواها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئاً حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩- رأى ابن حزم ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع في تقسيمها لما خضعت له بقية بلاد الدولة الإسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منها من ناحية الوضع القانوني أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نوره فيما يلي مقسماً إلى فقرات زيادة في البيان :

١ - « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استُطيت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، بل نُفِّذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت .

٢ - ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون ، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ - ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشى ما ترون من الغارات وفي ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل النافه ... ظلم بظلم^(٢) .

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزى ، ج ١ ، ملحق ١ ، ص ٦ ، ورحلة الوزير للغساني ص ١١٤ .

MIGUEL ASIN PALACIOS, Un código inexplorado del Cordobés Ibn Hazm. Al - Andal (٢) us, vol.

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا في النصوص التي سبق إيرادها ، فقد غلب الفاتحون الأول على ما وقع لهم من أرض ، سواء أكانوا عرباً أو بربراً أو أفارقة (أى من أهل السواحل الإفريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصحه أوطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وإتزانهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أى ملكاً ، في مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفاً .

أما ما يقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعي أن يكون موسى ابن نصير قد شرع بعد الفتح في إخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ في التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى إلى المشرق ، وحاول نفس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض في أيدي من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

٢٩١- رأى وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، وهذا واضح من ابن الخطيب قول ابن الخطيب في العبارة التي رواها عن ابن حيان والرازي : «وبقى العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم لم يُعرض لهم في شيء منها»^(١) .

أما السبب في ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ، فيفسره قول محمد بن مزين : « فلما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ، وربما كانت صحتها : وأزالها) عن عمال إفريقية ، وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليها السمع بن مالك عاملاً ، فوردها في جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورجعوا إليه الرجوع إلى بلادهم ، وإدائتهم بمن ورد معه (أى مع السمع) ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ،

= والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالأستانة ، وقد نشر آسين بالاثيوس تحليلاً ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذي أورده في ص ٣٦ من المقال المذكور .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

وأقطع الواردين مع [السمع] إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسدها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها ، ثم إنه لم يتفد ذلك ليبليغ الكتاب أجله ^(١) .

* * *

وإذن فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغراً مثل الثغور الهندية ٢٩٢ - الحلافة
 التى أقطع عمر - خطاب أرضها لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب تعتبر الأندلس
 الأول سجلات به وصعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات ، بل أقطع ثغراً
 جند السمع إقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد
 ابن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى
 التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج
 من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبي
 وصغارها مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من
 كبل (صحتها كبار) السبي ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليثالث مال
 المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يُعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس » ^(٢) .

وواضح أن موسى لم يخصص إلا جزءاً قليلاً من أرض الأندلس ، وهو أرض ٢٩٢ - اعتبار
 البسائط في الجنوب ، ربما جنوبى الوادى الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون أراضي الجنوب
 على أربعة أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة إقطاعات ، وبقي إقطاعات لمن
 الخمس ملكاً للدولة فأطلقت فيه السبي يزعمونه للدولة ، ويؤدون من أمواله استولوا عليها
 الثلث (ليثالث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم
 الأخماس ، وأولادهم أولاد الأخماس .

ويتفق هذا الذى قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فإن الجنوب بالفعل هو الذى فتحه
 المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا في أقصى الجنوب (واقعة وادى لكه) وفتحوا استجة وقرطبة

(١) رواء محمد بن عبد الوهاب الغساني في « رحلة الوزير » طبعة الفريد البستاني ، تطوان ١٩٥١ ، ص ١١٣ . وقد
 نشر نفس النص خليان ربييرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان « الرسالة الشريفة » ذيلاً على تاريخ افتتاح
 الأندلس لابن القوطية ، ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبى الوادى الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذى قلناه. ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادى الكبير ووادى آنة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيما عدا شنترين وقتلبرية فقد استسلم أهلها وعقد المسلمون معهم عهداً فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة فى الجنوب الشرقى تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يُجرِ على إقليمها حكم العنوة .

وقد اعتبرت أراضي الجنوب والغرب التى تقاسمها العرب إقطاعات ملكاً لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

٢٩٤- بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح صالح عليها أهلها ، قال محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعازل المنيعه والجبال الشاخغة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أى على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به ﷺ بيهود خير فى نخيلهم وأرضهم » (١) .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالى الوادى الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فُتحت تلك النواحي كلها صلحاً ، وأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهداً ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن كلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : « فلما أكمل السماح ما أراد (أى إكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله فى أرض العنوة وأرض الشمال وهى التى فُتحت صلحاً ، فإن أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أى من غلة الأرض) مثالثة ومربعة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله ﷺ فى خير » (٢) .

وظاهر أن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض مثالثة ومربعة ... حسبما فعله الرسول ﷺ فى خير » إنما هو اجتهاد منه ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

فإن الرسول لم يترك أرض خيبر لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف^(١)، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلفاؤهم تبيع لأهل بعض نواحي الأندلس التي فتحت صلحاً أن يؤدوا الثلث أو الربع، فحاولوا إعطاء ذلك صبغة شرعية، فقال بعضهم إن الذي جرى فيها كان قياساً على ما صُنِعَ بخيبر وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون إنكاراً تاماً، فقالوا إن أرض الأندلس لم يجر عليها حكم الشرع كما رأينا في كلام ابن حزم الذي أتينا به، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي فقد قال: «وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير إقطاع من الإمام»^(٢).

وإذن فقد اعتبرت أراضي الجنوب أرض عنوة، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسموها بعد إخراج الخمس منها، وأيدت الدولة ذلك، فسجل الوليد بن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأراضي إقطاعات، وساوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند، فاعتبرها ثغراً يجوز للإمام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها، فإذا كانت في الشرق ثغور هندية، ففي الغرب ثغور أندلسية.

أما أرض الشمال مما فتح صلحاً فقد اعتبرت أرض صلح، تجرى عليها أحكام الصلح التي عقدها المسلمون مع أهلها.

وهذا الذي حدث في الأندلس يشبه تماماً ما حدث في المشرق، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة، وأرادوا تقاسمها، فحال عمر بينهم وبين ذلك، ولم يسمح لهم

(١) قال الطبري في كلامه عن غزوة خيبر: «فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك...» - تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩، ج ٢، ص ٣٠٢. وقال أبو يوسف (كتاب الخراج، القاهرة ١٣٥٢ هـ، ص ٥٠): «حدثنا مسلم الخزاعي (أو الخزاعي) أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف، وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى أهل خيبر بالنصف»، ويقول في ص ٨٥: «أولا ترى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة، ولم يجعل عليها خراجاً ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف؟». بل إنه ثابت أن الرسول ﷺ كره المزارعة على الثلث والربع، قال أبو يوسف: «وكانوا يحتجون أيضاً في المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر أن رسول الله ﷺ كره المزارعة بالثلث والربع» - كتاب الخراج ص ٨٩.

(٢) رواه سيمونيت في «تاريخ المستعربين»، ص ٦٨ نقلاً عن مخطوطة الإسكريال رقم ١١٦٠.

باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءاً من غلتها ، أى صارت أرض فيء . أما ما يلي ذلك شرقاً ، فقد اعتبر أرض صلح ، إذ لم يفتحها المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبراً يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن ما دون الجبل من سوادنا فهو فيء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحاً فعليهم الذى صولحوا عليه ، فيخلى بينهم وبين أراضيهم ، ولا يوضع عليها شيء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين » (١) .

٢٩٥ - نزول
العرب في بعض
نواحي الشمال
أما من استقر من العرب في ريف بعض نواحي الشمال ، فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو في أرض الصوافي التى حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : « أصفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قُتل في الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأحد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد » (٢) أى أنه ذكر ستة وترك أربعة ، وأضاف إليها في رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيته وأملاك الكنائس ، وكان الموجود في الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيراً فتبجح فيها من شاء الاستقرار في الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم في كل ناحية تقريباً . وكانت هذه الأرضون كلها بمرتلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر في الغالب ، ومنها في المشرق ما كان يؤدى عشرين ، وللإمام أن يُصَيِّرَها أرض خراج إذا كانت تُسقى من أنهار الخراج (٣) . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه في الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال إنها كانت تؤدى الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر (٤) ،

(١) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧ هـ ، ص ٢١ .

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٨٠ - ٨١) : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : حدثنا قيس عن بُرد أبي العلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله ﷺ : جُعِلَ رِزْقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي سَنَابِلِ خَيْلِهَا وَأَزْجَةٍ (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فإذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عبارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للأرض وأكثر للخراج » ، ص ٦١ .

وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان في أيديهم ، ومن البديهي أن يكون زراع أهل البلد قد خضعت أراضيهم لأحكام الخراج عامة .

بهذا تتقرر الأسس العامة التي جرت عليها شئون الأموال في الأندلس على نحو مفهوم ، ولا تعيننا المراجع التي بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فإننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس في هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التي وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمينية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل إلى بيت المال دائماً قليلاً . وقد أشرنا من قبل إلى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التي وقعت بين العرب والبربر ^(١) ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمينيين ، إذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغاليين ، وزاد الأمر سوءاً توالى سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع في أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهري سنة رخاء إلا في النادر ، فلا عجب أن كان بيت المال خاوياً أو يكاد خلال هذه السنوات .



٢٩٦-التصرف في أموال الجباية ومهما كان المال الذي يصل إلى العمال في قرطبة ، فلا بد أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشئونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم إرسال الباقي إلى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة في بابها في أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئاً من مال الأندلس كان يُرسل إلى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير إلا ما ذكرناه من إعادة بناء قنطرة قرطبة وإنشاء جبانة للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير إلى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلاً ، إذ كان خراج مصر موضوعاً هاماً تسهب المراجع في تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التي دارت بين عمر بن الخطاب وعمر بن العاص بشأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب في عزل ابن العاص واستبدال عبد الله بن سعد بن أبي السرح به .

وصمّت المراجع عن هذه الناحية صمتاً تاماً يبدو في نظرنا أمراً غريباً ، خاصة وأن الذين أروخوا لهذه الفترة - كصاحب « الأخبار المجموعة » وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازي

(١) انظر « الأخبار المجموعة » ، ص ٦٢ .

وابن حيان - ومن نقل عن هؤلاء جميعاً من متأخري المؤرخين ، كانوا جميعاً ذوى عناية بشئون المال والخراج ، ومنهم من كان من كُتّاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت إلا بأن ولاية الأندلس لم يكونوا يرسلون إلى إفريقية أو إلى المشرق شيئاً من المال ، وأن الخلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالاً ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز في استرجاع العرب منه وتركه جملة . والراجح أن معظم ما كان يصل إلى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها .

ثم إن الأندلس لم يل أموره خلال هذه الفترة كلها إلا خمسة ولاية من الطراز الذى يرجى منه أن يقرر شئون الأندلس الخراجية على وجه الأحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير ، وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولانى ، وعبد الرحمن الغافقى ، وعقبة ابن الحجاج السلولى^(١) . أما الباقيون فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل إلى الفوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديواناً مالياً منظماً . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشئ إيجابى فى هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئاً ثم حاسبه بعد ذلك حساباً عسيراً جداً ، وعبد العزيز كان فى شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمع فى هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن الغافقى وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى أن يكونا جمعا .

ثم إن أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة إلى عمال إفريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين ، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشغلتهم إلى جانب هذا كله حروب مع البربر استنفدت مالاً كثيراً جداً ، فلعل ولاية الأندلس كانوا يبعثون بأموالهم إلى عمال إفريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع الرواة العثور على شئ يحدد لها ، ومن هنا كان إغفالهم الإشارة إليها^(٢) .

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تحل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء .

انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

(٢) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس ، قال ابن القوطية مشيراً إلى هزيمة كلثوم بن عياض الفشبرى أمام البربر فى موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام بن عبد الملك النكبة الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاور العباس بن الوليد أخاه ، وكان أحله فى الشورى محل أخيه مسلمة بعدد فى هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليس يصلح هذا الأمر إلا بها صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه الفحطانية... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شتون الأندلس المالية خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسس الشرعية التي جرى العمل بها في الولايات الإسلامية إذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع في يده من الغنائم ، وكان هذا سبباً من أسباب نكبته ^(١) ، بل إن سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من إقطاعاتهم الأخماس فغرموا ، وغرم موسى مائة ألف » ^(٢) ، وهي رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده إلى أخماس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأخماس في قبائل العرب إقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يُؤدَّى إلى جند العرب كما رأينا ، والباقي - وكان قليلاً - كان يتصرف فيه العمال .

* * *

والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على غنى عريض ، فقد كان ٢٩٧- ثروات العرب الأول في الأندلس الصميل بن حاتم يمتلك داراً كبيرة « بعدوة النهر بقبلى قرطبة » ، وخلف داره كانت عقدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت مائة صف ، في كل صف ألف أصل وسقى عظيم من عين هناك » ^(٣) ، أى أن هذا الشيخ البدوى كان يملك غابة واسعة من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزانته عامرة بالمال ، حتى لقد وُجد في بيته تابوت « فيه عشرة آلاف دينار دراهم » ^(٤) . وكان عامر بن عدى من أشراف بنى عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربى مدينة قرطبة ، وكانت تسمى « قناة عامر » ، وقد بلغ من سعته أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهرى وأراد التحرز منه « أغلق غلقة عظيمة همَّ أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن » ^(٥) .

وأقطعت جماعة من بنى غافق قرية كاملة بشرف إشبيلية نسبت إليهم بعد ذلك ، وهي مرناة الغافقيين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى بلاط الشهداء .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس في هذه الفترة يملكون ضياعاً واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسمون القصر والضيعة المحيطة به « البلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى إنهم سموا قرطبة كلها « بلاط لذريق »^(١) لأنها كانت ملكاً له ، ومن أمثلة هذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن^(٢) و « بلاط مغيث » الرومي ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذي أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهي تسمى بالأندلس « بلاط مغيث »^(٣) ، وكان عبد الله ابن خالد من كبار موالى بنى أمية يملك معظم قرية الفتين ، حتى يقول ابن القوطية إنها كانت « منزل عبد الله بن خالد »^(٤) ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالى بنى أمية يملك إقطاعاً كبيراً بقرية طرش من كورة قرطبة^(٥) ، بل كان يحدث أن ترك كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهرى كورة ربه لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه^(٦) ، بل كانت قبائل عربية تملك كوراً كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن « الثغر كان لليمن »^(٧) والمراد هنا ثغر سرقسطة .

وكان رجال مثل الصميل يتفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار إلى سرقسطة : « فأتى في مائتى رجل من قريش ومن كان معه من غلمان وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكاً وغنى ، ووفد عليه محاييج الناس ، فأعطاهم الأموال والرقيق ، ولم يأتهم صديق ولا عدو فخرمه ، فازداد سؤدداً »^(٨) . وقد روينا خبر دخول نفر من كبار العرب والموالى على أرطباس وإعطائه إياهم الضياع ، قال ابن القوطية : « فوهبهم مائة ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبى عثمان ، والفتين لعبد الله بن خالد وعقدة الزيتون بالمدور للصميل بن حاتم »^(٩) . وقد روينا في نفس الخبر كيف أن أرطباس وهب ميمونا العابد « المجشر الذى على وادى شوش وما فيه

(١) المقرئ ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٢) المقرئ ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

(٩) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

من البقر والغنم والعييد والقلعة (أى ضيعة القلعة) بجيان وهى المعروفة بقلعة حزم فملكها. ^(١) . أما الرجال الذين مثل أبى الصباح اليحصبى وحيوة بن ملامس - وكانا يُوصفان بأنها «سيدا الغرب» - فقد كانوا على ثراء واسع ^(٢) .

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور ثروات عرب الأندلس فى ذلك الحين ، فقد كانوا جميعاً بين مقطعين يملكون أرضاً كثيرة أو قليلة ، أو نازلين فى نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم إلى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذى كانوا فيه نوعاً من الأثنية جعلهم يتصورون أن الأندلس كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت فى أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد أبوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين فى ناحية سبته حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون : « إن بلدنا لا يحملنا وإياهم » . نعم ، شبه الجزيرة الإيبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربى مع السمح بن مالك وطلبوا إلى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم فى جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون إلى الخليفة فى دمشق .



وإذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون ضياعاً أو بلاطات لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن حقوق العرب على النواحي التى نزّلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أى أن « الإقطاعات » كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين أن « الثغر كان لليمن » ، أو أن أبا الصباح وحيوة بن ملامس كانا « سيدى الغرب » ^(٣) ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشّاميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم ثلث أموالها إلا على هذا الأساس ، أى أن « الجند » بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه صاحب الأمر فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند فى الكورة دون أن يدعى أفرادها من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال فى أواخر أيام الولاة جعل الأجناد ملاكاً للنواحي وأصحاب الأمر فيها . وحيث إننا لا نسمع ولو مرة واحدة

٢٩٨ - القبائل

تملك إقطاعاتها
ملكاً جماعياً

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

عن عمال لكور الأندلس في هذه الفترة ، فأقرب الأمور إلى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيها - مقطعين أو مقيمين فقط - كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها .

وقد أصبح الأمران سواء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقتطع ثلثها ويؤدى الثلثين لبيت المال إن كان رئيس جند نازل أو يؤدى عشرها فقط إن كان مقطعاً ، وعليه لقاء ذلك أن يكون مستعداً برجال قبيلته للخروج إلى الحرب عندما يدعوه العامل حسب النظام الذى أوردناه . أى أن أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبولين إليها من العرب والبربر ، لكل قبيلة ناحية هى صاحبة الأمر فيها ، لا يربطها بالحكومة المركزية إلا أداء ما ينبغى عليها من المال والاشتراك في الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل «سجل» من عامل الأندلس أو من الخليفة نفسه ، تؤيد به حقها في ناحيتها . أى أن نواحي الأندلس الجنوبية كانت معتبرة ثغوراً أو ولايات حدود تقيم فيها «أجناد» تصرف بجزء كبير من محصولها نظير ما تقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر قدرة عرب الأندلس وبربرها الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الإسبان في الشمال ، ومع نصارى غالة في أول الأمر ، ثم فيما بينهم وبين أنفسهم بعد ذلك ، لأنهم كانوا جميعاً جنوداً لا عمل لهم إلا القتال ، ولو كانوا توزعوا الأرض قطعاً صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لأصبح من الصعب اقتلاعهم منها وإرسالهم للحرب كما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلاً ، ممن زرعوا واندرجوا في غمار الناس ، أما عرب الأندلس فلم يكن أحد منهم ليملك أرضاً لنفسه ، وإنما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها على أفرادها كما يرى ، فإذا ناداهم إلى الحرب لم يسعهم إلا التلبية ، وإلا ضاع حقهم في العطاء في آخر الغزاة . وبهذا نستطيع أن نفسر سهولة تداعيهم للحرب وخروج قبائلهم لها ، فإذا أهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، وإذا استنجد رئيس عدد من القبائل بنى عمومته خفّ قبائل بأسرها لعونه ، لأن رؤساء القبائل وأصحاب الألوية المعقود لهم كانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد ما آذى عرب الأندلس وعجّل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها إلى عبد الرحمن الأموى .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقر الإدارة المركزية وعجزها عن إدارة البلاد كلها إدارة

موحدة ، وهبوط أمر ولاية الأندلس واجتراء أجناد العرب في النواحي عليهم . فلم تكن الأندلس في واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات تنفرد بالأمر في كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التي غلبت عليهم .

ثم إن الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شئون الأندلس وإخضاعها للنظم الإدارية الإسلامية المقررة ، فتركوها لعمال أفريقية ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوى الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلتهم إلى جانب ذلك شئون المغرب ، وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور في الأندلس خلال هذه الفترة سيراً ارتجالياً لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارَت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكراً في مراجعنا لخراج هذا القطر الفسيح ، كأنه كان لا يغفل شيئاً : لا نملك نصاً واحداً يذكر أن خراج الأندلس أُرسِل إلى إفريقية أو إلى المشرق ، بل لا نجد شيئاً يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجاً منتظماً مقررأ ، اللهم إلا إشارات متناثرة كقولهم أن عقبة بن الحجاج « عدل في الخراج » أو أن الخراج « ضعف » في أوائل ولاية يوسف الفهري ، وهى إشارات لا نستطيع الاعتماد عليها في تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة .



وإذ كان الأمر كذلك فإننا لا نستطيع تصوير الإدارة الإسلامية في الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أى الإدارات وُجد وأنها لم يوجد ، وكل ما لدينا أسماء بعض أشخاص يحتلون وظائف إدارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبى عثمان بن عبد الله صاحب أزمة الأرض والخراج^(١) ، وعامر بن أبى عدى قائد الصوائف^(٢) ، ويحى بن يحيى التجيبى قاضى هشام بن عبد الملك على الشاميين^(٣) ، وجد بنى سليمان القرائن وكان صاحب الصلاة^(٤) ، ويحى بن أبى زيد

٢٩٩ - بعض

الوظائف العامة

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) ابن الفوطى : افتتاح ، ص ٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

التجيبى قاضى الجند^(١)، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم^(٢) وهذا هو كل ما لدينا، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الإدارة العامة في هذا العهد، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى.

يبد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها في أمان، هي وظيفة القضاء في الأندلس، وكان لها في عصر الولاة أهمية كبرى.

٣٠٠- القضاة كانت للقضاء أهمية خاصة في الأندلس، وربما لم يبلغ القضاء في بلد من بلاد الإسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان ويغد الجاه في الأندلس والمغرب، ولدينا لتاريخ القضاء في الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى^(٣)، والثانى لأبى الحسن النباهى^(٤)، وأورد ابن سعيد في «المغرب» تاريخاً لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملاً، ومعظم من نجد أسماءهم في تراجم علماء الأندلس إنما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما إلى ذلك، وأورد المقرئ في كتابيه «نفع الطيب» و«أزهار الرياض» فصولاً وتراجم ضافية للقضاة، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة، أى أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاة وفيرة لمن يشاء أن يدرس. وكان قاضى الجماعة في قرطبة شخصية لها أهميتها في مجالات العلم والسياسة في الأندلس، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تاريخاً صحيحاً إلا إذا ألم الإنسان بتاريخ قضاة وتنب للأهمية الكبرى التى كانت لهم في المجتمع الأندلسى^(٥).

٣٠١- صاته وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضع اهتمام القداماء فقد كان موضع اهتمام المحدثين، فكتب فيه دوزى وريبيرا وآسين بلاثيوس وليفى بروفنسال وغيرهم، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمننا منها هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول، فقد كان موضع درس وآراء ومناقشات. وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة

(١) فتح الأندلس، ص ٤٣، ويرجع أن صحة الاسم «يحيى بن يزيد».

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١١.

(٣) كتاب القضاة بقرطبة، للمحافظ العالم أبى عبد الله محمد بن حارث الخشنى القروى، نشره خليان ريبيرا، مدريد ١٩١٤.

(٤) تاريخ قضاة الأندلس المسمى «كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» لأبى الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى الملقبى الأندلسى. نشره إ. ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨.

(٥) انظر عن هذه الناحية كتابنا، Le Caire, Essai sur la Chute du Califat Umayyade de Cordoue (1948) pp. 66 - 69.

الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذي ألفه محمد بن الحارث بن أسد الخشني ، وهو مغربي من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي^(١) ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أي قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية ، وذكرهم أيضاً أبو الحسن النباهي^(٢) ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حوليات الأندلس ، ولم يشر إليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ؛ وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الخشني منسوبة إلى أحمد بن فرج بن مُتَيْل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي أنه « كان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة »^(٣) ، وكان المسيرون يُعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن متيل لهذا مشكوك فيها لا يوثق في صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزي في حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس ، وقد ذهب في ذلك المقال إلى أن الكثير من أخبار الأندلس في عصوره الأولى قد وضعها المشاركة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلاً بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني الذي يسند الكثير من أخباره إلى رجال لا يوثق في صحة نقلهم^(٤) مثل ابن متيل هذا ومحمد بن وليد^(٥) وعلى بن شيبه^(٦) وعثمان بن محمد^(٧) ، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن متيل مثلاً في حديثه عن مهدي بن مسلم يروي عن رجل يسمى أبا العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقرئ ، وأن هذا الرجل قد حدّثه بحديث مهدي في مدينة تنيس (بالمغرب) .

وبعد أن يورد نص عهد الوالي عقبة بن الحجاج إلى مهدي بن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الخشني) قال أحمد بن

(١) أورد الخشني تراجمهم ابتداء من ص ١٨ حتى ص ٣٠ .

(٢) النباهي : قضاة الأندلس ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٣) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ترجمة ١٢٧ .

(٤) DOZY, Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes dans Recherches (3e. éd 1881) (٤)

I p. I sqq.

والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني في ص ٣٤ - ٣٦ .

(٥) انظر ترجمته عند ابن الفرضي ، ترجمة ١١٧٨ .

(٦) ابن الفرضي ، ترجمة ٩١٨ .

(٧) ابن الفرضي ، ترجمة ٩٠٠ .

فرج ، فقلت لأحمد بن عيسى : لقد عظمت همتك إذ حفظت مثل هذا وشبهه من الأخبار القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لي عُمر نحو عمري ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بنى أمية عندكم ، ولقد كان عندي من كتبه أخبار حسان غربية ، فذهبت بحريق كان في منزلي ، ولقد بلغني أن بعض من عندكم من بنى الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصاً إلى بعض ولاة القضاة ، وما هو إلا لمهدي بن مسلم هذا عندي [كنت] قديماً أحفظه زمن الصبا عن جدي ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدي هذا . فقال : قد سألت غيرك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فياعجبني ^(١) ! كيف درس خبره عندكم ؟ لكنني أظنه لم يعقب ، فاضمحل خبره بالفتن التي دارت في بلدكم ^(٢) ، وهو خبر طويل مفصل يلقي شكاً على ولاية مهدي بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج بن متيل .

وعندما يروى الخشني أخبار القاضي الثاني عنتر بن فلاح يبدوه بقوله : « حدثني أحمد ابن فرج بن متيل ، قال : حدثني أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخاً كبيراً قد نيف على المائة فيما ذكر لي ، وأدرك حرملة صاحب الشافعي ، وحدثني عنه وعن أمثاله ، وذكر لي أنه من موالى بنى أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة محباً لهم متشيعاً فيهم » ^(٣) .

وما يورده الخشني من أخبار القاضي الثالث مهاجر بن نوفل القرشي منسوب أيضاً إلى أحمد بن فرج بن متيل عن أبي محمد مسلمة بن زرعة هذا . أى أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربي من تنيس والثاني مشرقي من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزي أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشني بقله التدقيق وإيراده الأخبار دون تمحيص ^(٤) .

وتناول آسين بلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاهاً آخر ، ففي بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال إن أحمد بن فرج بن متيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعاً ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب في نظر آسين لم يكن مذهباً فلسفياً

(١) وردت في النص المطبوع : « ياعجمي » ورجحنا تصويبها هكذا .

(٢) الخشني : قضاة ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) دوزي : نفس المصدر ، ص ٣٤ - ٣٦ .

بقدر ما كان اتجاهاً دينياً سياسياً يرمى إلى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق في الأندلس يؤيدهم البيت الأموي وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المسيرين بأنهم إسبان قوميون^(١) ، ومضى يحلل أسماء القضاة الثلاثة فقال إن الأول ، مهدي بن مسلم ، لابد أن يكون لإسباني نصراني اعتنق الإسلام ، وترجمه هكذا : *un mesias hijo de un con- verso orenegado* ، وهو في رأيه ليس علماً على شخص بل رمزاً لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن متيل أن يقول إن الاسبان تولوا القضاء في الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسين بالثاني كما فعل بالأول وترجم اسمه *un intrépido hijo de un labrador* وترجم اسم الثالث هكذا : *uno de la tribu de Coraix de los que salieron de la Meca* : *hijo de una calamidad* أي أن اسميهما أيضاً مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المسريون رموزاً على معان عندهم . وقد أيد خليان ريبيرا هذا القول في مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشني ، ولكنه عارض دوزي فيما ذهب إليه من أن الخشني لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل^(٢) ؛ غير أنه أسرف في التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع إلى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليفي بروفنسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهي وجد أن هذا الأخير يذكر أسماء القضاة المشتبه في أمرهم ، فذهب إلى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن أنه لم يقل ذلك استناداً إلى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهي أيد الخشني في هذا الموضوع . ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذي ينشره ، فريبيرا يتهم أحمد بن فرج ابن متيل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشني وأصالة كلامه ، وبروفنسال يتبنى كتاب النباهي ويدحض رأى دوزي ومن تابعه ، وهذه علة لم يسلم منها إلا القليلون من الناشرين .

وأياً كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هي تلك التي ذكر بعضها الخشني أم لم

(١) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Aben Masarra y su Escuela, Origenes de la Filosofia Hispano Musulmana* (1914)

وملاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنتره عنده رمز على رجل شجاع ، ويزرجها بلفظ *intrépido* ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة *calamidad* ، وقد قرأ عنتره بن فلاح ، عنتره بن فلاح وترجمها *labrador* .

(٢) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشني ، ص ١٢ وما يليها .

تكن ، فقد قام فى الأندلس قضاء . قال الخشنى : « سمعت من أهل العلم سماعاً فاشياً أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل قرطبة وقام بالإمامة والقاضى يومئذ يحيى بن يزيد التجيبى ، فأثبتته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضى الجند » ، فلما امتنع الفهرى (يريد يوسف الفهرى) بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضى يحيى ، فحضر وكتب فى كتاب المقاضاة : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضى الجماعة » (١) .

٢٠٢- قاضى الجند وقاضى الجماعة
وإذن فقد كان القضاء فى الأندلس يسمون قضاء الجند حتى أتى عبد الرحمن قاضى الداخل ، فأصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة ، وكان أول قاضٍ للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاه معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسمياً بقاضى الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففي فترة الولاة كان المسلمون هم الجند ، ولهذا كان القاضى قاضيههم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الإسلام قد انتشر ، أصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث فى بلاد إسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغي أن نفرق بين قاضى الجند وقاضى العسكر ، فإن وظيفة قاضى العسكر نشأت بعد تسمية قاضى الجند بقاضى الجماعة ، واضطراره إلى الاستقرار فى العاصمة ، ومست الحاجة إلى إقامة قاضٍ خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيما يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضياً للجند ثم صار قاضياً للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير فى الغزوات ، واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضى الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضى القضاء ، وأتاب عنه قاضياً آخر للعسكر .

وما دمتما لم تنته إلى رأى فى موضوع القضية الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الخشنى والنباهى من أخبارهم .

٢٠٣- عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم
يبدو أن حق تولية قاضى الأندلس لم يتقرر على وجه محدد فى فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحياناً كما ولى عقبة بن الحجاج السلولى قاضى مسمى القاضى لمهدى بن مسلم ، وهو أول قاضٍ نسمع به فى تاريخ الأندلس ، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يُفهم هذا من قول الخشنى :

(١) الخشنى : قضية ، ص ٢٨ - ٢٩ .

« وكان - أى عقبة بن الحجاج - قد اتخذ بالأندلس مقراً مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدى بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها » ، أى أنه تركه قاضياً فى قرطبة وخرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلاً ذنباً فاضلاً عالماً ، ذكر الخشنى - رواية عن أحمد بن فرج بن متيل - أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفاً رجلاً » (١) .

ويذكر الخشنى والنباهى أن عقبة بن الحجاج أمر مهدى بن مسلم أن يكتب عنه « عهداً لنفسه » أى أمر تعيين ، وقد أجاد مهدى كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب إلى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولادة إفريقية نقل نصه وأصدر به أمراً بتولية أحد قضاته ، مما يدل على مكانة هذا العهد وإحكامه ، وقد وصفه النباهى نقلاً عن الخشنى بأنه : « أصل من الأصول فى العهد بالقضاء » (٢) .

ويقول الخشنى : « وكان [عقبة] قد عُرف مع ذلك بالبلاغة والبيان ، فلما أراد توليته قال له : اكتب عهدك عنى لنفسك ، فكتب مهدى بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة ابن الحجاج إلى القاضى (٣) ، فبدأ بنصحه بما هو معروف من ضرورة الطهارة والنقاء واتباع الكتاب والسنة والتقرب إلى الله » بإجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه وإعطاء الحقوق من وجبت له ... وأن يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبؤها ، فإنه مُحاسب ومُوَعَد وموعود » .

ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ - التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيبى اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصوم « ألحن بحجته وأبلغ فى منطقته وأسرع فى بلوغ المطلب وألطف حيلة فى المذهب وإن كان غير الصواب مرماه » .

(١) الخشنى : فضاء قرطبة ، ص ١٩ .

(٢) النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢ . وانظر : أبحاث دوزى ، ج ١ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٩ وما يليها .

٢ - أن يتخير القاضى وزرأه وأهل مشورته والمعينين له من أهل العلم والأمانة . ولم تُشر إلى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضى استعانة خاصة فى أداء عمله إلا لأنها ستتطور إلى وظائف ثابتة فيما بعد هى وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضى ، وينص الكتاب نصاً خاصاً على مسألة الشورى فى الأحكام .

٣ - يجعل الكتاب القاضى مسئولاً عن حُجَّابه وأعوانه وكل ما يفعلونه ، « فإن أفعالهم منسوبة إليه ومنوطة بيديه ، فإذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب » .

٤ - وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والقعود للمتقاضين لا يسأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبوراً عطوفاً على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون عنيفاً مع أهل « التلدد والتقحم فى ملتبسات الأمور » .

٥ - ويشير الكتاب إلى طائفتين أخريين من المعاوين للقاضى على أداء مهمته ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم وبيناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضى وهو مسئول عنهم ، فى حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق فى أن يأتى معه بمن يزكى حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ - وفى الكتاب أمر للقاضى بأن يستشير القاضى إبراهيم بن حرب فى كل ما أشكل عليه من المهات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمثله ويقتصر عليه ويصير إليه » . وليست لدينا أى معلومات عن إبراهيم بن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على أنه كان معتبراً كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع أصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لها فى تطور نظام الحكم فى الأندلس أثر عظيم ^(١) .

والكتاب مصوغ فى أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهدياً كان عالماً فاضلاً بليغاً ، ويصفه الخشنى بقوله إنه كان من « أبناء المسألة من أهل الدين والعلم والورع » ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسألة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتى ١١٦ و ١٢٣ هـ / ٧٣٤ و ٧٤١م أى أن مهدى بن مسلم كان رجلاً ناضجاً ممن يعهد إليهم فى القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء فى هذه الفترة ، فلا بد أن يكون مهدى من أبناء مسألة إفريقية .

(١) انظر نص الكتاب عند الخشنى ، ص ١٩ - ٢٣ ، وربما كانت بعض عبارات قد أضيفت إلى الكتاب فيما بعد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

ولا نزاع في أن مهدي بن مسلم سار على القواعد التي قررها هو بنفسه في كتاب عهده ،
أي أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك إلا
تعديلات طفيفة ، وهذه الحقيقة تقرر لنا ناحية إيجابية جديدة بالإعجاب لعهد الولاة في
الأندلس ، ففي ذلك العهد كان قضاة إفريقية يجرون في أعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة الأندلس بعد ذلك من
عظيم المكانة . فقد كان القاضي الذي أتى بعد مهدي - وهو عنتره بن فلاح -
حريصاً على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية في سبيلهم : حدث أن
أصاب الناس غل ، فقام يخطب مستسقياً ، فقام إليه رجل وقال : «أيها القاضي الواعظ ، قد
حسن ظاهرك فحسن الله باطنك .. » .

٢٠٤ - عنتره
ابن فلاح

- آمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئاً يا ابن أخي ؟

- نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك ..

- اللهم إني أشهدك أن جميع ما حواه ملكي من المأكول صدقة لوجهك ..

وقد كان ، ووزع القاضي ما في أهرائه على الناس . ويصور لنا هذا الحديث جانباً من
طبائع الأندلسيين الصريحة التي لا تتردد في مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك
تعريض لاذع بالقاضي (١) . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على هذا التعريض اللاذع
الذي لا يخلو من عمق ...

وكان عنتره لا يحسن الارتجال ، حتى ليقال إنه كان إذا قام خطيباً أسدل على وجهه نقاباً
ويقول : « متى لحظت الناس لم أصل كلاماً » ، ولكن سخريه الأندلسيين أثبت إلا أن تزعم
«أن خطبته كانت مكتوبة في صحيفة مشبكة في الثوب المسدول على وجهه...» .

٢٠٥ - مهاجر
ابن نوفل القرشي
وكان ثالث قضاة الأندلس مهاجر بن نوفل القرشي رجلاً ورعاً تقياً
لا أكثر ، إذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظهم ويخوفهم ويتحسر على نفسه
ويبكي حتى ينصرفوا من عنده « باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم » (٢) .

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبى ، وهو أول من تسمى بقاضى الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ثبتته في مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذى أقامه قاضياً حنظلة بن صفوان عامل إفريقية وبعثه إليها مع أبى الخطار ، وكان قوى الشخصية لا يكاد يهاب أحداً ، فقد حدث أن يوسف الفهرى فجأ قرطبة في غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضى وقال له : « يا لثيم ! عبد الرحمن ظفر ببنايتك وكرايمك ، فتلؤم عليهن حتى نقلن إلى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتهما ! » فتذمم الفهرى وقال : « والله ما رأيت لواحدة منهما وجهاً ! فاقبضهما » وبرىء بهما إليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهرى وأنصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده في الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب إليها طائعاً^(١) .

٣٠٦- يحيى بن
يزيد التجيبى

وكان يحيى بن يزيد مشاركاً في السياسة ، فقد أخذ جانب عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهرى كما رأينا ، وكذلك كان القاضى الذى جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمى ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس في ذلك العصر ، وكان طبقة عالية في العلم حتى ليعد أعلم من دخل الأندلس إذ ذاك ، قال الخشنى : « وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس في بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثاً واحداً ، وذكر أنه أتاه يوماً إلى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل إليه .

٣٠٧- معاوية بن
صالح الحضرمى

قال محمد [بن حارث بن أسد الخشنى] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم .. قال : أضعتم والله علماً عظيماً^(٢) وذكر الخشنى بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثى ذلك العصر في المشرق وقال : « قال لى محمد بن

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٣٨ .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص ٣٠ - ٣١ .

أحمد بن أبي خيثمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية بن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها ^(١) .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عيس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فتزل إشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما أتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذ من رجال رأيه وثقته ، وندبه إلى المشرق ليأتي بأخته أم الأصبح ، فرحل إلى المشرق ولم يوفق في مهمته لأن أم الأصبح كانت قد كبرت سنهما ولم تنشأ الرحلة إلى الأندلس . وفي هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد إلى الأندلس وقد علا صيته وثبت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس ^(٢) .

* * *

وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين في طريق مالك بن أنس ، ولكنه لم يكن مالكيًا ، لأن المدرسة المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، صحيح أن مالكا وضع مذهبه كاملاً ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان واعياً إلى أنه ينشئ تشريعاً كاملاً ، بخلاف أبي حنيفة الذي لم يكتمل مذهبه إلا على أيدي تلميذه محمد بن عبد الرحمن الشيباني وأبي يوسف القاضي ، وبخلاف الشافعي الذي يبدو أنه لم يكن واعياً أول الأمر إلى أنه يضع تشريعاً ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها في الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت في صورتها النهائية في مصر . ولكن تكوّن المذهب لا يعنى قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالاتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبهاً إلى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل إننا نلمح في علاقته بأولئك أنه كان حريصاً على أن يكون له في كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر جداً فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكي في « رياض النفوس » عدداً عظيماً من أهل المغرب وقال إنهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا في عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث

(١) نفس المصدر ، ص ٣١ . وانظر أيضاً النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الصحيح أثبت أن جانباً عظيماً من هذه المعلومات مخترع في عصور متأخرة ، وقد دفعت إلى الاختراع الرغبة في تعظيم أمر المالكية في الأندلس ^(١) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه أنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا للمالك فعلاً ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعاً محدّثين ، ولم ينتبهوا إلا إلى ناحية الحديث عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس فقهاء محدّثين ، وهذه هي الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلاً ، من أمثال سعيد بن أبي هند ، ومحمد بن يحيى السبأى ، وداود بن جعفر ، ومحمد بن إبراهيم بن مزين ، وشبّطون بن عبد الله الطليطلى ، ومحمد بن بشير القاضي ، وعبد الرحمن بن موسى الهواري ^(٢) ، فهؤلاء جميعاً كانوا فقهاء محدّثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية في الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسي المالكية الأندلسية .

ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للمالكية الأندلسية ، ٢٠٩ - نقطة البدء للمالكية الأندلسية فقد أصهر إليه أحد تلاميذه وهو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبّطون ، وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب في الأندلس ، وهم الذين أدخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل الرسمى لأهل الأندلس ، أولهم الغازي بن قيس ، وثانيهم زياد بن عبد الرحمن هذا ، وثالثهم يحيى بن يحيى الليثي .

وقد كان من الممكن أن تُنزع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم في الأندلس خلال هذه الفترة ، ولكننا رأينا أن بحث هذا الموضوع في هذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر في عصور تالية ، ثم إن الأمر يتطلب دراسة الثقافة المحلية التي وجدها المسلمون في الأندلس وأخذوا منها وتأثروا بها ، أي الرجوع بالموضوع إلى أصوله البعيدة

(١) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود على مكى في بحثه الذى وضعه بالإسبانية وعنوانه : Estudio sobre las aportaciones orientales en la Espana Musulmana y su importancia en la formacion de la cultura hispano - musulmana.

وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تطبع وترجم إلى العربية ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص ١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الجزء من كتابنا .

(٢) أورد تراجمهم جميعاً ابن الفرضى في تاريخ علماء الأندلس ؛ انظر الفهرس .

أيام الرومان والقوط ، فقد كانت إسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكانت لمؤلفاتهم وآرائهم آثار بعيدة في تكوين العلم الأندلسي في شتى فروعها ، ثم إننا إذا قدمنا هذه المقدمات الطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عند حدود الفترة التي نتحدث عنها ، لأن الثمرات كلها لم تظهر إلا بعدها ، في عصور تالية ؛ ولهذا فقد رأينا أن نكتفى بهذه الإشارة ، حتى إذا أتاحت لنا الظروف دراسة العصر التالي عرضنا الموضوع كاملاً بمقدماته ونتائجه .

* * *

قِيَامُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ

انتهى عصر الولاة على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل بإقامته الدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذى تلا عصر الولاة ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينهما رحى صراع طويل انتهى بانتصاره عليهما وزوال أمرهما وزوال المعالم التى ميزت الفترة التى ندرسها ، فلم يكن هناك بد من الإلمام بسيرة عبد الرحمن ودخوله الأندلس وإقامته دولته فيه ، حتى نصل بعصر الولاة إلى نهايته ، ولهذا فإن حديثنا عنه يعتبر ختاماً لتاريخ عصر الولاة وبدءاً لتاريخ الإمارة الأموية القرطبية ، ولم نر بداً من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وإن كان قصيراً فى عدد سنواته ، فإذا تقرر هذا فلا بد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .



وُلدت الدولة العباسية فى الكوفة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩م فى اليوم الذى بويع فيه لأبى العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قائده أبى سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقضى أشهر حتى رفرت رايات العباسيين على دمشق، وفرّ مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بمن معه من الجند ، ولحق بهم عبد الله بن على عم السفاح وأوقع بهم هزيمة كبيرة على نهر الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن على حتى قتله فى قرية بوضير بمصر ، وبذلك زالت الدولة الأموية فى المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلاً عثروا له على أثر ، واستمرت المذابيح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بنى أمية إلا أفراد شردوا فى الآفاق .

وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت بنى أمية بالمصيبة ، ٣١٠ - فرار
عبد الرحمن إلى فقد خلف معاوية هذا عقباً وافرأ يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبتتين ،
المغرب أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع فى يد العباسيين فقطعوا يده ورجله وطافوا به

في قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أمانه المشهور واحتال به على الإيقاع بأكثر من سبعين أمويًا في دير الجحاجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثمان لمعاوية هو يحيى ، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن إلا بأعجوبة ، إذ كان قد خرج في صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكذب يعلم بها جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفرَّ إلى قرية كانت تقيم فيها أخته أم الأصبع وأمة الرحمن وابن صغير له وأخ صبي له في الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكذب عبد الرحمن يستقر في القرية ويشعر بشيء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيسًا في حجرة خوفًا من رجال العباسيين وطلبًا لشفاء عينيه .

فإذا كان في حجرته تلك يوماً فقد فاجأه العباسيون بقوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية، وشاءت المقادير أن ينجو مرة أخرى ، لأن ابناً صغيراً له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه مُعولاً ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلاً ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أخته وابنه ، وطلب إليهما أن تبعثا إليه مولاه بدرًا في مكان عيَّنه لهما في غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبي ومضى لا يلوى على شيء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخوه في مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه بشيء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعاً على الفرات ، فطلب عبد الرحمن رجلاً يعرفه وأعطاه مالاً ليشتري له خيلاً وطعاماً ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين ؛ وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبداً لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به إلى عمال العباسيين ، فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها ، وريع الأخوان فأسرعوا يعدوان حتى اختبأ في حديقة على ضفاف الفرات .

وأقبل العباسيون يحاصرونها وضيّقوا عليهما حتى كادا يقعان في أيديهم ، ولم يبق أمامهما إلا أن يلقيا بنفسيهما في عباب النهر ويسبحا إلى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فإذا قطعا من الشوط جانباً فقد تعب الصبي وترامى إلى سمعه نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان إذا عاد ، فانقلب الصبي راجعاً ، ولم يكذب يخطو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينه فيشتد في سباحته ، ووصل إلى بر الأمان سالماً ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكاناً من فلسطين كان قد ذكره لأخته ، وهناك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بهال وجوهر ليستعين بهما في محنته ، ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بمصر وأفضوا إلى إفريقية

حيث كان الحال مضطرباً ثائراً ، فأمنوا برهة في وديان المغرب وشعابه وبين قبائله وأهله الذين فرّقتهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات إلى دعوة العباسيين ^(١) .

كانت سنة عشرين سنة ^(٢) حينما أقبل إلى إفريقية ، ولم يكن يؤمل إذ ذاك إلا في النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتبعون كل أموى يعثرون له على أثر ، ولم تكن الظروف في إفريقية لتغذى فيه أى أمل في تحسن الحال ، لأن بربر إفريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذى كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التى تحدثنا عنها ، وكان دعاة الخارجية وأعداء بنى أمية المهاريون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطاً عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

وكانت أمور إفريقية قد انتهت على ما ذكرنا إلى عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة ^{٣١١ - المغرب} في فترة الانتقال ابن نافع الفهرى ، وكان فهرياً من عرب إفريقية ، وكان واسع المطامع عظيم من الأمويين إلى النشاط حارب البربر في جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفرّ ابن العباسيين أخيه بلج بن بشر في نفر من القيسيين إلى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن النهري ، وجعل يحرضه على القيسيين ، ثم سارت الأمور في الأندلس على عكس ما رجا ، وصار الأمر إلى بلج ثم إلى ثوبة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائداً إلى إفريقية ، حيث جمع نفراً من عرب إفريقية اليميين واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر في القيروان حاكماً بأمره ^(٣) .

ولكن باله لم يبدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بنى أمية في المشرق ، لأن جنده كان قليلاً ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان في واقع الأمر

(١) انظر : الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ - ٥٦ ، ٦٩ - ٧٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٣٣ .

المقرى : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١١ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ١٥٤ .

(٢) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) في دير حُتَيْنة أو دير حَيْنة على مقربة من دمشق .

انظر ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٣٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٨ وما بعدها .

مغامراً كثير التقلب لا يكاد يقصد إلا لخير نفسه وحدها ، واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدفى واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطاف الأزدي حتى نزل بطيئناس ، وثار البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجلاً يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن بن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى ، حتى دوح المغرب كله ، وأذل مَنْ به مِنْ القبائل ، ولم ينهزم له عسكر ، ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب » (١) .

وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب إلى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعاً . ثم قامت الدولة العباسية ، فعجل عبد الرحمن بالكتابة إلى أبى العباس بطاعته ، ثم كتب إلى المنصور كذلك وأهدى إليه شيئاً رجاء أن يشبهه في البلاد ، وخشى أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن إفريقية أصبحت إسلاماً كلها ، وأنه لن يستطيع إرسال سبائا إليه ، فأغضب كتابه المنصور ، ووقعت النفرة بينهما ، فخلع طاعة المنصور وأحرق الخلع التى كان هذا قد أرسلها إليه ، « وأمر كاتبه خالد ابن ربيعة أن يكتب كتاباً بخلعه ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه في البلاد حرجاً (٢) .

وطبيعى بعد ذلك أن يظل متربصاً يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارئ ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن يهودياً أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموى اسمه عبد الرحمن يقيم ملكاً في الأندلس ، وطبيعى أن هذه أسطورة ابتدعتها مؤرخو الأمويين في الأندلس مبالغة منهم في تصوير حياة عبد الرحمن منشئ دولتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفاً مترقباً لكل أمير أموى هارب يصل إلى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن .

وكان نفر من بنى أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه إلياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه فقتل منهم اثنين ، وكانت لهما أخت تزوجها

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

إلياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته إلى قتله ، ولم يَصِفْ لإلياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينها فتنة طويلة .

* * *

٢١٢- عبد الرحمن وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية أيام عبد الرحمن بن حبيب ، ومن ابن معاوية في الطبيعي أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد كان هذا الأمرى الشارد خامل النفس قنوعاً للجأ إلى عبد الرحمن بن حبيب وعاش في ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بنى أمية يفعلون ، ولكنه كان مغامراً بطبعه جرىء القلب ، ففَضِّل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب في نواحي إفريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حيناً ، ثم مضى إلى تاهرت حيث استظل برعاية بنى رستم حيناً... ثم اختفى في قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحاً في صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الحرب والتجوال والمغامرة إلى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سبيهم ، والظاهر ، أنه استطاع كسب ودهم لأن كثيراً منهم عطف عليه وقام برعايته . والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول ، فجعل يدبر على عبد الرحمن بن حبيب ، واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ؛ وكان الطلب عليه شديداً حتى أن امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت إلى إخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع في أيدي عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه في هذه المغامرات كلها مولاه بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عنيفاً على موليه هذين لميل إلى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمناً طويلاً^(١) ، وأما بدر فقد أقام معه مخلصاً له ، وقد قُدِّر له أن يكون أخلص معاونيه في بناء مجده .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة في كنف شيخها أبي قرة ، ولا شك أن شيئاً كثيراً من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس إذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهري والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى أخته

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أبا شجاع) .

قد حدثه بشيء عن خير الأندلس إذ كان قد قدمها مع موسى بن نصير ، فتطلعت نفس هذا الفتى المغامر إلى هذا البلد الواسع الغنى الذى أفسد الاضطراب أمره ^(١) .

٣١٣ - تفكير
عبد الرحمن في أمر الأندلس والثابت على كل حال أنه لم يحاول أن يبنى لنفسه ملكاً في أى مكان من إفريقيا ، وأن الطمع في الإمارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت في نفسه هذه الأطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش في ناحيتي البيرة وجيان مشطورة بين جندى دمشق وقسرين ، ولم تكن أحوالهم بالآمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمنيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهرى وصاحبه الصميل ، ولابد كذلك أنه تسامع بأن هؤلاء الأمويين في حاجة إلى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوى صفوفهم ، لابد أنه تسامع بذلك وإلا لما بعث إليهم مولاه بدران برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك في إفريقية أبداً ، مع أن إفريقية لم تخل من جماعات من موالى بنى أمية وأنصارهم ، وكان مستطيعاً تجريب حظه معهم ، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول في إفريقية لأن عرب نواحيها لم يكن فيهم من يقارب الصميل أو يوسف الفهرى أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم إن بدران وموالى بنى أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعنى ضياع سلطانه ، بل إننا نتساءل : لماذا قصدوا الصميل ولم يقصدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر لينا ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقاً غير منسجم . وليس لدينا في ذلك الصدد إلا أربع أو خمس روايات لا تكاد إحداها تزيد على الأخريات شيئاً ذا بال . وربما أعاننا على استجلاء هذا الأمر أن نقرر أنه كان هناك تفاهم واتفاق بين الصميل بن حاتم وجماعة موالى بنى أمية وزعمائهم من أمثال أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت . ولسنا ندرى كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكد المراجع من أن موالى بنى أمية

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ .

البكري : وصف إفريقية (طبعة دى سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

كانوا معتبرين موالى يوسف الفهرى من يوم زالت الدولة الأموية في المشرق ، فقد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل ما كان للأمويين في الأندلس ، بما في ذلك الموالى ^(١) ، وربما يكون هذا قد ساء هؤلاء الموالى فسعوا إلى الانضمام إلى الصميل بن حاتم للتخلص من سلطان يوسف . وسنلاحظ أن هذا الأخير لم يفتن إلى ذلك ومضى يعتبر موالى بنى أمية مواليه وأخصاءه ، وكان ذلك من أخطائه الكبرى ، ولا يبعد أن يكون الصميل قد قرَّبهم إلى نفسه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العلاقات بين الصميل ويوسف طيبة على كل حال ، فقد كان يوسف منكراً للسيطرة التي يفرضها عليه الصميل ، وقد رأيناه يسعى للتخلص منه فبعثه إلى سرقطة وكان كل أهلها يمينين لا يطيقون هذا القيسى الجافى ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ، ثم لم يكد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر في بعثه إلى الثغر ، وسيكون ذلك دافعاً بالصميل إلى إلقاء يده إلى عبد الرحمن والدخول في دعوته . ولنلاحظ كذلك أن موالى بنى أمية في الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقد كانوا موزعين بين جندين ، ولم يكن عددهم أربعمائة أو خمسمائة كما يظن ^(٢) ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير ، ولم يكن يربطهم إلى يوسف الفهرى والقيسين إلا الصميل ، فلما تخلى عنهم الصميل تخلوا عن القيسية ومالوا إلى اليمنية . على أساس هذه الملاحظات نستطيع أن نمضى في رواية الأحداث التي انتهت بإنشاء الإمارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن .

من الواضح أن عبد الرحمن حينما أرسل مولاه بدرأ ليبدأ العمل في الأندلس في ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كوّن لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال في البلاد ورسم لبدر خطة العمل ، ودلينا على ذلك أنه أعطاه خطاباً مكتوباً يعرض فيه على موالى بنى أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك في أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميراً على الأندلس مكان يوسف والصميل لكي يستطيع أن يضع حداً للفضى الضاربة أطناها ، ولكي يقيم أمر بنى أمية في البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه إلى جماعتي موالى بنى أمية في البيرة وجيان . ونقول إنه حدثهم في أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم في الأمر وإلحاحهم في إنفاذه أن المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم إيواؤه فقط لما احتاج الأمر إلى هذا العناء كله .

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ سطر ٥ وبقيّة السياق .

(٢) تذكر المراجع أن عددهم كان حوالى ٤٠٠ .

انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ و ٧٢ .

ولم يُضِع بدر وقته سدى ، بل اتجه إلى رؤساء موالى بنى أمية الثلاثة الذين ذكرناهم وأسلم إليهم خطاب مولاه ، واجتهد في إقناعهم ، ولم يلق صعوبة في ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطمئنانهم إلى الصميل لا يكادون يطمنون إلى بقية القيسيين . فلم يكذب أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيده حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاء وأصدقاء لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم إليه ، راجياً لنفسه من ورائه خيراً كثيراً . وكان موالى بنى أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع إلى السلطان ، فتلفظ رسولاهم في عرض الأمر عليه ، « وذكرناه بأيادي بنى أمية عنده وعند سلفه ، وقالوا له : إن عبد الرحمن بن معاوية نجا إلى بلد البربر وهو مستتر فيه خايف على نفسه ، وأتينا وصيته يسأل الأمان في نفسه ، ويتوسل إليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له ، فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا إلى أن يزوجه ابنته ويشركه في سلطانه ، وإلا ضربنا صلعتك بالسيف » مما يدل على أن مولى بنى أمية عرضا عليه الأمر كأنه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه في أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال أنه مستعد لإرغام يوسف على إشراكه معه في الأمر فقط^(١).

ولنلاحظ كذلك أن الأمويين لقوا الصميل في لحظة كانت نفسه مفتوحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصه مما كان اليمينيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره يفرق الأموال في الناس من غير حساب ، ولما كان موالى بنى أمية من أكبر الناس فضلاً في خلاصه فقد كانت نفسه مفتوحة لقبول أى رأى يتوجهون إليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، إذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض »^(٢) ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل في قرطبة بل كلموه في الأمر وهو في طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم إلى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تطف في خطابه فلم يتحدث عن إمارة أو ملك وإنما عرض سوء حاله لكى يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع في أن الصميل حسبه شاباً مسكيناً لا يطمع في أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفي أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه إلى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ .

الرسولين فترة يُروى فيها أمره ، فعجلاً وجمعاه بيدر ، فاستقبله الرجل استقبالا طيباً وأعطاه عشرة دنانير وشقة خز^(١) .

واستقر الصميل في قرطبة فلم يطمئن يوسف إلى ذلك ، فبدأ يلح عليه في العودة إلى الثغر ، لأن اليمينين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة وانقضوا على سرقطة يقودهم زعمائهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف ، وتطلب الأمر القضاء عليهم . وأخذ يوسف يلح على الصميل والصيل يُسَوِّف ، علماً منه أن يوسف لا يرمى إلا إلى إبعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهري قد اعتبر موالى بنى أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليتهم بنى أمية في المشرق كما قلنا ، فلما يش من الصميل بعث إلى رؤسائهم وأمرهم بأن يجمعوا رجائهم ويسيروا بهم نحو سرقطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين في هذا المسير ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤسائهم يتعللون بأن رجائهم لا يستطيعون النهوض إذ أن « كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبي جوشن ، ففقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » ، فصدّقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقوا بها على النهوض ، فانتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك ، وقالوا : « هم خمسمائة مدّون ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هذا المال في تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصيل^(٢) .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن اطمأن إلى أن موالى بنى أمية موافقه ، فرحل في ذي قعدة سنة ١٣٧ ، وخرج معه الصميل يتلّكاً ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح » على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرّق فيهم الأعطيات ، وجعل ينتظر موالى بنى أمية ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرة أخرى ، وأكد له أنهم لاحقون به قبل أن يدرك طليطلة ، وإنما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقوا به ، فلم يشك الرجل في كلامه ، وأمره بالعودة إليهم والضغط عليهم في المسير .

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد من غير المدونين .

ولكن عبيد الله لم يسر إلى البيرة ، بل عرج على الصميل في مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا رؤى وإنما فاجأه عبيد الله بذلك وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما إنى ما أغفلت ذلك ، ولقد روّيت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً ، وفاء بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمر ، فاكثبا إليه على بركة الله ، فإن [أبى] هذا الأصلح (يريد يوسف) على أن يتخلى لى عن هذا الأمر ، وأزواجه من أم موسى (يريد ابنته أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحداً منا ، فإن فعل قبلنا منه وعرفنا حقه وميته ويده ، وإن كره هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا ! » ^(١) وخرج الأمويون من عنده وقد ملأ البشر والتفاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى إلى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر في الأمر ويأخذه مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحس أن إقبال عبد الرحمن قد يعنى ضياع أمره ، فعجل بإرسال رسول يستوقف رسل موالى بنى أمية في الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما في أسلوبه الطريف في الكلام : « إنى منذ أتيتما نى برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنتم ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان ، فلما فارقتكما روّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله . وهذا (يعنى يوسف) رجل قد حكمنا عليه مع ما له في أعناقنا . والله لو بلغتما بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما لثلا أغركما ، وإنما أعلمكما أن أول سيف يسلم عليه سيفى ! فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما » ^(٢) فأسقط في أيديهما وعلمنا أن الرجل جاد فيما يقول ، وأن لا رجاء لهما فيه بعد ذلك .

وهكذا انتبه هذا الرجل لأمر نفسه في آخر لحظة ، وعاد إلى بيته وهو لا يشك في أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله ابن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاها ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه إذا تخلى عن طلب السلطان .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

أراد الصميل شيئاً وأراد الله شيئاً آخر . أراد أن يقضى على آمال عبد الرحمن وموالى بنى أمية في السلطان في الأندلس ، فكانت إرادته تلك فتحاً لباب الأمل أمام وجوههم . فقد فكروا بعد يأسهم من المضربين المعديين في الاستعانة بالكليين اليمنيين ، فجعلوا في طريق عودتهم إلى البيرة لا يكادون يمرون بمنازل يمنية إلا حذّثوا أشياخها في الأمر ، وكانوا في ذلك أسعد حظاً من يوم توجهوا بآمالهم إلى الصميل والمضربة ، لأن اليمنيين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم في سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة يتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضربين ، فجعلوا ينضمون إلى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بنى أمية إلى البيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليمن ، وقرروا الإسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء في العمل قبل أن يفرغ يوسف والسميل من أمر سرقسطة ويعود إلى قرطبة .

عجل موالى بنى أمية فندبوا أحد عشر رجلاً منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفي الذي شارك في الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشاكر مولى هشام ، وأعطينا تمام خمسمائة دينار للنفقة منها ولافتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبي قررة المغيلي . وكانت هذه الخمسمائة دينار هي كل ما كان قد بقي لهم من الألف دينار التي أخذوها من يوسف الفهري ليفرقوها فيما بينهم استعداداً للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندي أموي عشرة دنائير ... أما الباقي فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذي سيكون على يديه زوال أمر يوسف والسميل معاً .

واشترى تمام وشاكر وبدر من المال مركباً وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذي كان ينتظرهم بفارغ الصبر^(١) .



٣١٤- وصول اقترب رسل موالى بنى أمية بمركبهم من شاطئ إفريقية في إحدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥) وكان عبد الرحمن قائماً يصلي المغرب، وهدى موالى بنى أمية واليمنيين إلى عبد الرحمن فلما أبصرهم أسرع إليهم وقفز بدر إلى الماء لكي يسرع إلى مولاه بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى إليه بجلية الأمر وأنباء

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٤ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ .

بتوقيفه مع موالى بنى أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير في ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكذب عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعوّل على الإسراع في الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يحاولون منعه من الرحيل إلا إذا افتدى نفسه منهم ، ففرّق عليهم تمام من المال الذى كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم إلا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى الموفق في القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى إليه ، ووطئت قدمه شاطئ الأندلس عند المنكب في أخريات ربيع الثانى سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدء العصر جديد في تاريخ الأندلس بل في تاريخ الإسلام عامة .

٣١٥- دخول لم يُرح عبد الرحمن في المنكب ، بل سار منها رأساً إلى طُرُش حيث أراح في دار عبد الرحمن لأبى الحجاج يوسف بن بُخت (شيخ جند قنسرين) وأحد كبار موالى بنى الأندلس أمية على ما ذكرنا ، « وهناك جاءت الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) ابن عمرو المذحجى من أهل رِيّه الذى كان بعد ذلك قاضيه في العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفى وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس إليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يغنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه ، فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء وإعدادهم للصراع في سبيل الأمر العظيم الذى يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره (١) .

في هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمنيين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى ، وكان يوسف ينتظر مجيء أبى عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعده ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكم تدبيره من الأمر أو ما كانت تحبته له ظروف الأيام .

وفي أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمنيين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحباب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله في ذلك ليوسف والصميل لقتلاهم ، ولكن نفراً من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٦ - ٧٧ .

القرشيين في معسكرهما على رأسهم سليمان بن شهاب. والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك . فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر في وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهاز فرصة انتقاض البشكنس فجمع جمعاً صغيراً من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصبحهما خيار القرشية . « وبعثهم في ضعف ولم يكره عظمهم » ^(١) . فلم يكادوا يفيضون إلى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انتقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بقلهم إلى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصميل اللذين أرسلوا قومه إلى الهلكة ، وأقام عند أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملاً على سرقسطة .

في هذه اللحظة تحركت في نفس الصميل عوامل القسوة التي عرفناها فيه في مناسبات كثيرة ، فإلى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميتهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم في بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه إن فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقيماً إذ ذاك بمكان يقال له وادي شربنة ، فاستجاب له يوسف وضرب أعناق عامر بن عمرو القرشي وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغبة ، واطمأن الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمنيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم إياه بسرقسطة ، اطمأن نفسه واستراح باله ، فمضى إلى خبائه - وكان فيه ابتلاء - ليقليل ، فلم يكد جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل إليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس إليه بطرشي ، فكأن المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التي ارتكبها منذ لحظات ^(٢) .

لم يكد يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعى الصميل ، وانبته الصميل ٣١٦ - بدء
 للصراع بين عبد
 الرحمن ويوسف
 الفهري والصميل
 لخطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يجعل بالسير إلى عبد الرحمن بمن معه
 قبل أن يجتمع إليه الناس ويشد أمره ، فلم يكد يوسف يتحدث إلى الجند في
 هذا حتى عارض فيه أكثرهم ، وكانوا متعبين من أثر هذه الحملة المشثومة
 التي قاموا بها في بلاد البشكنس ، ثم إن الكثيرين منهم كانوا سلاطين على الصميل

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ - ٧٨ .

ويوسف بسبب ما فعلا بإخوانهم القرشيين ، إذ ألقى ببعضهم إلى الهلكة وغدر بالباقيين ، لهذا لم يجبه منهم إلا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، أما الباقيون فقد طال الشوق بهم إلى بيوتهم فتسللوا إلى أهلهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليهما الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحلت الأنهار ، فلم يجد الرجلان بداً من السير بمن معهما إلى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم إنه لا يطلب ملكاً وإنما يطلب العيش الرغد ، فإن كفاه يوسف ذاك وزوجه من بيته رضى وقنع وزال خطره ، واطمأن الرجل إلى ذلك طيلة الشتاء كارهاً.

في ذلك الحين كان عبد الرحمن جاداً في توثيق أمره في طرش في دار أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالي بني أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع إليه اليمينيون لا يشكون في أنه متصف لهم من القيسيين وقائديهم العاتيين ، بل انضم إليه نفر من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الدجن ، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم في حملة البشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم إليه من ثقيف ثلاثة نفر سيكون لهم في مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم تمام بن علقمة الثقفي الذي ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم إليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أى تفصيل ، ولكن معظم البربر كانوا على أى حال يأمنون اليمينين وينضمون إليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا إليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوى معسكر عبد الرحمن ، فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعداداً للصراع الحاسم إذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد إلى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما في قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيماً ، لأن الأمويين واليمينين المجتمعين إلى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمينية في نواحيها لكي يصطحب منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمينين رغم كثرة عددهم في الأندلس كان معظمهم منصرفاً إلى شئون العيش في النواحي التي نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم للقتال إلا أعداد قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم في ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جدداً على البلاد

أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم في النواحي التي كان أبو الخطار قد فرّقهم فيها ، فكانوا إذا دعا داعي الحرب لى معظمهم وأسرعوا إلى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصميل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاء الشتاء حتى توافد عليها معظم القيسية ، في حين كان لابد أن يمر عبد الرحمن على اليمينيين في منازلهم ليحشد أكبر عدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت للملك ، وإنما يكفيه شيء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا ، ففكر هذا في أن يبعث إليه بشيء من الهدايا مع وفد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة ، وتخير يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله بن على شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالى بنى أمية ، ولكنه ثبت إلى جانب يوسف ، لأنه كان على أرزاق الجند وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب بليغ كتبه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار .

فسار الرسل حتى بلغوا أرش من كورة رثه ، فبدا لعيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا في هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا إن كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا إلى معسكر عبد الرحمن وجداه عامراً بالناس تتوارد عليه الوفود من أجناد دمشق والأردن وقنشرين وفدأ بعد وفد ، وحدثاه بالذى يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلم ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن إلى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناول له لعبد الرحمن ، فناوله هذا لصاحبه أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهَمَّ أبو عثمان بإملاء الجواب ، فملك الزهو خالداً وقال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن إبطك قبل أن تجد فيه جواباً ! » فالت هذه العبارة الجافية من نفس أبى عثمان .

وكان - كغيره من كبار عرب الأندلس - يكره خالداً ولا يرتاح إليه ، إذ كان خالد مولى أندلسياً اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذى سنعرفه في الكثيرين من الأندلسيين ، فأثار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التى أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسى أو « علج » كما كانوا يسمونه .

أصابته هذه العبارة نفس أبي عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبه سباً قبيحاً وأمر به فكُّبَل بالحديد ، وحاول عبيد الله بن علي أن يتدخل لإنقاذه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التي صدرت عن هذا المولى الأندلسي دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعي إلى أَرش ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائداً بالهدايا إلى يوسف ، إذ بلغه أن أنصار عبد الرحمن بن معاوية علموا بأمره وأمر الهدايا التي معه . وقد انضم عيسى فيما بعد إلى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، إلا أنه لم ينس له فعلته هذه أبداً^(١) .

سار عبد الرحمن بمن معه إلى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم إلى جيشه كل من كان بها من اليمينين وقضاة وقليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسي جد بني عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر سنة ١٣٨ (٨ مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد بأن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن^(٢) ، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس ، وساعفه المقدار فانضم إليه قبيل من البربر يُعرفون ببني الخليع كانوا يقيمون بناحية تاكرنا وكانوا موالى يزيد بن عبد الملك ، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده ، وبهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاماً سعيداً على قصره : كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطيب يدعو له . ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم إليه سراة القوم وحماة الجند إلا بني كنانة ، إذ كان شيخهم كنانة بن كنانة قد انضم بقومه إلى يوسف وسار إليه ، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبنائه أو حرمه بضر ، ثم سار إلى إشبيلية حيث جند حمص .

« فخرج إليه خيارهم من اليمن شاميهيا وبلديها . وبهذا قوى جمع عبد الرحمن بمن انضم إليه من هذه الأجناد الثلاثة ، وزاد حماسه وحاس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فإذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن في مواليه من غير لواء ، فقال : سبحان الله ، ما أشد خلاف أمرنا ! نحن بالولية وصاحبنا بلا لواء ! فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبي بقناة وعمامة ، والقناة والعمامة لرجل من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ - ٢٥ .

حضر موت لا أسميه ، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه ، فعقد له بقرية قلنبيرة من إقليم طشانة من كورة إشبينية » .

فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر لجنود المسلمين في الأندلس حتى إمارة عبد الرحمن الأوسط ، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلى ، وألقى به عبد الرحمن بن غانم قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشام بذلك جمهور القائد وبحث عن اللواء الخلق فلم يجده ، واختفى من ذلك التاريخ بإحدى نواحي ماردة^(١).

٢١٧- موقعة وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمال قرطبة وانحدرا بمن معها إلى المصارة ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطئ الغربي للوادي الكبير ، وكان الوقت شتاء والوادي الكبير فياض بالماء ، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما إلى الآخر ، ولبثا على ذلك حيناً ، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتبس غرة من يوسف ويمضى بعسكره إلى قبالة قرطبة ثم يعبر إليها فيدخلها ، فأوقد نار معسكره ليليل ، ثم ترك النار موقدة ومضى بعسكره ، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين إلى قرطبة ، فكانا مع جيش عبد الرحمن في سباق ، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة ، وكانت كفة يوسف أرجح ، لأنه كان مقيماً مع قومه في ناحية زرع وخير ، في حين كان مقام عبد الرحمن في غابات لا مزارع فيها ، فأقام جنده في محل لا يقتاتون إلا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم ، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم قرطبة ليقيموا أنفسهم بما فيها من الخير ، ولكنهم لم يستطيعوا^(٢).

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة ١٣٨ (١٣ مايو ٧٥٦) فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذي وقعت في غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموى آخر هو مروان بن الحكم على فهري آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهري يوم الجمعة التالي ، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل^(٣).

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٤.

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٨٦ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ - ٢٧ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٤ مايو ٧٥٦ م) صَفَّ عبد الرحمن جيوشه في ترتيب وإحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا في العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفاً على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمساً لقضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغباً في إدراك ثأره من القيسيين وشيخيهما الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر في حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالي ، فلا يرم أمراً بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره في الطريق الذي يريده في كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمينين فسألهم في شيء من الذكاء : « إنا لم نجئ للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأى لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجَلَد وحب للمكافحة فأعلموني ، وإن كان فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلموني » (١) .

قال هذا الكلام وهو يعلم أثره في نفوسهم ، فلم يكذب يفرغ منه حتى أصفقوا على القتال جميعاً وزاد حماسهم ، فمضى يعين القواد : فأقام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي على أهل الشام ، وأقام على رجالة بني أمية وجماعة البربر عاصم العريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسُمِّي العريان ، وجعل على خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي ، وجعل على خيل البربر إبراهيم بن شجرة الأودي وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشه كله لأبي عثمان عبيد الله ابن عثمان ، ووقف هو وسط خيل بني أمية على فرس أشقر ممسكاً بقوسه ، وعلى هذا النظام عبر الوادي الكبير وأفضى إلى الضفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل في الصلح ما يزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة إلا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا عن القتال مندوحة .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله بن علي ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة ، وجوشن بن الصميل ، وعبد الله بن يوسف الفهري ، وجعل على خيل غلمانه وصنائعه من البربر غلامه خالداً سَوْدِي .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ .

ابن القوطية ، ص ٢٨ .

وأخذت جماعات من مسلمي قرطبة تنضم إلى عبد الرحمن قبيل المعركة ، لأن عدداً عظيماً من موالى خلفاء بنى أمية وعمالهم كانوا قد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عدداً وإن كان جيش خصمه أكثر انسجاماً ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفراً من أنصاره اليمينيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به إذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم في ذلك صراحة ، فلم يكن منه إلا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ، محتجاً بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو إنما يريد مركباً ثابتاً ليستطيع أن يرمى بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفس اليمين ، وهذا يدلنا على أن اليمينيين كانوا يخشون القيسية بعد ما لقوا من الهزائم على أيدي رجالها ، ولولم يكن فيهم هذا الفتى عبد الرحمن لدارت الدائرة عليهم ، بل لما نهضوا للقتال أصلاً^(١) .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف والصميل ، فلم يمض إلا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك وولياً الفرار بمن معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن علي القرشي ، فلم يزل عبد الرحمن ابن نعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون في الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن علي ونفراً من كبار القيسية ، فانفرط عقد من بقى وولوا مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الحاسم الذي كُتِب فيه للأندلس بل للغرب الإسلامي كله تاريخ جديد ، وسار عبد الرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله أكلوا من نفس الطعام الذي كان يوسف قد أعدّه لنفسه ولأصحابه إذا فرغوا من المعركة^(٢) .

فلما انتصرت اليمينية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه في تاريخهم: ملكهم الجشع في المغنم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أن جماعة منهم غرّهم هذا النصر فحسبوا أنهم يحسنون صنعا إذا انقلبوا على عبد الرحمن وموالى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ - ٩٠ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

فتح الأندلس ، ص ٥٥ - ٥٦ .

بنى أمية لكى يصبح النصر خالصاً لليمن ، لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من مضر أيضاً ، وقد دعا إلى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاة ، فأبى قضاة ، واختلف الحَيَّان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ، وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر إذ أنهاه إليه جذامى يسمى ثعلبة بن عبيد فاحترس لنفسه وَصَّم مواليه ، واحترس من أبى الصباح الداعى إلى هذا الأمر الخطير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن نُعيم ، وهذا أول منصب رسمى ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة (١) .

وتسمرت اليمنية بما عُرف عنها من الجشع فى الغنائم والإسراف فى ذلك ، وأسرع رجلان من طيء فانتهاها دار الصميل بن حاتم بشقنذة ، والرجل ينظر إليهما من قمة تل مجاور كان قد هرب إليه على طريق جيان مشرف على قرية شُبَلَّار ، فملا نفسه الألم وتمثَّل قائلاً :

ألا إن مالى عند طيءٍ وديعة ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الدوائعُ

وكان فيما انتهاه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا على عظم الثروة التى كان هذا الصميل يحتجها ويختص بها نفسه . ولم يستطع عبد الرحمن أن يكف اليمنيين عن النهب إلا فى مشقة ، وقد أبدى من النبل كرمًا عظيمًا ، إذ تعفف عن حريم يوسف وضم زوجته وابنته إلى أهله ، وأهدت إليه زوج يوسف الجارية «حلل» التى ستكون أم ولده وولى عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهرى على عمله ، وكان فهيرياً ، وسيدرك عقبه فى ظلال الدولة الأموية نباهة وذكرًا ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضى يوسف على عمله .

ولم يرض اليمنيون من عبد الرحمن هذا التعفف أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا إلا أنه سيكون دائماً طوع بنانهم فيُصرِّفون الأمر كما يشاءون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه (٢) .

ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر قرطبة
٢١٨ - قيام
الدولة الأموية
الأندلسية
لأول مرة ، فوعدهم بالعدل والإحسان ، ونستطيع أن نقول إن الدولة

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

الأموية الأندلسية قد قامت فعلاً من هذا اليوم ، وبدأ في تاريخ الأندلس عصر جديد (١) .
وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦ م.

٢١٩ - مصير
يوسف الفهرى على غير طائل : ذهب يوسف إلى طليطلة ليجمع نقراً من أنصاره ، وذهب والصميل بن حاتم الصميل إلى جيان ليستنفر من فيها من معدّ ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطردا الحصين بن الدّجن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا إلى البيرة ففر عاملها جابر بن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكذبغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهرى بنفر من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ، فعاد عبد الرحمن إليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلاً يثق فيه فعهد في ذلك إلى عامر بن علي جد بني فهر الرصافين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصميه .

ولم يكذب عبد الرحمن يصل بمن معه من الجند إلى البيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حرباً ، فعرضوا الصلح على أن يدع لهما عبد الرحمن ما كان لهما من الأموال والأموال ، وأجابهما عبد الرحمن إلى ذلك على أن يستودعه يوسف القهرى ابنه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود محمد ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى ، فكان من غرائب المقادير أن عبد الرحمن رد إلى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الإشباني في نظير أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو النسي ضرب وجه خالد وأمر بتكيله يوم تحداه خالد أن يكتب رداً لخطابه على ما رويناه (٢) .

وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفي ركابه يوسف والصميل ، فمن لطيف ما يحكى أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل ، ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية في أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « الله بلاده . لقد صحنى من البيرة إلى قرطبة ما مست ركبته وكتبى ولا تقدم رأس يغله رأس بغلى ، ولا استفهمنى في حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد ذلك : « ولا يذكر - أى عبد الرحمن - مثل ذلك عن يوسف... » (٣) ، وهى ملاحظة لها معناها ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

واستقر الرجلان على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانها بحقوق لهم عندهما من أيام ولايتهما ، فأحاطهم عبد الرحمن إلى القاضى يحيى بن يزيد التجيبى ، وكان الناس يحسبون أن القاضى يتتهز هذه الفرصة ليشفى نفسه من هذين الرجلين اللذين ألحقا بقوم اليمنيين شر الأذى ، ولكن القاضى امتلك نفسه ، فلم يقض فى أمرهما إلا بالحق ، وظل الرجلان على ما أنزلهما عبد الرحمن عليه من الإكرام ^(١) .

بيد أن يوسف لم يطمئن إلى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته ، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جانبه فلم يوفق ، فمضى إلى جماعات من البلديين فى لقنت وماردة وطليلة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام إليه ، فثاروا بعبد الرحمن فى هذه النواحي ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصميل بالتدبير عليه ، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن ألقى به فى السجن ، وسجن معه ابنى يوسف وكانا عنده رهيبتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقنت إلى إشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين - بل والشاميين - فى هذه الناحية انضموا إليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا إلى ذلك الحين أميل إلى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربى حاصر بهم عامل إشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مروانياً يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل فى صحبة نفر من الأمويين نذكر منهم جُزَى بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبد الرحمن فى الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك إلا نفر قليل من القيسيين .

وبدا ليوسف أن يعجل بالسير إلى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير إليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، إذ أن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعاً عظيماً من أنصاره ويسير بهم نحو إشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل مورور لعبد الرحمن - وهو عبد الملك بن عبد الله - من كان عنده من القيسية ثم انضمت إليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتحوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو إشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهمزم يوسف هزيمة قاصمة .

(١) نفس المصدر، ص ٩٤ - ٩٥ .

ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ إلى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى فارسى يسمى سابقاً ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصارى ، وهو بقرية من قرى طليطلة - « ف قيل له : هذا يوسف منهزماً ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلاً ناجساً للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسى مولى لبنى تميم ومن يجمله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسر قسطة ، ووصيف واحد فقط وقد ماتوا من شدة الركض ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهرى ، وقتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجل هذا بقتل أبى زيد بن يوسف وأبقى على أخيه أبى الأسود ليصغر سنه ، ولما أقبل الليل بعث إلى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة (١) .

* * *

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من عصر الأندلس الإسلامية وهو عصر الولاة .
 اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلى » فى تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معها ثارات العصبية وأوضاع القبلية ، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامى بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو استمر لكان فى ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامى جملة ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها إلى ما سيصير إليه تاريخ الإسلام فى صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين ، ثم يكسحهم أعداؤهم وينتهى أمر الإسلام فى الجزيرة .

* * *

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ .

المراجع

مَراجِعُ الكَتَّاب

أ - مَراجِعُ عربيَّة :

- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي : الحلة السراء ، طبعة دوزى .
 ابن الأثير الجزري : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠ هـ .
 - : الكامل في التاريخ ، طبعة نورنبرج ، لايدن ١٨٦٧ - ١٨٧٦ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .
 ابن حزم القرطبي : جمهرة أنساب العرب ، طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .
 ابن حوقل ، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلی : صورة الأرض ، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ .
 ابن حيان ، حيان بن خلف : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، طبعة أنتونيا ، باريس ١٩٣٧ .
 ابن الخطيب ، لسان الدين :
 - الإحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .
 - : أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ؛ ثم أعاد طبعه في بيروت ونشره بعنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » سنة ١٩٥٦ .
 ابن خلدون ، عبد الرحمن :
 - المقدمة ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ . وترجمة فرنسية بقلم البارون دي سلان ، باريس ١٨٦٨ .

- : كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤ / ١٨٦٧ (٧ أجزاء) .

- : أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المبتدا والخبر » وقد نشره دى سلان وطبعه في الجزائر ١٢٦٧ / ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوف في باريس سنتي ١٩٣٨ - ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة شارل توري ، مطبعة جامعة بيل ١٩٢٢ .

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزي الجزء ١ و ٢ ، لايدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ ؛ والجزء الثالث نشره ليفي بروفنسال في باريس سنة ١٩٣٠ . ثم أعاد بروفنسال وكولان نشر الجزءين الأول والثاني في لايدن سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٠ - ١٨٩٢ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، أعده للنشر جايانجوس ونشره خليان ريبيرا ١٩٢٦ .

أبو زكريا : تاريخ أبي زكريا ، ترجمه وعلّق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، صدر منه ١١ جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨ .

أبو يوسف :

- : كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ .

مؤلف مجهول :

- أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلّق عليه لافويتى إى ألكنترا، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى ، الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزى ودى خويه فى لايدن تحت عنوان Description de l'Afrique et de l'Espagne .

الإصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه لايدن ١٨٦٦ - ١٨٧٠ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ .

البغدادى ، عبد القادر بن طاهر : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩١٠ .

البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، نشرها البارون دى سلان فى الجزائر ١٩١٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها فى الجزائر ١٩١٣ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ .

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة (طبعة ١٩٥٧) ، راجعها وعلّق عليها حسين مؤنس) .

الحميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليفى بروفنسال فى لايدن ١٩٣٦ .

الحشنى ، محمد بن الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم ، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤ .

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيوان (٤ أجزاء) تونس ١٣٢٠ / ١٩٠٢ .

- الدينورى ، أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠ / ١٩١١ .
- السلوى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ .
- السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٥١ .
- الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، طبعة و. كيورتون ، لندن ١٨٤٢ ، والقاهرة ١٣١٧ .
- الضبى : بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ - ١٨٨٥ .
- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨١ وما بعدها ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .
- العذرى ، أحمد بن عمر بن أنس : نظام المرجان فى المسالك والممالك والبلدان (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) .
- عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام فى الأندلس - العصر الأول ، القاهرة ١٩٤٣ .
- الغسانى ، محمد بن عبد الوهاب : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، طبعة الفريد البستانى ، العرائش ١٩٤٠ .
- قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ .
- القرشى ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٤٧ .
- الكتانى ، عبد الحى : فهرس الفهارس ، فاس ١٣٤٦ .
- المالكى ، أبو بكر : رياض النفوس (الجزء الأول) نشر وتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .
- المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ ؛ وطبعة محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٨ .

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة بارييه دى مينار وبافيه دى كورتى ، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٦ .

المقدسى ، شمس الدين : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٩٠٦ .

المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، لايدن ١٨٥٥ - ٦١ ؛ وطبعة الشيخ عى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

- : تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا ، ترجمة إنجليزية جزئية لنفح الطيب مع تعليقات بقلم ب. دجايانجوس ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على :

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستفلد تحت عنوان Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische: Staemme Goettingen, 1847 .

- : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨ .

مؤنس ، حسين : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

النهايى ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة جسيبار ريميرو (الجزء ٢٢ و ٢٣ الخاصان بالمغرب والأندلس) ، مدريد ١٩١٧ .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٩٢ .

ب - مراجع غير عربية:

Aguado Bleye, Pedro. Manual de Historia de Espana, 2 vols. Madrid, 1947 - 1950 .

Asin Palacios, Miguel. Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana. Madrid, 1914.

Baer, Fritz. Die Juden in christlichen Spanien, VI. Teil, Urkunden und Regesten. Berlin, 1928.

Ballesteros, Antonio y Beretta. Historia de Espana y su influencia en la historia universal. Madrid, 1943.

Ballesteros, Rafael. Histoire d'Espagne des origines à nos jours. Paris, 1938.

Barrau - Dihigo, L. Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien, dans Revue Hispanique LII, 1921.

Becker, C.H. Beitrage zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, 2 Haefte.

- Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) .

- Papyri Schott Reinhardt, I. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes, (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. Etudes sur l'historiographie espagnole. Bordeaux, 1904.

Codera, F. Estudios criticos de historia árabe espanola. Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. Historia de los Arabes en Espana. Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. Atlas Histórico de Espana.

Cronica Mozárabe de 754. (Atribueda a Isidoro Pacence por el P. Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de Continuatio Hispana en 1885) .

De Lagoy, M. Description de quelques médailles inédites de Masilia. Aix, 1834.

Dozy, Reinhardt Peter - Anne. Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes, dans Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeny - âge. Lyde, 1881.

- Histoire des Musulmans d'Espagne (2 e. édition revisée par **Lévi - Provençal**) Leyde, 1932.

- Script. Ar. Loci. de Abbab. Lyde, 1846 - 1863.

Dubler, César E. Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al - Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid - Granada, 1956).

- Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festschrift J. Jud. Zurich, 1943.

Elias Teres. Linajes Arabes en Al-Andalus, segun la "Jamhara" **de Ibn Hasm**, Al-Andalus, Vol. XXII fasc. 1-2.

Fernández y Gonzalez, Francisco. Estado social y político de los Mudejares de Castilla. Madrid, 1866.

Floresta de leyendas heroicas españolas. Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madrid, 1925.

Fournel, Henri. Les Berbères, étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. Le passé de l'Afrique du Nord. Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, 2 Vols. London, 1840 - 1843.

- Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis; Memorias de la Real Academia de La Historia. Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. Caída y Ruina del Imperio Visigótico español. Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro. Historia de Portugal. Lisboa, 1863.

Huici Miranda, Ambrosio. Las Crónicas Latinas de la Reconquista. Valencia, 1913. 2 Vols :

Vol. I, Crónicas burgenses, complutenses, compostulanas, del ceratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian, de Sampiro, de Pelayo y de Cardena, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos,

Vol. II, Crónica del Silense y Crónica de Alfonso el Emperador.

Irving, Washington. Legends of the Conquest of Spain.

Isidoro de las Cagigas. Los Mozárabes. Madrid, 1947 - 1949.

- Los Mudejares, 2 Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). Divi Isidori ... Historia de Regibus ... Suevorum. Esp. Sagr. III, IV.

Isidoro Pacence. Vease Crónica.

وقد رجعنا إلى القطعة التي نشرها لافويتى ألكانترا ذيلًا على ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة.

Jacob. Sources of Spanish - Jewish History. New - York, 1894.

Lafuente y Aleántara. Ajbar Machmua. Madrid, 1867.

- Cronologia de los gobernadores de Espana. Apendice III de Ajbar Machmua.

Lafuente y Zamalloa, Modesto. Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias. 30 Vols. Madrid, 1850 - 1867.

Lammens, H. Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiya Ier. Beyrouth, 1908.

- Le Califat de Yazid Ier. Beyrouth, 1921.

- Etudes sur le siècle des Umayyades. Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. Nouvelle histoire d'Espagne. Paris, 1938.

Lembke. Geschichte von Spanien. Gotha, 1833.

Lévi - Provençal, E. Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris, 1951.

- L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle. Paris, 1932.

- La Péninsule Ibérique. Leyde, 1938.

- Islam d'occident (Etudes d'histoire médiévale). Paris, 1948.

Llanos, Estansilao Rendueles. Historia de la villa de Gijon desde tiempos mas remotos hasta nuestros dias. Gijon, 1867.

Lot, Ferdinand. La fin du monde antique et le début du moyenâge. Paris, 1927.

Lucas de Tuy. Cronicon Mundi, Vol. IV de Hisp. ILLUstrada dirigida por Mariane. pp. I - 116.

Masdeu, J.F. Historia Critica de Espana. Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramón. Historia de Espana. Madrid, 1940.

- La Espana del Cid. Madrid, 1929.

- Origenes del Espagnol. Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. Historia de los Heterodoxos Espanoles. Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. Historia Verdadera del Rey Rodrigo.

Mommsen, Theodora. Auctorum Antiquissimorum, tomus XI, Cronica Minora (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. Histoire des peuples et des Etats pérénéens (3e. éd. 1873).

Monés, Hussain. Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham A. The Jewsin Spain (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. Rabbi Saloma ibn Abraham ibn Aderth. Breslau, 1863.

Primera Cronica General de Espana (ed. Menéndez Pidal). Madrid, 1906.

Ribera, Julian y Tarrago. Disertaciones y Opusculos. Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). Rerum in Hispania gestarum chronicon en Hisp. Illustr. II. pp. 25 - 194.

Saavedra, Eduardo. Estudio sobre la invasión de los Arabes en Espana. Madrid, 1882.

- Pelayo, Conferencia histórica. Madrid, 1906.

Saint - Saud, Le Conte. Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages. Paris, 1923.

Sala, Julio Samoja Garcia. Gijón en la historia general de Asturias.

Sánchez - Albornoz. Fuentes de la historia hispano - musulmans del siglo VIII. Mendoza, 1942.

Schacht, Joseph. The Origins of Muhammedan Jurisprudence. Oxford, 1953.

Schevenkow, Rudolf. Kritische Betrachtungen ueber die lateingeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.

Simonet, Francisco Javier. Historia de los Mozárabes de Espana. Madrid, 1897 - 1903.

Thomas, W. Arnold. The Preaching of Islam. London, 1935.

Viardot, Louis. Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne. Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

Weil, G. Geschichte der Islamischen Voelker. Stuttgart, 1866.

Wellhausen, Julius. Das Arabische Reich und Sein Sturtz.

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان « تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي » ونشر في القاهرة سنة ١٩٥٨ .

Wuestenfeld. Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen. Goettingen, 1875.

Yver, George. Euric, roi des Visigoths, dans Etudes d'histoire du moyen - âge dédiées à Gabrial Monod. Paris, 1896.



الفهارس العلمية

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن والبلدان والجبال
- فهرس التواريخ الميلادية
- فهرس التواريخ الهجرية
- فهرس القبائل والطوائف والمذاهب
- فهرس الكتب والمدونات التي ذكرت في متن الكتاب

- ٤٠٨
- أريانس: ٣٩٩
- أريدست: ٢٣
- أرمسطو: ٣٧٤
- أوطافازدس: ٢٣
- أوطباس بن غيطشة: ٢٣، ٧٩، ٩٢، ١٩١،
٢٩٣، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٢، ٣٦٦،
٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٦٤، ٤٦٧،
٤٨٤، ٤٩٢
- أرتبان: ٢٣
- أرمستندا: ٢٨٠
- أريستا: ٤٠٣
- اسيرا نيدوس: ٣٨٣، ٣٨٥
- إسحاق بن عيسى بن مزاحم: ٣٣٩، ٣٩٨
- أسد بن عبد الله القسرى: ١٣٠
- اسكندر (أنبا): ٣٧١
- أسلم بن عبد العزيز بن هاشم: ٣٢٦
- إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد: ٣٢٦
- إسماعيل بن خلف (ابن الحيازة): ٣٢٦
- إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب: ١٢٢، ١٢٩،
١٤١، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩
- إسماعيل بن القاسم بن عبدون: ٣٢٦
- الإصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي
ت ٣٤٦هـ): ٣٣٩، ٤٠٥، ٤٢٣، ٤٣٨، ٤٤٠،
٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١
- أم الأصبح (ابنة معاوية بن هشام): ٥٠٥، ٥١٢
- أطاوولف: ١٣، ١٤، ١٥
- الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي:
١٦٠، ١٦٢، ١٦٣
- أفيوس الأول: ٣٧٨
- أفيوس الثاني: ٣٧٨
- أفينون: ١٣٨
- أكويلا: ٤٠٠
- الأريك: ١٣
- الأريك الثاني: ٢٠
- ألبر (راهب): ٣٨٤
- البرو = ألفارو
- ألفارو: ٩٢
- ألفريد فون كريم (بارون): ٤١٩
- ألفونسو الأول = أذفونش
- ألفونسو السابع: ٣٤٢
- ألفونسو السادس: ٣٩٤
- ألفونسو العاشر (المعروف بالعالم): ٢٦٢، ٢٧١،
٢٧٣، ٤٤١، ٤٤٣
- ألفونسو الكبير: ٩١
- ألقان (الوامان، علقمان، علقمة البلخي): ٢٦٥
- ألتند (بن غيطشة): ٢٣، ٧٩، ٩٢، ٣٣٩، ٣٩٨،
٤٠٧
- إلياس بن حبيب: ١٦٠، ١٦١، ٥١٤، ٥١٥
- اليانندوس: ٣٨٣، ٣٨٥
- اليسع بن عيسى بن يزيد الأسود: ١٦٤
- أمة الرحمن (بنت معاوية بن هشام): ٥١٢
- أمية بن عبد الملك بن قطن: ١٨٦، ١٩٠، ٢٣٨،
٢٩١، ٣١٨، ٣٢٢
- أمية بن يزيد: ٣٢٣
- أناباديوس: ٢١٣
- أنسموندس: ٢٣٩
- أنيجو خيمينيث (أريستا): ٤٠٣
- أودو (دوق أقطانية): ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٢،
٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢

- اوريانو: ٩٢، ٤٠٠
- اوروزيوس (باولوس): ٣١، ٣٥
- اوريجانوس: ٣٧٨
- اوغطين: ٣٤، ٣٥
- الازاهي: ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٣
- ايرفيج: ٣٧٧، ٤١١
- ايزودور: ٣٥، ٦٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٤
٣٧٣، ٣٩٣، ٤١١
- ايزودور الاشيلي: ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٧٢، ٣٧٥
- ايزودور الباجي: ٦٢، ٨٧، ١٦٩، ١٧٢، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٨، ٢٣٥، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٠
- ايزودور الثيايدي: ٣٢
- ايزودور دي لاس كاخيچاس: ٣٥٢
- ايزودور القرمي: ٣٧٤
- ايوب بن حبيب اللخمي: ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ٢٠٨، ٣٠٧، ٣٩٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٦
(ب)
- الباجي: ٣٦٣
- باليستروس: ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٨
- باولس: ٢٠
- باولس اوروزيوس (پرويش): ٣١، ٣٥، ٣٦، ٤٤١
- باولوس دياكونوس: ٢٢٨
- بجنت اوزينت (قليس): ٤٠٥
- بجنت (فستو - فستنت): ١٩٨
- بيدر (مولي): ٢٠٢، ٣٢٣، ٥١٢، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢١
- برمودو: ٢٦٢
- بروفانس: ٢٣٧

- بيبين الثاني بن شارل مارتل : ٢٤٩، ٢٣٨

- بيكون : ٤٣٨

(ت)

- تايهلان : ٢١

- تدمير (بن غبدوش) : ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨٠، ٤٠١، ٤٠٤

- تمام بن علقمة (الثقفى ، الوزير) : ٣٢٣، ٣٣٩، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٤

- توماس (قديس) : ٤٠١

- تيوتونيوس (قديس) : ٣٤٢

- تيودوس أناثا جيلدو : ٤٠٢

- تيودوسيوس : ١٣، ٣٧٣

- تيود فريدو : ٢٢، ٢٥، ٣٨٢

(ث)

- ثابت الصنهاجى : ١٦١، ٥١٤

- ثعلبة بن ثوابة الجذامى : ١٥٠، ٣٢٢

- ثعلبة بن سلمة (العاملى) : ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٣، ٤٧٤، ٤٧٨

- ثعلبة بن عبيد الجذامى : ٣٣٩، ٣٩٨، ٥٣٠

- ثوابة بن سلامة (الجذامى ، العاملى) : ١٧٧، ١٩٤، ١٩٥، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٨٣، ٢٩٥، ٤٧٨، ٥١٣

- أبو ثور بن قسى : ٣٢٥

- ثيودوريك : ١٨

(ج)

- جابر (مولى) : ١٢٣، ٤٧٥

- جابر بن العلاء بن شهاب : ٥٢٤، ٥٣١

- جاوديوسا : ٢٦٢، ٢٧٩

- جايانجوس : ٩٧

- جبريل : ٢١٣

- جداد (جدار) بن عمرو المذحجى : ٥٢٢

- جدار بن عمر القيسى (جد بنى عقيل) : ٥٢٦

- جريجوريوس : ٣٨٣، ٣٩٤ (السابع)

- جزى بن عبد العزيز بن مروان : ٥٣٢

- جستنيان : ١٨

- أبو جعفر المنصور : ١٦٠، ١٦٣، ٢٠١، ٤١٥

- جميل بن كريب أبو كريب : ١٦٢

- جهور : ٥٢٧

- ابن جهور : ٣٢٩

- جوتيه : ٣٩، ٤٧، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨

- جوشن بن الصميل : ٥٢٨، ٥٢٩

- أبو جوشن = الصميل بن حاتم

- جولد تسيهر : ١٨٤

- جيون (مؤرخ) : ٣٧٤

- جيسرك : ١٤

(ح)

- الحارث (من البربر) : ٥١٤

- الحارث الهوارى : ١٦١

- الحباب (أبو الحجاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى : ٢٠١، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٣

- ابن الحجاب = عبيد الله بن الحجاب

- الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمى : ٣٦٠

- حبيب بن عبد الرحمن : ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ٥١٥

- حبيب بن عبد الملك القرشى : ٥٢٨

- حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى : ١٠٤، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٤٧، ١٤٨

١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ٣٣٨

- حبيب بن عمير : ٣٣٩، ٣٩٨

- حبيب بن ميمون : ١٥١، ١٥٣

- العجاج: ١٤٢، ١٣١
 - حذيفة بن الأحوص القيسي: ١٣٨، ٤٧٧
 - الحرث بن أسد: ٢٩٢
 - حرث بن أبي سعد: ٣٢٦
 - الحر بن (عبد الله، عبد الرحمن) الثقفي: ١١٨، ١٦١، ١٤٣، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٩٦، ٣٠٧، ٤٧١، ٤٧٧، ٤٩٢
 - الحروب مالك: ٢٠٨
 - الحر بن يوسف (الثقفي): ٢٤٤، ٢٧٠، ٢٩٠، ٣٩٩، ٤٠٠
 - حرملة (صاحب الشافعي): ٤٩٨
 - ابن حزم (أبو محمد علي بن حزم): ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٧
 - أبو الحزم بن جمهور: ٣٢٩
 - الحسام بن ضرار الكلبى أبو الخطار: ١٧٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٣، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٣٦، ٤٥١، ٤٦٧، ٤٧٤، ٤٧٨، ٤٨٤، ٥٠٤، ٥٢٥
 - حسان (بن أبي عبدة، أبو عبدة): ٣٢٩، ٥٢٢
 - حسان بن النعمان: ٢٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ١٢٤، ١٤١، ١٤٢
 - حسن بن صالح: ٤٨٨
 - حسن بن عبيد الله بن محمد: ٣٢٦
 - ابن الحسن: ٢٩٢
 - الحصين بن الدجن العقيلي: ١٨٨، ٢٠٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٣٦
 - حفص: ٩٢
 - حفص بن ألب: ٤٠٠

- ابن رسته: ٤٢٣، ٤٥١
- رفيناً (قديسة): ٣٩٨
- رمله (ابن القوطية): ٢٣
- رودريجو (رودريكو، رودريك، الطليطلي) =
لذريق
- رولان: ٢٢٣
- ريبيرا = خيليان
- ريكاريدو: ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٤٠٨،
٤١١
- رينو: ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٤٧، ٢٤٦، ٢٣٦

(ز)

- زرة بن أبي مدرك: ٤٩، ٦٧
- أبو زرة = طريف بن ملوك
- زقطرتق: ١٧٣
- زكريا بن يحيى بن عايد بن كيسان: ٣٢٧
- زهير بن قيس البلوي: ٤٤، ٤٥
- زياد (أبو طارق بن زياد): ٦٦
- زياد بن عبد الرحمن (شبطون): ٣٦٠، ٣٦١،
٥٠٦، ٣٦٢
- زياد بن عذرة البلوي: ١١٧، ١٢٠
- زياد بن نابغة التميمي: ١١٧، ١١٨، ١٩٠،
٣٩٧، ٣٣٨
- ابن زيان: ٢٧٣
- زيد بن حصن: ١٣٥
- أبو زيد (بن يوسف الفهري) = عبد الرحمن بن
يوسف الفهري
- زينون: ١٥

(س)

- سابق (مولى فارسي ليوسف الفهري): ٥٣٣
- سارة بنت ألتد (القوطية): ٩٢، ٣٣٩، ٣٦٣،

- أبو الخطاب بن صفوان الكلبي: ١٣٠
- أبو الخطار = الحسام بن ضرار الكلبي
- ابن الخطيب: ٣١٤، ٤٤١، ٤٦٦، ٤٨٤
- ابن خلدون: ١٠٠، ١٤٧، ١٦٧، ١٦٨، ٢٢٧،
٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨٥، ٣٠٧، ٤١٩،
٤٦٥
- خيليان ريبيرا: ٣٣٩، ٤٩٦، ٤٩٩
- الحوآرزمي: ٤٢٠
- خويلد بن عقيل: ٤٥٩

(د)

- داتوس: ٢١٧
- دادون: ٢١٧
- دانس بن عوسجة: ٣٠٨
- داهية بنت مائة بن تيفان: ٤٦
- داود بن جعفر: ٥٠٦
- دقلديانوس: ٤٢٤، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٣٦،
٤٤٧
- دمنقه بن بيطره: ٣٤٣
- دوزي: ٢١، ٣١، ٥٥، ٦٢، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٣،
١٨٤، ١٩٣، ٢١٣، ٢٧١، ٣٧٤، ٣٧٦، ٤٦٥،
٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩
- دونات: ١٦٥
- دى خويه: ٤١٩
- دينار أبو المهاجر: ٤١، ٤٤

(ر)

- الرازي = أحمد بن محمد بن موسى
- رانهارت بتر آن دوزي = دوزي
- الربضي = الحكم بن هشام
- رخشدش: ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٥
- رخشتو: ٣٧٩
- ردريجو خيمينيث (أسقف): ٢١، ٦٩، ٣٩٣

ت (٦٨٥هـ): ٢٧٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤، ٤٤١، ٤٩٦
 - أبو سعيد بن أوطاس: ٩٢
 - السفاخ (عبد الله بن محمد ت ١٣٦هـ): ٥١١
 - سفيان الثوري: ٥٠٤
 - سفيان بن عيينة: ٥٠٤
 - سفيان المرسلي: ٣٢
 - أبو سلامة بن قسي: ٣٢٥
 - أبو سلمة الخلال: ٥١١
 - سليمان بن أسعد: ٣٦٠
 - سليمان (بن داود عليهما السلام): ٤١٠
 - سليمان بن شهاب: ٥٢٣، ٢٠٢
 - سليمان بن عبد الرحمن بن يزيد: ٣٢٧
 - سليمان بن عبد الملك: ٨٢، ٨٣، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٩، ٤٩١، ٤٧١، ٤٠١
 - سليم بن منصور: ٢٠٢
 - السمح بن مالك الخولاني: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٩، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٣١٧، ٣٤٠، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٧٢، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩٣
 - سمكون وسول بن ملان بن أبي ازول: ١٦٤
 - سندود: ٧٥، ٣٨٢
 - سنديلو: ٣٩٩، ٤٠٠
 - سهل بن إبراهيم بن نوح: ٣٢٧
 - سيزار دويلر: ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢
 - سيبرتو (شبرت): ٢٣
 - سيمونيت: ٣١٧، ٣٧١، ٣٨٥، ٣٩١، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٠٤

٤٠٧، ٣٩٨
 - سافندرا: ٢٣، ٥٦، ٦٢، ٦٥، ٨٧، ٨٨، ١٠١، ٢٧٠
 - سالم (مولى أخت عبد الرحمن بن معاوية الداخل): ٥١٢، ٥١٥
 - ساموذا: ٢٨٠
 - سان أنطون: ٤٠٨
 - سان بلاس: ٤٠٨
 - سان توركواتوس: ٣٩٣
 - سان خوان دي لاينيا: ٤٠٣
 - سان خيل: ٤٠٨
 - سان فيست: ٤٠٨
 - سان ماركوس: ٤٠٨
 - سانتا ماريا ديلوس هويرتوس: ٤٠٨
 - سيثيليا (خبر): ٤٠٧
 - سياستان السلمتي: ٦٣، ٦٥، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٩
 - سيري: ٢٣
 - سيرة: ٢٣
 - سيطلة: ٤١
 - ستليخو: ١٣
 - سخون: ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٦٣
 - سعد بن جواس: ١٩٢
 - سعدان بن إبراهيم: ٣٢٦
 - سعيد بن بجرة القساني: ١٥٢
 - سعيد بن حيد بن عبد الرحمن: ٣٢٧
 - سعيد بن العاص: ٣٢٧
 - سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبي: ٣٢٧
 - سعيد بن أبي هند: ٥٠٦
 - ابن سعيد (علي بن موسى أبو الحسن المغربي)

٥٢٥، ٥٢٤، ٥٢٣، ٥٢٢، ٥٢١، ٥٢٠، ٥١٩
٥٣٣، ٥٣٢، ٥٣١، ٥٣٠، ٥٢٩، ٥٢٨، ٥٢٧

(ض)

- الضبي: ١٠٣، ٣٥٤
- الضحاك بن فيس: ٥٢٧
- ضرى بن مادغيس: ٣٠٨

(ط)

- طارق بن زياد: ٥١، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٣٣، ١٦٠، ١٧١، ٢٠٧، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٦٤، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣
- طاهر بن أبي هارون: ٣٣٠
- الطرطوشي: ٣٦٤، ٣٦٣
- ابن الطفيل: ٥٢٢
- طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق: ١٤٧
- طريف بن ملوك أبو زرعة: ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ١٣٣، ١٧١، ٣١٦، ٤٧١

(ع)

- عاصم بن جيل: ١٦٠، ١٦٢
- عاصم العريان: ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٢٩
- عاصم بن مسلم الحنفي: ٥٢٢
- أبو عاصم بن محمد الأحمر بن طريف: ٤٠٢
- أم عاصم = أجيلونا
- عامر بن عدى (بن أبي عدى): ٤٩١، ٤٩٥
- عامر بن علي (جد بني فهر): ٥٣١
- عامر بن عمرو القرشي: ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٣
- عامر بن هاشم: ٢٠١

(ش)

- شارل مارنل: ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٠
- ابن شاس: ٣٦٤
- الشافعي: ٤٩٨، ٥٠٥
- شاكر (مولى هشام): ٥٢١
- شانجه (شانجو): ٣٩٤، ٤٢٦
- شبوط بن عبد الله الطليطلي: ٥٠٦
- شلمان: ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١
- ششبرت: ١٩، ٢٣، ٧٠، ٧٢
- ششوتو: ٤١١
- شلد براند: ٢٣٤، ٢٣٧
- شمر بن نمير: ٣٢٧
- شندا سفتو: ١٩، ٢٥، ٢٦٣
- شيشرون: ٣٧٤
- شيمينوس (أسقف): ٣٤٣

(ص)

- صالح بن طريف بن شمعون: ١٤٧
- أبو الصباح بن فلان اليمصبي: ٣٢٣، ٤٩٣، ٥٢٦، ٥٣٠
- صبرون بن شبيب: ٣١٢
- صفوان (بن مالك، بن أبي مالك): ١٥٢، ١٥٣
- صقليان: ١٦٥
- الصميل بن حاتم بن شمر: ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣

- العباس بن باضعة الكلبي : ١٤٣
- عبد الأعلى بن جريج الإفريقي : ١٤٨، ١٤٥
- عبد الجبار : ٥١٤، ٨٩
- عبد الجبار الهواري : ١٦١
- ابن عبد الحكم : ٢٢١، ١٤١، ٨١، ٨٠
- عبد الرحمن الأموي : ٤٩٤
- عبد الرحمن الأوسط : ٤٦١، ٣٧٦، ٣٣٠، ٢٩٧
٥٢٧
- عبد الرحمن الثالث : ٤٢١
- عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة :
١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٥، ١٥٤، ١٥١
١٦٢، ١٦٧، ١٧٣، ١٨٥، ٢٩١، ٥١٣، ٥١٤
٥١٦، ٥١٥
- عبد الرحمن بن رستم : ١٦٣
- عبد الرحمن بن زياد الأحرم : ١٧٣
- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : ١٣٨، ١٤٠،
١٦٩، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠،
٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٣،
٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٧٣، ٣٢٨، ٤٠١، ٤٧٤،
٤٧٧، ٤٩٠، ٤٩١
- عبد الرحمن بن عبيد الله بن الحبحاب : ١٤٥
- عبد الرحمن بن عقبة الغفاري : ١٥١، ١٥٣
- عبد الرحمن بن علقمة اللخمي : ١٨٦، ١٨٨،
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٩١، ٣١٣، ٣٢٢
- عبد الرحمن بن عوسجة : ٣٠٨
- عبد الرحمن بن غانم : ٥٢٧
- عبد الرحمن بن كثير اللخمي : ٤٧٨
- عبد الرحمن بن محمد (أمير) : ٥٢٧
- عبد الرحمن بن معاوية (الأمير) : ٤٠٧
- عبد الرحمن بن معاوية الداخل : ٧، ٩٢، ١١٣،
١٢٥، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٤٠
- ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧،
٢٩٨، ٣٠٨، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣،
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٩،
٣٤١، ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٩٠، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٥٢،
٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٩، ٥٠٠، ٥٠٤،
٥٠٥، ٥١١، ٥١٢، ٥١٥، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢١،
٥٢٢، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١،
٥٣٢، ٥٣٣
- عبد الرحمن بن موسى الهواري : ٥٠٦
- عبد الرحمن الناصر : ٢٨٩، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣٢٩،
٣٥١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٧٠
- عبد الرحمن بن نعيم الكلبي : ٢٩٥، ٢٩٨، ٥٢٩،
٥٣٠
- عبد الرحمن بن يوسف أبو زيد الفهري : ٢٣٩،
٥٢٣، ٥٣١، ٥٣٣
- عبد العزيز الأهواني : ٤٤٢
- عبد العزيز بن مروان : ٤٨، ٤٩، ٨٢، ٣٢٧،
- عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٤٩، ٧٤، ٨٣،
٨٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥،
١٠٦، ١٠٧، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠،
١٢١، ٢٠٨، ٣٠٧، ٣٣٨، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٩٧،
٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٧١، ٤٧٢،
٤٧٦، ٤٩٠
- عبد الغافر : ٣٢٩
- عبد الغفار : ٣١٩
- عبد الله بن خالد : ٢٠٢، ٣٢٢، ٤٠٦، ٤٩٢،
٥١٦، ٥٢٠، ٥٢٢
- عبد الله بن الزبير بن العوام : ٤٢، ٤٦، ١١٥،
- عبد الله بن سعد بن أبي السرح : ٤١، ٤٢، ٧٣،
٣٥٥، ٤٨٩
- عبد الله بن سقرديد : ١٦١
- عبد الله بن علي (عم السفاح) : ٥١١

- ١٧٠، ٢٣٣، ٤٧٤ - عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٤٤، ٤٢٢
- عبد الله بن عمر الأنصاري : ٥٢٣
- عبد الله بن محمد أبو العباس : ٥١١، ٥١٢، ٥١٤
- عبد الله بن مسعود : ٣٦٤
- عبد الله بن موسى بن نصير : ٤٩، ١١٦، ١١٩
- ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
- عبد الله بن ميسرة الفهمي : ١٠٤
- عبد الله بن يوسف الفهري : ٥٢٨، ٥٢٩
- عبد الله (أمير أندلسي) : ١٧٩، ٢٩٢، ٢٩٧
- ٣٠٥، ٤٣٨
- أبو عبد الله القرى التلمساني : ٣٦٤
- عبد الملك بن حبيب : ٣٣٩
- عبد الملك بن أبي عامر المعافري : ٦٧، ٦٨
- عبد الملك بن عبد الله : ٥٣٢
- عبد الملك بن قطن بن نفيلة بن عبد الله الفهري :
١٥٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥،
١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣،
٢٣٨، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٠،
٢٩١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٢، ٤٠١، ٤٠٣،
٤٧٤، ٤٧٨، ٥١٣
- عبد الملك بن مروان : ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٩٥،
٩٨، ٣٢٦
- عبد الملك بن موسى بن نصير : ١٤٠
- عبد الملك بن وهب : ١٣٥
- ابن عبد المنعم الحميري : ٤٤١، ٤٤٥، ٤٤٦،
٤٦٠، ٤٦١
- عبد المؤمن بن علي : ٢٠
- عبد الواحد بن يزيد الهواري : ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨
- عبد الوارث (قائد جند إلياس) : ١٦١
- عبيد الله بن الحبحاب : ٤٧، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٤،
١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٩
- ١٧٠، ٢٣٣، ٤٧٤ - عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي : ١٣٨
- عبيد الله بن عثمان أبو عثمان : ٢٠٢، ٣٢٤، ٤٦٠،
٥١٦، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٥، ٥٢٦،
٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣١
- عبيد الله بن علي القرشي : ٢٠٢، ٥٢٥، ٥٢٦،
٥٢٨، ٥٢٩
- عبيد الله بن يزيد القرشي : ١١٨
- أبو عبيد البكري : ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٤١
- أبو عبيد بن سلام (صاحب كتاب الأموال) :
٣٥٢، ٣٥٦
- عبيدة بن عبد الرحمن السلمي : ١٣٠، ١٣٨،
١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٩، ٢٧٩
- عبيدة بن عبد الرحمن القيسي : ٢٢١، ٢٣٠
- أبو عبيدة (حسان) : ٣٢٢، ٤٠٦، ٥٢٢
- أبو عبيدة بن عقبة بن نافع : ٥١، ١٥٣، ١٥٤
- عثمان بن أبي عبدة القرشي : ١٠٣
- عثمان بن عفان : ٤١، ٣٢٦، ٣٣١
- عثمان بن عقبة بن نافع : ٥١
- عثمان بن محمد : ٤٩٧
- عثمان بن أبي نسعة الخثعمي : ١٣٨، ١٩٠، ٢٩٣،
٤٧٧
- أبو عثمان بن عبد الله (شيخ موالى بنى أمية) : ٣٢٢،
٤٠٦، ٤٧٥، ٤٩٢، ٤٩٥
- ابن عذارى (محمد المراكشي) : ٥١، ٥٩، ٦٣،
٦٨، ٨٩، ١١٧، ١٢٤، ١٣٢، ١٦٨، ٢٠٧،
٢٢٧، ٢٥٩، ٣٤٠
- عذرة بن عبد الله الفهري : ١٣٦، ٢١٥، ٢١٦،
٢٢٠، ٤٧٧
- ابن عرفة : ٣٦٣، ٣٦٤
- عروة بن الزبير الصدقي : ٥١٤

- Σ 90, Σ 87, Σ 86, Σ 85, Σ 83, Σ 82, Σ 81

- ابن قتيبة : ٩٧، ٨٣
- قدامة بن جعفر : ٤١٩، ٣٥٦
- أبو قرة المغيلي : ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ٥١٥، ٥٢١
- أبو قرة اليفرنى : ١٦٨
- القزوينى : ٤٤١
- قسطنطين : ٣٧٣، ٣٧٥، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٤٦، ٤٢٩
- قسى : ٣٣١، ٣٢٥
- ابن القطان : ٥٩، ٥١
- قطن بن عبد الملك بن قطن : ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠
- ٢٣٨، ٢٩١، ٣١٨، ٣٢٢، ٥٢٠
- القلقشندي (أحد بن على ت ٨٢١هـ) : ٤٢٠
- قسطنطين الثالث : ٣٨٣، ٤٣٥
- ابن القوطية (محمد بن عمر ٣٦٧هـ) : ٥٨، ٢٣
- ١٢٢، ٦٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٩، ٣٢٠
- ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠
- ٣٤٦، ٣٦٣، ٣٦٦، ٤٠٥، ٤٦٤، ٤٨٩، ٤٩٢
- قيرس : ٣٧٨

(ك)

- كاراكالا : ٤٢٤
- كارولوس = قارله = شارل مارتل
- كالمث : ٢١٣
- الكاهنة : ٤٦، ٤٧، ١٢٤
- أبو كريب جميل بن كريب : ١٦٢
- كسرى : ٤٨٨
- كسيلة بن ملزم الأوزى : ٤٤، ٤٥
- كلثوم بن عياض القشبرى : ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣
- ١٥٤، ١٥٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٤، ٣٢١، ٣٢٢
- ٥١٣
- كلوفيس : ١٦
- كنانة بن كنانة : ٥٢٦، ٥٢٨

- غومس : ٤٢٦
- ابن غومس : ٤٢٦
- غيطشة : ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨
- ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢
- ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١٠٢، ١٠٣
- ٢٦٣، ٢٦٥، ٢١٣، ٣٤٦، ٣٧٧، ٣٨٢، ٣٩٨
- ٤٠٠، ٤٠٥، ٤٦٣

(ف)

- فافلة (فافلا) بن بلاى (بلايه) : ٢٦٢، ٢٦٣
- ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٨٢
- فايفر بن أودو : ٢٣٩
- فرتون بن قسى : ٣٢٥، ٩٥
- ابن الفرضى (عبد الله بن محمد ت ٤٠٣) : ١٠٠
- ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤٤، ٤٩٧
- فرناندت جرا : ٢١
- فروليبا : ٢٧٩
- فريديوارىوس : ٣٩٩
- أبو فريعة : ٣٢٣
- ابن الفقيه (عبد الواحد بن إبراهيم ت ٦٣٦هـ) :
- ٤٢٣
- فلهاوزن : ١٨٤
- فوتو (راهب) : ٤٠٣
- فيلكس (راهب) : ٤٠٣
- فيليبالدو : ٤٠١
- فيليكاريوس : ٢٣٦

(ق)

- أبو القائم الهذلى : ١٠٤
- قارله = شارل مارتل
- قاسم بن سعدان بن إبراهيم : ٣٢٦
- ابن قاسم : ٣٠٩، ٣٦٢
- أبو القاسم = سمكو بن وسول

- ماسكرى : ١٦٦
 - ماسونا : ٣٤، ٣٢
 - مالك بن أنس : ٥٠٤، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٥٥
 ٥٠٦، ٥٠٥
 - المالكي : ٥٠٥، ١٤٣
 - المأمون : ٤١٩، ٣٧٦
 - الماوردي : ٣٥٢
 - ماورنت : ٢٤٧، ٢٣٧، ٢٣١
 - ماوريكيوس (قديس) : ٢٣٦
 - المتوكل (الخليفة العباسي) : ٤٢١
 - محمد بن إبراهيم بن مزين : ٥٠٦
 - محمد بن أحمد بن أبي خيثمة : ٥٠٤
 - محمد بن الأشعث : ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧
 - محمد بن إلياس المغيلي : ٩٤
 - محمد بن أوس الأنصاري : ٨٤، ١٣٢
 - محمد بن أيوب بن غالب القرناطي : ٢٩٨، ٤٢٢، ٤٤١
 - محمد (أمير أندلسي) : ١٧٩، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٢٨، ٣٦٩، ٣٥١، ٣٦٠، ٤٢١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٦١، ٤٧٠
 - محمد بن يثير (القاضي) : ٥٠٦، ٣٦٣
 - محمد بن الحلوث بن أسد الحشني : ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠١
 - محمد بن زياد اللخمي : ٣٦١
 - محمد بن عبد الرحمن الشيباني : ٥٠٥
 - محمد بن عبد الله الأشجعي : ١٣٨، ٤٧٧
 - محمد بن عبد الله القضاعي بن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) : ٣٤٤
 - محمد بن عبد الملك بن أيمن : ٣٦٢

- كوديرا : ٥٦، ٢١٣
 - كوند : ٢١٣
 (ل)
 - لاترينيداد : ٤٠٨
 - لاس كاخيخاس : ٣٧١
 - لافونتي = مودستو
 - لاوي : ٣٠٨
 - ابن لبابة : ٤٠٥
 - لذريق : ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٣، ١١٧، ٢٠٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٧٣، ٣٣٨، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٨٢، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٨٠، ٤٩٢
 - لطفى عبد البديع : ٤٤١
 - لوربان : ٤٠٢
 - لوقا التودي : ٢٦٣
 - لوثيراند : ٤٣٤
 - لويس لنل ستر : ٤٤٠
 - لياندرو (س) (راهب) : ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٧٣، ٣٩٣
 - الليث بن سعد : ٥٠٤
 - ليقى يروقتال = يروقتال
 - ليفيجيلد : ١٨
 - ليونتيس : ٤٥
 (م)
 - المافري : ٣٦٣
 - مارتينه : ٣٨٣
 - مارثيلينو متندزاي بلايو : ٣٧١
 - ماريانا : ٢١
 - ماريادي ألفيشين (قديسة) : ٤٠٠

- معاوية بن صالح (الحضرمي) : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧
- معاوية بن صفوان : ١٥٩
- معاوية بن هشام بن عبد الملك : ١٥٤ ، ٥١١
- المعتصم : ٤١٩
- مغيث الرومي : ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٢١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٣٣١ ، ٤٩٢
- المغيرة بن أبي بردة (القرشي) : ٤٩ ، ٦٧ ، ١٤٣
- المغيل = أبو قرة
- ابن مفرج : ٤٧٦
- المقتدر : ٤١٩
- المقدسي (صاحب أحسن التقاسيم) : ٤٢٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١
- المقرئ : ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٤١ ، ٤٩٦ ، ٣٦٣
- المقرئزي : ٤٢٠ ، ٤٢٢
- مكرم بن جميل : ١٦٢
- ملنده بن لينظار : ٣٧٠
- المنذر (أمير) : ١٧٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥
- المنصور (الخليفة العباسي) : ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٥١٤
- المنصور بن أبي عامر : ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٣٠٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١
- مننذ بلايو : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
- مننذ بيدال : ٣٧٣
- مهاجر بن نوفل القرشي : ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣
- أبو المهاجر دينار : ٤١ ، ٤٤
- مهدي بن مسلم : ٣٥٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣
- مهران بن عبد ربه : ٣٣٠

- محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري : ٤٢٢
- محمد بن عبيد الله بن الحبحاب : ٢٢٧
- محمد بن عمر بن لبابة : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣
- محمد بن عيسى الأعشى : ٣٦١
- محمد بن محمد الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ) : ٤٤٣ ، ٤٥٨
- محمد بن مزين : ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦
- محمد بن مسرة : ٤٩٧ ، ٤٩٨
- محمد بن موسى : ٣٢٨
- محمد وضاح : ٣٦٢ ، ٥٠٤
- محمد بن وليد : ٤٩٧
- محمد بن يحيى السبأى : ٥٠٦
- محمد بن يزيد (مولى قريش) : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٤١ ، ١٤٧
- محمد بن يوسف الفهري : ٥٣١ ، ٥٣٣
- مدرار بن عيسى بن يزيد الأسود : ١٦٤
- مروان بن الحكم : ١١٥ ، ٣٢٩ ، ٥٢٧
- مروان بن محمد : ١٦٠ ، ٥١١ ، ٥١٤
- مروان بن موسى بن نصير : ٤٩ ، ٩١ ، ١١٦ ، ٤٠٢
- مسلمة بن زرة بن روح أبو محمد : ٤٩٨
- مسلمة بن سودة القرشي : ١٥٢ ، ١٥٣
- مسلمة بن عبد الملك : ١٤٠ ، ٥١٤
- مسلمة بن مخلد : ٤٣ ، ٤٤
- المسيح عليه السلام : ١٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٠
- المصعب بن عمران : ٣٦٢ ، ٣٦٣
- معاوية بن حديج : ٤٢ ، ٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥١
- معاوية بن أبي سفيان : ٤٢ ، ٤٣ ، ١٦٥ ، ٣٢٧

- النويرى : ١٣٠ ، ١٥٧ ، ٤٢٠

(هـ)

- هارون الرشيد : ٤٢٢

- هارون القرني (مولى معاوية بن هشام) : ١٥٤ ،

١٥٥

- هديران الأول : ٣٨٤

- هرثمة بن أعين : ١٦٤

- هرقل : ٢٥١

- هرقلوناس : ٣٨٣

- هرقلانو : ٢٨٠

- هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (المعروف

بالرضي) : ٩٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ،

٥٣٠

- هشام بن عبد الملك : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ،

١٥٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ،

٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٧٤ ، ٤٩٥

- هلديك : ٢٠ ، ٣٧٧

- الحمداني : ٤٥٠ ، ٤٥١

- هنري بيرين : ٢٥٠

- هونوريوس بن تيودوسيوس : ١٣

- الهيثم بن عبيد الكلابي : ٤٧٧

- الهيثم بن عبيد الله الكناني : ١٣٨

(و)

- واجناس = جولد تسير

- الواقدي : ١١٩

- واليا : ١٥

- وامبا : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧٧

- وخنشدش : ٣٧٧

- الوقاص بن عبد العزيز الكناني : ٢٩٣

- وقله (أخيل) : ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٩٢

- مودستو لافونتي : ٩١

- موسى بن أبي خالد : ١٤٩

- موسى بن عياض بن عقبة : ٤٩

- موسى بن محمد بن حدير : ٣٢٩ ، ٣٣٠

- موسى بن نصير : ٣٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ،

١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٣ ،

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢٥٥ ،

٢٦٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣١٤ ،

٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،

٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،

٥١٦

- أم موسى : ٥٢٠

- مونوس : ٢١٣

- مونوسة (زعيم البربر) : ٦٧ ، ٩٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٣١١ ، ٤٠١

- ميخائيل الغزي : ١٠٣

- ميسرة المطفري (زعيم البربر) : ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٣١٦ ،

- ميمون العابد : ٣٢٢ ، ٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٤٠٦ ، ٤٩٢ ،

(ن)

- النباهي أبو الحسن : ٣٦٣ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ،

٥٠١ ، ٥٠٠

- نصر بن سيار : ١٣٠

- أبو نصر : ٩٧

- نعمان بن عبد الله الحضري : ١٠٠

- نفزاو : ٣٠٨

- الوليد بن عبد الملك : ٢٥ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٣٢٥ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨
- الوليد بن يزيد : ١٥٨
- وهب بن عامر : ٣١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣
- وثيرك : ٣٧٧
- (٥)
- ياقوت الحموي : ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٤
- يحيى بن آدم : ٣٥٦ ، ٤٨٨
- يحيى بن حريث : ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٤٥٢ ، ٤٩٢
- يحيى بن سعيد : ٥٠٤
- يحيى بن سلامة العامل الكلبى : ١٣٦ ، ٤٧٧
- يحيى بن قسي : ٣٢٥
- يحيى بن معاوية بن هشلم : ٥١٢
- يحيى بن معين : ٣٦٢ ، ٥٠٤
- يحيى بن يحيى التجيبى : ٤٩٥
- يحيى بن يحيى الليثى : ٥٠٦
- يحيى بن يزيد (التجيبى) : ٤٩٥ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥٣٢ ، ٥٣٠
- يزيد بن أبى مسلم (مولى الحجاج و كاتبه) : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
- يزيد بن عبد الملك : ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ٥٢٦
- يزيد بن معاوية : ٤٤
- يزيد بن المهلب : ٨٣ ، ٩٨ ، ١٢٩
- اليعقوبى : ٤٥٠ ، ٤٥١
- يليان : ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٩٧
- يوان (خوان - يحيى) : ٣٤٣
- يوجين الثالث (البابا) : ٣٤٢
- يوحنا الدمشقى : ٣٨٣
- يوحنا العاشر (البابا) : ٣٩٤
- يوريك : ١٥ ، ٢٠
- يوسف بن بخت (أبو الحجاج) : ٢٠٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٤٠٦ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥٢٢
- يوسف بن عبد الرحمن القهرى : ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣
- يوسف بن عمر الثقفى : ١٣٠
- أبو يوسف القاضى : ٤٢٢ ، ٥٠٥
- أبو يوسف (صاحب كتاب الخراج) : ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٨٨
- أبو يوسف الهوارى : ١٥٦
- يوليانوس : ٣٨١
- يوليوس = فلهاووزن
- يونس بن قسي : ٣٢٥

فهرس الأماكن والبلدان والجبال

- أرش (بجانة) : ٤٣٩ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧ ، ٣٩١ :
٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٠ ، ٤٥٠ ، ٤٤٨
- أركيكة : ٤٢٨ ، ٤٢٦ ، ٣٩١ ، ٣٨٦ :
- الأروكامبو (وادي) : ٩٠ :
- أرنيط : ٤٤٤ :
- إسبانيا : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٧ ، ١١١ ، ١٦٧ ،
٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٣١٦ ،
٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤١١ ،
٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ،
٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٥٠٧ :
- إسبانيا الأنطونية (ولاية) : ٤٢٤ :
- إسبانيا الديقونية : ٤٢٤ :
- إسبانيا الطركونية (ولاية) : ٤٢٤ :
- إسبانيا القرطاجنية (ولاية) : ٤٢٤ :
- استجة : ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٩٤ ، ٣٠٢ ،
٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٦ ، ٤٨٥ :
- استرامادورا : ١٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٦ :
- استرقة (استرقة ، استورقة) : ٧٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٨٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ :
- الإسكندرية : ٣٧١ ، ٣٧٨ :
- الأسناد : ٤٥٨ ، ٤٥٩ :
- الاشيرة : ٤٤٦ :

(أ)

- آرل : ١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ :
- آسيا الصغرى : ١١١ ، ٢٤٢ :
- آش : ١٢٠ :
- أصيلا (أرزيلا) : ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٨٣ ، ٣٠٩ :
- آنة (وادي) : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ :
- أبالة : ١٥٦ :
- أبذه : ٤٢٧ :
- ابهر (نهر) : ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ :
٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ :
- الابرو (حوض نهر) : ٩٣ ، ٩٥ :
- أبله : ٢٨٤ ، ٣١٠ ، ٣٨٨ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ :
- أبنيون : ٢٠٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ :
- أبورتو : ١٧٨ :
- أبيض : ٩٦ ، ٩٩ :
- أجدة : ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٣٩٠ :
- أخشبة : ٤٤٨ :
- أربونة : ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ،
٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٩١ ، ٣١٨ ، ٣٩٠ ، ٤١١ ، ٤٢٩ :
٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٥٠١ :
- أرجلو : ٣٩١ :
- أرجونة : ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ :
- الأردن : ١٩٢ ، ٢٩٣ ، ٤٣٦ ، ٤٦٧ ، ٥٢٥ ،
٥٢٦ :
- أرغون : ٢٣١ ، ٢٤٣ ، ٤٠٩ :

- أفطانية (أكوتين): ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٣٨،
٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٦٠، ٤٣٣
- أفلش (طلبيرة): ٤٦٢
- أقوة برطورة: ١٨٨، ٢٩٢
- أكشومة: ٤٢٦، ٤٢٨
- أكشونية: ٨٦، ١٩٢، ٢٩٣، ٣٨٨، ٤٢٧،
٤٢٨، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٦٢، ٤٦٤
- أكوتيتانيا: ٢٠٩
- ألب (جبال): ١٧، ٢٤١
- البر (نهر): ٢٣٥
- البرت (جبال): ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ٢٠، ٩٣،
٩٤، ١٠٦، ١١٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٤٤، ١٦٩،
٢٠٧، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٠،
٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٩٧، ٣١١، ٣١٢، ٤٠٩،
٤٩٠
- البيرة (غرناطة): ٧، ٧٣، ٧٤، ١٠١، ١٠٦،
١٩٢، ٢٠٢، ٢٩٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٤،
٣٨٨، ٣٩١، ٤١١، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٢،
٤٥٠، ٤٥١، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٧، ٥٠٠، ٥١٦،
٥١٧، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٣١
- إلش: ٣٨٧، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٢٨
- الفتين: ٤٠٦، ٤٩٢
- ألمانيا: ٤٠١، ٤١٤، ٤١٥
- المرية: ٣٠١، ٣٩١، ٤٥٤، ٤٦٠، ٤٦٣
- أليانكو: ١٧٨
- أليانة: ١٢١، ١١٠
- الألييه: ٢٢٣
- أمايا: ٧٥، ٩٥، ٢٥٥، ٤٠٨، ٤٢٦، ٤٢٧،
٣٨٩
- امبرياش: ٣٨٩
- الأنبار: ٤٥٤
- أنبورش: ٤٢٦، ٤٢٧

- أشبونة: ١٠٦، ٢٩٨، ٣٨٨، ٤٢٧، ٤٢٨،
٤٤٣، ٤٤٥
- إشبيلية: ١٤، ٢٣، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٨،
٨٩، ٩٢، ٩٧، ١٠١، ١١٤، ١١٧، ١٢٠،
١٢٣، ١٩١، ١٩٢، ١٩٦، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٠،
٣٠١، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٨،
٣٥٣، ٣٧٤، ٣٨٠، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٨،
٣٩٩، ٤٠٧، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٤٢،
٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢،
٤٦٤، ٤٧١، ٤٩١، ٥٠٥، ٥٢٦، ٥٣٢
- إشبينية: ٥٢٧
- إشبانيا: ٤٤٣
- أشتريس (أشتورياس): ١٤، ١٧، ١٨، ٩٦،
١٢٠، ١٣٨، ١٧٢، ١٧٨، ٢٣٣، ٢٥٦، ٢٥٨،
٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٢،
٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣،
٢٨٥، ٢٨٦، ٣١٦، ٣٧٦، ٣٨٤، ٣٩٢، ٤٠٣،
٤٢٤، ٤٢٩
- الأشراف (موقعة): ١٦٧، ٢٩٠، ٣٢٠
- أشقة (وشقة): ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٤٤
- أشونة: ٣١٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٤٢٧، ٤٢٨
- الأصنام (مدينة): ١٥٩
- افراخه: ١٧٨، ٢٨٣، ٣٨٦، ٣٩٢
- افريقية: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨،
٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦٣، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٨، ٧٩،
٨٣، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٧، ١١١،
١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢،
١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨،
١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩،
١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٤، ١٧٥، ١٨٣،
٢١٨، ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٧٢، ٣١٢، ٣١٦،
٣٤٧، ٣٨٣، ٤٥٣، ٤٧١، ٤٨١، ٤٩٠، ٤٩٥،
٥٠١، ٥١٢، ٥١٥، ٥١٦، ٥٢١
- أفيلة: ١٧٨

- أولبة: ٤٩٤
 - أولهيل: ٤٥٨
 - أونبة: ٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠١
 - أونجا (مغارة القديسة مارية) : ٢٦٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦
 - إيبون: ٢١٠
 - إيبيريا: ١٨ ، ١٦
 - إيتريوس: ٣٨٤
 - إغششات: ٤٠١
 - إيرلند: ٢٥٠
 - ايرية: ٤٢٦ ، ٤٢٧
 - ايطاليا: ١٣ ، ١٥ ، ٤٧ ، ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣
 - ٢٤٤ ، ٣٩٣ ، ٤٠١
 - اينيران يطوف: ٤٤
 - إيلاف: ٤٣٩
 (ب)
 - باب الحديد: ٤٤٥
 - باب تارنا: ٩٦
 - باب عامر: ٤٤٥
 - باب العطارين: ٤٤٥
 - باب القنطرة: ١٢١ ، ٤٤٥
 - باب اليهود: ٤٤٥
 - باجة: ٨٦ ، ٨٨ ، ١٦١ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧ ، ٥١٤
 - بارو (بازو) : ٩٥
 - باروشة: ٤٤٣
 - باريس: ٢١٠
 - باطقة: ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦
 - باغاية: ٤٦
 - الأندلس: ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧
 - ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١١
 - ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٤٥
 - ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٧٥ ، ٢١٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٣٠٤
 - ٣٤٤ ، ٣٥٦ ، ٣٨٣ ، ٤٠٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢
 - ٤٢٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٣
 - ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٣
 - أنند: ٤٥٨
 - أنطاكية: ٣٧٨
 - أنكا: ٣١٠
 - أنكوروا: ٢٦٥
 - آته: ١٠٣
 - الأهمواز: ٤٢٢
 - أوتون: ٢١٨ ، ٢١٠
 - أوجفونة: ٤٤٧
 - أوراس (جبال) : ٢٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
 - أوربة (قبيلة) : ٤٤
 - أوروبا: ٢٨ ، ٣٦ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٤٩ ، ٣٣٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ ، ٤١٥
 - أوريط: ٣٨٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٤٦١
 - أوردويل (جبل) : ٤٠٣
 - أودبولة: ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٣٨٠ ، ٤٠٤
 - ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦١
 - أوربة: ٤٢٦ ، ٤٢٧
 - أوزة: ٢١٠
 - أوسبة (جبل) : ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤
 - أوستراسيا: ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨
 - أوسيا (أوسمه) : ١٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٩١
 - أوقانية: ٤٤٤
 - أوقة: ٣٨٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
 - أوكا: ١٧٨ ، ٢٨٤ ، ٤٠٨
 - أولاليس: ٢٦٦

- برغش: ٣٩٤	- باغة: ٤٣٧
- برغواطة: ٥١	- باكرته: ٤٢٧
- برقة: ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥١٥	- بال دى مستعريش = عين الديك
- بركينو: ١٧	- بالوماس: ٦٦
- بروفانس: ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧	- ببشتر (حصن): ٤٤٣، ٤٤٤
- بريانة: ٤٤٩	- بجانة = أرش
- بسطة: ٣٨٧، ٣٩١، ٤٢٧، ٤٢٨	- البحر الأسود: ٤١١
- بسكاية (خليج): ١٤، ٩٩، ١١١، ٢١٩، ٢٢٣، ٣١٢، ٢٥٥	- بحر الروم: ٤٣٩
- البشكنس: ٤٠٩	- بدر: ١٥٨
- البصرة: ٤٩، ٢٤٢، ٤٥٣، ٤٥٤	- براقرة: ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٤٦
- بطرش: ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٤٢٥، ٤٢٧	- براكانه: ٤٥٨
- بطقة: ٤٢٦، ٤٢٧	- البرانس (جبال): ١٤، ٤٤، ٤٥، ٤٧٥
- بطليوس (بطلوث): ٣٠١، ٣٠٢، ٤٣٩، ٤٦٢، ٤٥٠، ٤٤٣	- البرباط (سهل - نهر): ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ١١١، ١٧٧
- بغداد: ٤١٩، ٤٥٣	- البربات: ١٣٨، ١٣٩، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٨٩، ٣٩٩
- بقدورة (تقدورة): ١٥٥، ١٥٦	- برتغال: ١٥، ١٦، ١٧، ٣٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٠٢، ٤١٠، ٤٢٤، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٦
- بقسرة: ١٠٣	- بردال (بورديو): ٢٢٣
- بقيرة: ٤٤٤	- بردوليا: ٢٨٥، ٢٨٦
- بكه (وادي لكه): ٢٥، ٦٩	- برديل: ٤٠٩
- بلاد عوسجة: ٣٠٨	- برسينونا = برشلونة
- بلازيا: ٤٢٦، ٤٢٨	- برشلونة: ١٦، ١٧، ٣٥، ١٠٠، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٥٥، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٩١، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٦٠
- بلاط الشهداء: ١٤٠، ١٦٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٤٩، ٤٩١	- برطانية (بريطانية): ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٤٤
- بلاط مروان: ٤٤٨، ٤٤٩	- ٤٤٥
- بلاط مغيث: ١٢١، ٤٩٢	- برطقال (بورتر): ٢٨٣، ٤٢٦، ٤٢٧
- بلاى (صخرة) = صخرة بلاى	
- بلايه: ٢٢	
- بلطش: ٤٥٧	
- البلطيق: ٤١١	

- بيزو: ٣٨٨	- بلكنوة (حصن): ٤٤٩، ٤٤٨
- بيزيه = بطرش	- بلتلة: ١٠٣
- البيضاء: ٤٥٨	- بلنية: ٣٨٧، ٣٤٨، ٣٠٤، ٣٠١، ٣٠٠،
- بيطره: ٤٦١	٤٤٢، ٤٣٩، ٤٢٨، ٤٢٦، ٤٢٥، ٣٩١
- بيطى (بيشكا): ٤٢٤، ٣٨٧، ٦٩، ١٥، ١٤	٤٥٨، ٤٥٧، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٨، ٤٤٧، ٤٤٤
- بيغوا: ٤٥٠، ٤٤٨	٤٦٣، ٤٦٢، ٤٥٩
- بشر الكاهنة: ٤٧	- بلى (دار): ٣٠٦، ٣٠٥، ٣٠٣
(ت)	- بليارش: ٤٢٧، ٤٢٦
- تاجه (نهر): ١٧، ٩٠، ١٧٥، ١٧٨، ٢٠٠،	- بنبلونه: ٢١٣، ٢٠٧، ١٧٨، ١٠٠، ٦٨، ٦٥
٤٤٥، ٤٠٨، ٣١٥، ٣١٢، ٣٠٠، ٢٨٥، ٢٨٤	٤٢٦، ٤٠٩، ٤٠٣، ٣٨٩، ٢٨٤، ٢٧١، ٢٢٣
- تارنا (باب): ٩٦	٤٢٧
- تازا (قرية): ١٦٤	- بتزوت: ٤٢
- تاكرنا: ٤٣٧، ٤٢٨، ٤٢٧، ٣٢٣، ٣١٥، ٣٠٨	- بنسيو: ٩٤
٥٢٦، ٤٦٢	- بورتو = برطقال
- تاهرت: ٥١٥، ٤٥٠، ٤٣٩، ١٦٣، ١٥٥	- بوتاييه: ٢٢٧، ٢٢٦، ٢١٢، ١٤٠، ١٦
- تدمير (مرسية): ١٤، ١٠١، ١٠٢، ١١٤،	- بورجونيا: ٢٢٤، ٢٢٠، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٠
٣٠١، ٣٠٠، ٢٩٣، ٢٩٠، ٢٠٨، ١٩٢، ١٨٦	٢٣٤، ٢٣١
٤٢٥، ٤٠٤، ٤٠١، ٣٨٧، ٣٠٥، ٣٠٤، ٣٠٢	- بوصير: ٥١١
٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٨، ٤٤٧، ٤٤٢، ٤٣٩، ٤٣٧	- بولندا: ٤١٥، ٤١٤
٤٦٣، ٤٦٢، ٤٦١، ٤٥٧، ٤٥٤، ٤٥٢	- بون: ٢١٨
- التراب (مدينة): ٤٥٨	- البونت: ٣١٢
- تراجونا: ١٧	- بونه: ٣٥
- ترجال: ٤٤٧	- بياسة: ٤٣٩، ٤٢٨، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩١، ٣٨٦
- تسول (قرية): ١٦٤	٤٥٠، ٤٤٨
- تطيلة: ٤٣٩، ٤٢٧، ٤٢٦، ٢٨٤، ٢٥٥، ١٧٨	- بيت المقدس: ٤١٠
٤٦٠، ٤٥٤، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣	- بيتس = بيطى
- تلمسان: ١٦٨، ١٦٧، ١٦٣، ١٤٩، ٤٤	- بيتكا: ٢٥، ١٦، ١٥
- تلماس: ٩١	- بيدمنت: ٢٣٤
- تنيس: ٤٩٨، ٤٩٧	- بيرين: ٤٦١
- تهودة: ٥١، ٤٤	- بيز (كنيسة): ٢١٨، ٢١٠
- توده: ٣٨٩، ٢٧٣، ٢٦٣	- بيزنطة: ٥٦، ١٨

- جلق (إقليم): ٤٦٢	- توذي: ٤٢٧، ٤٢٦
- جلق (نهر): ٣٠١	- تور: ٢٤٣، ٢٢٦، ٢٢٣
- جلولا: ٤٢	- تودغة: ١٦٣
- جليقية: ١٧٥، ١٧٢، ٩٦، ٨٦، ٣٢، ١٨، ١٧	- توكي: ٣٩١
- ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٧، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٩، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٦	- تولوز (طولوشة): ١٣، ١٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٤٠٠، ٤٢٥
- جواداليتي: ٦٩، ٢٥	- تونس: ٤٣، ٤٤، ٤٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٣٠٩، ٤٩٧، ٥١٤
- جوادكس (قادش): ١٤	- التيتار (نهر): ٩٠
- جواردا: ٣٠٩	- تيروال: ٣١٢
- جيان: ١٩٢، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٣	(ج)
- ٣٣٨، ٤٠٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤٢	- جادش (قادش): ١٤
- ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٧	- جاريون (نهر): ٢٢٣
- ٤٩٣، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٩، ٥٣٠، ٥٣١	- جاليوش: ٤٢٩
- جيحون: ٤٣٩	- جبل أورويل: ٤٠٣
- جيري: ٢٣٠	- جبل الشارات: ٤٤٦
- جيفودان: ٢١٦	- جبل طارق (جبر التار): ١٠٠، ٤٤٨
(ح)	- جبل موسى: ٨٠
- الحجاز: ١١٥، ٣٤٧، ٥٠٥	- جرنلة: ٣٨٩، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٢٧
- حصن بلكونة: ٤٤٨، ٤٤٩	- جرينوبل: ٢٤١
- حصن بيطرة: ٤٦١	- الجزائر: ١٥٧
- حصن مراد: ٣٠٥	- جزول (جبل): ١٦٣
- أم حكيم (جزيرة): ١٧٤، ١٨٧	- جزيرة أم حكيم: ١٧٤، ١٨٧
- حصن: ١٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٤٣٦، ٥٠٥، ٥٢٦	- جزيرة الخضراء: ٦٨، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ١١٤، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٦، ١٨٧، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٤٢٧، ٤٣٨، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٥٠، ٤٥٨
- الحمه (نهر): ٣٠١	- ٤٦٣، ٤٧١
(خ)	- الجعز: ٤٤٨، ٤٤٩
- خراسان: ١١٥، ١٣٠، ١٥٤، ١٦٠، ١٨٤	- جسكر: ١٨
- ١٨٥، ٤٣٩، ٤٥٣	
- خشنة: ٤٣٩، ٤٥٠	

- الديفا (نهر) : ٢٦٥ ، ٢٦٦
 - الديورانس : ٢٣٢
 (ر)
 - رافنا : ١٣
 - رباح (مدينة) : ٤٥٩
 - ربض الوراقين : ٧٧
 - ريبة : ٤٣٧
 - ردانه (نهر) : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 - رعوان : ٨٥
 - رفينه (ريبه ، رفينه) : ١١٧ ، ٣٩٨
 - رفير : ٢١٢
 - رقبول : ٤٤٣
 - ركله : ٤٥٨ ، ٤٦٣
 - رندة (جبال) : ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٤٦١
 - رنشالة : ٢٢٣ ، ٢٢٠
 - الرها : ٤٠١ ، ٤٠٥
 - رودس : ٢١٦
 - روسيا : ٤١٥
 - روكيريف : ٢١٧
 - رولان : ٢٢٠
 - روما : ١٣ ، ١٦ ، ٧٥ ، ٢٤٩ ، ٣٣٥ ، ٣٨٠ ، ٣٩٤ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٣٥
 - الرون (حوض نهر) : ١٤ ، ١٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٢٣
 - رويرج : ٢١٦
 - ريباجوزتا : ٢٤٣
 - الرين : ٢٢٤ ، ٢٢٠
 - ريه : ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧
 - ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٢ ، ٤٩٧ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥

- خلقيونية (جمع) : ٣٧٨
 - الخندق (بحيرة) : ٦٩
 - خير : ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧
 - خيخون : ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٥٥ ، ٩٦
 (د)
 - أبو دانس (قصر) : ٣١٢
 - دانية : ٣٨٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨
 - دجلة : ٣٤٦ ، ٥١١
 - دروكة : ٣٠١
 - درعة (نهر) : ٥١
 - الدوراتون (نهر) : ٤٠٩
 - دمشق : ٢٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٩٣ ، ٤٠٥ ، ٤٣٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٥١١ ، ٥١٦ ، ٥٢٥
 - دلالة : ٣٠٣
 - دوردوني (نهر) : ٢٢٣
 - دوفينه : ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٧
 - دويره (نهر) : ٢٠٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٠٨
 - الدويرو (نهر) : ١٧٨
 - دونزير : ٢٢٣
 - ديجون : ٢١٠ ، ٢١٨
 - دير بينيا : ٤٠٣
 - دير الجاهم : ٥١٢
 - دير سنان خوان دي لا بينيا : ٤٠٣
 - دير لوريان : ٤٠٢
 - دير ملوريكيوس : ٢٣٦
 - دير مونت كلسينو : ٤٠٢

- ريوخه (نهر): ١٧٨، ٤٠٩

(ز)

- الزاب: ١٥٦، ١١٥

- الزقاق (بحر): ١٨، ٢٨، ٥١، ٦١

- زناته (إقليم): ٤٥٨

- زويلة: ٤١

- زيدون: ٤٥٧

(س)

- الساعون (نهر): ٢١٠، ٢١٨

- الساحل: ٤٥٨، ٤٥٩

- سالم (مدينة): ٣١٢، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٥٠

٤٥٣، ٤٥٨

- سان أندوش (كنيسة): ٢١٨

- سان بابلو: ٢٧، ٣٥

- سان بدرو: ٢٧، ٣٥

- سان بول تروا: ٢٣٣

- سان جان (كنيسة): ٢١٨

- سان مارتان (دير): ٢١٨، ٢٢٣

- سان موريتز (دير) = ماوريكيوس

- سان نزيير (كنيسة): ٢١٨

- سانتا أوغلايا فيلاينو: ٢٦٢

- سانتا كروث (كنيسة): ٢٧٩

- سانس: ٢١٠

- سبتانية: ١٦، ٢٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٩

٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢

٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٤١١

- سبتة: ٥١، ٥٥، ٥٧، ٦١، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٣

١٧٤، ١٧٥، ٢٨٢، ٢٩٠، ٣٠٧، ٥١٣

- سبتة سجوم، ١٥٩

- سبرت: ١٥١، ١٥٣

- سبو (نهر): ١٥٣، ١٦٧، ١٦٨

- سبينة (بلدة): ١٥٢

- سبيلة: ٧٣

- سجلماسة: ١٦٤، ٤٣٩، ٤٥٠

- سجوم (سجوما): ٥١، ١٥٩

- سعية: ٣٩١

- سرقة: ٤٤٣

- سرقسطة (سرقوسة): ٥١، ٩٤، ٩٧، ١٠٧

١١٤، ١٧٢، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩١، ١٩٩

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٤٢

٢٥٥، ٢٦٨، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠١

٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٤٨، ٣٨٩

٣٩١، ٤٠٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٩، ٤٤٣

٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥٧، ٤٦١

٤٦٢، ٤٦٣، ٤٩٢، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢١

٥٢٢، ٥٢٣، ٥٣٣

- سفيليا (إشبيلية): ١٤

- سلدانيا: ١٧٨، ٢٨٤

- سلمنقة: ٩٠، ١٧٨، ٤٠٨

- سليط (وادي): ١٧٦

- سمورة: ١٧٨، ٢٨٤

- السند (إقليم): ٤٤٤، ٤٤٦

- سنيرو: ١٧٨

- السهلة: ٣١١، ٣١٢، ٤٥٦

- السواقي (ناحية): ٩١، ٩٤

- السودان: ٧١، ١٤٥

- سوسة: ٤٢

- السوس: ٥٠، ٥١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٤

٣٤٧

- سولفاك (كنيسة): ٢٣٠

- سوليرو: ٢١٨

- شريك (شبه جزيرة): ٤٤ -
 - ششلة: ٤٤٦ -
 - شغونية: ٤٢٨، ٤٢٦ -
 - شقر (نهر بلنسية): ١٨، ٣٠٠ -
 - شقندة: ٧٦، ١٩٧، ٥٢١، ٥٢٤، ٥٣٠ -
 - شقوية: ١٧٨، ٢٨٤، ٣١٠، ٣٨٧، ٤٠٨، ٤٠٩ -
 ٤٢٨، ٤٢٦،
 - شقورة (نهر مرسية): ٣٠٠ -
 - شلب = أكشونة -
 - شلطيانة: ٤٢٦ -
 - شلطيئش: ١٢٠ -
 - شلف: ١٥٧، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨ -
 - شلمتقة: ٤٢٧، ٤٢٨ -
 - شلمتقة: ٢٨٤، ٣٨٨، ٤٠٩ -
 - شلون: ٤٤٤، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٣ -
 - شلينة: ٤٥٨ -
 - الشمال الإفريقى: ١١١، ١١٣، ١١٥، ١٥٤ -
 - شتبرية: ٣٠٨، ٣١١، ٣١٢، ٤٤٣، ٤٤٥،
 ٤٥٧
 - شترة: ٤٢٧، ٤٢٨ -
 - شتيرين: ١٠١، ٢٩٨، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٣،
 ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٦٢، ٤٨٠، ٤٨٦ -
 - شنت ياقوب (ياقو): ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨ -
 - الشنيدة: ٤٤٨، ٤٤٩ -
 - شنيل (نهر): ٧٣، ٣٠٠ -
 - شيرب: ٤٥٨ -
 - شية: ٤٨٠، ٤٨٦ -
(ص)
 - صاخة (قرية): ٣٠٣ -
 - صخرة بلاى: ٩٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٦ -

- سيجونثيا: ٣٩١ -
 - سيراد فرانثيا: ٩٠ -
 - سيليا دل بابا (جبل): ٦٩ -
 - سينا نقاس: ١٧٨، ٢٨٤ -
 - السين (نهر): ٢١١، ٢٢٢ -
 - سيرادل رتين (جبل): ٦٩ -
(ش)
 - شاتلرو: ٢٢٧ -
 - الشارات (جبل): ٤٤٦ -
 - شارقة (إقليم): ٤٥٨ -
 - شازة: ٤٢٦، ٤٢٧ -
 - شاطبة: ٣١١، ٣٨٧، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨،
 ٤٥٨، ٤٦٢ -
 - شاقرة: ٤٤٦ -
 - شالون: ٢١٠، ٢١٨ -
 - الشام: ١١١، ١٣٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٧٥، ١٨٤،
 ١٨٩، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٤٢، ٢٨٢،
 ٢٩٩، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٤٧، ٣٥٨،
 ٣٨٣، ٣٩٠، ٤٠١، ٤٣٠، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٢،
 ٤٥٣، ٤٨٩، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥١١، ٥٢٨ -
 - الشاوية: ١٦٨ -
 - شيرب (إمارة، مملكة): ٤٠٣، ٤٠٩ -
 - شيلار: ٥٣٠ -
 - شبه الجزيرة الايبيرية: ١١١ -
 - الشحر: ٥٩ -
 - شذونة: ٧٠، ٧١، ٧٩، ٨٥، ١٧٣، ١٧٥،
 ١٧٧، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٢،
 ٣٠٤، ٣١١، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٨٧، ٣٩١، ٤٣٧،
 ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٠، ٥١١، ٥٢٦، ٤٦٢ -
 - شرطانية: ٢١٣، ٢٤٣ -
 - شريش: ١٢٠ -

٤٦٢، ٣١٢، ٣٠٤، ٣٠١

- طليطلة: ٦٠، ٢٩، ٢٥، ٢٤، ١٩، ١٨، ١٧،
٨٤، ٨٣، ٨٠، ٧٩، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٦٢،
٩٧، ٩٥، ٩٤، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٥،
٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٢، ١٧٨، ١٧٥، ١٧٢، ١٢٠،
٢٩٩، ٢٨٤، ٢٨٠، ٢٧٣، ٢٦٣، ٢٦٢،
٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣١٤، ٣١٢، ٣٠٣، ٣٠١،
٣٨٢، ٣٨١، ٣٨٠، ٣٧٩، ٣٧٦، ٣٧٤، ٣٧٣،
٣٩٩، ٣٩٤، ٣٩٣، ٣٩٢، ٣٩١، ٣٨٦، ٣٨٤،
٤٢٨، ٤٢٦، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٧، ٤٠٠،
٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٣٩، ٤٣٥، ٤٢٩،
٥٣١، ٥١٩، ٤٦٤، ٤٦٢، ٤٥٠، ٤٤٨، ٤٤٧،
٥٣٣، ٥٣٢

- طليوثة: ٤٢٧

- طنجة: ١١٨، ٦٤، ٦١، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥١،
١٣٥، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥،
١٦٨، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠،
٤٢٩، ٣٢٠، ٣٠٧، ٢٨٣، ٢٠٠، ١٧٧، ١٧٥،
٥١٦، ٥١٥

- طولوثة = تولوز

(ع)

- العراق: ١٣٤، ١٣١، ١٣٠، ١١٥، ١١١،
٤٥٣، ٣٨٣، ٣٣٦، ٣٢١، ٢٤٢، ١٤٢

- العريش: ٤٩٨

- عقدة الزيتون: ٤٩٢، ٤٩١، ٤٠٦، ١٩٤

- عين الديك (قرية): ٣٤٣

(غ)

- غافق: ٤٤٨، ٤٤٧

- خالة: ١١١، ٩٣، ٣٤، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣،
٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ١٧٩، ١٤٠، ١١٤،
٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٤، ٢١٢،
٢٣٠، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢،
٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣١،
٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٤٠

٢٧٧، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٧

- الصدف: ٤٥٥

- صدينة: ٣١١

- صرت: ١٦٨

- صفين: ١٩٨، ١٩٧

- صقلية: ١٦٩، ١٤٧، ٥١، ٤٧، ٤٦، ٤٢،
٥٣٣، ٢٤١

- صمورة: ٤٢٨، ٤٢٧

- صنهاجة: ٥٠

- صورية: ٣١٠

- الصين: ٤٥٣

(ط)

- طارق (جبل): ٢٢٥، ٧٩، ٦٨

- طالق: ٣٩١، ٣٣٨

- طينة: ١٦٨، ١٦٣، ١٥٧، ١٥٦

- طيناس: ٥١٤، ١٦١

- طرابلس: ١٦١، ١٥٩، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠،
٥١٤، ٣٠٧، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٣

- طرسونة: ٣١٢، ٢٢٠، ٢٠٩، ١٢٥، ١٢٤،
٤٦٠، ٤٤٤، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩٠

- طرسيل: ٧٦

- طرش: ٥٢٣، ٥٢٢، ٤٩٢، ٤٠٦

- طرسوة: ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٨٩،
٤٥٧، ٤٥١، ٤٤٨، ٤٤٥

- طركوتة: ٣٨٩، ٣٨٦، ٣٠٩، ١٠٦، ٩٤، ١٧،
٤٤٣، ٤٣٥، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢٧، ٤٢٦، ٤٠٠

٤٤٦، ٤٤٥

- طريانة: ٤٦١

- طريف (جزيرة): ٦٩، ٦٦

- طشانة: ٥٢٧

- طليبة: ٢٨٤، ١٧٨، ١٧٥، ١٧٢، ٨١، ٨٠

- فرنسا: ٢٨، ٤٧، ١٧٩، ٢٠٧، ٢١٩، ٢٤١،
٢٤٩

- فريزيا: ٢٢٠، ٢٣١

- فريش: ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩

- فزان: ٤١

- الفسقاط: ٤٥٤

- فقيرة: ٤٥٨

- فلسطين: ١٩٢، ٤١٠، ٤٣٦، ٥١٢، ٥٢٦

- الفولجا: ٤١١

- فويه: ١٦

- فيزيو: ٩١، ١٧٨، ٢٨٣

- فيين: ٢١٧، ٢٣٣، ٢٣٦

(ق)

- قابس: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣

- قادش: ١٤

- القاسم (إقليم): ٤٤٦، ٤٥٨

- قاليقلا: ٣٢٦

- قانت = لقت

- قبانس: ٤٥٧

- قبانش: ٤٦٣

- قبرة: ٣٠٤، ٣١٥، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٢٧، ٤٢٨

٤٣٧، ٤٤٢، ٤٦٢

- قنتدة: ٤٥٧

- قرصقة: ٢٤١

- قرطاجنة: ١٤، ١٥، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦

٤٧، ١٦٥، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٤٢٥

٤٤٦، ٤٢٩

- قرطاية: ٦٨

- قرطبة: ١٤، ١٧، ١٨، ٢٢، ٢٥، ٦٨، ٦٩، ٧٠

٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٩

٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ١١٤، ١٢٠، ١٢١

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٣٠٦، ٣٠٨

٣١٧، ٣٤٢، ٣٨١، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٩

٤٢٩، ٤٣٤، ٤٩٤

- غاليوش: ٤٢٥

- غرناة: ٤٤٨

- غرناطة = البيرة

- غسقونية: ٢٢٣

- غلثار: ٤٥٨

- غلواذه: ٤٥٧

- غهارة: ٥١

- غناة عبس: ٥٠٥

(ف)

- فارس: ٨٢، ٩٨، ١١١، ١١٢، ١٣١، ٢٤٥

٣٢١

- فارة: ٤٤٤

- فاس: ٣٤٧، ٣٦٤

- فالانس: ٢١٠، ٢٣٣

- فالموشا (نهر): ٩٠

- فاليا دوليد: ٩٥

- فاندالوسيا (الأندلس): ١٤

- الفتل: ٤٥٦

- فج بذره: ٤٥٧

- فج ابن لقيط: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩

- فج المائدة: ٤٧٤

- فج موسى: ٩٧

- فحص البلوط: ٤٣٧، ٤٤٨، ٤٦٢، ٤٦٤

- فحص شاطبة: ٤٥٨

- فدك: ٤٨٧

- الفرات: ٤٣٦، ٥١٢

- فرتا: ٢٣٢

- قطبرة: ٤٧	١٨٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٢، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣
- قطلونية (إمارة): ٤١٣، ٣١٤، ٢٤١	١٩٥، ١٩٤، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧
- قلبيرة: ٤٥٨	١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨
- قلسانة = شذونة	٢١١، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧٣
- قلعة أيوب: ٢٠٨، ٣٠١، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٤	٢٧٧، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤
٤٥٩، ٤٦١	٣٠٥، ٣٠٦، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٨
- قلعة حزم: ٤٩٣، ٤٠٦، ٣٣٨	٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩١
- قلعة خولان: ٣٠٣	٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٩
- قلعة رباح: ٣٠١، ٣٠٣، ٤٣٧، ٤٤٣، ٤٤٥	٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩
٤٦١	٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٨، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٧، ٤٧١
- قلعة بنى سعيد: ٣٠٥	٤٧٥، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢
- قلعة بحصب = قلعة بنى سعيد	٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٤، ٥١٨
- قلعية: ١٠١، ١٠٦، ١٧٨، ٢٤٦، ٢٨٤، ٢٩٨	٥١٩، ٥٢١، ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٠
٣٨٨، ٣٩١، ٤٠٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٣	٥٣٢، ٥٣١
٤٤٨، ٤٦٢	- قرطمة: ٤٤٣
- قلنبرية: ٤٨٠، ٤٨٦	- قرقلونة: ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٩
- قلنبرية: ٣٠٨، ٣١٢، ٥٢٧	٣٩٠، ٤٢٥، ٤٢٧
- قلعة: ٢٥٥، ٣٨٩، ٣٩١، ٤٠٩، ٤٢٦، ٤٢٧	- قرمونة: ٨٥، ٣٠٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٢
٤٤٤	٤٤٧، ٤٤٨، ٤٦٢
- قمونية (إقليم): ٤٢، ٤٣	- القرن: ٤٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧
- قنبانش: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩	- قسطانية: ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٨
- قنبانية: ٤٤٩، ٤٥٠	- قسطلة: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩
- قنتش: ٤٥٧	- قسطلونة: ٣٨٧، ٤٢٦، ٤٢٨
- قنرين: ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٩٣، ٢٩٤	- قسطليون: ٣٠٩
٤٣٦، ٥١٦، ٥٢٢، ٥٢٥	- القسطنطينية: ٩٣، ١٤٠، ٣٧٨، ٣٨٣
- القواصم = القواسم (إقليم): ٤٥٨	- قسطنطينية: ٤٦
- قورية: ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٠، ٢٦٧	- قشتالة: ١٧، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ١٠٦، ١٢٠
٢٦٨، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣١٢، ٣٨٨، ٣٩١	٢٦٤، ٣٤٣، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٣
٣٩٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٧، ٤٤٨	- القصب: ٤٥٤
- قونقه = كونه: ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١	- قصر أبى دانس: ٣٠٨
- القيروان: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٧	- قصر عباد: ٤٥٧
	- قصر مضى: ٣١١

- كنيسة شنت مرية غراثية : ٤٢٥
- كنيسة شنت ياقب : ٤٠٨
- كنيسة القديس بخت أوبرنت : ٤٠٥
- كنيسة لاترينداد : ٤٠٨
- كنيسة الماء : ٣٩٨
- كوفادونجا (واقعة) : ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
- الكوفة : ٣٦٤ ، ٤٥٤ ، ٥١١
- كونكه = قونقه

(ل)

- لاختندا = اخندق (بحيرة)
- لاردة : ٩٤ ، ١٧٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٨٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧
- لافليا : ٧٧
- لانجدوك : ٢٣١
- لانجر : ٢١٠
- لبايه : ٤٥٨
- ليلة : ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
- ٤٦٢
- لبيرة : ٤٥٠
- لدسما : ١٧٨ ، ٢٨٤
- لشبونة : ٤٤٣ ، ٤٦٢
- لشدانية = لوزيتانيا = برتغال
- لشطانة : ٥٢٧
- نقنت : ٨٦ ، ١٠٣ ، ٣٠١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٥٣٢
- ابن نقيط (مرج) : ٤٤٩
- لك (قلعة) : ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢٥٥ ، ٣٨٩
- ٣٩٢ ، ٤٠٨
- لكه (وادي) : ٥٩ ، ٦٩ ، ١١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
- لواتة : ٤٤٤ ، ٤٤٦

- ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١١٩ ، ٦٦ ، ٦٥
- ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ٣٠٩ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٥١٣

- قيشاطة : ٤٦١

(ك)

- كازنوار : ١٦٥
- كاساس فيجاس (قرية) : ٧٠
- كانجا دى أوفيس : ٢٧٣
- كانجاس : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩
- كانيسكاس = كانجاس (بلدة)
- كتلونيا = قطلونية
- كرتاجونوفا = قرطاجنة
- كرتش : ٤٥٥
- كردوبا = كردوفا = قرطبة
- كركى : ٤٥١ ، ٤٦١
- كش : ٤٣٩
- الكلث : ٤٢٧
- كنانة (إقليم) : ٤٥٨
- كنتبرية (جبال) : ٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
- ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٤٠٣
- كنيسة أبيط : ٤٠٧
- كنيسة جمع القديسين : ٣٩٩
- كنيسة الذهب : ٤٢٦ ، ٤٢٧
- كنيسة سان أنطون : ٤٠٨
- كنيسة سان بلاس : ٤٠٨
- كنيسة سان خيل : ٤٠٨
- كنيسة سان ماركوس : ٤٠٨
- كنيسة سان فينت : ٤٠٨
- كنيسة سانتا ماريادلوس هويرتوس : ٤٠٨

- المجشر: ٤٩٢	- اللوار (نهر): ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢١١،
- مجلونة: ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٣٩٠، ٤٢٥، ٤٢٧	- لودون: ٢١٨
- المحيط الأطلسي: ٤٠	- لورقة: ١٠٣، ٤٢٥
- مخاضة الفتح: ٥١٩	- لورة: ٤٥٥
- مدلين: ٣١١	- ليبانا: ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٨٦
- المدور: ٤٩٢، ٤٥٤، ٤٠٦	- ليبية (ليبيا): ٢١٣، ٣٤٧
- مريبط: ٤٥٨	- ليتة (وادي): ٦٩
- مرج راهط: ١٣٠، ١٣٦، ٥٢٧	- ليدن: ٤١٩
- مرج ابن لقيط: ٤٤٩	- ليفليه: ٢١٦
- المرج (إقليم): ٤٤٤، ٤٤٦	- ليموزين: ٢٣٠
- مرسى المرية: ٤٦٣	- ليون: ٩٥، ٩٧، ١٧٨، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٢١٧، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٢، ٢٦٥، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٠٨، ٤١٣
- مرسى بجانة: ٤٦٣	(م)
- مرسى تونس: ٤٦٣	- مارتش: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠
- مرسى الخزر: ٤٦٣	- ماردة: ٣٢، ٣٤، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٤، ١٢٣، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٦، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩١، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٥٤، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٦٢، ٤٨٦، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٢
- مرسى الدجاج: ٤٦٣	- ماسيليا = مرسيليا
- مرسى موسى: ٨٥	- ماکون: ٢١٠، ٢١٨
- مرسيليا (مرسيلية): ١٥، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٧	- مالقة: ٧٣، ٧٤، ١٠١، ١٠٦، ١٩٢، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٤، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٣٩، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٦٢
- مرسية = تدمير	- المائدة (بلدية): ٧٥، ٨٤، ٣١٣، ٣٨٧، ٣٩١، ٤٤٨
- مرشانة: ٤٢٧، ٤٢٨	- المتانية: ٣١١
- مرطانية الطنجية: ٥٦	- مجانة: ١٥٦
- مرية: ٤٤٨	- مجريط: ٤٦١
- مسل: ٤٥٨	
- المصاراة: ١٨٩، ٢٣٨، ٢٩٢، ٥٢٧، ٥٢٩	
- مصر: ٣٢، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٥٩، ٧٣، ٩٧، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٧، ١٩١، ٢١٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣٣٦، ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٤٢، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٧، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨٩، ٤٩٤، ٥٠٠، ٥٠٥، ٥١١	

٥١٢	- المنبو (نهر): ٣١٢
- مصمودة: ٤٥٨، ١٤٦	- المهديّة: ٤٥٤
- المعرض (اسم مكان): ٩٠	- مواسياك: ٢٢٨
- مغارة القديسة مارية (مغارة أونجا): ٢٦٥	- مواله: ٤٥٧
- المغرب: ٤٩، ٤٨، ٤٥، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٩	- موالى موسى (إقليم): ٤٤٦، ٤٤٤
٥٩، ٦٥، ٩٩، ١١١، ١٣١، ١٣٤، ١٤٠،	- مورثيا = مورجى = مرسية = تدمير
١٤٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ١٨٥، ٢٤٢، ٣١٧،	- مورور: ١٩٤، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٥،
٣٢١، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٩٨، ٤١١، ٤١٣،	٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٦١،
٤١٥، ٤٣٩، ٤٦٣، ٤٦٦، ٤٧١، ٤٧٤، ٤٨٩،	٥٣٢، ٤٦٢
٤٩٧، ٥٠٥، ٥١٣	- مولة: ١٠٣
- المغرب الأقصى: ٢٨، ٣٩، ٥٨، ١٤٨، ١٦٤،	- ميراندا: ١٧٨، ٢٨٤
٣١٦	- ميلان: ٣٧١
- المغرب الأوسط: ٢٢، ٤٤، ١٤٦، ١٦٣، ١٦٤،	(ن)
٣١٦، ٣٠٧، ١٦٥	- ناجره: ٤٤٤
- مقلونة = مجلونة	- ناربو نسس: ١٦
- مكانسة: ٥١٥	- النالون (نهر): ٩٦
- ملوية (نهر): ١٥٥، ١٦٤	- نيرة = نافار: ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٣، ٣٩٤، ٤٠٣،
- مليلة: ٤٥٧	٤٢٨، ٤٠٩
- محس: ٤٥	- نخرة: ٢٥٥
- منيتة: ٤٢٧، ٤٢٨	- نربونة: ١٦، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٥،
- منيتشة: ٣٨٧، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٤٨، ٤٥٠	٤٤٦
- منجبار: ٧٤	- نفراوة: ١٥٩
- المنديجو: ١٧٨	- نفزة: ٦٦، ٣٩٨، ٤٤٧
- منريسا: ٢١٣	- نقدورة = بقدورة
- منزل طيء: ٣٠٥	- نهر ابره: ٤٥٧
- منزل همدان: ٣٠٥	- نهر الأشقر: ٣٠٩
- المنشا: ١٧	- نهر التاجه: ٤٠٩
- المنكب: ٥٢٢	- نهر الدوراتون: ٤٠٩
- المنهو (نهر): ١٧٨، ٢٨٠	- نهر دويره: ٤٠٩
- منيابة: ٤٥٥	- نهر شلون: ٤٥٧
- المنيرة: ٤٥٨	

- ٤٣٩، ٤٢٨، ٤٢٦، ٣٤٢، ٣١٢، ٣١١، ٣٠١
٤٦١، ٤٥٠، ٤٤٧، ٤٤٦
- وادى الردانه : ٢٢٣
- وادى الرمان : ٤٤٩
- وادى سليط : ١٧٦، ١٧٧، ٢٨٢
- وادى شربة : ٥٢٣
- وادى شوش (شوس) : ٣٣٨، ٤٠٦، ٤٧٤، ٤٩٢
- وادى عبد الله : ٤٤٨، ٤٤٩
- وادى لكه : ١١٤، ١٩٥، ٣٠٠، ٤٨٥
- وادى المستعربين : ٣٤٤
- الوادى الأبيض : ٣٠٠
- الوادى الكبير : ١٧٤، ١٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٤٧٦، ٤٨٥، ٤٨٦، ٥٢٧، ٥٢٨
- الواديانة : ٣٠٠
- واسط : ٤٥٤
- وايه الشعراء : ٤٥٦
- وايه الملاحه : ٤٥٦
- وبدة : ٣١١
- ودان : ٤١
- وشقة (أشقة) : ٩٤، ٣١٢، ٣٨٩، ٤٣٩، ٤٤٤
٤٦٢، ٤٥٠، ٤٤٥
- وقش : ٤٤٦
- الوليد (بلد) : ٣٠٩
- وهران : ٣٠٩
- (ى)
- يابرة : ١٠١، ٣٨٨، ٤٢٧، ٤٢٨
- يابسة = يباسه
- اليمن : ١٨٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٤٧، ٤٥٩، ٤٩٢
٥٣٠، ٥٢٦، ٥٢١، ٤٩٣

- نهر شليقه : ٤٥٧
- نهر موسى (فالوثا) : ٩٠
- النهران : ١٣٥
- نويه : ٤٥٧
- النوبة : ١١٢
- نوستراسيا : ٢٢٠
- نومشو : ٤٢٥، ٤٢٧
- نيس : ٢٤١
- نيقية (جمع) : ٣٧٨
- نيم : ٢٠
- نيمه : ٢٠، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٥
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٣٩٠
- نينى (نهر) : ٤٦
- (هـ)
- هانيبال (طريق) : ٧٤
- هدنة : ١٦٣، ١٦٨
- الهزهاز : ٤٥٦
- هسباليس (إشبيلية) : ١٤
- هسبانيا : ١٦
- هنارس (قلعة) : ٧٥
- الهند : ٣٦، ٣٩، ٤٨٧
- هيطل : ٤٣٩، ٤٤٨
- (و)
- وادى آش : ١٢٠، ٣٠٢، ٣٨٦، ٣٩١، ٣٩٣
٤٢٨، ٤٢٦، ٣٩٩
- وادى آنه : ٨٦، ٩٠، ٤٨٦
- وادى ابره الأوسط : ٣٠٠
- وادى الأروكامبو : ٩٠
- وادى البرباط : ١١١، ١٧٧، ٢٠٠، ٢٨٣
- وادى الحجارة : ٧٥، ٩٤، ١٧٨، ٢٠٧، ٢٨٤

فهرس التوارىخ المىلادىة

٣٤-م:٦٠٣-	٤٢٤- قبل المىلاد :
٢٠-م:٦١٢-	٤٢٤- قى.م :
٤١١-م:٦١٣-	٤١٠-م:٧٠-
٢٠-م:٦٢١-	٣٧١-م:٢٨٠-
٣٧٣-م:٦٢٣-	٤٣٠، ٤٢٩-م:٢٩٧-
٨٨٣-م:٦٤١-	٣٧١-م:٣٠٠-
٤١، ٣٩-م:٦٤٢-	٣٧١-م:٣١٢-
٤٢-م:٦٤٧-	٣٧١-م:٣٣٦-
٤٢-م:٦٤٨-	٤٢٩-م:٣٧٠-
٢٠-م:٦٤٩-	١٣-م:٣٩٥-
٣٨١-م:٦٥٣-	٤٢٩-م:٤٠٠-
٤١-م:٦٥٤-	١٣-م:٤٠٨-
٤٢-م:٦٦٥-	١٣-م:٤١٠-
٤٢-م:٦٦٦-	١٤-م:٤١١-
٤١-م:٦٦٨-	١٣-م:٤١٦-
٤٣، ٤١-م:٦٦٩-	١٣-م:٤١٨-
٤٣، ٤١-م:٦٧٠-	١٤-م:٤٢٩-
٢٠-م:٦٧٢-	١٥-م:٤٦٧-
٤٣-م:٦٧٤-	١٥-م:٤٧٦-
٤٣-م:٦٧٥-	١٦-م:٥٠٧-
٢٠-م:٦٨٠-	١٨-م:٥٥٤-
٣٨١، ٤١-م:٦٨١-	١٨-م:٥٦٨-
٤٤-م:٦٨٢-	٣٤-م:٥٧١-
٥٧، ٤٤-م:٦٨٣-	١٨-م:٥٨٦-
٤٤-م:٦٨٤-	١٨-م:٥٨٧-
٤٥-م:٦٨٨-	٣٧٩، ٣٧١-م:٥٨٩-

٤٧٧، ٢٢٠، ٢١٧، ١٣٨: م٧٣٠ -	٤٥: م٦٨٩ -
٣٢٩، ٢٧٣، ٢٧١، ٢٦٣: م٧٣١ -	٤١١: م٦٩٤ -
٤٧٤، ٢٢٩، ٢٢٣، ٢٢١، ١٦٩، ١٤٤: م٧٣٢ -	٤٥: م٦٩٥ -
٤٧٨، ٤٧٧	٢١: م٧٠٠ -
١٤٤: م٧٣٣ -	٤٧: م٧٠١ -
٥٠٢، ٤٧٨، ٤٠٢، ٢٧٣، ١٦٩، ١٤٤: م٧٣٤ -	٥١: م٧٠٢ -
٢٣٢: م٧٣٥ -	٤٥: م٧٠٥ -
٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٢، ٢٣٤: م٧٣٧ -	٤٨: م٧٠٦ -
٢٦٢: م٧٣٨ -	٣٩، ٢٣: م٧٠٨ -
٢٨٥، ٢٧٩، ٢٣٧، ١٤٨، ١٤٧: م٧٣٩ -	٥٧، ٢٣: م٧٠٩ -
٢٠٩، ١٤٩، ١٤٨: م٧٤٠ -	٦٦، ٦٢، ٢٥: م٧١٠ -
١٨٦، ١٧٦، ١٧٤، ١٥٧، ١٥٢، ١٥٠: م٧٤١ -	٤٧٦، ٢٨٩، ٧١، ٦٧، ١٩: م٧١١ -
٤٧٨، ٤٠١، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٢، ٢٧٣، ٢٣٨	٤٧٦، ٨٤: م٧١٢ -
٥٠٢	٤٧٦، ١١٦، ١٠٦، ١٠١، ٨٦: م٧١٣ -
٤٧٨، ٢٩٢، ١٦٧: م٧٤٢ -	١٤٢، ١٠٦، ١٠١، ١٠٠، ٩٧: م٧١٤ -
٢٦٩، ١٩٠، ١٦٧، ١٥٨، ١٤٤، ١٢٩: م٧٤٣ -	١٤١، ٩٧: م٧١٥ -
٤٧٨، ٤٧٤، ٤٣٦، ٤٠٤، ٤٠١، ٢٩١،	٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧١، ٤٠٢، ٢٩٠، ١٢١: م٧١٦ -
١٥٨: م٧٤٤ -	٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦٩، ١٢٢، ١٢١: م٧١٧ -
٤٧٨، ٤٧٤، ١٩٥، ١٥٩: م٧٤٥ -	٤٨٢، ٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٣: م٧١٨ -
٤٧٨، ٢٦٩، ٢٣٩: م٧٤٦ -	٤٧١، ٣٤٠، ٢٧٣، ١٢٢، ١٢١، ٩٢: م٧١٩ -
٤٧٨، ٤٠٥: م٧٤٧ -	٤٧٧
٤٠٥، ١٧٧: م٧٤٨ -	١٤٢، ١٤١، ١٢٩: م٧٢٠ -
٥١١، ٢٠٠، ١٦٠: م٧٤٩ -	٢١٢، ٢٠٩، ١٤٢، ١٤١، ١٢٩، ١٢٥: م٧٢١ -
٤٠٨، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٩، ١٦٠: م٧٥٠ -	٤٧٧، ٢٧٠
٢٨٢، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٩، ٢٣٩، ١٧٨: م٧٥١ -	١٤٤، ١٢٩: م٧٢٤ -
٤٥١، ٢٨٥، ٢٧٩، ٢٣٩، ٢١٥، ١٦٧: م٧٥٢ -	٢٧٠، ٢١٧، ٢١٦، ٢١١: م٧٢٥ -
٥١٥، ١٧٨، ١٦٢: م٧٥٣ -	٤٧٧، ٢١٦، ٢١١، ١٣٠، ١٢٩: م٧٢٦ -
٢٨٣: م٧٥٤ -	١٤٣: م٧٢٧ -
٥٢١، ٤٠٨، ٢٠٠، ١٦٠: م٧٥٥ -	٤٧٧، ٢١٦، ١٤٣: م٧٢٨ -
٢٨٩، ٢٨٤، ٢٨٠، ٢٦٩، ١٦٠، ١١٣: م٧٥٦ -	٤٧٧: م٧٢٩ -

١٦٣:م٨٥٩-	٥٣١، ٥٢٨، ٥٢٧، ٥٢٦، ٤٧٨
٤٥٠:م٨٩٠-	٧٥٧:م١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ٢٨٥-
٢٨٩:م٩٢٩-	٧٥٨:م١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ٢٤٠-
٤٥٠:م٩٨٥-	٧٥٩:م٢٤٠، ٢٤١-
٤٠٢:م١٠٥٨-	٧٦٠:م٢٨٥-
٤٩٤:م١٠٧٧-	٧٦١:م١٦٣-
٣٩٤:م١٠٧٨-	٧٦٥:م١٦٠، ١٦٨-
٤٢٢، ٣٩٤، ٣٤٢:م١٠٨٥-	٧٦٦:م١٦٠-
٤٢٢:م١٠٩٤-	٧٧٠:م١٦٨-
٣٤٢:م١١١٨-	٧٧١:م١٦٨-
٣٤٢:م١١٣٣-	٨٠٠:م١٦٤-
٣٤٢:م١١٤٦-	٨٠١:م١٦٨-
٤٢٢:م١٢٨٦-	٨٤٤:م٤٥٠-
٤١٩:م١٨٨٩-	٨٤٨:م٤٥٠-

فهرس التواريخ الهجرية

٩٣- هـ : ٨٤ ، ٤٧٦	٢١- هـ : ٣٩ ، ٤١
٩٤- هـ : ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦	٢٧- هـ : ٤٦
٩٥- هـ : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ٤٧١	٢٨- هـ : ٤١ ، ٤٢
٤٧٦	٣٥- هـ : ٤١
٩٦- هـ : ١٠٦ ، ١٤٢	٣٨- هـ : ٤٢
٩٧- هـ : ٩٣ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٤١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٠	٤٤- هـ : ٤٢
٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٧١	٤٥- هـ : ٤١ ، ٤٢
٩٨- هـ : ٢٦٣ ، ٢٦٩	٤٨- هـ : ٤١
٩٩- هـ : ٩٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٦٩	٤٩- هـ : ٤١ ، ٤٣
١٠٠- هـ : ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٠٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣	٥٢- هـ : ٤٣
٤٨٢ ، ٤٧٧ ، ٤٧١ ، ٣٤٠	٥٥- هـ : ٤٣
١٠١- هـ : ١٢٩ ، ١٤١	٥٩- هـ : ٤٤
١٠٢- هـ : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٢	٦٠- هـ : ٤٤
٤٧٧	٦٢- هـ : ٤٤ ، ٤١
١٠٣- هـ : ١٢٩ ، ١٣٦ ، ٤٧٧	٦٣- هـ : ٥٧
١٠٥- هـ : ١٢٩ ، ١٤٤	٦٩- هـ : ٤٥
١٠٧- هـ : ١٣٦ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٤٧٧	٧١- هـ : ٤٥
١٠٩- هـ : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٣	٧٦- هـ : ٤٥
١١٠- هـ : ١٣٦ ، ٢١٥ ، ٤٧٧	٨١- هـ : ٤٧ ، ٤٨
١١١- هـ : ١٣٨ ، ٤٧٧	٨٥- هـ : ٤٥
١١٢- هـ : ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٤٧٧	٨٦- هـ : ٤٨
١١٣- هـ : ٢٧٣ ، ٣٢٩	٨٧- هـ : ٥١
١١٤- هـ : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٦٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٧	٨٩- هـ : ٥٦
٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨	٩٠- هـ : ٣٩ ، ٩٢
١١٥- هـ : ٢٢٧ ، ٢٢٨	٩١- هـ : ٦٦ ، ١٠٥
١١٦- هـ : ١٤٤ ، ١٦٩ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٤٧٨	٩٢- هـ : ٦٧ ، ٧١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٨٩ ، ٤٧٦
٥٠٢	

١٣٧ هـ: ٥١٩ -	١٢١ هـ: ٢٧١، ٢٥٩ -
١٣٨ هـ: ١١٣، ١٦٠، ٢٦٩، ٢٨٤، ٢٨٩،	١٢٢ هـ: ١٤٧، ١٤٨، ٢٦٩ -
٥٢٨، ٥٢٧، ٥٢٦، ٥٢٢، ٥٢١، ٤٧٨، ٤٠٨	١٢٣ هـ: ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٧٠، ١٧٤،
٥٣١	٤٧٨، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٢، ٢٧٣، ٢٣٨، ١٨٦
١٤٠ هـ: ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ٢٤٠ -	٥٠٢
١٤١ هـ: ١٦٣ -	١٢٤ هـ: ١٥٦، ١٥٧، ١٧٦، ٢٨٢، ٢٩٢ -
١٤٢ هـ: ٢٨٥ -	٤٧٨
١٤٤ هـ: ١٦٣ -	١٢٥ هـ: ١٢٩، ١٤٤، ١٥٨، ١٩٠، ٢٩١ -
١٤٨ هـ: ١٦٠ -	٤٧٨، ٤٧٤، ٤٣٦
١٨٠ هـ: ١٦٤ -	١٢٦ هـ: ١٥٨ -
١٨٤ هـ: ١٦٤ -	١٢٧ هـ: ١٥٩، ١٩٥، ٤٧٨، ٤٧٤ -
٢٣٠ هـ: ٤٥٠ -	١٢٩ هـ: ٢٣٩، ٢٦٩، ٤٧٨ -
٢٣٤ هـ: ٤٥٠ -	١٣٠ هـ: ٤٠٥ -
٢٧٦ هـ: ٣٤٤ -	١٣١ هـ: ٢٠٠، ٤٠٥ -
٣١٦ هـ: ٢٨٩ -	١٣٢ هـ: ١٦٠، ٥١١ -
٤٧٨ هـ: ٤٢٢ -	١٣٣ هـ: ٢٣٩، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩ -
٤٨٧ هـ: ٤٢٢ -	٤٠٨، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٧٢، ٢٧١
٦٨٥ هـ: ٤٢٢ -	١٣٤ هـ: ١٧٨، ٢٣٩، ٢٨٠ -
٨٨٦ هـ: ٤٢٢ -	١٣٥ هـ: ١٦٢، ٢٨٥، ٤٥١ -
	١٣٦ هـ: ١٧٨، ٢٠٠، ٢٨٣، ٥١٥، ٥١٧ -

فهرس القبائل والطوائف والمذاهب

(أ)

- آل شهيد : ٣٣٠

- آل غانم : ٣٣٠

- الآريوسية : ٣٧٨، ٣٧٢

- الآريون : ٣٣، ١٨، ١٦

- الألان : ٢٢٥، ١٤، ١٣

- الإباضية : ١٦٤، ١٦٣، ١٦١، ١٣٥، ١٣٤

٣١٦، ١٦٦

- الأثناسيوسية : ٣٧٨

- الأزارقة : ١٣٥

- الأزد : ٢٩٩

- أزديمن : ١٨٤

- الأسالة : ٣٤٨، ٣٤٤، ٣٤١

- الإسبان : ٣١، ٣٠، ٢٦، ٢٤، ٢٣، ١٩، ١٨

١٨٨، ١٧٩، ١٧٧، ١٥٥، ٨٧، ٣٥، ٣٢

٣٤٨، ٣٣١، ٢٧٩، ٢٦٤، ٢٥٧، ٢٥٦، ١٩٩

٤٩٩، ٤٩٤، ٣٩٩، ٣٨٠

- الإسبان الرومان : ١٥

- الإسبان اللاتين : ٢٥

- أسد (قبيلة) : ٣٠٢، ١٢٠

- الأشعر : ٣٠١

- الإغريق : ١٦

- الأفاقة : ١٥٩، ١٥٨، ١٥٢، ١٤٩، ١٤٨، ٤٧

٤٨٣، ١٦٨، ١٦١

- أفضى بن مضر (قبيلة) : ٣٠٤، ٣٠٣

- الأقباط : ٣٧٨

- الألبون : ٢١٦

- الألمان : ٢٢٩

- الخاصة : ٣١١

- الأمويون : ١٣٤، ١٢٩، ١٢٢، ١١١، ٦٧

٣٢٢، ٣١٣، ٢٤٢، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٤٨، ١٣٦

٥١٦، ٥١٤، ٥١٣، ٥١١، ٤٧٤، ٣٤٩، ٣٢٥

٥٣٢، ٥٢٤، ٥٢٠، ٥١٧

- الأندلسيون : ٣٧٠، ٣٤١، ١٧٩

- الأنصار : ٣٠٣، ٣٠١

- أهل ما وراء البحر : ٢٢

- الأورثوذكسية : ٣٨٣، ٣٨٠

- الأوروبيون : ٢٥٧

- الأوس : ٣٠٤، ٣٠٠

- إبياد بن نزار (قبيلة) : ١٢٠

- الأيبيريون : ٢٥٦، ٧٦، ٧٤، ٣٠، ١٨، ١٦

٣٣٨، ٢٨٦، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٧٣، ٢٥٩، ٢٥٨

٣٧٩، ٣٦٨

- الإيزيدورية : ٣٩٣

(ب)

- البافاريون : ٢٢٠

- باهلة (قبيلة) : ٣٠٣

- البتر : ٣٠٨، ٣٠٧، ١٤٢، ١٣٣، ٤٦، ٤٥، ٤١

٣١٦، ٣١٢

- البرانس : ٣١٢، ٣١٠، ٣٠٨، ١٣٣، ٤١

- البربر : ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤١، ٢٨، ٢٢

٦٧، ٦٢، ٥٧، ٥٥، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧

١١١، ١٠٦، ٩٦، ٩٤، ٨٦، ٧٤، ٧٢، ٧١

١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ١٢٥، ١١٦، ١١٥، ١١٤

١٤٥، ١٤٤، ١٤٢، ١٤١، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤

٤٤٨، ٤٧٠، ٤٩٢، ٤٩٨، ٥١١، ٥١٣، ٥١٥،
٥١٦، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٥، ٥٢٨،
٥٣٠، ٥٢٩

- بنو أنجلين: ٣٤٦

- بنو بارون: ٣٢٥

- بنو برزال: ٣٠٩

- بنو بلال: ٣١٢

- بنو حجاج: ٣٩٨، ٣٣٩

- بنو حجر الجرز: ٣٩٨، ٣٣٩

- بنو حدير: ٣٢٩، ٣٢٨

- بنو حزم البوابون: ٤٠٦

- بنو الخليع: ٣١٦، ٣١٩، ٣٢١، ٥٢٦

- بنو خويلد بن عقيل: ٤٥٩

- بنو دانس: ٣١٢

- بنو ذى النون: ٣١١

- بنو رزين: ٣١١

- بنو رستم: ٥١٥

- بنو رسين: ٣١١

- بنو زروال: ٣١١

- بنو زهرة: ٨٩، ٢٠١، ٢٠٢

- بنو سالم: ٣١٢، ٣٢٦، ٤٤٧

- بنو سعد: ٢٠٢

- بنو سليمان: ٤٩٥

- بنو سيد: ٣٣٩

- بنو شريق: ٣٤٦

- بنو شهيد: ٣٢٨، ٣٢٩

- بنو صبرون بن شيب: ٣١٢

- بنو عامر بن كلاب: ٢٠٢

- بنو عبد الدار: ٤٩١

- بنو عبد الرؤوف: ٣٢٩

١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،

١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥،

١٦٧، ١٧٢، ١٨٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٤، ٢٢٦،

٢٣٨، ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٨٠، ٢٨١،

٢٩١، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٤،

٣٩٩، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٨٣، ٤٨٨،

٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٤، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٨،

٥٢١، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٨

- بربر العدوة: ١٧٢

- برغواطة (قبيلة): ١٦٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٣٢، ٥٥،

- برغنديون: ٢٢٤، ٢١٨

- البروتستية: ١٦٥

- البيزنطيون: ٤١، ٤٢، ٥١، ١٣٣، ٣٦٩، ٣٧٩،

٤٣٦

- البشكنس: ٢٧، ٩٥، ٢٠٧، ٥٢٣، ٥٢٤

- بكر بن وائل (قبيلة): ١٢٠

- البكريون: ٤٥٩

- البلجيون: ١٨٨

- البلديون: ١٥٠، ١٥١، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩،

١٩٠، ١٩١، ٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٦،

٣١٣، ٣١٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٣٠، ٤٠٤،

٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٤، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٨، ٥٣٢،

- بلي (قبيلة): ٣٠٣، ٣٠١

- بنو الأخطل: ٢١١

- بنو أذفنش: ٢٦٨، ٢٧٨

- بنو الأغلب: ١٦٤، ١٦٨، ٤٩٨

- بنو إلياس: ٣١١

- بنو أمية: ٤٩، ١١٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٤،

١٣٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٣،

١٥٩، ١٦٠، ١٨٤، ٢٠٢، ٢٩٠، ٢٩٧، ٢٩٩،

٣١٠، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥،

٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٥١، ٣٥٨، ٣٨٥،

- بنو موسى: ٣٢٨	- بنو أبي عيلة: ٣٢٨، ٣٢٩
- بنو نبيه: ٣١١	- بنو عبدوس: ٣١١
- بنو نعمان: ٣١٢	- بنو عدى بن عبد الدار: ٢٠١
- بنو نمير: ٢٠٢	- بنو عذرة: ٣٠٢
- بنو هذيل: ٣١١	- بنو عزون: ٣١١، ٣١٢
- بنو وانسوس: ٣١٦، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٧	- بنو عقيل: ٥٢٦
- بنو ورممان: ٤٦٥	- بنو عميرة: ٣١١
- بنو يفرن: ٤٦، ١٦٣، ١٦٨	- بنو عوسجة (المصموديون): ٣٠٨، ٣١٢
- البوتشيلاري: ٢٩	- بنو غتيل: ٤٥٨، ٤٥٩
(ت)	- بنو غرسية: ٣٢٥
- تحيب: ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٤	- بنو غزلون: ٣١١، ٣١٢
- تميم: ٢٩٩، ٣٠٣، ٥٣٣	- بنو غومس: ٣٢٥
(ث)	- بنو فطيس: ٣٢٩
- ثقيف: ٥٢٤	- بنو الفرج: ٣١١، ٣١٢، ٣٢٦
- ثوابة: ٣٠١	- بنو فرفرن: ٣١١
(ج)	- بنو فطيس: ٣٢٩
- جذام (قبيلة): ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٥٣٠	- بنو قارله: ٣٢٥
- الجذاميون: ١٩٤	- بنو قاسم: ٣١٢
- الجرمان: ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥٠، ٣٣٦، ٣٦٦	- بنو القاسم الداخل: ٤٥٨
- ٣٧٥، ٤١١، ٤١٥، ٤٣٣، ٤٣٤	- بنو القبطرنة: ٣٤٦
- جراوة (قبيلة): ٤٦	- بنو قسى: ٩٥، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩
- جزيلة: ٣٠١، ٣٠٢	- بنو لثق: ٣٤٦
- جلالقة: ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٤	- بنو مخزوم: ٣٢٦
- جهينة: ٢٩٢	- بنو مدرار: ١٦٤
(ح)	- بنو مرتين: ٣٢٥
- الحضارمة: ٣٠٢	- بنو مرة: ٤٥٥، ٤٥٨
- حمير: ١٩٧، ٢٩٦	- بنو مسلمة: ٣٣٩، ٣٩٨
(خ)	- بنو مضى: ٣١١
- الخارجية: ٤٩، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٤	- بنو مغيث: ٣٢٩
	- بنو منخل (قبيلة): ٣٠٣

- الرجال (بيت) : ٣٢٩

- زناتة (قبائل) : ٤٦، ٥١، ١١٦، ١٣٣، ١٣٤،
١٤٢، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٨، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١١،

٤٥٨، ٣١٦

- الزناتيون : ١١٦، ١٥٨، ١٥١، ١٦٢، ١٦٠،
٣١٦، ١٦٧، ١٦٤

- زناتية : ٣٠٨

- زهرة : ٣٠٣، ٣٠٢

(س)

- الساليون : ٢٤٩، ٢٢٤

- سرقة : ٣١١

- سعد العشيرة : ٣٠٢

- السكسون : ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٩

- سلول (قبيلة) : ٣٠٣

- سليم (قبيلة) : ٢٠٢

- السود (السودان) : ٧٤، ٧٧، ٣١٩، ٣٣٩

- السويف : ١٣، ١٤، ٣١، ٣٢، ٢٢٥، ٢٢٩

(ش)

- الشاميون : ١٥٣، ١٦١، ١٧٦، ١٨٧، ١٨٨،
١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩٠،٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٨، ٣١٩،
٣٢٢، ٣٣٠، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٣٧، ٤٦٧، ٤٦٩،

٤٧٤، ٤٨٣، ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٣٢

- شوذر (قبيلة) : ٣٠٣

- الشيعة : ٤٩٨

(ص)

- الصفرية : ٤٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٧، ٥٣، ١٥٩،
١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ٣١٦

- الصقالية : ٣٥١، ٤١١، ٤١٥

- صنهاجة : ١٦٨، ٣٠٨، ٣٠٩

- الصنهاجيون : ٣١٦

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ٣١٦

- خثعم (قبيلة) : ٣٠٢

- الخرسانيون : ١٦٠

- الخزرج : ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٤

- خزيمه (قبيلة) : ٣٠٢

- حُشين : ٣٠٣

- الخلفيدونية : ٣٨٠

- الخوارج : ١٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ١٥٦، ١٦٠،
١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٨،

١٧٩، ٥١٤

- خولان (قبيلة) : ١٢٠، ٣٠٢، ٣٠٣

- خويلد : ٣٠٢

- الحبار بن مالك (قبيلة) : ٣٠١

(د)

- دوس : ٣٠٢

- الدونانية (حركة) : ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧

- الدوناتيون : ١٦٥، ١٦٦

(ر)

- ربيعة : ١٩٧، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٢٤

- ذورعين : ٣٠٢

- الروم : ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١٣٤،
١٦٨، ٤٨٠، ٤٤٧، ٤٥٥- الرومان : ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ٣١، ٣٢، ٣٣،
٣٤، ٣٦، ٣٩، ٧٤، ٧٦، ١٠٧، ٢٢٤، ٢٥٠،٢٩٨، ٣٢٠، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٨٦، ٤١٠،
٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣،

٥٠٧

- الرومان الإيبيريون : ٢٣، ٢٤، ٣٤، ٧٦

- ريكو نكيستا : ٢٥٦

(ز)

- الزبارة (نسيم) : ٣٠٣

- الزيريون : ١٣٦

- غمارة (قبيلة) : ٣١٠، ٧١، ٥٥

- غنم (قبيلة) : ٣٠٣

- الغيطشيون : ٧٣

(ف)

- الفرس : ٤٥٣، ٣٢٥

- الفرنجة : ٢٨، ١٤٠، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣،

٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٦،

٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩،

٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٦٦، ٢٤٢،

٣٤٣، ٣٨٠

- الفرنسيون : ٣١، ٣٩، ١٦٤

- الفريزيون : ٢٢٠

- فهر (قبيلة) : ٢٩٤، ٥٣١

- الفهريون : ١٩٦

- الفينيقيون : ٣٣، ٢٥٦، ٢٥٨

(ق)

- القبط : ٣٥٥

- قحطان : ١٨٣، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣،

٣٠٤

- القحطانية : ١٨٤، ٢٩٩، ٣٢٣

- قريش : ٤٢

- القرشيون : ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤

- القشتاليون : ٣٤٢

- القشتلن : ٣٤٣

- قضاة (قبيلة) : ١٩٧، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٥٢٦، ٥٣٠

- القضاعيون : ٢٩٥

- القوط : ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩،

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩،

٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٧١،

٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٣،

٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩

(ض)

- ضريبة : ١٦٤

(ط)

- الطركونية (ولاية) : ٢٢

- الطماح (قبيلة) : ٣٠٣

- طيء (قبيلة) : ٣٠٢، ٥٣٠

(ع)

- العامريون : ٣٣١

- العباسيون : ١٦٣، ٤٢٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣

- عدنان (قبائل) : ١٨٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠١،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤

- العدنانية : ١٨٤، ٢٩٩، ٣٠٠

- عذرة (قبيلة) : ٣٠٢، ٣٠٣

- العرب : ٢٢، ٣١، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧،

٤٩، ٥٥، ٥٨، ٦٧، ٦٨، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٧،

٨٤، ٩٤، ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٥،

١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ٢٥٠، ٢٦٢،

٣١٣، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٧٠، ٣٩٩، ٤١٢، ٤٣٠،

٤٧٠، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٤، ٥٣٢

- العرب اليمنية : ١٤٤

- عرمم : ٣٠٢

- عك : ٣٠١

- العلويون : ١٣٤

- عنس : ٣٠٣

- عوف (قبيلة) : ٣٠٣، ٣٠٤

(غ)

- غافق (قبيلة) : ١٣٩، ٢٢١، ٣٠١، ٣٠٢، ٤٩١،

- الغاليون : ١٦، ٢٣٦، ٤٢٥

- الغاليون الرومان : ١٥، ١٦، ٢٤٩

- غسان (قبيلة) : ٣٠٢، ٣٠٣

- غطفان : ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٩٤، ٣٠١

- كندة: ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢
- كهلان (قبيلة): ١٣٩
- الكوريالس: ٣٧٦
- (ج)
- لبص (قبيلة): ٣٠١
- لحم (قبيلة): ١٧٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٩٤، ٢٩٦
- ٣٠٢، ٣٠١
- اللخميون: ١٩٤، ٤٥٩
- لواتة (قبيلة): ٤١، ١٣٢
- اللواتيون: ٣٠٨
- اللومبارد: ٢٣٤، ٢٤٩، ٣٨١
- الليونيون: ٣٩٤
- (م)
- المالكية: ٥٠٦
- محارب بن فهر (قبيلة): ٢٠٢، ٢٩٥، ٢٩٩
- مديونة (قبيلة): ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١
- مذحج (قبيلة): ١٩٧، ٢٩٦
- المرابطون: ١٦٤
- مراد (قبيلة): ١٢٠، ٣٠١
- مرة (بن ذبيان): ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣
- المروانيون: ١٢٠، ١٣٦
- مزينة (قبيلة): ٣٠٣
- المسالة: ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٩
- المسيحيون الآريون: ١٦
- المسيحيون الكاثوليك: ١٦
- المصامدة: ٣٠٨
- المصريون: ٣٧٨، ٤٨٣، ٤٩٧
- مصمودة: ٣١١، ٤٥٩
- مضر: ١٨٤، ١٨٧، ١٩٧، ٢٩١، ٢٩٦، ٢٩٩
- ٣٢٣، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٠

- ١٣١، ١٣٨، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٠، ٢٥٥
- ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٣
- ٢٨٢، ٢٩٨، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٥٧
- ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥
- ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤١٠
- ٤١١، ٤١٣، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٤
- ٤٣٥، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٦٩، ٥٠٧
- قيس (قبيلة): ١٨٤، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٢
- ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٢٣
- القيسية: ٨٤، ١٣٠، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥
- ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٠
- ١٧١، ١٧٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٧
- ١٩٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٧، ٥٢٥
- ٥٣٢، ٥٣٩
- القيسيون: ١٤٣، ١٥١، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٤
- ١٩٦، ٢٠١، ٢٣٨، ٢٧٤، ٢٩٦، ٢٩٤
- ٣١٨، ٤٧٤، ٥١٣، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٢٨
- (ك)
- كاثوليك: ١٦، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٣
- الكاثوليكية: ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٢، ١٦٥، ٣٤٢
- ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٧
- الكارولنجيون: ٣١
- الكارولنجية (دولة): ٢٤٤
- كتامة (قبيلة): ٥١، ٥٠٠، ٣٠٩، ٣١٠
- كلاب: ٢٠٢
- كلب (قبيلة): ١٨٤، ١٩٧، ٢٩١، ٢٩٦
- الكلييون: ١١٥، ١٣١، ١٣٢، ١٤٣، ١٧٣
- ٢٩٦، ٥٢١
- الكلية: ١٣٠، ١٥٤، ١٧١، ١٧٥، ١٩٥
- ١٩٦، ٢٩٢
- الكلث: ٢٥٨
- الكلونيون: ٣٩٥
- كتانة: ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣، ٤٥٨، ٥٢٦

٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٥، ٢٤٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٣٣٥
٣٦٦، ٣٥٩، ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٤، ٣٥٢، ٣٤٩
٤٠٢، ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٩٢، ٣٨٦، ٣٨٤، ٣٧١
٤٧٨، ٤٦٦، ٤١٤، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٥
٤٩٤، ٤٨٦، ٤٨٠

- نفزاوة: ٤١

- نفزة (قبيلة): ١٦١، ٢٠٢، ٣٠٨، ٣١١، ٥١٥

- نمر بن مضر: ٣٠٢

- نفوسة (قبيلة): ٤١، ١٣٢، ١٦٣، ١٦٤، ٣٠٧، ٣٠٨

- النفوسيون: ١٦٤

- نهد (قبيلة): ٣٠٢

- النور مندى: ٢٢٠

(هـ)

- الهاشميون: ٣٤٧

- همدان (قبيلة): ٣٠٢

- هواة (قبيلة): ٥١، ١٣٢، ١٦١، ١٦٨، ٣٠٧، ٣١١، ٣٠٨

- الحواريون: ٣٠٨

- هوازن (قبيلة): ١٢٠، ٢٠٢، ٣٠١، ٣٠٤

- هوازن بن عكرمة (قبيلة): ٣٠١

- الهون: ١٣

(و)

- الوثنيون: ٣٢

- ورفجومة (قبيلة): ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧

- الوندال: ١٣، ١٤، ٣١

- آل وهب بن عامر: ٣١٢

(ي)

- اليمينية: ٨٤، ١٣٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥

- المضيرون: ٢٩٤، ٥٢١

- المضرية: ١٦٣، ١٧٣، ١٨٥

- مطروح: ٣٠٣

- مطغرة (قبيلة): ١٤٧، ٣٠٧، ٣٠٨

- المعتزلة: ٣٧٦

- معد: ٥٣١

- المغاربة: ١٥٨، ١٦٦

- مغالبة العرب: ٤١

- مغيلة (قبيلة): ١٥٦، ١٦٨، ٣٠٨، ٣١١، ٥٢٢، ٥٢١، ٥١٦، ٥١٥

- مكناسة: ١٤٦، ١٤٧، ١٦٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٥١٥

- ملزووة (قبيلة): ٣٠٨

- ملكان (قبيلة): ٣٠٣، ٣٠٤

- المهالبة: ١٦٤

- الموالي: ٧٤

- موالى موسى: ٨٦

- الموحدون: ١٦٤

- المولدون: ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٩، ٣٥١، ٣٤٩

- المونوثليون: ٣٨٣

- المونوفيزيون: ٣٨٣

- المونوفيزية: ٣٧٨، ٣٨٠

- المير وفنجيون: ٢٢٥، ٢٣٩

(ن)

- الناربونية (ولاية): ٢٢

- النساطرة: ٣٨٣، ٣٨٤

- النسطورية: ٣٨٠، ٣٨٥

- النصارى: ٩٢، ١٠٥، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٦، ١٦٨، ١٩٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٦

- اليهود : ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٧٤،
٧٨، ٨٦، ٨٧، ١٠١، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٤٧،
٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٨٢، ٤١٠،
٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤٦٦، ٤٨٦،

٤٨٧

- اليهود الأشكنازيون : ٤١٥

- اليهود السفراديون : ٤١٥

- اليهود المستقرون : ٤١١

- اليونان : ٣٣، ٣٤، ٢٥٨

١٥٤، ١٧١، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦،
١٩٨، ٢٣٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٧، ٣٢٢،
٤٨٩، ٥٢٩، ٥٣٠

- اليعنيون : ١٣٨، ١٤٦، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨،

١٦٩، ١٧٠، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠،

٢٠٢، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٢،

٢٩٦، ٣٠٢، ٣٢٤، ٤٦٩، ٤٧٤، ٥١٣، ٥١٦،

٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤،

٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١

فهرس الكتب والمدونات التي ذكرت في متن الكتاب

- تاريخ مسلمي إسبانيا : ١٨٣
- التعليق المتقى : ٤٤٣ ، ٤٦١
- تقويم البلدان (معجم البلدان) : ٤٢٠ ، ٤٤٢
- جغرافية الأندلس : ٤٤٢
- جمرة أنساب العرب : ٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

(خ)

- الخراج : ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٤١٩
- خطط المقرئى : ٤٢٠

(ذ)

- ذيل مدونة فريبيدياريوس : ٢٢٨ ، ٢٣٤

(ر)

- الروض المعطار : ٤٦٣
- رياض النفوس : ٥٠٥

(ص)

- صبح الأعشى : ٤٢٠
- صفة الأندلس : ٤٢٣

(ف)

- فتح الأندلس : ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٤٧٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٣٩
- فرحة الأنفس : ١١٤ ، ٢٩٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٦١
- فوكايولستا (قاموس لاتينى عربى) : ٣٣٠

(ق)

- قاموس بطرس القلمى : ٣٧٠
- القواعد : ٣٦٤

(أ)

- الإحاطة (في أخبار غرناطة) : ٤٦٦
- الأحكام السلطانية : ٣٥٢
- أحسن التقاسيم : ٤٤٥ ، ٤٣٨
- الأخبار المجموعة : ٥٩ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٤٠٥ ، ٤٥٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٥٣١

- أرجوزة تمام بن علقمة : ٣٣٩
- أزهار الرياض : ٤٩٦
- أصول الكلمات : ٣٤
- إغاثة الأمة وكشف الغمة : ٤٢٢
- افتتاح الأندلس : ١٨٤ ، ٣١٣
- الإمامة والسياسة : ٨٣
- الأموال : ٣٥٢

(ب)

- البغية : ٣٥٤

(ت)

- تاريخ إسبانيا الإسلامية : ٣٤٧ ، ٣٧٤
- تاريخ العالم : ٢٦٣
- تاريخ علماء الأندلس : ٣٤٤
- تاريخ قضاة الأندلس : ٤٩٧ ، ٤٩٩
- تاريخ قضاة قرطبة : ٤٩٩
- تاريخ ابن مفرج : ٤٧٦

(ك)

- الكامل : ٤٢١

- مجلة الأندلس : ٤٤١

(م)

- مجلة معهد المخطوطات العربية : ٤٤١

- مدونة البللة (رواية) : ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٩، ٣٦٦

- مدونة سحنون : ٣٥٥

- مدونة سيلوس : ٢٦٢، ٢٦٦

- مدونة شرطانية : ٢٦٦

- مدونة كمبستيلة : ٢٦٦

- مدونة مواسياك : ٢١٠، ٢٢٨، ٢٣٥

- مدينة الله : ٣٥

- معجم البلدان = تنويم البلدان

- المغرب (في حلل المغرب) : ٤٩٦

- مفاتيح العلوم : ٤٢٠

- مقدمة ابن خلدون : ٤١٩

- منازل البربر في الأندلس : ٣٠٨

- موطأ مالك : ٣٥٥، ٥٠٦

(ن)

- نفع الطيب : ٢٩٨، ٣٠٦

- نهاية الأرب : ٤٢٠

لِلْمُؤَلَّفِ

مؤلفات :

أ- تاريخ :

- ١ - الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢ - فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٣ - Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.
- ٤ - صور من البطولة (طبعتان ، القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .
- ٥ - مصر ورسالتها (طبعتان ، القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .
- ٦ - Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.
- ٧ - مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين - فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى تنشره وزارة الثقافة والإرشاد .
- ٨ - نور الدين محمود ، الطبعة الثالثة ، جدة ١٩٨٥ .

ب- أدب :

- ١ - حكايات خيرستان .
- ٢ - أهلاً وسهلاً .

أبحاث :

- ١ - عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، نُشر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

- ٢ - تطور العمارة الإسلامية في الأندلس ، نشر في المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٣ - وثائق عن مهدي السودان ، نشر في العدد الثاني من المجلد الثاني من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٤ - غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ / ٨٤٤ و ٩٥٨ م ، نشر في العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٥ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٦ - المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، نشر في العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٧ - المجتمع في الدستور ، بحث نشر في كتاب « روح الدستور » وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٨ - لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ ، بحث نشر في كتاب « قناة السويس - حقائق ووثائق » وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٩ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١٠ - De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid - صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١١ - Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسبانية والفرنسية في كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية في مدريد سنة ١٩٥٤ .
- ١٢ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .

١٣ - أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،
للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٤ - La division politico - administrativa de la Espana musulmana

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٥ - الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة
١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ - رياض النفوس لأبى بكر المالكى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ - الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع
الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

٢ - الشعر الأندلسى لغرسيه غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة
١٩٥٢ و ١٩٥٧ .

٣ - تاريخ الفكر الأندلسى لجونزالد بالنثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .

٤ - ثم غاب القمر - مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is
Down لجون شتاينيك ، القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس الموضوعات

صفحة

٧	المقدمة
١١	الفصل الأول : إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي
١٣	القوط الغربيون في أواخر أيامهم
١٥	دولة القوط في إسبانيا
٢٥	لذريق
٢٨	نظرة في أحوال إسبانيا تحت حكم القوط
٢٩	مجلس طليطلة
٣٠	المجتمع الإسباني أيام القوط
٣٣	الحالة الثقافية
٣٧	الفصل الثاني : فتح المغرب
٣٩	فتح المغرب
٤٣	اختطاط القيروان
٤٧	اختطاط تونس
٤٨	تنظيم ولاية إفريقية
٤٨	موسى بن نصير يتولى أمور المغرب
٥٣	الفصل الثالث : فتح الأندلس
٥٥	مقدمات الفتح
٥٥	يليان
٥٩	فتح الأندلس
٦٥	بدء الفتح
٦٦	أبو زرعة طريف يقود بعثاً استطلاعيّاً
٦٦	حملة طارق بن زياد

- ٧١ معركة وادى البرباط
- ٧٤ احتلال طليطلة
- ٧٦ فتح قرطبة
- ٧٩ عبور موسى إلى الأندلس
- ٨٦ فتح إشبيلية
- ٨٦ فتح ماردة
- ٩٢ أول عملة إسلامية في الأندلس
- ٩٣ السير نحو الشمال
- ٩٥ أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين في إسبانيا
- ٩٧ عودة موسى وطارق إلى المشرق
- ١٠٠ استكمال الفتح
- ١٠١ تدمير
- ١٠٩ الفصل الرابع : عصر الولاة
- ١١١ لم تتكلف الخلافة جهداً خاصاً في سبيل فتح الأندلس
- ١١٢ لم تغنم الخلافة منه شيئاً مادياً
- ١١٤ هجرة العرب إلى الأندلس
- ١١٦ ولاية عبد العزيز بن موسى
- ١١٧ مقتل عبد العزيز بن موسى
- ١١٩ أيوب بن حبيب اللخمي
- ١٢٠ نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة
- ١٢١ عامل إفريقية يولى الحرب بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس
- ١٢٢ ولاية السمع بن مالك الخولاني
- ١٢٢ عمر بن عبد العزيز يفكر في إخلاء الأندلس من العرب
- ١٢٣ ضبط المال وتنظيم البلاد
- ١٢٧ الفصل الخامس : صراع العرب والبربر
- ١٢٩ خلافات العصبية

- ١٣١ فترة سيادة الكلبيين اليمنيين في المغرب والأندلس
- ١٣٢ مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب
- ١٣٢ توتر نفوس البر - زناتة
- ١٣٤ الأفارقة
- ١٣٤ دعاة الخارجية في المغرب
- ١٣٦ العصبية العربية في الأندلس
- ١٤٠ مصاعب الحكم في المغرب بعد موسى بن نصير
- ١٤٤ المغرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
- ١٤٤ عبيد الله بن الحبحاب
- ١٤٧ مسيرة وبدء الثورة في إقليم طنجة
- ١٤٩ هزيمة الأشراف
- ١٥٠ كلثوم بن عياض القشيري
- ١٥٠ العرب الإفريقيون
- ١٥٢ ثورة البربر على العرب في الأندلس
- ١٥٣ الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية
- ١٥٥ هزيمة العرب عند بقدورة
- ١٥٦ جيوش الخلافة تتدخل
- ١٥٨ ظهور أمر عبد الرحمن بن حبيب
- ١٥٩ عبد الرحمن بن حبيب يحتل القيروان
- ١٥٩ ختام النزاع بين القيسية واليمنية في إفريقية
- ١٦١ البربر يستقلون بنواحيهم
- ١٦٤ دولة بني مدرار في سجلماسة
- ١٦٥ رأى جوتيه في ثورات البربر
- ١٦٦ الدوناتية والخارجية
- ١٦٧ أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة
- ١٦٩ الأحوال في الأندلس

- ١٦٩ عبد الملك بن قطن الفهري
- ١٧٠ انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس
- ١٧٠ مقدمات ثورة البربر الأندلس
- ١٧١ ثورة البربر في الأندلس
- ١٧٣ بلج بن بشر ومن معه محاصرون في سبتة
- ١٧٤ طالعة بلج
- ١٧٥ طالعة بلج تقضى على ثورة البربر في الأندلس
- ١٧٦ معركة وادي سليط
- ١٧٦ المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية
- ١٧٧ زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب
- ١٧٨ العرب يخسرون ربع الجزيرة
- ١٧٨ الخصومة بين العرب والبربر
- ١٨١ الفصل السادس : القيسية واليمنية
- ١٨٣ مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمنية
- ١٨٥ القيسية تستبد بأمور الأندلس
- ١٨٦ بلج بن بشر يلى أمور الأندلس
- ١٨٨ موقعة أقوة برطورة
- ١٨٩ مجيء أبي الخطار بن الحسام الكلبي
- ١٩٠ إخراج الشاميين من قرطبة إلى الكور
- ١٩٢ ظهور الصميل بن حاتم
- ١٩٤ هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابة بن سلامة العامل
- ١٩٥ الصميل بن حاتم يمهد الطريق ليوסף الفهري
- ١٩٧ موقعة شقندة سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م
- ١٩٨ مأساة أسرى شقندة
- ١٩٩ المجاعة تجتاح الأندلس
- ٢٠١ اليمينيون يثرون على الصميل في سرقسطة

٢٠٢	الحرب بين القبية والكلية فى مرقسطة
٢٠٥	الفصل السابع : فتوح المسلمين فى غالة
٢٠٨	بدء الغزوات فىها وراء جبال البرت
٢٠٩	السمح بن مالك يصل إلى طرسونة . استشهاده عند طولوشة
٢١٠	عنبسة بن سحيم وحملته الكبرى
٢١١	لماذا اتجه عنبسة نحو حوض الرون ؟
٢١٣	الدوق أودو وعلاقته مع المسلمين
٢١٥	وفاة عنبسة
٢١٥	عذرة بن عبد الله الفهرى يواصل الغزو
٢٢٠	عبد الرحمن الغافقى
٢٢١	خروج عبد الرحمن للغزو ، أوائل سنة ١١٤هـ / ربيع سنة ٧٣٢م
٢٢٣	فتح آرل
٢٢٣	الاستيلاء على بردال (بوردو)
٢٢٤	أودو يستنجد بشارل مارتل
٢٢٥	المعسكر الإسلامى قبيل المعركة
٢٢٦	مكان المعركة
٢٢٧	معركة بلاط الشهداء
٢٢٩	المعركة
٢٣٠	بعد المعركة
٢٣٠	عبد الملك بن قطن الفهرى يسير إلى غالة
٢٣١	المسلمون يستعيدون آرل
٢٣٢	الاستيلاء على أبنون
٢٣٢	إخضاع إمارات البرت
٢٣٣	عقبة بن الحجاج السلولى يجدد نشاط الفتوح فى غالة
٢٣٤	إعادة فتح بورجونيا
٢٣٥	قارله يفشل فى الاستيلاء على أربونة

- ٢٣٦ العرب وأهل غالة
- ٢٣٨ عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ينصرف عن غالة بجنده
- ٢٣٩ يبين الثاني يهاجم أربونة
- ٢٤٠ سقوط أربونة
- ٢٤١ بقايا المسلمين في غالة
- ٢٤١ نتائج سقوط أربونة
- ٢٤٢ أحوال جنوبي غالة تحت الحكم الإسلامي
- ٢٤٣ لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء في غالة ؟
- ٢٤٥ طبيعة الحكم الإسلامي في غالة
- ٢٤٦ المسلمون يعتبرون غالة إقليماً ثغرياً
- ٢٤٧ نظام الحكم في جنوب غالة
- ٢٤٧ موقف المسلمين من المسيحية في غالة
- ٢٤٩ مقارنة بين المسلمين والفرنجة في غالة
- ٢٥٣ الفصل الثامن : قيام حركة المقاومة النصرانية
- ٢٥٥ انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم
- ٢٥٦ الريكونيست
- ٢٥٨ الإيبيريون الرومان
- ٢٥٨ صخرة بلاى
- ٢٦٠ مونوسة
- ٢٦٢ بلاى
- ٢٦٤ كوفادونجا
- ٢٧٤ أهمية كوفادونجا
- ٢٨٠ أذفونش بن بطره (ألفونسو الأول)
- ٢٨١ المسلمون يخلون الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة
- ٢٨٢ هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقية
- ٢٨٢ المجاعة تجتاح شبه الجزيرة

٢٨٣	إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها
٢٨٣	حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره
٢٨٥	ما بين نهري المنهو والدويره منطقة فراغ
٢٨٦	آراء المؤرخين في أذفونش
٢٨٧	الفصل التاسع : المجتمع الأندلسي - (١) العرب والبربر والموالى
٢٨٩	أ- العرب
٢٨٩	طالعة موسى
٢٩٠	طالعة بلج
٢٩٠	البلديون
٢٩١	الشاميون
٢٩١	التزاع بين البلديين والشاميين
٢٩٢	سيادة الشاميين على الأندلس وأثرها
٢٩٣	تفريق الشامية في النواحي
٢٩٣	خصوصية القيسية واليمنية تعود
٢٩٤	تحول الصراع من القبلية إلى الحزبية
٢٩٦	تكاثر العرب في الأندلس
٢٩٨	مراجعنا عن منازل العرب بالأندلس
٢٩٩	القحطانيون
٣٠٠	ملاحظات عن منازل العرب في الأندلس
٣٠٠	استقرار العرب على طول خطوط الفتح
٣٠١	منازل العرب في الأندلس
٣٠٦	ب- البربر
٣٠٦	تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس
٣٠٧	جماعات البربر الأولى
٣١١	البربر في الثغور
٣١٤	هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس؟

- ٣١٥ تحول البربر إلى بلدين وأثره
- ٣١٦ غلبة الزناتيين على البربر الأول في الأندلس
- ٣١٧ البربر والفتوح في غالة
- ٣١٨ البربر والعرب البلديون
- ٣١٩ جماعات السودان في الأندلس
- ٣١٩ تأثير البربر بالبيئة المحلية
- ٣٢٠ جـ- الموالى
- ٣٢٠ موالى بنى أمية
- ٣٢١ تكوين كتلة الموالى في الأندلس
- ٣٢٢ الموقف السياسى للموالى
- ٣٢٣ الموالى وقيام الدولة الأموية
- ٣٢٥ موالٍ من أصول إسبانية
- ٣٢٦ طبيعة ولاء الأندلسيين
- ٣٢٧ موالى الاصطناع
- ٣٢٨ أهمية الموالى في تاريخ الأندلس
- ٣٣٠ آراء حول أصل ولاء الاصطناع
- ٣٣١ ملاحظات أخيرة على الموالى في الأندلس
- ٣٣٣ الفصل العاشر : المجتمع الأندلسى - (٢) المولدون والمستعربون
- ٣٣٥ إسبانيا في النطاق الغربى قبل دخول العرب
- ٣٣٦ طبيعة حركة الامتداد الإسلامى
- ٣٣٨ العرب وأهل البلاد
- ٣٣٩ التزاوج بين العرب وأهل البلاد
- ٣٤١ عجم الأندلس
- ٣٤١ خطأ تسميتهم بالمستعربين
- ٣٤٤ المسألة والمولدون
- ٣٤٥ رأى بروفنسال

٣٤٧	آراء في أجناس سكان الأندلس
٣٤٩	خطأ هذه الآراء والأحكام
٣٥٠	هل كان العرب أرسقراطية مترفة عن غيرها في الأندلس ؟
٣٥١	أهل الذمة
٣٥٢	وضع الذمين في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة
٣٥٣	عهود المسلمين للنواحي
٣٥٥	تطور النظم الإسلامية
٣٥٦	المسلمون يدعون أهل الذمة أحراراً
٣٥٧	النصارى يتقاضون بقانونهم
٣٥٧	الجماعات النصرانية تنظم نفسها
٣٥٨	التشريع الإسلامي والقانون القوطي
٣٦٣	عمل قرطبة
٣٦٥	اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق
٣٦٥	العرب يحترمون نظم البلديات
٣٦٦	قوس الأندلس
٣٦٦	العرب يتركون لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائهم
٣٦٧	الوظائف القوطية تدخل في النظام العربي العام
٣٦٨	قاضى العجم
٣٦٨	صاحب المدينة
٣٦٩	المشرف
٣٦٩	مستخرج الخراج
٣٦٩	صاحب الشرطة
٣٦٩	الأمين
٣٧٠	العرىف
٣٧٠	الزراع
٣٧١	المسلمون والكنيسة

- ٣٧٢ المسيحية في إسبانيا القوطية ..
- ٣٧٢ الكنيسة والدولة أيام القوط ..
- ٣٧٤ رأى راينهاردت دوزى ..
- ٣٧٦ الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة ..
- ٣٧٨ الخلافات الدينية والفتح الإسلامى ..
- ٣٨٠ رأى في الخلافات الدينية المسيحية ..
- ٣٨٢ الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية في الأندلس ..
- ٣٨٥ أثر الإسلام في نصرانية الأندلس ..
- ٣٨٦ المسلمون والكنيسة الإسبانية ..
- ٣٩٢ انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة ..
- ٣٩٣ الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقى ..
- ٣٩٣ الطقوس القوطية الكنسية ..
- ٣٩٤ البابوية والطقوس القوطية ..
- ٣٩٥ وظائف الكنيسة ..
- ٣٩٦ المسلمون وأملاك الكنيسة ..
- ٣٩٧ سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة ..
- ٣٩٨ بيوت فيها مسلمون ونصارى ..
- ٣٩٩ خلفاء عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة ..
- ٤٠٠ ثورة أكويللا واستسلامه ..
- ٤٠١ نصارى الأندلس يحجون إلى بيت المقدس ..
- ٤٠١ عبد الرحمن الغافقى وأهل الذمة ..
- ٤٠١ موقف عبد الملك بن قطن من أهل الذمة ..
- ٤٠٢ المسلمون ونصارى قلمرية ..
- ٤٠٢ عقبة بن الحجاج وأهل الذمة ..
- ٤٠٥ أرطباس ..
- ٤٠٧ المطران سيشيليا ..

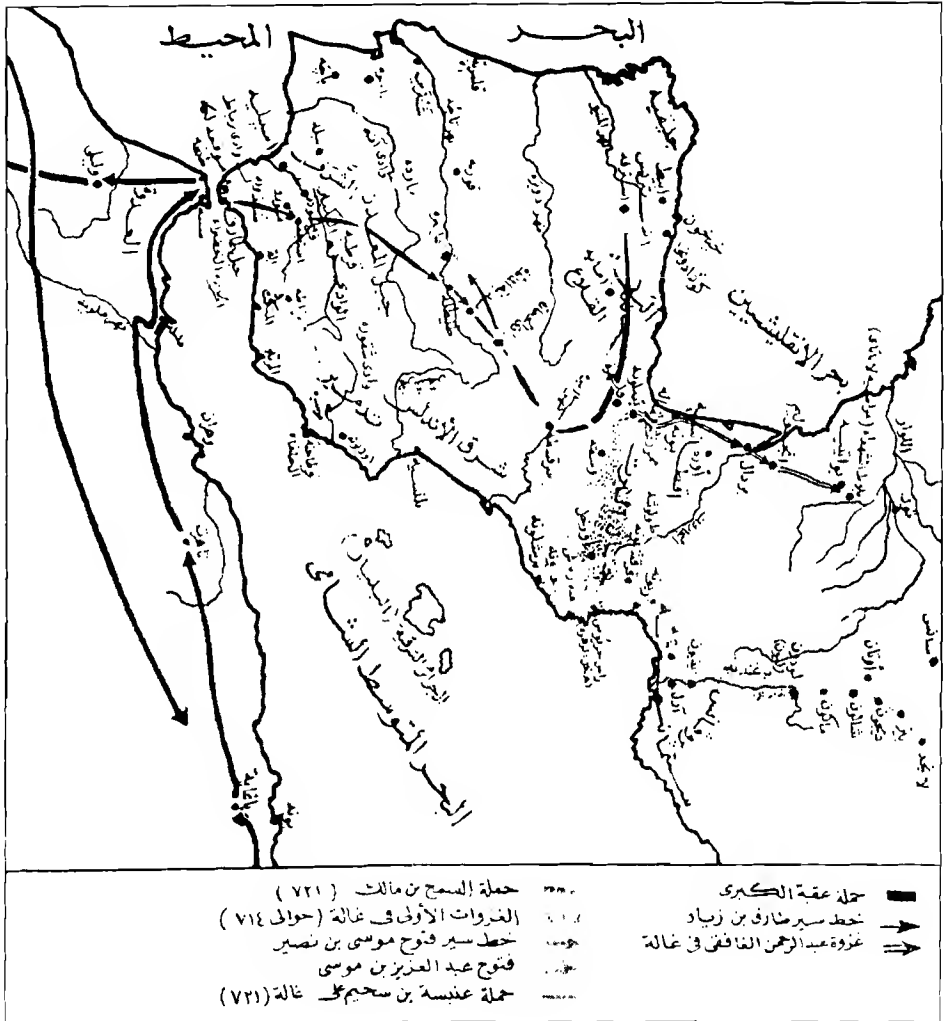
- ٤٠٨ التصارى يعمرون بعض البلاد الخالية
- ٤٠٨ تعمير شقوبية
- ٤٠٩ ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبره
- ٤١٠ اليهود فى إسبانيا قبل الفتح
- ٤١١ اضطهاد القوط لليهود
- ٤١٢ المسلمون واليهود
- ٤١٢ تنظيم جماعات اليهود
- ٤١٣ حكومة الجماعات اليهودية
- ٤١٧ الفصل الحادى عشر : الإدارة والمال
- ٤١٩ قلة المراجع عن شئون الإدارة والمال
- ٤٢٠ التقسيم الإدارى
- ٤٢١ كتاب الأندلس وتقسيمه الإدارى
- ٤٢٣ أصول التقسيم الإدارى الإسلامى فى الأندلس
- ٤٢٤ تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين
- ٤٢٥ قسمة قسطنطين كما يعرضها البكرى
- ٤٢٩ التقسيم الكنسى الإدارى
- ٤٣٠ المدينة أساس للتقسيم الرومانى
- ٤٣٣ القوط والتقسيم الرومانى
- ٤٣٤ اضمحلال المدن خلال العصر القوطى
- ٤٣٥ الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الرومانى
- ٤٣٦ الاتجاه العربى فى التقسيم الإدارى
- ٤٣٦ الأجناد
- ٤٣٨ المقدسى والتنظيم الإدارى للأندلس
- ٤٤٠ نصوص جديدة
- ٤٤٠ ترجمة كاملة لجغرافية الرازى
- ٤٤١ تعليق منتقى من « فرحة الأنفس » لابن غالب

- ٤٤٢ قطعة من جغرافية العذرى
- ٤٤٣ التقسيم إلى مدن وكور
- ٤٤٧ المدينة كقسم إدارى
- ٤٥١ ظهور مصطلح الكورة
- ٤٥٣ التقسيمات الفرعية : الإقليم
- ٤٥٨ الجزء
- ٤٦٠ المدينة الأم
- ٤٦١ الحصون والمعقل
- ٤٦٢ تقسيم مجارى الأنهار
- ٤٦٣ المراسى
- ٤٦٤ الضياع
- ٤٦٤ الفحص
- ٤٦٥ المشيخة والكوريا
- ٤٦٦ انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر
- ٤٦٩ اشتراك أهل البلاد فى الجيوش
- ٤٧٠ التقليد الشامى
- ٤٧٠ الإدارة المركزية
- ٤٧١ نظام الولاية
- ٤٧٢ تفكير الخلافة فى إخلاء الأندلس
- ٤٧٦ ثبت بولاة الأندلس
- ٤٧٩ الناحية المالية
- ٤٧٩ أسس النظام المالى فى الأندلس برواية محمد بن مزين
- ٤٨٣ رأى ابن حزم
- ٤٨٤ رأى ابن الخطيب
- ٤٨٥ الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً
- ٤٨٥ اعتبار أراضي الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها

٤٨٦	بقية أرض الأندلس أرض صلح
٤٨٨	نزول العرب في بعض نواحي الشمال
٤٨٩	التصرف في أموال الجباية
٤٩١	ثروات العرب الأول في الأندلس
٤٩٣	القبائل تملك إقطاعاتها ملكاً جماعياً
٤٩٥	بعض الوظائف العامة
٤٩٦	القضاء
٤٩٦	مسألة قضاء الأندلس الأول
٥٠٠	قاضى الجند وقاضى الجماعة
٥٠٠	عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم
٥٠٣	عنزة بن فلاح
٥٠٣	مهاجر بن نوفل القرشى
٥٠٤	يحيى بن يزيد التجيبى
٥٠٤	معاوية بن صالح الحضرمى
٥٠٥	اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك
٥٠٦	نقطة البدء للمالكية الأندلسية
٥٠٩	الفصل الثانى عشر : قيام الدولة الأموية
٥١١	فرار عبد الرحمن إلى المغرب
٥١٣	المغرب في فترة الانتقال من الأمويين إلى العباسيين
٥١٥	عبد الرحمن بن معاوية في المغرب
٥١٦	تفكير عبد الرحمن في أمر الأندلس
٥٢١	وصول وفد موالى بنى أمية واليمنيين إلى عبد الرحمن
٥٢٢	دخول عبد الرحمن الأندلس
٥٢٣	بدء الصراع بين عبد الرحمن ويوسف الفهرى والصميل
٥٢٧	موقعة المصارة
٥٣٠	قيام الدولة الأموية الأندلسية

- ٥٣١ مصير يوسف الفهرى والصميل بن حاتم
- ٥٣٣ نهاية عصر الولاة
- ٥٣٥ ● المراجع
- ٥٣٧ أ - مراجع عربية
- ٥٤٢ ب - مراجع غير عربية
- ٥٤٩ ● الفهارس العلمية
- ٥٥١ - فهرس الأعلام
- ٥٦٧ - فهرس الأماكن والبلدان والجبال
- ٥٨٣ - فهرس التواريخ الميلادية
- ٥٨٦ - فهرس التواريخ الهجرية
- ٥٨٨ - فهرس القبائل والطوائف والمذاهب
- ٥٩٦ - فهرس الكتب والمدونات التي ذكرت في متن الكتاب
- ٥٩٨ ● للمؤلف
- ٦٠١ ● فهرس الموضوعات

فتوح المغرب الأقصى والأندلس



THE DAWN OF AL-ANDALUS

**A Study of the history of Muslim Spain from the
Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the
Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.**

By
HUSSAIN MONÉS
Professor at the university of Cairo

DAR AL RASHAD